رواية

506

غرفة نام المصالح

يوسف معاطي

A.M.

الدار المصرية اللبنانية

http://www.kotobdown.com/

Ahmed Mady

فرقة نابي عطاالله

يوسف معاطي

".. كانت دوافعهم مادية أو تاريخية .. لنقل .. دينية .. مما سمعوه عن هذا الكيان الكريه ، الذي فرض نفسه على المنطقة .. ورغم كل هذا .. فليس منهم من يعرف .. أو قرأ مثلاً عن الصهيونية وماهيتها تحديدًا .. خطرها على الوطن .. ولكن أحدًا منهم لم يعش لحظة حقيقية مثل تلك اللحظة الأليمة ، التي انكفأوا فيها جميعًا على جسد الشاب ياسر، الملقى بلا حراك ، وقد فارق الحياة .. فصار عندهم جميعًا دافع جديد .. أقوى من كل الدوافع السابقة..".

إن أحداث الرواية التي بين أيدينا قد ركزت - بذكاء بارع من مؤلفها - في أن يتابع القاريء سطورًا مكتوبة عن جريمة سرقة بنك ، وفي أن يتابع القاريء - كذلك - سطورًا غير مكتوبة عن سرقة وطن .. سرقة أمة .. سرقة تاريخ .. وتمضي أحداث السرقتين متوازيتين متجاورتين، يربط بينهما ذلك الخيط القصصي السلس ؛ الذي ينقلك من نقطة إلى أخرى ، وأنت تتمنى بكل جوارحك أن تنجح السرقة المكتوبة لما أحاط بها من نبل هدف وسمو قصد ، ومتمنيًا ، في الوقت نفسه، وبكل جوارحك أيضًا ألاَّ تصل السرقة الثانية ، غير المكتوبة ، إلى مبتغاها ؛ حتى يبقى لنا بصيص من الأمل في أن تشرق الشمس ثانية، وأن نحظى بما نستحق من كريم عيش وعظيم مجد.

تصميم الغلاف
عمرو الفرجاني

Riyadh
8/11/2018

الدار المصرية اللبنانية

Ahmed Mady

فرقة ناجي عطا الله

يوسف معاطي

رواية

الدار المصرية اللبنانية

Ahmed Madv

مفتتح

يا شَرْق فيك جَوّ منوّر
والفكر ضَلام
وفيك حرارة يا خسارة
وبرود أجسام
فيك تُلْتميت مليون زَلمة
زي الأغنام
لا بالمسيح عرفوا مَقامهم
ولا بالإِسْلام

بيرم التونسي (1925م)

Ahmed Madv

Uploaded By
A.M.
لصالح مواقع
مكتبتنا
واحة الكتب
مدينة الكتب

http://www.kotobdown.com

http://wahetelkotob.com

http://www.maktbtna2211.com

Ahmed Madv

شكر وتقدير

في البداية .. أتقدم ببالغ الشكر والعرفان بالجميل .. لهؤلاء الذين ساعدوني بإخلاص وحب شديدين .. ووقفوا بجواري شادّين من أزري مشجعين لي بإضافاتهم البديعة وإجاباتهم الصارمة على كل أسئلتي السخيفة والملحة .. والساذجة أحيانًا فيما يختص بأحداث وشخصيات وأجواء هذه الرواية .. وإني لأعتز بأن أذكر أسماءهم هنا في المقدمة حبًّا وتقديرًا وعرفانًا بالجميل ..

من مصر .. السيد اللواء نادر الأعصر .. والإعلامي الكبير عماد الدين أديب ، والصحفي الرائع والودود الأستاذ حسين سراج ، والشاعر المبدع مرهف الحس .. زكريا القاضي .

والصديق .. طارق زياد من غزة .

ومن سوريا الشقيقة .. الدكتور عمار الصافي ، وصديقي الفنان عاطف حوشان والساخر الموهوب جدًّا الأستاذ نبيل صالح ، والصحفي الكبير الأستاذ وضاح عبد ربه رئيس تحرير جريدة الوطن السورية .

ومن العراق الشقيقة .. المخرج والممثل الفذ .. محسن العلي والمخرج المسرحي والممثل الفنان باسم قهار .

Ahmed Madv

ومن لبنان .. المنتج الفنان الصديق .. **محمد ياسين** .

وأخيرًا أشكر الأستاذ محمد رشاد الناشر الكبير .. على حماسه لخروج هذه الرواية إلى النور في تلك الأيام الصعبة التي تمر بها مصر .. وعملية النشر بصفة خاصة .

يوسف معاطي ،،،

Ahmed Madv

الفصل الأول

كل الطرق التي تؤدي إلى المطارات متشابهة .. كلها طرق سريعة .. ممتدة .. واسعة .. صحراوية إلى حد ما ومزروعة من الجانبين .. الأسفلت رائع ومستو وناعم كالحرير ، ويبدو أن السيارات التي تطير فوقه بأقصى سرعة .. تعلم أنها ذاهبة إلى المطار أو قادمة منه ، فتبدو متأثرة إلى حد ما بفكرة الطيران .. اتفق الجميع هنا على أن تكون السـرعة جنونية .. صار الجنون هو عين العقل ، والمجنون هو فقط ذلك الذي يمشي بسيارته بطيئًا حثيثًا .. كأنه خارج الزمن وخارج المنظومة .

هكذا كانت السيارة السوداء التي تحمل أرقامًا دبلوماسية تمضي بهدوء مثير ، قادمة من المطار .. متجهة إلى السفارة .. وسائقها (عم محمد) النوبي الأسمر جالسًا فوق عجلة القيادة .. متسمرًا كتمثال .. بينما يجلس في الخلف .. جمال .. وهو رجل في نحو الخمسين من عمره .. ملامحه مصرية جدًّا .. وهو تعبير لا يعجبني .. ما معنى ملامحه مصرية هذه .. إنما يا أخي .. تجد أحيانًا في طريقك من ينطبق عليه هذا الوصف تمام الانطباق ، فتضطر لاستخدامه كما فعلت أنا الآن .. كـان جمال ينظر نظـرة عابـرة إلى خارج السيارة ، ودقـات قلبـه تكاد تعلو على صـوت الموتور !! كان يشعر بضيق واكتئاب وتوتر ، منذ أن وضع قدمه على أرض المطار .. وبدأت تلك الحالة تزيد وتتفاقم بعد أن ركب السيارة ، وكلما أوغل بالسيارة داخل المدينة .. وأفاق جمال على صوت السائق عم محمد النوبي :

- كده إحنا دخلنا تل أبيب يا باشا ؟!

Ahmed Madv

ولم يرد جمال .. شعر أن عم محمد ينهال على رأسه بشاكوش .. ودخلت السيارة إلى تل أبيب .. كانت الإعلانات في الشوارع ولافتات المحلات المكتوبة بالحروف العبرية تطبق على صدر جمال أكثر وأكثر .. استطاع أن يلمح بعض المارة ممن يتريضون في الصباح الباكر .. بعض الحاخامات يرتدون الملابس اليهودية ويتمشون ويتهامسون .. شعر أنه لا يستطيع أن يتنفس جيدًا .. ضغط بيده على زر بجانبه ، وأنزل زجاج شباك السيارة .. الهواء الذي دخل إليه .. شعر أنه هواء إسرائيلي .. هواء لا يرد الروح .. وإنما يأخذها ؟!

أغلق النافذة .. وانحرفت السيارة لتدخل إلى شارع بازل .. وتحديدًا في 54 شارع بازل .. ونظر جمال إلى أعلى فوجد العلم المصري يرفرف فوق أحد الفيلات ، فتهللت أساريره بعض الشيء .. وتنفس الصعداء .. ووقفت السيارة أمام السفارة ونزل عم محمد النوبي .. ليفتح له الباب باحترام .. لينزل منها جمال .. المستشار الإعلامي الجديد ، في أول يوم له في السفارة المصرية في تل أبيب .

كان السفير جالسًا على مكتبه .. رجل في نحو الستين من العمر ، يبدو أنيقًا وعميقًا وواثقًا من نفسه ، وخلفه صورة الرئيس وعلم مصر.. تهلل بوقار ووقف ليرحب بجمال قائلًا :

- متهيألي الرحلة كانت مريحة .. المسافة قريبة خالص .. ساعة .. ساعة مش أكتر .

- الحمد لله يا فندم .

- إيه مالك ؟ شكلك مُجهد .. فيه حاجة ضايقتك !!

- أبدًا .. بس سعادتك عارف أصل دي أول مرة آجي فيها هنا .. مسألة مش سهلة برضه .. الخضة الأولانية .

- ده كان نفس شعوري أول يوم استلمت عملي هنا في السفارة .. إنما في الآخر إحنا بنأدي دورنا ورسالتنا يا جمال .. تمثيل مصر شرف وواجب وطني كبير ،

Ahmed Madv

حتى لو كان في تل أبيب .. بالوقت حتاخد على الجو هنا .. أنا عاوزك الأول ترتاح .. ناجي بيه عطا الله الملحق الإداري في السفارة ح يخلص لك كل أمورك الشخصية .. راجل حبوب قوي ونشيط وذكي .. وح تبأوا أصحاب جدًّا .

- هو أصلًا خارجية يا فندم ولا من هيئة الاستعلامات !!

- لا ده ولا ده .. ناجي بيه كان ظابط جيش وطلع معاش من مُدة طويلة.. واترشح بعد كده للعمل معانا والحقيقة أثبت كفاءة عالية جدًّا .. عنده شبكة علاقات هنا قوية جدًّا .. والسفارة بتعتمد عليه في شئون كتيرة .

ودخل محسن سكرتير السفير مترددًا ، فسأله السفير :

- فيه حاجة يا محسن ؟! ما تتكلم .. جمال بيه خلاص بأه واحد مننا !!

- النهاردة أربعة في الشهر ، ولسه محدش قبض في السفارة .. المرتبات لسه ما جاتش .

- ليه ؟ إيه اللي أخَّر المرتبات ؟!

- ناجي بيه كل يوم يقول لنا بكرة .. والناس عندهم مصاريف كتير وإيجارات ..

- أكيد فيه حاجة .. خللي ناجي بيه يجيلي .. أنا عاوزه !!

* * *

ناجي عطا الله .. هو الدينامو داخل السفارة المصرية .. اسمه الرسمي الملحق الإداري ..إنما على المستوى العملي .. يفعل كل شيء وأي شيء .. ست سنوات قضاها هنا في إسرائيل .. ولم ينزل مصر ولا مرة .. لا شيء في ناجي عطا الله يجذبك .. لا هو طويل ولا هو قصير .. لا هو وسيم ولا هو قبيح .. لا تعرف هل هو صادق أم هو كاذب .. رجل تجاوز الستين بخمس سنوات ، ولكنه حتى لا يعطيك هذا الانطباع .. ضحوك بشوش ساخر دائمًا .. ولكنك

Ahmed Madv

إذا نظرت جيدًا في عينيه ، لشعرت أنه يحمل عذابات الدنيا كلها .. أحيانًا حينما تكلمه .. تشعر أنه لا يسمعك وأنه ذهب بذهنه بعيدًا .. بعيدًا .. ثم بحرفنة شديدة .. يعود .. ويلتقط آخر كلمة من كلامك ، ويستنتج بذكاء نادر ما كنت تقوله وما كان لا يسمعه .. ويستمر الحوار بينكما كأنه لم ينقطع .. أما عن ملامحه الخارجية .. فيمكن أن أقول بكل ثقة ملامحه مصرية جدًّا .. هل ترون هذا التعبير الذي لا أحب أن أستخدمه .. كم أستخدمه كثيرًا !! اعذروني .

في مكتب الملحق الإداري بالسفارة .. كان (سراج منصور) .. وهو صحفي مصري ، يعمل في الشئون الإسرائيلية جالسًا أمام ناجي عطا الله ، الذي كان يلقي نكتة بالعبرية في التليفون لأحد الإسرائيليين :

- يهودي مسافر باريس وعرف واحدة فرنساوية وقضى معاها ليلة وإداها 50 يورو .. وتاني ليلة نام معاها وإداها 50 يورو .. وتالت ليلة نفس الشيء والخمسين يورو .. الست أعجبت بيه جدًّا .. ووقعت في غرامه .. يهودي وكريم بالشكل ده ؟ رابع ليلة .. وهي نايمة جنبه ، قالت له على فكرة أنا عمتي ساكنة عندكوا في تل أبيب .. قالها ما هي اللي باعتالك الميتين يورو .

وانفجر سراج ضاحكًا وقال :

- لأ .. لأ .. مش ممكن يا ناجي باشا .. إنت بتقول النكتة أحسن منهم ، وبتنطق عبري أحسن منهم كمان .. ها ها ها !!

قال ناجي بثقة :

- الأداء يا أستاذ .. هما دمهم يلطش .. إنما إحنا فقريين .. إنت عارف دول لو دخلناهم نكت نقطعهم !!

- أنا رايح أعمل حوار صحفي دلوقت مع نتنياهو .. ح أقول له النكتة اللي إنت قلتها دي .

Ahmed Madv

- أعوذ بالله .. طول عمره ما بينزليش من زور .. لا هو ولا مراته .. وليّة يا ساتر يارب .. مشغلة مكتب رئيس الوزراء خدَّامين عندها .. اللي يجيبلها الخضار ، واللي يجيبلها صابون ، ونازلة ضرب في الشغالات بافترا .. الوليّة دي عارف أخرتها إيه ؟ شغالة ح تفجر نفسها فيها وتبأة انتفاضة الشغالات .

- عارف أكتر حاجة عاجباني فيك إيه يا ناجي بيه ؟! إنك عارفهم كويس وبتعرف تتعامل معاهم .. أنا بقالي تلاتين سنة باجي هنا .. ومع ذلك .. نفس الخنقة اللي جاتني أول يوم جيت فيه تل أبيب .. جوايا بعد تلاتين سنة .

- إنت مش كانت فيه جريدة هنا عاوزينك تكتب فيها ، وعرضوا عليك مبلغ كبير .

- أيوه جريدة ها آرتس .

- وعملت إيه معاهم ؟!

- رفضت طبعًا .. لأني ضد التطبيع .

ودخل محسن عليهما ، وقال بأدب :

- ناجي بيه .. سعادة السفير عاوز سعادتك .

دخل ناجي إلى مكتب السفير ببشاشته المعهودة واثقًا من قيمته لدى السفير .. وقال ببساطة :

- والله عارف يا معالي السفير .. ح تكلمني ع المرتبات .. النهاردة على آخر النهار ح يكونوا الناس كلهم قابضين .. أصل الجماعة هنا في البنك بعيد عن سعادتك الفلوس تخش عندهم في ثانية .. أما تيجي تطلعها بأة .. عُقد الدنيا وإجراءات وشغلانة .. ده أنا لولا قاعد على دماغهم ، كُنا قبضنا المرتبات كل شهرين .

قال السفير :

- ماشي يا ناجي بيه .. أنا باعتلك علشان أعرفك بالمستشار الإعلامي الجديد للسفارة .. جمال بيه .. جمال عبد الناصر .

Ahmed Madv

وتغيرت ملامح ناجي حينما سمع اسم المستشار الإعلامي الجديد .. ولم يستطع أن يغفل القفشة ، وقال ضاحكًا :

- جمال عبد الناصر .. هنا في تل أبيب .. يا نهار أسود .. وده دخل إزاي ؟ السادات ييجي هنا ماشي .. معقولة .. إنما عبد الناصر كمان .. حمد الله ع السلامة يا جمال بيه ..

واستغرق السفير في ضحكة طويلة .. أما جمال فقد رد باقتضاب :

- الله يسلمك يا ناجي بك .

قال السفير :

- عاوزين جمال بيه يسكن قريب من السفارة بقدر الإمكان يا ناجي بيه .

* * *

في شوارع تل أبيب ، تلك المدينة.. التي بناها اليهود عام 1914م لا تجد لها معالم مميزة .. فالأهرامات المصرية مثلًا .. لقطة واضحة تؤكد لك أنك في مصر ، وبرج إيـفـل يعني أنك في باريس .. وأطلال روما القديمة لا تخطؤها العين .. إنما هنا .. في تل أبيب .. تشعر أنك في مدينة شيدت على عجل .. كأنها أمر واقع .. ربما يبرز فقط مبنى وزارة الدفاع الإسرائيلية .. المبنى الوزاري الوحيد الموجود في تل أبيب ..بينما كل الوزارات الأخرى في القدس المحتلة .. كان ناجي وجمال في السيارة ، والسائق عم محمد يقود السيارة ، وناجي لا يتوقف عن النكات والتعليقات الطريفة ، ثم همس لجمال :

- السمسار اللي إحنا رايحين له ده اسمه روني ميتال .. فاتح مكتب هنا وشغال مع السفارات .. بس شغله مع السفارات كلها كوم ، ومعانا إحنا كوم تاني !!

كان جمال شاردًا تمامًا غائبًا عن كل ما يحدث من حوله ، فهتف به ناجي :

- إنت مـالك سـرحـان في إيـه ؟ ما تفكها كده يا جمال بيه .. إنت قاعد أربع سنين ح تنكد على نفسك ليه من أولها .. ده إحنا ننكد على أبوهم !!

Ahmed Mady

في مكتب روني ميتال السمسار اليهودي .. فتح ناجي الباب بسرعة ، وهتف صارخًا :

- روني !! انتباه .. أنا جيت قوم أقف ياله .

وتهلل روني ، وقام مسلمًا عليه في حرارة :

- مستر ناجي .. شالوم مستر ناجي .

قال ناجي بسرعة :

- اسمع دي يا روني .. واحد يهودي بيسألوه تعمل إيه لو الدنيا برد .. قال أروح أقعد جنب الدفاية .. قالوا لو الدنيا بردت أكتر ، قال أقرب من الدفاية .. قالو له ولو بردت أكتر ، قال ألزق في الدفاية .. قالو له طيب لو نزلت تلج .. قال أشغل الدفاية بأة وأمري لله .

وضحك روني كثيرًا حتى دمعت عيناه ، وهو يتبادل الأكف مع ناجي .. أما جمال فكان ينظر إلى ذلك بضيق ، وناجي لا يزال يتكلم مع روني ويداعبه ..

- فين الشاي يا روني ياجلدة !!

ثم أشار نحو جمال ، وقال :

- بص بأة يا روني .. مستر جمال يبأة ابن خالتي .. عاوز له أحسن شقة في تل أبيب .. ويكون سعرها حنين .

- إزاي مستر ناجي .. أحسن شقة ويكون سعرها حنين .. تيجي إزاي ؟!

- يا راجل ده أنا جايبلك ولا تلاتين زبون .. ما تبطلوا شغل اليهود ده بأة .

- إنت كل واحد زبون تجيبه .. تقول ده ابن خالتي .. ده ابن خالتي .

- أنا أصلي خالتي كانت ولّادة يا روني .. كل تسع شهور تجيب توأم .. اسمع يا روني .. ماتديله الشقة اللي قدامي .

- لأ .. دي غالية كتير .

Ahmed Madv

- ما تغلاش عليّا يا روني .. ما تصغرنيش قدام ابن خالتي !!

- أنا ح أعمل لك خصم 5٪ علشان خاطر إنت مستر ناجي .

- هما الخمسة في المية دول بتسميهم خصم ؟ إنت بتقطّع من لحمك يا جدع إنت !

- خلاص مستر ناجي .. مش ياخد الشقة دي .. شوف غيره .

- لأ .. بأة .. ح ناخدها .. أعوذ بالله .. حار ونار في جتتك .. طلع عقد .

- نكتب العقد .. اسم جمال بيه بالكامل ؟!

- جمال عبد الناصر .

وتغيرت ملامح روني حينما سمع اسم جمال عبد الناصر .. وتجمد وجهه .. وضحك ناجي وهمس لجمال بخبث :

- بيتلبشوا أمّا يسمعوا اسمه ؟!

* * *

في سوق الكرمل اليهودي الذي يقع على أطراف تل أبيب من ناحية يافا ، كانت سيارة ناجي داخلة إلى باركينج السوق ، ومعه جمال عبد الناصر ، وناجي لا يتوقف عن الكلام ، ويشير نحو السوق الذي يظهر من بعيد .

- ده بأة سوق الكرمل .. كافة شيء تلاقيه هنا .. أي حاجة تعوزها .. تبعت عم محمد السواق يجيبلك اللي إنت عاوزه .

كان جمال وناجي يتمشيان إلى داخل السوق .. وناجي يكمل حديثه ، وهو يسلم على هذا وذاك .. كأنه يمشي في سوق روض الفرج :

- أنا أصلي عايش لوحدي .. عازب .. بأجيب أكلي يوم بيوم .. نفسي في التفاح أروح أشتري تفاحاية أكلها وخلصنا .. ما باكلش في بيتي .. البيت ده للنوم بس .. أنا طول النهار بره البيت .

Ahmed Madv

ووقف جمال وناجي أمام محل (عوفاديا السماك) .. فخرج عوفاديا صاحب المحل متهللًا مرحبًا بناجي أيضًا ، وقال :

- مستر ناجي .. كيفك !!

- إزيك يا عوفاديا .. أخبارك إيه ؟!

- تمام مستر ناجي .. تمام !!

ثم نظر ناجي حوله في ريبة ، وهمس لعوفاديا :

- جهزت الحاجة ؟!

قال عوفاديا متوترًا :

- كله جاهز مستر ناجي .. حاضر ..

- طيب خللي الواد يحطها في العربية .. اعمل لك همة يا عوفاديا .

وخرج ولد يعمل في المحل ، ومعه كيس متوسط الحجم ، وضعه بسرعة في سيارة ناجي ، وانطلقت السيارة بناجي وجمال ، وعن بُعد .. كان أحدهم واقفًا يراقب الموقف .

في شوارع تل أبيب ، كان ناجي وجمال في السيارة ، وصوت أم كلثوم يجلجل وهي تغني .. ياصباح الخير ياللي معانا .. ياللي معانا .

قال ناجي معلقًا :

- يموتوا هنا في حاجة اسمها الست .. هنا تسمع أم كلثوم أكتر ما تسمعها في مصر.

- اسمح لي يا ناجي بيه .. هوه الولد حطلك إيه في العربية .. أنا شايف الموقف مريب شوية .

- دول شوية جمبري وصاية .

- وكل القلق ده على شوية جمبري !!

Ahmed Madv

- أصل فيه حاجات ممنوعة هنا في إسرائيل تمامًا .. لا الجمبري ولا الكابوريا .. ولا القراميط .. أي حاجة تطلع من البحر مالهاش قشـر .. تبأة متحرمة حسب الشريعة اليهودية .

- وإنت جيبته إزاي ؟!

قال ناجى ضاحكًا :

- الفلوس بتمشي أي حاجة حسب الشريعة اليهودية برضه .

- وإيه تاني ممنوع في إسرائيل يا ناجي بيه ؟

- القمار .. تبأة جناية لو قفشوا حد بيلعب هنا .

- غريبة .. مع إن معظم نوادي القمار في العالم كله أصحابها يهود .

- اليهود يلعبوا مع العالم كله .. إنما ما يلعبوش مع بعض .. علشان كده تلاقي اللي غاوي منهم يروح يلعب في كازينو في طابا .. ولا في شرم .. في مراكب خارج حدود إسرائيل .

أمام مقهى ومطعم كليوباترا ، وقف ناجي بسيارته ، ونزل ومعه جمال ، وفي يده الكيس الذي أخذه من عوفاديا السماك ، وهو يقول :

- ده بأة مطعم كليوباترا وكوفي شوب .

- كليوباترا !!

- صاحبه اسمه إيلي مزراحي .. يهودي مصري .. أبوه مدفون في إسكندرية .. بس راجل مسخرة .. تعالى .. تعالى بس .

كان جمال في قمة الضيق .. يسير وراء ناجي ، ودخلا إلى المقهى ، حيث كانت صور لإسماعيل ياسين ونجيب الريحاني وعبد الوهاب وليلى مراد، والممثل الكوميدي المصري اليهودي شالوم معلقة على الجدران كلها بالأبيض والأسود ..

Ahmed Madv

كما توجد صورة قديمة للإسكندرية والكورنيش وصور لإيلي مزراحي مع أسرته أبيض وأسود في مناطق شهيرة بمصر .. ودخل ناجي على صاحب المقهى مزراحي، الذي ما أن شاهد ناجي حتى جرى عليه متهللًا فاتحًا ذراعيه :

- مستر ناجي .

- إزيك يا إيلي .. أعرفك .. جمال بيه المستشار الإعلامي عندنا في السفارة .. لسه جاي دلوقتي طازة !!

ومد مزراحي يده بالسلام على جمال .. فلم يمد جمال يده ، واكتفى بإشارة مقتضبة من رأسه .. فشعر مزراحي بخجل .. وأنقذ ناجي الموقف بأن همس له :

- لسه جديد يا إيلي .. إنت عاوزه أول ما ييجي يسلم علطول كده .. إيلي مزراحي ده يا جمال بيه .. إسكندراني إسكندراني .. أهله كانوا قاعدين في المكس .

- أنا يخبوا مصر كتير .. عشت في إسكندرية أيام خلوة من أكتر من خمسين سنة .. أنا كنت بخب السيما .. بخب نجيب الريحاني .. بخب إسماعيل ياسين .. كل خاجة كان خلوة في مصر .. إيه ؟ أيام مستر ناجي .. إنما إسماعيل ياسين ليه مش يعملتوا أفلام جديدة ؟!

- شغال مسلسلات دلوقتي .

- أنا أخبه كتير وهو يقول مونولوج .. فاكر مستر ناجي ..

ثم بدأ مزراحي يغني مقلدًا إسماعيل ياسين في مونولوجه الشهير .. أنا ح أروّح ، وناجي يرد عليه ويغني معه .

.. بينما انسحب جمال من الموقف تمامًا .. وجلس وحيدًا على المقعد ، وقد شعر بانقباض شديد لما يحدث أمامه في أول يوم له في تل أبيب .

لم يعد جمال هنا في تل أبيب .. ربما بجسده .. جائز .. إنما عقله ومشاعره كانت هناك .. في السويس في يونيو 1967 ، وهو يتذكر القصف الوحشي الإسرائيلي على

Ahmed Madv

مدينة السويس ، وحالة الفزع والرعب التي ملأت البيت وأمه تحمله ، وهو طفل في السابعة من عمره .. ويحملون ما استطاعوا حمله من العفش والحلل ، ويخرجون من باب البيت وأصوات المدافع والدانات والصواريخ تدوي من حولهم .. أبوه يحمله ويلقي به على سطح سيارة نقل ، وأمه تدعو على الصهاينة ، وهي تبكي :

- ربنا يحرقهم .. ربنا ياخدهم ويشحططهم زي ماشحططونا .

ولا يزال يتذكر سؤاله الساذج لأبيه : هي ماما بتدعي على مين ؟!

فيرد أبوه بمرارة : على الصهاينة يا جمال ...

وأفاق جمال من شروده ليجد ناجي مختليًا بمزراحي في جانب من المطعم ، يكلمه بعشم زائد .. وقد بدا مزراحي معترضًا ، وهو يهمس له بخوف :

- أكل يهودي كاشير يحرم أكل جمبري وإنت عارف !!

- يا عم كسر الطبق بعد ما ناكل وأنا أحاسبك عليه .. عيب بأة .. ياللا بس يا مزراحي .. كان زمانّا أكلنا .. أهي المفاوضات دي اللي مودِّياكوا في ستين داهية .. كلام .. كلام .. كلام .

وعاد ناجي إلى جمال ، وقال له مبتهجًا :

- إيه رأيك في المطعم .. حلو .. هه .. كأنك في مصـر .. أنا مسيطر جامد هنا .. ساعات أخليهم يعملولي كشري مخصوص .

قال له جمال هامسًا ، وهو يدوس على الحروف ، كأنه قنبلة ستنفجر :

- أنا مش قادر أصدق اللي أنا شايفه بعينيا وسامعه بوداني .. أنا حاسس إني في كابوس بشع ياناجي بيه .. للدرجة دي نسينا .. نسينا الوحشية والخسة بتاعتهم .. نسينا أهالينا وأخواتنا وأولادنا اللي راحوا ، واللي لسه بيروحوا في غزة وفلسطين .. نسينا الأطفال اللي ماتوا قدام عينينا في بحر البقر .. بالسهولة دي .. بتسلم على ده .. وتضحك مع ده .. وتهزر مع ده ، ده إنت شيخ حارة في تل أبيب .

Ahmed Madv

قال ناجي بهدوء بارد :

- الظروف يا جمال بيه أحيانًا بتضطرك تعمل حاجات غصب عنك .. أنا كان ممكن أقفل على نفسي باب بيتي .. وما اسلمش على حد .. وأسجن نفسي جوه أربع حيطان .. إنما صدقني .. لما تعرف عدوك أحسن بكتير ما تقعد لوحدك تكلم نفسك .. وده اللي هما بيعملوه واللي أنا بأعمله .

وأشار نحو فتاة جميلة في نحو الثانية والعشرين من عمرها ، كانت جالسة مع عدد من الشباب الإسرائيلي .. تتكلم العبرية بحماس ، وهم يستمعون إليها باهتمام شديد ، وقال :

- شايف البنت اللي قاعدة هناك دي .. دي اسمها هوني ألدن .. يهودية من أصل سويسري .. وبتدرس في الجامعة العبرية .. مترجمة مسرحيات لتوفيق الحكيم وروايات لنجيب محفوظ وكتب لطه حسين والعقاد .. هما طول عمرهم بيحاولوا يعرفوا إحنا بنفكر ازاي ؟ وإحنا عمرنا ما حاولنا نعرف هما بيفكروا ازاي ؟

وابتسمت هوني لناجي من بعيد .. وأشارت له برأسها تحييه برقة .. فأرسل لها ناجي قبلة في الهواء .. قال جمال مغتاظًا :

- حتى دي كمان تعرفها يا ناجي بيه .. إنت ناوي ترشح نفسك في الانتخابات هنا ولّا إيه ؟

دخل رافي دافيدوفتش ، وهو رجل في نحو الخمسين يبدو عليه أنه مدمن للخمر .. ملامحه أوروبية .. أحمر الوجه .. واتجه مباشرة إلى ناجي ، واضعًا ذراعه على كتفه .. جاذبًا إياه .. بلطف .. كأي صديقين ، وقال :

- ناجي بك .. عاوزك لو سمحت ؟!

Ahmed Madv

وتهلل ناجي كعادته .. وأمسك به بمودة ظاهرة، وقال :

- رافي دافيدوفتش .. تعالى أقعد .. إيه اللي جابك بدري كده .. إنت مزوغ من البنك ولّا إيه ؟!

ثم قدمه لجمال ، الذي صار كقنبلة على وشك الانفجار :

- جمال بيه .. أعرفك رافي دافيدوفتش .. العبقري .. ده اللي صمم لنا السيستم الأمني بتاع السفارة .. وهو اللي مصمم السيستم الأمني بتاع البنك اللي قدامك ده .. بس بأة راجل أوروبي بمعنى الكلمة .

ونهض جمال .. وترك المقهى حتى لا يسلم على رافي ، وركب سيارة السفارة خلف السائق عم محمد النوبي ، الذي يقود السيارة كعادته صامتًا كتماثيل الفراعنة ، وكأنه يحمل كل أسرار الكون ، فهتف به جمال :

- إنت بقالك قد إيه هنا يا أسطى محمد ؟!

- سبع سنين يا بيه .

- ومبسوط ؟!

- هوه فيه حد ينبسط هنا يا بيه .. هو إحنا اللي رمانا هنا إيه غير أكل العيش ؟!

- ليك أصدقاء هنا يا محمد ؟

- كل اللي شغالين بالسفارة حبايبي .

- لأ .. أنا قصدي من هنا .

- أعوذ بالله .. ربنا ياخدهم .. ده أنا لما حماس بتعمل عملية ولا حاجة ولا حزب الله يضرب له صاروخ ولا اتنين .. بابأة قلبي بيتنطط من الفرحة ..

وربت جمال على كتفه بسعادة وحب ، وكأن الأسطى محمد النوبي أعاد له توازنه من جديد .. وانفتح الأسطى محمد الذي كان مغلقًا ، وقال :

Ahmed Madv

- أصل شوف يا بيه .. الحكومات تقول اللي هي عاوزاه .. والسياسيين يعملوا اللي هما عاوزينه .. إنما إحنا .. إحنا ناس غلابة يا بيه .. اللي في القلب في القلب يا باشا .

فسأله جمال :

- قوللي يا محمد .. إنت إيه رأيك في ناجي بيه؟

وأشار عم محمد بيديه إشارة ، تعني أنه لا يعجبه ولوى بوزه في قرف .. فعاد جمال يسأله :

- إيه ؟ ما بتردش يعني ؟!

- أنا محبوش يا باشا .. ولا حد في السفارة بيحبه (ثم استدرك بخوف) إلا سعادة السفير طبعًا .

* * *

في مقهى ومطعم كليوباترا ، كان رافي في قمة الضيق ، يدخن سيجارًا ، ويشرب كوبًا من البيرة .. وقد امتلأت عيناه بالدموع ، كان يمسحها ويمسح فمه من البيرة ، التي تتساقط على ذقنه .. وناجي يواسيه :

- ما تعملش في نفسك كـــده يا رافي .. الستات كلهم كده .. أمال أنا ما أتجوزتش ليه ؟ علشان أريح دماغي .

- أنا حاسس إني عايش في حجيم .. آياليت خلّتني أكره حياتي وأتمنى الموت .

- يا راجل ما تقولش كده .. ده إنت راجل عبقري .. بأة انت تعمل سيستم البنك ده كله ، ومش عارف تعمل سيستم لمراتك !!

- دي كتبت فيا تقرير .. بلغت عني الشاباك .

- أمن الدولة ؟! ليه ده كله ؟!

Ahmed Madv

- أنا بَعَت لبنك في سويسرا علشان أشتغل هناك .. وردوا عليا .. وموافقين .. وهية مش عاوزة تسيب إسرائيل أبدًا .

- تقوم تبلغ عنك .. دي وليّة ناقصة قوي .. معلش يا رافي .. إنت اللي غلطان علشان ما دبحتش القطة .. إنت لو دبحت القطة كان زمانها بتتمسح في رجليك .

ودخل يوسي كرمي ، وهو رائد يعمل في الشاباك (أمن الدولة) عريض المنكبين .. طويل القامة .. بادي الكبر والقسوة .. وتهلل مزراحي لاستقباله .. فأزاحه باستعلاء .. ونظر نحو رافي .. وصرخ فيه بخشونة :

- رافي !!

قام رافي من جوار ناجي ، وذهب إلى يوسي مرتبكًا .. أشار يوسي نحو ناجي ، وقال :

- مين اللي إنت قاعد معاه ده ؟!

قال رافي مرتبكًا :

- ده .. ده مستر ناجي عطا الله الملحق الإداري في السفارة المصرية .

- هو ده ناجي عطا الله بأة ؟! اسمع يا رافي .. الراجل ده حواليه كلام كتير ، وأنصحك ما تقعدش معاه .

- أنا ماليش دعوة بجنسيته ولا بدينه .

قال يوسي ، وقد نفذ صبره فجأة :

- اسمع .. أنا مش جاي أكلمك في السياسة .. آياليت كانت عندي في المكتب النهاردة .. وحكت لي على كل اللي إنت بتفكر فيه .. وأنا مارضيتش أبعتلك وجيت لك بشكل ودي ، علشان القرابة اللي بيني وبين مراتك .

Ahmed Madv

جاء مزراحي حاملًا طبق الجمبري مغطى بغطاء .. ووضعه أمام ناجي .. وهو يرتعش خوفًا من أن يشعر أحد بما أعد لناجي من طعام مخالف للشـريعة اليهودية .. نظر ناجي في الطبق ، وقال :

- إيه ده ؟ إنت دافن الجمبري تحت الرز يا مزراحي !!

قال مزراحي مرتجفًا :

-وطي صوتك مستر ناجي .. وكُل بسرعة الله يخليك !!

بدأ ناجي يأكل بنهم وتلذذ .. ثم قال :

- فين الجمبري ؟ ده كله قشر يا مزراحي .. أنا عمال أدور في الرز .. مش لاقي .. إنت أكلته وإنت بتشويه ولّا إيه ؟!

وبينما كان ناجي يبحث عن الجمبري في الطبق ، دخل اثنان من الحاخامات (الرابانوت) ..

وهب مزراحي نحوهما بكل خشوع ، وسلم عليهما وانحنى تبجيلًا واحترامًا .. وأخذا يكشفان على الأطباق ويتشممان رائحة الشواء .. ثم ذهب أحدهما إلى ناجي ، ووضع الشوكة في الطبق .. لتخرج جمبرياية .. فوجئ الحاخام ، بها ونظر إلى ناجي ومزراحي .. قال ناجي :

-أيواااه .. أهي دي اللي بادور عليها من الصبح.

قال مزراحي مدافعًا عن نفسه :

- أنا ماليش دعوة يا حضرة الحاخام .. أنا ماكنتش يعرف .. هوه طلب رز .. وحط فيه الجمبري من غير أنا ما يشوفه .

قال ناجي :

- آه .. كنت شايله في جيبي يا حضرة الحاخام .

Ahmed Madv

وصرخ الحاخام بغلظة في مزراحي ، الذي وقف يرتعد من الخوف ، وقال له الحاخام بصرامة :

- المحل ده لازم يتقفل .. وإنت لازم يدفع غرامة كبيرة .

- يا حضرة الحاخام أبوس إيدك .. ده أنا لسه مجدد المحل ، وصارف فلوس كتير .

- إنت مخالف لتعاليم الدين اليهودي .. وللكاشير .. ولازم ياخد عقاب كبير .

- كده أنا بيتي ح يتخرب يا حضرة الحاخام .

قام ناجي ، وأخذ الحاخام الأكبر في الرابانوت ، وانتحى به جانبًا ، وهمس له :

- إذا سمحت كلمة والله .. أصل إنت مش عارف الحكاية .. أنا طالب سمك .. سمكاية بوري كبيرة مشوية .. بأفتح السمكاية لقيت جواها جمبرياية .. مزراحي مالوش ذنب .. ح يعمل إيه ؟ ح يمنع السمك يأكل جمبري !! وبعدين ده راجل متدين .. ورايح جاي ع المعبد اليهودي .

نظر مزراحي نحوهما بخشوع متوسلًا ، ومد ناجي يده في جيبه ، وأخرج مبلغًا من المال ، ودسه في يد الحاخام .. قال الحاخام معترضًا :

- إيه ده ؟!

شعر ناجي أن اعتراض الحاخام ليس كبيرًا ، فقال له بثقة ، وهو يدس مبلغًا آخر في يده :

- حطهم بأة في جيبك يابن عمي .. حد يقول للرزق لأ .. ساعة صبحية كده .. هية جمبرياية ح توقعنا في بعض ؟!

* * *

لا توجد أبراج في إسرائيل ولا ناطحات سحاب .. ربما لأن العقلية الإسرائيلية لا تؤمن بالتوسع الرأسي بقدر ما تؤمن بالتوسع الأفقي .. فهي تؤمن بأنه : لماذا أعلو بعمارات حتى أصل إلى عنان السماء .. وأرض جاري بجواري خالية .. وأنا أقوى منه .. لننته من هذه أولًا .. ثم نفكر بعدها في الأدوار العليا .

Ahmed Madv

وفي الشارع .. لنقل إنه شارع بارليـف .. برجان زجاجيان متجاوران تمامًا .. كأنهما مستوردان الآن من نيويورك .. في نهاية أحدهما لافتة ضوئية مكتوبًا عليها (بنك بارليـف) ، أما الأخرى .. فنرى فوقها لافتة لشركة تأمين .. دخل ناجي عطا الله من بوابة البنك مبتهجًا كعادته .. وحتى الحراس الواقفين على الباب كان يداعبهم ويداعبونه !!

في حجرة مدير البنك ، كان رافي دافيدوفتش واقفًا أمام مدير البنك (إسحق هلليـڤـي) وهو يهودي إسرائيلي من أصل عراقي .. يبدو فظًّا للغاية ، ونرى رافي دافيدوفتش واقفًا أمامه في ضيق .. وإسحق يعنفه ويصرخ فيه :

- اسمع يا رافي .. أنا حذرتك قبل كده كذا مرة .. ودي آخر مرة ح أتكلم معاك فيها .. وبعد كده ح اتخذ إجراءات مش كويسة ضدك .

- أنا عملت إيه يا إسحق ؟!

وخبط إسحق على المكتب بعنف وكبرياء ، وقال :

- مستر إسحق .. أنا هنا المدير .. عندك غياب سبع أيام .. ممكن أعرف السبب ؟!

- كنت مريضًا ..

- أنا عارف مرضك كويس .. القمار يا رافي .. وإنت عارف كويس إن القمار ممنوع منعًا باتًّا في إسرائيل.

كان رافي ينظر نحوه في زهق وخنقة ، ولا يعرف ماذا يقول .. فقال له إسحق مهددًا :

- تفتكر لو الشاباك أخد خبر إن الموظف المسئول عن أمن أكبر بنك في إسرائيل مدمن للقمار ح يكون موقفهم إيه معاك .. ح يرموك في السجن ؟!

قال رافي بعد أن فاض به الكيل :

- اسمع يا مستر إسحق .. أنا مش ح أقدر أتحمل إهانات أكتر من كده .. أنا باقدم لك استقالتي .. أنا ح اسيب البنك .. وح اسيب إسرائيل كلها .

Ahmed Madv

ورد عليه إسحق متشفيًا ، وكأنه يقتله بسكين باردة :

- إنت ناسي إن عليك قرض للبنك ما سددتوش .. وعمرك ما ح تسدده .. طول ما إنت بالحالة المرضية دي .. مشكلتكوا يا رافي انت واللي زيك من يهود أوروبا .. الأشكينازيم إنكوا فاكرين إنكوا بتتعطفوا على البلد دي علشان تبأوا مواطنين فيها وإنتوا مجرد مناظر .. إحنا اللي عملنا البلد دي .. مخصوم منك 15 يوم .. وده أخر إنذار .. اتفضل !!

وخرج رافي من الحجرة غاضبًا دون أن يستأذن من إسحق .. ثم وقف في الكوريدور ، وهو يكاد ينفجر ، وأخرج سيجارة وأشعلها .. في اللحظة التي وجد فيها يد ناجي تنزل على كتفه في مداعبة لطيفة .. ولما وجده ناجي على هذه الحال السيئة .. سأله في فضول :

- إيه يا رافي .. مالك !!

- خلاص .. ح اطق يا ناجي بيه .. ح انفجر .

- فيه إيه يا رافي !!

ودخلا إلى مكتب رافي .. كان رافي في قمة الغيظ ، يبكي ويكز على أسنانه ، ويخبط على المكتب بيديه في شبه انهيار عصبي تام :

- أنا أتهان من الحقير ده يا ناجي بيه .. أنا .. ده أجداده كانوا بيرعوا غنم في الصحرا.. السفارديم الواطي .. أنا كرهت حياتي هنا .. نفسي أموت .

- ما تعملش كده يا عم رافي .. ما إنت عارفه يهودي شرقي .. سفارديم جايين من زبالة البلاد .. إنت واللي زيك جايين من أوروبا .. عاملينلهم عقدة نقص .. وصاحبك ده لما ركب وبأة مدير بيطلّع فيك عقده كلها .

- ده بيهددني إنه يبلغ عني أمن الدولة .. الشاباك !!

- يا عم أعلى ما في خيله يركبه .. وبعدين .. مش الراجل اللي كان قاعد معاك في القهوة ده من الشاباك .. مش قريب مراتك .. يعني الحكاية في بيتها . روَّق .. روَّق يا بن عمي .. أنا مستنيك بالليل .. شالوم .

Ahmed Madv

كان إسحق هلليـفـي جالسًا على مكتبه .. وقد شعر أنه شفى غليله حينما أهان رافي .. وشعر أنه قوي .. ودخل عليه ناجي هاشًّا باشًّا كعادته :

- مستر هيللـفـي .. أنا جاي في الميعاد أهوه .. أربعة إلا خمسة .

- أهلًا مستر ناجي .. إنت دايمًا تيجي في أخر ثانية كده !!

- أصل اليوم أما يعديع الفلوس الفايدة تخشع الحساب .

- دي فايدة بسيطة جدًّا .. يعني ..235 شيكل .. مش حاجة يعني ؟!

- حلوين .. ماهم .. إنشالله تمن فنجان قهوة .

قال إسحق ضاحكًا :

- إنت متأكد مستر ناجي إن في أصول العيلة بتاعك ماكانش فيه حد يهودي .. تشرب قهوة مستر ناجي .

- أوعى تخليها من الحساب .. إذا كانت على حسابك إنت .. مقبولة .

وابتسم ناجي ، وكذلك إسحق الذي بدت علاقته بناجي حميمية للغاية .. وهمس ناجي لإسحق رافعًا التكليف تمامًا :

- أنا .. وأنا داخل شايف رافي كده مش في المود .. هوه حصل حاجة ؟!

- هوه إتكلم معاك ؟!

- هو دريان بيقول إيه ؟ عمال يلخبط بالكلام كده .. السفارديم الواطي اللي جايين من زبالة البلاد .. مش عارف يقصد مين ؟ هوه إتخانق مع حد !!

تغيرت ملامح إسحق ، حينما سمع ناجي يقول له هذا الكلام على لسان رافي ، وقال في ضيق :

- كلهم كده .. نعرة وكبرع الفاضي .

- الأشكيناز .. إنت ح تقوللي .. ده أنا معاشرهم .. عليهم ألاطة يا أخي تفقع المرارة .. فاكرين إن هما بس اللي ياما هنا ياما هناك .. والباقي ولاد البطة السودة .

Ahmed Madv

وقال إسحق لناجي مغيرًا الموضوع :

- إنما إنت ناوي تعمل إيه مستر ناجي بعد ما تخلص مُدتك في السفارة ؟!

- ح اشتغل في البزنس .. أنا بحب الفلوس .

- هايل .. هنا في إسرائيل .

- أيوه .

- ح تعمل إيه ؟!

نظر ناجي حوله متفقدًا المكان بعينيه ، ثم قال بكل ثقة :

- ح أسرق البنك ده .. إيه رأيك يا إسحق .

قبل أن يكمل ناجي جملته ، كانت أجراس الإنذار تدوي في أرجاء البنك كله ، فقال ناجي مداعبًا :

- إيه ده ؟ جرس الإنذار علطول كده .. ده أنا لسه بأفكر ؟

- لا .. دي التجربة بتاعة السيستم .. إنما إنت اديتني فكرة كويس كتير مستر ناجي .. لازم يخترعوا آلارم يضرب بمجرد ما حد يفكر يسرق البنك .

- تعملوها يا مستر هلليـڤـي .. تعملوا أبوها .. ونقرا في الجرايد .. مسكوا أربعة ع القهوة قاعدين متلبسين ، وهما بيفكروا يسرقوا البنك .

وضحك إسحق في مجاملة .. إذ كانت ضحكته باردة مصنوعة ، فهذه الأمور المادية لا يأخذها اليهود غالبًا مأخذ الهزل ، ودخل أحد موظفي البنك ، ووضع النقود أمام ناجي ، الذي نظر نحوها نظرة لا مبالية وقال :

- دول 150 ألف دولار ؟!

- Yes Sir

- نعدهم ولا إيه ؟ إحنا ح نمضي وصل الاستلام .

- المثل بيقول ما تعدش ورا واحد يهودي .

- وأنا أعد وراكوا برضه .

Ahmed Madv

أمسك ناجي رزمة .. وتحسسها .. بعد أن نظر نظرة عامة إلى كل الرزم .. ألقاها أمام هللي هلليـفـي وقال بثقة :

- الرزمة دي ناقصة ورقتين .

- مش ممكن .. مستحيل .

قال ناجي بثقة أكبر :

- اسمع اللي بقولك عليه .. أنا أبص للرزمة كده .. عينيا عدّاد .. أمسكها بإيدى العداد الداخلي بتاعي يشتغل .. حطها ع الجهاز .

أمسك إسحق بالرزمة .. ووضعها على جهاز عد النقود ؛ ليكتشف أن قراءة العداد (98) أي إن الرزمة بالفعل تنقصها ورقتان ..

قال إسحق مندهشًا :

- لا .. إنت عبقري مستر ناجي .

- مش مسألة عبقري .. أنا من دمياط أصلًا .. شوف يا مستر هلليـفـي .. أنا راجل لا متجوز ولا مخلف .. الفلوس دي هي مراتي وعيالي ، وهي المُتعة الوحيدة اللي في حياتي .. تعرف يا مستر هلليـفـي .. من أمتع لحظات عمري ، وأنا فارد ورقة بميت دولار قدامي .. وبلساني كده أعدي ع الخط المعدني .. يااااه .. أطعم إحساس في حياتي .. جربت ده ؟. دوق بس وح تدعيلي .. إلحسلك لحسة وقوللي حسيت بإيه؟

هنا لم يتمالك إسحق نفسه من الضحك .. يبدو أنه كان يفعلها أحيانًا ، فنحن نضحك غالبًا على ما نفعله ، ونعتقد أن أحدًا لا يتصور أننا نفعله .

* * *

في قاعة في الجامعة العبرية ، كانت هوني ألدن .. الناشطة الإسرائيلية الشابة تخطب في الشباب الإسرائيلي بحماسة منقطعة النظير .. كانت كل الآذان والأبصار متعلقة بها ، وكأنها قد نومتهم مغناطيسيًا :

Ahmed Madv

– لتستيقظ إسرائيل .. لتفق من غفوتها .. ماذا فعلنا في عصر الوزراء والسياسيين .. قمة الانحدار .. انسحبنا من غزة في طرف واحد .. ولم نحصل على أي مقابل سوى أننا مهددون بصواريخ إرهابية في كل لحظة .. انسحبنا من جنوب لبنان .. وفقدت إسرائيل هيبتها .. كان عصر الهاجاناه والأتل والتنظيمات الوطنية العصر الذهبي لنا .. لقنَّاهم دروسًا قاسية في دير ياسين وكفر قاسم .. وقتلنا آلافًا منهم .. ماذا فعل السياسيون في الأربعين سنة الأخيرة .. إلا التنازل والاستسلام والتفاوض الـمُذل .. إنهم يفكرون في تسكين الضفة الغربية أيضًا .. وبعدها ستباد إسرائيل وشعبها العظيم تمامًا .. مدفع الهاون الذي يبلغ مداه 16 كيلو .. سيصيب المواطنين هنا .. في القلب .. في هرتسيليا .. لأ .. لن نقبل ذلك .. الموت للعرب .. الموت للسياسيين المتخاذلين الفاسدين ..

وضجت القاعة كلها بتصفيق حاد ..

في نهاية القاعة ، كان يوسي كرمي ضابط الشاباك يراقب ذلك باهتمام شديد ..

حينما دخل مدير الشاباك (مشتيـف) على يوسي كرمي في مكتبه .. وجده فاتحًا اللاب توب .. وعلى الشاشة صورة كبيرة لهوني ألدن ومعلومات كثيرة عنها .. وقف مشتيـف خلف يوسي ، ونظر نحو الشاشة .. وسأله .

– مين دي يا يوسي !!

– دي هوني ألدن .. طالبة في الجامعة العبرية في السنة الأخيرة .

– مالها ؟!

– أصلها مرشحة للانضمام للصليب الأحمر من الجامعة .. وكانوا طالبين مننا تقرير .

– دي مولودة في إسرائيل ؟!

– لأ .. مولودة في لوجانو .. على حدود إيطاليا وسويسـرا .. من أم يهودية ، وأب عربي مسلم .. كان من أغنياء إسكندرية .. إنما البنت يهودية مؤمنة جدًّا بكل

Ahmed Madv

التعاليم اليهودية ، وحياتها كلها ما بين المعبد اليهودي والمظاهرات في الجامعة .. هوني ألدن نموذج مشرف للجيل الجديد .. جيل الصحوة .. أنا شايف إنه ممكن جدًّا الاستفادة بيها وبأفكارها .

ونظر مشتيـف إلى صورة هوني متأملًا إياها قليلًا ، ثم قال بهدوء غامض :

– نقعد معاها !!

في شارع بارليـف بتل أبيب برجان عاليان من الزجاج .. أحدهما للبنك ، والآخر المجاور له والذي به شركة التأمين .. كانت تسكن في إحدى شققه .. المتطرفة الإسرائيلية الساحرة .. هوني ألدن .. تقيم فيها وحدها .. الغريب أن فتاة بهذا الجمال وهذه الحيوية وهذا الحماس لم تفكر يومًا أن تلقي بجسدها في أحضان رجل ! هل يمكن أن تقتل الاهتمامات السياسية المشاعر الأنثوية ؟ وضعت هوني ألدن سماعة التليفون .. بعد أن أنهت مكالمة مع يوسي كرمي ضابط الشاباك .. يستدعيها لمقابلة رئيسه .. وابتسمت ساخرة .. وقالت لنفسها :

– الشاباك .. يامّه !!

* * *

كان مشتيـف مدير الشاباك جالسًا على مكتبه ، ويوسي كرمي جالسًا أمامه .. حينما دخلت هوني بثقة وباعتداد بالنفس ، ونظرت نحوهما ، وكأنها التي أتت لكي تحقق معهما .. بادرها مشتيـف قائلًا :

– أهلًا يا هوني .. كيف الحال ؟!

– الله .. إنت تتكلم عربي كويس أهوه .

– من جاور القوم !!

– وحافظ أمثال كمان .

قال يوسي كرمي ، محاولًا الدخول في الموضوع بسرعة :

– إحنا عاوزين نتكلم معاكي شوية بخصوص كلامك في الندوة بالجامعة .. إنتي أسأتي للقيـادة الإسرائيلية والحكومة مستاءة جدًّا .

Ahmed Madv

قالت هوني منفعلة :

- أنا بأقول اللي مؤمنة بيه .. وما بيهمنيش حد .. طظ في الحكومة الإسرائيلية .. عملت إيه الحكومة الإسرائيلية وأعداءنا عمالين يسلحوا نفسهم بصواريخ سكود وM600 وعمالين يطوروا في منظومات دفاع جوي ماتخليش طيارة إسرائيلية تجرؤ إنها تطلع .. حروبنا الأخيرة كلها انهزمنا فيها .. والسلام اللي قبلنا بيه ما أخدناش قصاده أي حاجة ولا حتى الأمان .. وجايين تقولولي حكومة .. طظ في الحكومة .

كانت هوني تتكلم بحرقة وانفعال ، وكأنها رئيسة وزراء إسرائيل ، وكان يوسي ينظر نحوها .. بينما نهض مشتيـف من على مكتبه ، وربت عليها بحنان الأب .. وقال لها :

- طيب إنتي شايفة إيه الحل .. إيه اللي إسرائيل ممكن تعمله يا هوني ؟

- الحل الوحيد نواجه السلاح الرادع اللي كل القوى اللي حوالينا موجهاه ناحيتنا .. اجتياح لبنان بالكامل .. لازم ميدان المعركة يتنقل من هنا لهناك .

قال مشتيـف ، وهو لا يستطيع أن يخفي انبهاره بهوني :

- طيب بصي بأة .. إنتي ح تخلصي أخر تيرم ليكي في الجامعة السنة دي .. بعد كده .. إحنا عاوزينك تشتغلي معانا هنا .. إيه رأيك ؟!

* * *

في شقة جمال عبد الناصر في تل أبيب ، وتحديدًا في حجرة النوم ، كان جمال قلقًا مؤرقًا .. يتقلب ثم يفيق .. وقد تهدجت أنفاسه .. وتوترت أعصابه .. يخرج إلى الصالة .. يشرب كوبًا من الماء .. ثم يعود .. محاولًا النوم بلا جدوى .. ورنَّ التليفون .. كانت زوجته تتصل به من مصر ؛ لتطمأن عليه .. فهي تعلم أنه لم ينم ، فهي أيضًا .. لم تنم .. قال لها جمال :

Ahmed Madv

- أيوه يا حبيبتي .. مش قادر أغمض عيني .. خالد نام .. وعبد الحميد خللي بالك منهم .. أنا .. مش عارف .. قلبي مقبوض من ساعة ما حطيت رجلي هنا .. أنا عاوز أرجع .. أنا بكرة ح اتكلم مع سيادة السفير .. تصبحي على خير !! ح احاول يا حبيبتي .

وذهب إلى حجرة النوم .. وألقى بجسده على السرير .. ووضع المخدة فوق رأسه .. وهو يعلم أنه .. لن ينام .

لم يكن جمال هو الوحيد الذي لم ينم تلك الليلة في تل أبيب .. رافي دافيدوفتش ، هو أيضًا لم ينم .. كانت آياليت زوجته نائمة بجواره بقميص نوم شفاف ومثير للغاية .. كانت تتقلب بصورة تجعل النائم بجانبها يستيقظ .. فهي امرأة صارخة الأنوثة .. واسمها (آياليت) يعني الظبية .. إذا نظرت إليها تمنيت أن تأكلها أكثر من أن تنام بجوارها .. ولم تكن هي سبب أرق رافي .. الذي تسلل بهدوء من الفراش على أطراف أصابعه .. خوفًا من أن تستيقظ .. ثم فتح الدولاب بحرص وأخرج بدلته .. وحينما هم بالخروج من باب غرفة النوم .. جاء صوتها كخنجر مسنون في ظهره :

- رافي .. إنت رايح فين ؟!

- أصلي مش جايْلي نوم .. قلت أطلع أشم شوية هوا بره .

- وواخد البدلة ليه ؟!

- هه !! أصلي حبيت أتمشى شوية حوالين البيت .. يمكن ده يساعدني على النوم .

- إنت بتستغفلني يا رافي .. إنت رايح تلعب تاني وتضيع فلوسنا !!

- ح العب فين ؟ اللنش اللي بيودي المركب طلع خلاص .. ح اروح إزاي يعني لغاية عرض البحر .. ح اخدها عوم !!

- أقعد يا رافي أحسن لك في ليلتك دي !!

Ahmed Madv

- أنا مش مسجون يا آياليت ولا متحددة إقامتي .. أنا حر .. أخرج زي ما أنا عاوز .. محدش يقدر يمنعني .

- قلت لك أقعد .

- قلت لك ح اخرج يعني ح اخرج .

- رافي .. رافي .. استنى بقولك !!

وقامت آياليت وجذبت منه البذلة ، فجذبها رافي منها .. ودفعها بعيدًا .. وقفزت آياليت تحاول أن تجذبه إلى السرير ، فدفعها رافي .. وخرج من الغرفة بعد أن صفع الباب صفعة مدوية ..

جرت آياليت على التليفون وطلبت رقمًا .. كانت تتكلم وهي تجهش بالبكاء .. ليس على زوج مدمن للقمار .. وإنما على ما يخسره على موائد القمار .. ومن الذي كانت تكلمه آياليت .. يوسي كرمي .. ضابط الشاباك :

- يوسي .. رافي خرج يلعب تاني .. أرجوك تتصرف .. أرجوك تعمل حاجة .. أنا مش عارفة ح يلعب فين دلوقتي ؟!

* * *

فى بيت ناجي عطا الله ، كان كل شيء يُعد .. المائدة وأوراق اللعب والفيش والمشروبات .. وكان ناجي يدندن ، ويغني بمزاج عالٍ جدًّا .. حينما دق جرس الباب ، وفتح ناجي ليجد أمامه جمال عبد الناصر .. ففوجئ بالزيارة غير المتوقعة وهتف به :

- جمال بيه !! إيه ؟ خير .. إنت لسه صاحي ما نِمْتش ؟!

قال جمال معتذرًا في خجل :

- أنا آسف إني جيت لك في الوقت المتأخر ده .. بس .. أنا عاوز أتكلم .. ومفيش حد ممكن أتكلم معاه هنا غيرك .

Ahmed Madv

- تسمع كلامي .. أنا ح أديلك حباية منومة تاخدها وتنام .. والصبح .. نقعد نتكلم براحتنا وإحنا فايقين ..

كان جمال قد اتخذ القرار بأن يتكلم .. فلم يسمع ناجي في جملته الأخيرة .. وانطلق يتكلم :

- أنا من مواليد 23 يوليو 1960 .. يعني بعد كام يوم ح أكمل خمسين سنة .

قال ناجي مجاملًا بتكلف :

- ده انت عيد ميلادك خلاص أهوه .. كل سنة وإنت طيب .

واستمر جمال في حديثه كقطار انطلق ، ولن يتوقف أبدًا :

- أبويا الله يرحمه كان ظابط في الجيش المصري .. ولما جيت يوم 23 يوليو سموني جمال عبد الناصر .. اسم مركب .

قال ناجي في استعباط :

- واللَّهي .. يعني الوالد ما اسموش عبد الناصر بأة .. اوعى يكون اسمه محمد نجيب .

واستمر جمال .. واستمر .. كأنه يجلس مع لا أحد .. كان يريد أن يتكلم :

- كُنا عايشين في السويس .. في بورتوفيق .. وفجأة وأنا لسه عندي 7 سنين .. لقيت القنابل والدانات نازلة زي المطر فوق الناس والبيوت، عمالة تقتل في البشر وتدمر وتخرب في أماكن عشت فيها أجمل أيام طفولتي .

نظر ناجي في الساعة عدة مرات .. و لم يكن جمال تقريبًا يشعر به نهائيًّا .. كان منطلقًا :

- ولأول مرة وأنا طفل في السن ده أسمع كلمة التهجير .. سيبنا بلادنا وجيراننا وأصحابنا وحبايبنا .. وهاجرنا على مصر .. وعرفت إن السبب في الخراب والدمار والشحططة دي كلها عدو سافل غاشم اسمه العدو الصهيوني .. وكرهت الصهاينة كُره العمى .

Ahmed Madv

حاول ناجي أن يلتقط جملة أو كلمة تصلح نهاية لهذا الحوار ، الذي لن ينسد .. فقال :

- ربنا يحرقهم بجاز يا شيخ .. إنت مش ح تخش تنام بأة ؟!

ولكن جمال كان في قمة استغراقه فيما يقول ، فلم يسمع ناجي واستمر :

- في 73 أبويا كان بيحارب في السويس في الحصار ، وعبرنا وانتصـرنا .. ورجَّعنا كرامتنا .. وأرضنا .

والتقط ناجي الكلمة الأخيرة .. وحاول أن يقفل :

- إديناهم على قفاهم صح .. خش نام بأة يا جمال بيه .

ولكن من هذا الذي يستطيع أن يقفل جمال عبد الناصر ، الذي واصل حديثه قائلًا :

- أبويا الله يرحمه استشهد في الحرب .. حتى الانتصار كان فيه مرارة .. وحزن على أبويا اللي راح .. وكرهت الصهاينة أكتر وأكتر بعد كده .

كان الحوار أشبه بمعركة .. جمال يهاجم وناجي يدافع .. يحاول أن يحصل على هدنة .. على اتفاق .. على وقف إطلاق النار مؤقتًا .. ولما يأس من ذلك وفاض به .. قال لجمال :

- لا يا جيمي .. إنت وصلت لسنة 73 .. لأ .. ده كده فاضل 37 سنة على ما نوصل لألفين وعشرة .. نكمل بكرة يا جمال بيه .. إحنا ح نحكي تاريخ الصـراع العربي الإسرائيلي في ليلة واحدة .. إحنا ننام ونقوم بكرة فايقين علشان نتكلم على راحتنا .

- الشيء اللي قالقني يا ناجي بيه إزاي أنا هنا .. وإزاي إنت هنا .. إزاي أنا نايم دلوقت في شقة .. ساكن فوقي واحد إسرائيلي .. وتحتي واحد إسرائيلي .

- معلش ما انت ساكن قصادك واحد مصري برضه .. إحنا جايين نأدي واجبنا يا جمال بيه .. إحنا ماجيناش من نفسنا .. ولا كُنا عاوزين نيجي .. الحياة دي عاملة زي ماتش الكورة .. لازم تسمع كلام الكوتش .. قاللي أقف باك .. ح أقف باك ..

Ahmed Madv

ما هو مش كل واحد يلعب على مزاجه ، وعلى قد تفكيره .. دي أدوار في الحياة مكتوب علينا نلعبها .. ما سألتش نفسك الراجل اللي بينزل يسلِّك البلاعات في المجاري بيعمل كده ليه ؟ ده أكل عيشه .. لازم نحترمه .. والراجل ده لو معملش كده .. البلاعات ح تضرب وح نعيش في عذاب .. فهمتني !!

فرد عليه جمال .. وكأنه يحاول أن يفهمه :

- فهمتك .

فأخذه ناجي من يديه .. وتوجه به نحو الباب ، وقال له بود وبحب :

- أنا حاسس باللي جواك .. إنما صدقني .. الحكومة جابتنا هنا في البلاعة دي .. نسلكها ولا مانسلكهاش .. ياللا بأة .. تصبح على خير .

وإذا بطرق على الباب .. فارتبك ناجي .. وشعر جمال بارتباكه :

- إنت فيه حد جاي لك ؟!

- لأ .. دول جماعة كده كانوا عاوزيني في موضوع يعني !!

- إسرائيليين !!

- أمال من ليبيا !! إحنا قاعدين في تل أبيب .

قال جمال مستنكرًا :

- هوه إنت بتسمح لهم يخشوا بيتك كمان !!

- بص بأة يا جمال بيه .. الموضوع ده مش ح يتحسمع الباب كده .. اتكل على الله وروح نام .. وأنا بكرة ح أشرح لك كل حاجة .

وفتح ناجي الباب .. فدخل عوفاديا السماك وروني ميتال السمسار ورافي دافيدوفتش مبتسمين تلك الابتسامة اليهودية الشهيرة .. لم يسلم عليهم جمال ، ومضى بعد أن ألقى نظرة غاضبة على ناجي ، الذي بادرهم قائلًا :

- إيه يا إخواننا .. أنا مش قايل لكوا تكلموني قبل ما تيجوا .

Ahmed Madv

قال له إيلي مزراحي :

- إدينالك رنة يا ناجي بيه .

- أعوذ بالله .. رنة .. يا راجل إنت ما حرمتش .. طيب أقعدوا .. أقعدوا .

جلس الجميع على الترابيزة ، ثم بدأوا في توزيع الأوراق وفي اللعب .. أما ناجي فجلس بعيدًا ، فقال له مزراحي :

- برضه مش عاوز تلعب مستر ناجي .

- لا يا ابن عمي .. أنا قلبي ضعيف .. لو خسرت بولة ، ممكن أروح فيها ..

وحاول عوفاديا أن يغريه باللعب ، وقال :

- ممكن تكسب .

قال ناجي :

- أنا أصلي أحب أتفرج يا عوفاديا .. أفرح للكسبان وأزعل للخسران .

قال روني السمسار :

- وتاخدع المية عشرة .

- حتى السمسار باصص لي في لقمة عيشي .. ده إنت عايش على كده .

وانتهى الجيم ، وخسر رافي كالعادة .. كانت شفتاه ترتعشان .. وهم يأخذون الفلوس من أمامه ، وقام إلى البوفيه مترنحًا بعض الشيء ليأخذ كأسًا .. واقترب منه ناجي قائلًا :

- إيه ؟ إنت بقالك فترة حظك مش ماشي .. شوف مين من دول نابر عليك ..

قال رافي في حزن :

- أنا فقدت تركيزي تمامًا .. ألاقي معاك خمستلاف شيكل سَلَف ..

- أنا ما أتأخرش عنك يارافي .. إنما إنت كده بأة عليك مبلغ جامد .. ح تسدد إزاي ؟

Ahmed Madv

- ح أسدد يا ناجي بيه .. ح أسدد .. أنا فوقت خلاص وحاسس إني ح أكسب .

- حاضر .. اكتب لي شيك بالمبلغ .. وأنا أجيب لك اللي إنت عاوزه كاش .

وأخرج رافي دفتر الشيكات ، وأخرج شيكًا ووقع عليه ، ثم أعطاه لناجي ، الذي قال له :

- سيب لي التاريخ فاضي وأنا ح ابأة أملاه .. وفي خانة المبلغ ح تكتب خمستلاف وخمسمية .. آه .. تمن الباركينج ..

- أوكيه .. أوكيه .

وأخذ رافي النقود وجلس على الترابيزة ، وقد أفاق .. ثم بدأ في توزيع أوراق اللعب على الجميع.. وفجأة طرق الباب .. فانتبه الكل نحو الباب بخوف وارتياب ، وذهب ناجي لينظر من العين السحرية ، فوجد يوسي كرمي ضابط الشاباك واقفًا في ضيق .. فقال لرافي :

- ده الظابط بتاع الشاباك .. اللي كان واقف معاك الصبح يا رافي !!

- يوسي كرمي .. إيه اللي جابه .. إنت تعرفه مستر ناجي !!

- ولا عمري اتكلمت معاه !! إيه اللي جابه ده .. فيه إيه ؟ مالكوا .. زي ما أنتوا ؟

وفتح ناجي الباب ليجد أمامه يوسي كرمي .. مرتبكًا إلى حد ما .. فبادره ناجي بقوة :

- نعم !!

- أنا الرائد يوسي كرمي من الشاباك .

- خير !!

- رافي دافيدوفتش عندك ؟

- أيوه عندي .. فيه حاجة ؟

- تسمح لي أدخل !!

Ahmed Madv

- بأي صفة ؟!

- بصفتي صديق مش أكتر .. رافي قريبي .. عاوزه في مسألة شخصية كده و ..

- عاوزه .. ما تكلمه في التليفون .. تروح له بيته .. إزاي تطب عليا كده من غير إحم ولا دستور .. أنا راجل دبلوماسي واللي إنت عملته ده أنا ح أوصله لفوق .. والموضوع ده ح يكبر ومش ح أسكت عليه .

- أرجوك إهدا يا ناجي بيه .. أنا مش جاي لرافي بس ، أنا كمان كنت عاوزك إنت كمان ..

قال ناجي ، وقد علا صوته :

- أنا ليا مكتب في السفارة .. وأي استفسار أو طلب يتوجه لي من إدارة مصـر في الخارجية .. هي بس اللي تخاطبني .. مش إنتوا .

وانفتح باب الشقة المقابلة ليخرج جمال عبد الناصر ، وآخرين من سكان العمارة ، فتحوا أبواب الشقق ، حينما سمعوا ناجي ، وقد علا صوته وأخذته الجلالة ، وانهال على يوسي كرمي :

- كده تصحوا الناس .. إحنا آسفين يا جمال بيه .. اتفضل سيادتك .. اتفضل يا فندم .. مفيش حاجة .. دي بلاوي كده بتتحدف علينا .. اتفضل !!

وأشار ناجي نحو جمال .. وهو يهدد يوسي كرمي بكل قوة :

- عارف مين ده ؟ ده جمال عبد الناصر .. المستشار الإعلامي في السفارة .. ح يفضحكوا ويجرسكوا في كل حتة .. ياللا اتكل على الله .

وصفع ناجي الباب في وجه يوسي كرمي .. الذي نزل مسـرعًا .. وهو يجر أذيال الخيبة .. ويملؤه الحقد والغيظ على هذا المدعو ناجي عطا الله .

* * *

في مكتب الشباك .. (أمن الدولة الإسرائيلي) كان مشتيـف المدير ، يعنف يوسي كرمي ويوبخه :

Ahmed Madv

- أنا مش قادر أفهم إزاي من نفسك كده تروح تقتحم بيت الراجل الساعة واحدة بعد نص الليل .. إنت وقعتنا في إحراج شديد جدًّا .

- يا فندم أنا متأكد إن ناجي عطا الله ده بيرتب لأشياء خطيرة .. ووراه مصايب كتيرة جدًّا .

- وعلى أي أساس بنيت رأيك ده يا يوسي ؟

- إحساسي يا فندم .

- الراجل زي ما التقارير بتقول عامل علاقات جيدة مع الكل ، ومقرب جدًّا من الناس .

- مقرب زيادة عن اللزوم يا فندم .

- لا .. لا .. ده شك مبالغ فيه جدًّا .. كراهيتك الزايدة لمصر والمصريين مش لازم تكون أساس تبني عليه شغلك .. إحنا بنشتغل أمن مش سياسة يا يوسي .. واللي حصل ده ما يتكررش تاني .. السفارة المصرية ح تحتفل بثورة يوليو هنا الأسبوع اللي جاي .. ورئيس الدولة ح يحضر والوزراء .. اللي إنت عملته ده لو أثير .. ح يحطنا في موقف مش كويس .

- اسمح لي يا فندم .. إحنا بنحتفل بثورتهم ليه ؟ بنحتفل بناصر اللي كان عاوز يرمي إسرائيل وشعبها في البحر .. هو ده ثمن السلام اللي بتدفعه إسرائيل .. وهل سفيرنا في مصر بيتعامل بنفس المعاملة؟

وكان لابد أن يحسم مشتيف المناقشة ، فقال له متوعدًا :

- ح نرجع للسياسة تاني يا يوسي .. عاوزك تشيل ناجي عطا الله من دماغك خالص .. اتفضل .

وخرج يوسي من مكتب مشتيف متضايقًا حانقًا .

* * *

Ahmed Madv

في ضاحية هرتسيليا .. يقع فندق دانييل ، ذلك الفندق الذي اعتاد المصريون أن يحتفلوا بعيد ثورتهم فيه .. والذي يتم تأمينه على أعلى مستوى .. حيث يحضر الاحتفال غالبًا .. كبار القيادات الإسرائيلية .. كان ناجي جالسًا مع شمعون مدير الأوتيل .. يتفاوض معه كعادته ، كما يفعل مع الجميع في تل أبيب .

- يا سيد شمعون اسمعني .. ربنا عرفوه بالعقل .. أنا مأجر منك القاعة الرئيسية السنة اللي فاتت بعشر تلاف شيكل .. عاوزني أدفع 25 دلوقت .. إزاي ؟ أنا فيه ناس بتفتش ورايا يا شمعون .

- يا مستر ناجي .. كل سنة تعمل حفلة هنا في أوتيل .. الأوتيل قبلها بأسبوع الأمن بيستلمه .. ومفيش ولا شيكل بيدخل الأوتيل يعني خسارة كبيرة جدًّا !!

- ده شغل أمن بأة .. إحنا مالناش دعوة بيه .. حد قال للحكومة الإسرائيلية كلها تيجي الحفلة .. قول لهم ما يجوش .

- طيب اسمع مستر ناجي .. إيه رأيك .. الأوتيل هو اللي يجهز البوفيه .. وتدفع لي الخمسة وعشرين ألف شيكل .

- لا .. إلا الأكل .. أنا متفق مع ناس عليه .

- إنت صعب كتير مستر ناجي .. مش يعرف يوصل معاك لاتفاق أبدًا .

- شوف يا شمعون .. يا إما تديني ورقة إن الأوتيل مش جاهز يعمل الحفلة .. يا إما تاخد العشر بواكي وتسكت .. قلت إيه ؟!

- أوكيه مستر ناجي !! اللي تشوفه .. إنت محدش يقدر يغلبك أبدًا .

في بيت ناجي .. كان ناجي ورافي جالسين أمام اللاب توب ، وأمامهما زجاجة ويسكي وبعض المزة .. وعلى اللاب توب فندق دانييل .. الذي كان رافي مسئولًا عن تأمينه قبل الاحتفال .. قال له رافي بخبرة وحنكة ، ليس لهما مثيل :

Ahmed Madv

- شوف يا مستر ناجي تأمين أي مبنى أو منشأة مهمة بيتم على مرحلتين .. تأمين خارجي .. وده شغل الأمن والقوات العسكرية .. يعني تأمين بشري .. إنما التأمين الداخلي للمبني ده شغلي أنا .. أي حد ح يحاول يدخل أو يخرج من الأوتيل من غير الممر المتفق عليه ، اللي هوه خط السير الطبيعي .. ده ح يلاقي قدامه غابة من أشعة الليزر اللي لو لمسته بس .. ح يتحول إلى حتة فحم في خمس ثوانٍ .

قال ناجي معجبًا :

- يابن الجنيّة يا رافي .. ده إنت عبقري !!

- يعني أطمن على فلوسي عندك في البنك .. دي أمانة في رقبتك .

ضحك رافى وقال :

- تعرف يا مستر ناجي .. لو واحد لبس طاقية الإخفا .. وبأة Invisible ودخل البنك ، مش ح يقدر يوصل للفلوس برضه !!

هنا ربت ناجي على كتف رافي مجاملًا ، وقال لرافي :

- والله العالم اللي هنا دول ما عارفين قيمتك .

* * *

في قاعة بالجامعة العبرية ، كانت هوني ألدن .. المتطرفة الإسرائيلية الناشطة في إسرائيل تخطب في الطلبة كعادتها ، وتصرخ فيهم :

- فى الوقت الذي يعامل فيه المصريون السفير الإسرائيلي في القاهرة كالفأر الأجرب .. يحتفل المصريون بثورتهم هنا في تل أبيب .. والحكومة الفاسدة تحضر الاحتفال .. تلك هي العقلية المتخاذلة المذعورة التي تحكمنا .. لتدفع إسرائيل إذًا ثمن هذا السلام المزعوم .. لتحتفلوا بثورة يوليو يا وزراء إسرائيل .. ثورة يوليو التي لم يكن لها من هدف ، سوى إبادتنا والقضاء علينا .

وضجت القاعة بتصفيق حاد .. وبدأ الحاضرون يهتفون ضد مصر وضد السلام .. واندفعوا خارجين من القاعة .. وانطلقوا في شوارع تل أبيب .. في

Ahmed Madv

مسيرة احتجاجية ضخمة .. يحملون لافتات مكتوبًا عليها بالعبرية .. لتقاطع الحكومة احتفال المصـريين بثورتهم .. وعلى رأس المظاهرة كانت هوني ألدن هي القائدة والمحركة والزعيمة .

كل هذه المشاعر التي كانت بصدور الشباب الإسرائيلي .. كان أكثر منها بكثير يصطدم بداخل جمال عبد الناصر .. الذي كان جالسًا في مكتب السفير بالسفارة المصرية .. يقول كلامًا لم يرتبه .. ولم ينمقه على عادة الدبلوماسيين .. إلى أن هتف به سعادة السفير قائلًا :

- إنت عاوز تقول إيه يا جمال ؟ عمال تلف وتدور كده .. قوللي اللي جواك علطول !!

- أنا يا فندم شايف إن إقامة الحفل في التوقيت ده بالذات ح يثير الرأي العام .. وإحنا لو أخدنا قرار بإلغاء الحفل ده يمكن يكون له أثر كويس في الشارع .

- أنهو رأي عام .. وأنهو شارع يا جمال بيه !!

- الرأي العام في مصر يا فندم .

- ما هو الرأي العام هنا في إسرائيل ضد إقامة الحفل كمان .. ومظاهرات طالعة في تل أبيب بتنادي بمقاطعة الحفل .. مش ممكن ده يتفهم إن إحنا ضعفنا ، أو استسلمنا لضغط الشارع الإسرائيلي هنا !!

- لا يا فندم .. القيادات الإسرائيلية اللي جاية الحفل دول كلهم مجرمين حرب .. وعملوا مجازر وحشية .. مجرد دعوتهم والقعاد معاهم في مكان واحد .. دي في حد ذاتها نكسة تانية ، أكبر من نكسة يونيو .

قال السفير بحزم :

- يا جمال .. إحنا بنحتفل بثورتنا .. بثورة يوليو ، وبعدين إنت بتكلمني كأني بعيد عن الشأن الوطني ، وإنت اللي بتمثل الرأي الوطني .. لأ يا جمال .. أنا هنا .. في المكان ده عشان مصر .. الحفلة ح تتعمل في ميعادها .. يوم 23 يوليو .. وعلم

Ahmed Madv

مصر ح يترفع في تل أبيب .. مصر أكبر وأهم دولة في المنطقة .. ماضية عقود واتفاقات محترمة .. على أعلى مستوى .. ما بتاخدش قرارات انفعالية لحظية .. وأنا مندهش إن الكلام ده يطلع من دبلوماسي ، المفروض إن آراءه تكون أكتر حكمة من كده .

وطرق الباب ليدخل ناجي بشوشًا كعادته .. كأن لا شيء يحدث في الدنيا ، وقال للسفير :

- صباح الفل يا سعادة السفير .

قال السفير بضيق :

- أهلًا .. صباح الخير يا ناجي !!

وشعر ناجي أن شيئًا ما بين جمال وبين سيادة السفير .. وأنه ربما أتى في الوقت الخطأ ، فقال :

- أنا آسف .. بس أنا حبيت أطمن سعادتك .. إجراءات الحفلة تمت كلها .. وما تشيلش هم سعادتك .. أنا عملت البوفيه على الطريقة المصرية فول وطعمية وباذنجان وكشري .. حتى عشان يبأة ماشي مع ثورة يوليو .

كان جمال ينظر بضيق إلى ناجي .. وقام مستأذنًا ليترك الحجرة :

- تسمح لي سعادتك أستأذن ؟!

- اتفضل يا جمال .. وفكر في اللي قولتهولك كويس .

قال ناجي مستفهما بعد خروج جمال :

- هوه فيه حاجة يا سعادة السفير .

- لأ .. جمال بيه الظاهر لسه ما أخدش على المكان .. أبأة اتكلم معاه يا ناجي بيه .

* * *

Ahmed Madv

في بيت رافي دافيدوفتش ، كان رافي وآياليت جالسين في حجرة الصالون .. كان رافي يشرب .. وهو في قمة الضيق ، وآياليت في قمة العصبية .

– نمشي نروح فين يا رافي .. إنت اتجننت .. نسيب إسرائيل .. دي أكبر خيانة .. إنت أكيد مش دريان إنت بتقول إيه ؟! إحنا مولودين هنا .. ودي أرضنا اللي لازم نفضل موجودين فيها لغاية ما نموت .

قال رافي بضيق :

– موجودين آه .. إنما عايشين لأ .. بلدنا قد كده يا آياليت راس دبوس ع الخريطة .. إسرائيل دي كلها أصغر من ولاية نيوجرسي ، ومحاصرين بجيران بيكرهونا ومابيطيقوناش ، ومش عاوزين يعترفوا بينا .. عايشين في رعب مالوش أخر ، وأي حاجة تحصل حوالينا تخلينا نترعش من الخوف .. أي خطاب يقوله أي رئيس دولة من الدول المجاورة يرفع عندنا حالة الاستعداد القصوى والتوتر يزيد .. إسرائيل حتى معندهاش سيبيريا علشان الخبراء والسكان يتراجعوا ليها في مواجهة أي جيش ييجي .. حتى سينا إتاخدت مننا .. عمالين ننكمش ونتخنق .. صدقيني يا آياليت الحياة هنا مستحيلة .. لازم أي إسرائيلي يعيش سنة كل أربع سنين برة إسرائيل .. وإلا كلنا ح يجيلنا انهيار عصبي .. ح نتجنن !!

قامت آياليت وأمسكت به ، كأنها تحاول أن تفيقه من أثر الخمر ، وقالت له ، وهي تهزه بعنف :

– اسمع يا رافي .. الكلام اللي بتقوله ده كلام خطير .. أنا ح اعديهولك عشان إنت شارب ، ومش في وعيك .

قال رافي والدموع تملأ عينيه ، وبدا كطفل بلا حول ولا قوة :

– أنا عمري ما بابأة في وعيي غير وأنا شارب يا آياليت .. وعمومًا .. اكتبي فيّا تقرير للشاباك .. قوليلهم رافي بيقول إن المجتمع الإسرائيلي مجتمع عدواني وفاشي وعنصري .. ومخنوق وفظ .. ومرتجف ومكتئب .. قوليلهم إن الديسكو لما وقع في الأوتيل .. وانهار المبنى .. محدش تصور غير إن دي ضربة من

Ahmed Madv

العرب .. إحنا عايشين في لعبة مالهاش نهاية .. تعرفي يا آياليت ليه اللعبة المفضلة عند الإسرائيليين هي الراكت .. عشان مالهاش قواعد ولا فائز ولا خسران ، ومالهاش نهاية .

- يوسي كرمي لو سمعك بتقول كده ح يرميك في السجن !!

نظر رافي نحوها .. ساخرًا وقال بمرارة :

- لو سمعني !! هوه مش سامعني دلوقت ؟ معقولة ؟! أنا متخيل إني في أخر كلامي ح الاقيه طالع لي من تحت السرير ، ولا من جوه الدولاب .

صرخت آياليت فيه قائلة :

- إنت وقح وسافل .

- عاوزاني أبأة جنتلمان يا آياليت ؟

ثم أمسك بيدها .. وشدها بعنف ليرقص معها .. فدفعته بقوة .. فوقع على السرير ، وقال :

- شفتي بأة .. الجنتلمان ما يمشيش هنا .. تعرفي يا آياليت إن اللغة العبرية هي اللغة الوحيدة اللي مافيهاش تعبير مرادف لكلمة جنتلمان .. عارفة ليه ؟ لأن المفهوم نفسه غريب على المجتمع الإسرائيلي ، واللي عاوز يبأة جنتلمان فعلًا .. لازم يخرج من هنا .. النموذج بره في أوروبا .. مش هنا يا ماما .

- إنت لما بتشرب بتبأة كئيب ولا تُطاق .

- إحنا رضعنا الكآبة هنا .. قوليلي مناسبة واحدة بتفرحنا في إسرائيل .. كل احتفالاتنا .. حفلات تأبين على اللي اتقتلوا في حروب إسرائيل .. البلد كلها بتقف تلطم وتصوت ، والأخ يوسي كرمي يكتب تقارير في اللي ما بيلطموش .. عشان اللي ما يلطمش في اليوم ده يبأة خاين لدولة إسرائيل .

وسقط رافي على الكرسي ، وأخذ يبكي بحرقة .. أما آياليت فقد نظرت نحوه باحتقار ، وتركت الغرفة .

* * *

Ahmed Madv

في بيت ناجي ، كان ناجي جالسًا مع جمال عبد الناصر ، يحاول أن يقنعه بالعدول عن أفكاره :

- يا جمال بيه تسيب السفارة إزاي ؟.. أهدا كده بس وصلي ع النبي أمال ..

- أنا إيه اللي جابني هنا يا ناجي بيه .. جاي أشتغل مع مين ؟ مع مجرمين .. نازلين ضرب وقتل في المدنيين العُزل والأطفال .. وتقوللي أشتغل .. عاوزني أعزمهم على حفلة وأستقبلهم بأي وش .. ح نمد إيدينا ونسلم عليهم وإيديهم لسه دمنا فيها !!

- اسمع يا جمال بيه .. أنا أكبر منك سنًّا .. وخبرتي أكبر كمان .. السياسة ما فيهاش مواقف ثابتة .. الشيء الوحيد الثابت هو قناعتك الشخصية إنك بتأدي عملك ومابتقصرش فيه .. إسرائيل كلها قد كده .. إحنا اللي كبرناها وعملنالها هالة ضخمة .. الحاجة الوحيدة اللي موقفة إسرائيل على رجليها .. فكرة التحدي والمواجهة مع الشعوب العربية .

- يعني سيادتك شايف إن إحنا لو طبعنا العلاقات معاهم واتعاملنا معاهم بكل ود ، إسرائيل ح تقع !!

- أيوه .. ح تقع لوحدها .. زي البلح أما يقع من ع النخل لوحده .. هنا فيه فساد ورشوة ووسايط وصراع بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين .. هنا فيه شعب مكتئب .. ضايع .. جبان .. محبط .. تفتكر إن بلد شعبها من ميت جنسية وأكتر ، ممكن يدوبوا مع بعض ويبأهم قوام واحد ! إسرائيل دي يا جمال بيه عالم مصغر .. كل واحد جاي من بلد بعاداته وتقاليده .. إسرائيل مش عارفة تِتْطبَّع مع نفسها .. المعركة الجاية معركة نفسية وحضارية واقتصادية .. اللي ح يشتغل أكتر هوه اللي ح ينتصر في الأخر .

قال جمال في عصبية :

- واللي دفعوا حياتهم وضحوا بأرواحهم في الحروب بينا وبينهم .. الشهدا اللي ماتوا ننساهم يا ناجي بيه .. خلاص صفحة وقفلناها !

Ahmed Madv

- مين قال ننساهم .. إحنا مكملين .. بس بطريقتنا ، وكل وقت وله أدان يا جمال بيه .. مواجهة السلام أقوى من مواجهة الحرب !!

وفجأة .. وأثناء حوارهما إذا بصوت انفجار ضخم وطلقات نارية، تسمع بالقرب من المكان .. فجريا معًا على التراس .. ليجدا سيارات البوليس الإسرائيلي ، وهى تمضي مسرعة من أمام العمارة .. وحالة طوارئ .. وهرج ومرج مما يؤكد أن شيئًا مهولًا قد حدث في تل أبيب .

* * *

في مقهى ومطعم كليوباترا ، كان التليفزيون الإسرائيلي يذيع الأخبار .. وناجي ومزراحي وعوفاديا يتابعون النشرة ، والمذيع يتكلم بأسى ، وهو يعلن :

- اغتيال وزير السياحة الإسرائيلي يائيل زئيـف في حجرته بالفندق .. ويذكر أن أصابع الاتهام تشير نحو بعض الفصائل الإرهابية الفلسطينية ، التي لم تعلن إحداها حتى الآن مسئوليتها عن الحادث ..

كان ناجي يكمل حديثه لمزراحي قائلًا :

- أنا قاعد يا مزراحي وصوت ضرب النار ح يخرم ودني مع إني إيه ؟ قاعد في شقتي.. وشوف الأوتيل فين ؟!

دخلت هوني المقهى ، ومعها عدد من الشباب ، وهي تصرخ بمنتهى الثورة والغضب :

- لازم الحكومة ترد على اللي حصل ده .. رد عنيف قاسي .. وإلا يمشوا ويسيبوا الحكم .. كفاية بأة فساد وفضايح وقرف .. الضرب وصل تل أبيب .

قال ناجي لها باسمًا محاولًا تهدئتها :

- إيه يا هوني يا حبيبتي .. ما تخليكي محضر خير وتهدي كده يا ماما !!

- أرجوك مستر ناجي .. اللي حصل ده كارثة ، ولو ماكانش الرد مناسب وقوي .. ح يتكرر بصورة أفظع وأبشع مليون مرة .

Ahmed Mady

- ما هو من عمايلكوا يا ماما .. نازلين بُنا في المستوطنات وإفْتراع العالم ، عشان كده محدش طايقكوا !!

- دي أرضنا مستر ناجي .. أرضنا اللي مكتوبة لشعبنا في التوراة .

- والجولان كانت مكتوبة روخرة في التوراة ؟ ده إنتوا حرامية .

هنا لم تتمالك هوني أعصابها ، وصرخت فيه :

- مستر ناجي .. أرجوك تحافظ على ألفاظك .. واتكلم كويس ..

ولم يتحمل ناجي صرختها .. وقام صارخًا فيها هو الآخر :

- إيه يا بت إنتي .. إنتي ح تعلميني أتكلم إزاي ..

حاول مزراحي أن يهدئ الجو .. وأمسك بناجى قائلًا :

- أرجوكوا يا جماعة .. نهدا .. عيب يا هوني .. مستر ناجي زي والدك .. وبعدين التحقيق لسه شغال ، ومحدش عارف مين اللي قتل الوزير .

قالت هوني مؤكدة :

- مفيش غيرهم .. الإرهابيين الفلسطينيين هما اللي عملوا كده .. ده أسلوبهم .

قال لها ناجي :

- ما ترميش بلاكي ع الناس .. ما يمكن الراجل كان معاه مُزة .. جوزها عرف .. راح له ع الأوتيل وخلص عليه .. بتحصل .. بتحصل ولا مش بتحصل يا مزراحي !!

قالت هوني :

- إنت مستر ناجي مش يتضايق لو وزير مصري اغتالوه !!

- لأ .. وإحنا عندنا وزير يغتالوه برضه .. إنتي اتهبلتي .. الوزير المصري بيمشي وراه حراسة تحتل تل أبيب دي كلها .. إنتي فاكرة وزير مصري يمشي كده ، إيد ورا وإيد قدام .. إنتوا خايبين هنا !!

Ahmed Madv

وتركت هوني المقهى ، وهي في قمة الغيظ ، وناجي ينظر نحوها ساخرًا ..

وحاول مزراحي أن يحتوي الموقف .. فقال :

- عصبية كتير هوني .. بس يحب إسرائيل كتير كمان !!

قال ناجي :

- قولّها بس تشيل مصر من دماغها .. طالعة في المظاهرات تشتم في مصر ، وأنا لعلمك ساكت علشانك يا مزراحي .. أنا ممكن أهزأها .

- معلش ناجي بك .. لسه شباب صغير .. إسرائيل كله يحب مصر .. إنت عارف لما السادات جه هنا عشان سلام ، خرجنا كلنا نستقبله ، وأنا كنت يمسك علم مصر في إيدي وهو بص لي .. وضحك كده وعدل شنبه .. أنا يفتكره كويس .

* * *

في القاهرة وأمام جامعة القاهرة ، كانت مظاهرات الطلبة داخل الحرم الجامعي أكثر اشتعالًا .. وقوات الأمن المركزي تحاول بلا جدوى أن تطفئ حماس الشباب ، الذين يعلنون كراهيتهم لإسرائيل ، ويهتفون :

- يا صهيوني مهما تكون .. القدس ح تفضل وإنت تزول !!

بين الطلبة كان كريم ، وهو شاب في السنة النهائية من كلية الحقوق .. يقود المظاهرة ويهتف ضد إسرائيل وضد حكومة التطبيع .. ولم يكن أمام رجال الأمن سوى تفريق المظاهرة .. وبدأت خراطيم المياه والقنابل المسيلة للدموع .. والعصي .. و .. وقبضوا على من استطاعوا أن يقبضوا عليه .

في مكتب من مكاتب أمن الدولة بالقاهرة .. كان الضابط جالسًا ، وأمامه بعض الشباب المقبوض عليهم ، ومن بينهم كريم .. وتهامي ، وهو شاب مفتول العضلات .. بوجه طفل برئ .. كان يقسم للظابط أنه ليس له أي علاقة بالمظاهرات :

- يا باشا والله العظيم ما مشيت في المظاهرة ، ولا عندي فكرة هي عن إيه أساسًا .. أنا شغال في جيم يا باشا .. أنا راجل رياضي ، ماليش دعوة بأي حاجة !!

Ahmed Madv

- وإيه اللي وداك عند الجامعة ؟

- الجيم جنب الجامعة يا باشا .. في بين السرايات !!

- أمال كنت نازل ضرب في الناس ليه ؟!

قال تهامي ببراءة :

- أنا فاكرها خناقة يا باشا .. لقيتهم بيزقوني زقيتهم .. واحد مد إيده وإداني بالقفا .. وأنا معرفش إنه حكومة .. روحت مناوله .. أنا لو أعرف إنه حكومة ماكنتش هوبت ناحيته !!

كان الظابط ينظر إلى عبد الجليل ، وهو أحد المقبوض عليهم أيضًا ، وكان يرتدي كوفية فلسطين ، وقد أحاط بها رقبته .. قال الظابط :

- وإنت تطلع مين ياله إنت راخر ؟!

- خدامك عبد الجليل يا باشا من الدويقة .

- وإيه اللي وداك عند الجامعة .. إنت شغال إيه ياله !!

- منظم وقفات احتجاجية ومظاهرات يا باشا .. إنت عارف البلد مافيهاش شغل يا باشا .. وأهوه من ساعة ما طلعت حكاية الاعتصامات والمظاهرات .. ربنا بعت لنا لقمة عيش نعض فيها .. ح نعمل إيه ؟!

- منظم وقفات احتجاجية !! إزاي يعني ؟!

- عمال شركة المحلة الكبرى ولا عمر أفندي عاوزين يعملوا مظاهرة لا مؤاخذة .. يبعتولي نوقف الناس .. وننظمهم .. القصير قدام والطويل ورا .. الناس تهتف مع بعضها .. ونقف محترمين ، ومحدش يكسَّر حاجة ، وساعات أطلع مع جمهور الأهلي يا باشا .. زي سايس يا باشا .. بس مش سايس عربيات .. سايس بني آدمين .. ويوميتي خمسين جنيه .. عليّا النعمة ما أعرف المظاهرة دي كانت معمولة ليه ؟!

Ahmed Madv

ونظر الظابط نحو كريم ، وقال :

- طيب اركن على جنب ياله .. وإنت ؟!

- كريم عبد العظيم .. سنة رابعة حقوق .

- برضة إنت راخر كنت معدي ، ومالكش دعوة بحاجة .. حاكِم إحنا سيبنا المظاهرة ، ومسكنا ناس ماشية في الشارع عادي .. مش كده !!

- لا يا فندم ، أنا طلعت في المظاهرة ، وأنا عارف بأقول إيه وباعمل إيه ؟!

وتبرع عبد الجليل بالكلام قائلًا للظابط :

- أهو الواد ده اللي بوظ المظاهرة يا باشا .. المظاهرة كانت ماشية زي الفُل .. لحد ده ما طلع .. هيج الدنيا .

فصرخ فيه الظابط :

- بس ياله .. ما تنطقش إلا أما أقولك أتكلم .

قال عبد الجليل بخوف شديد :

- حاضر يا باشا .

وعاد الظابط ينظر لكريم .. ويقيمه :

- وإنت بأة معترض على إيه إن شاء الله .. مش تبأة تكمل دراستك ، وبعدين تبأة تتنيل تعترض وتمشي في مظاهرات .

- لما الصهاينة ينزلوا ضرب في أهالينا في غزة وفلسطين .. وإحنا بنحتفل معاهم في عيد الثورة .. تبأة دي خيانة عظمى .. وإحنا لا يمكن نسكت على كده !!

- إنت أبوك بيشتغل إيه ياله ؟!

- أبويا ميت !!

* * *

Ahmed Madv

وضع زاهر بطاقته أمام أمين الشرطة الجالس على المكتب .. وهو يرتجف من الخوف ، وقال له ، وهو يبلع ريقه الذي جف في حلقه :

- مهندس زاهر عبد العظيم .. بس أخويا الصغير كريم كان اتمسك النهاردة الصبح ، في مظاهرة في الجامعة ، ولفيت عليه في كل الفروع مالقيتهوش وعرفت إنه هنا .. أنا بس عاوز أطمن والدته عليه ..

قال الأمين :

- طيب سيب البطاقة هنا واستنى بره .

- حاضر يا فندم .

وخرج زاهر في خوف ، بينما دخلت على الأمين امرأة كبيرة في السن ، ترتدي ملابس سوداء تبدو فقيرة للغاية ، ومعها لفة بها طعام ، وكان يبدو أنها اعتادت هذه الأمور ، وهتفت بالأمين :

- ابني يا أخويا ربنا يخليك ولا يشحططلك وليّة معملش حاجة .. ده غلبان والنبي وهو اللي قاعد معايا .. أشوفه يا أخويا .. اسمه عبد الجليل شعبان .. قول له أمه بره عشان يطمن .. أنا ح أبات ع الرصيف .. مش ماشية إلا لما أشوفه .

ودخلت فتاة جميلة جدًّا فارعة القوام (نوسة) .. ونظرت إلى الأمين .. وقالت له بأدب :

- مساء الخير .. أنا عاوزة أسأل على خطيبي اسمه تُهامي حسين عبد النبي !!

* * *

داخل مكتب السفير المصري في تل أبيب ، كان جمال قد اتخذ قراره النهائي بأنه لن يستمر في عمله بالسفارة .. وقبل السفير استقالته .. ثم تعانقا بحرارة .. كان سعادة السفير يعلم جيدًا ما بداخل جمال .. ويعلم أنه هو نفسه أراد أن يفعل مثله كثيرًا ، ولم يستطع .. وخرج جمال من حجرة السفير ، وهو يتنفس الصعداء ، وقد شعر أنه عاد للحياة .

Ahmed Madv

ولم يكن أمام السفير المصري سوى أن يعين ناجي عطا الله مستشارًا إعلاميًّا مؤقتًا .. أو قائمًا بأعماله ؛ لاحتواء الأزمة مع الوزارة في مصر .

ذهب ناجي إلى المقهى .. طلب الشيشة كعادته .. وجلس يلقي النكات ويداعب هذا .. وذاك .. كانت هوني ألدن جالسة وحدها عن بُعد .. تنظر نحو ناجي ، الذي بدا أنه قاطعها تمامًا بعد لقائهما العاصف الأخير .. وفجأة تقدمت هوني نحوه بشجاعة .. وقبلته في رأسه .. وقالت بأنوثة :

- أنا آسفة مستر ناجي .. آسفة قوي .. أرجوك مش يزعل مني .. أنا باعترف إني تجاوزت حدودي .

قال مزراحي محاولًا الصلح :

- خلاص بأة حصلتوا خير .. مستر ناجي .

قال لها ناجي :

- اقعدي يا هوني .. لازم تعرفي إن كل واحد من حقه يدافع عن أفكاره .. إنما في حدود اللياقة والأدب .

جلست هوني بجواره ، وقالت :

- أنا باكرر اعتذاري مستر ناجي .. إنت بأيت تقريبًا واحد من المجتمع الإسرائيلي ، وفهمت كويس إحنا عايشين إزاى .. تقدر تقوللي إيه شعور واحد عايش محاصر بالكراهية والعداء .. خايف ينام يلاقي صواريخ بتنزل فوق دماغه من كل حتة .. حماس بتهددنا وحزب الله بيهددنا والجيش السوري وإيران .

- إنتوا اللي حطيتوا نفسكوا في الموقف ده .. عمالين تبنوا في مستوطنات وتشردوا في الناس ، وعاوزين تعيشوا في سلام !!

- إحنا بندافع عن نفسنا .. عن وجودنا .. إحنا ماحاربناش من 73 ومن يوميها الشعب الإسرائيلي نسي الحرب .. كأننا ما صدقنا نعمل سلام مع مصر والأردن ..

Ahmed Mady

وجرينا كلنا على فكرة السلام .. وآدي النتيجة.. تِلْت الشعب الإسرائيلي كان عايش في المخابئ في 2006 لما حزب الله ضرب صواريخه على إسرائيل .. بأينا شعب ناعم جبان .. وكل القوى حوالينا عمالة تسلح نفسها ، وإحنا قاعدين بنتفرج زي اللي مستني حكم الإعدام .

وأومأ الجميع برؤوسهم موافقين على ما تقوله هوني .. فقال روني :

- هوني بتتكلم صح يا مستر ناجي .

ورد عليه ناجي قائلًا :

- بقولكوا إيه ؟ إنتوا عاوزين تخلصوا ع القهوة اللي الحكومات والأنظمة السياسية بقالها 60 سنة مش عارفة تخلصه .. ما تفلقوش دماغي .. غير الحجر ده يا مزراحي ..

وانفجر الجميع ضاحكين ، وقد أحسوا براحة بعد مبادرة السلام ، التي حدثت بين ناجي وهوني .. ومال ناجي برأسه ، وهمس لهوني في أذنها :

- ماجيتيش ليه .. أنا أستنيتك إمبارح ؟!

وضربته هوني على يده بمداعبة ؛ حتى لا يلحظ أحد ما قاله .

* * *

في فندق دانييل .. كان الإسرائيليون يحتفلون بثورة يوليو .. كان الموقف يبدو غريبًا وكوميديًّا .. هل يحتفل الإسرائيليون بثورة عبد الناصر !! هذه هي السياسة .. ولذا لا يصدق أحد رجال السياسة .. كان الإسرائيليون يدخلون إلى قاعة الحفل بابتسامة ، لا تحمل أي معنى .. وناجي عطا الله يستقبلهم واقفًا بجوار السفير .. وقيادات إسرائيل كلها جاءت إلى الحفل .. وطلع ناجي عطا الله على المنصة لكي يلقي كلمة ، وبدأ خطبته .. باللغة العبرية .. فانفجروا ضاحكين .. ثم قال :

- أنا بعرف اتكلم عبري كويس .. إنما عشان دي حفلة ثورة يوليو .. أنا ح اتكلم عربي .. ومتهيألي إنكوا بتفهموا اللهجة المصرية كويس.. السفارة المصرية

Ahmed Madv

وسعادة السفير بترحب بيكم وبتشكركم على حضوركم .. معلش أنا مش واخدع الكلام الكبير بتاع الخُطب والتصريحات .. إنما أنا اللي عامل الحفلة دي من الألف للياء .. عامل لكوا شوية فول بالقوطة .. ح تاكلوا صوابعكوا وراهم .. الأكلات مصرية والغنا مصري .. يعني باختصار هي ليلة مصرية .. أتمنى إنكوا تتبسطوا معانا .

ونزل ناجي من على المنصة ، وهم يصفقون له بحرارة .. كان الصحفي سراج واقفًا بالحفل .. فاقترب ناجي منه .. قال له سراج :

- إيه ده يا ناجي بيه .. إنت طلعت إعلامي جامد قوي !!

- عليا النعمة ما كنت عارف أنا بقول إيه ؟ هما كانوا فاهمين حاجة ؟

- آه طبعًا .. أمال كانوا بيسقَّفوا ليه ؟!

- هما ما سقفوش إلا لما قلت فول بالقوطة !!

وضحك سراج وانطلق في الحفل يلتقط صورًا لبعض الموجودين .. وذهب ناجي إلى إسحق هلليـڤـي ، مدير بنك بارليـڤ وهو يقدم له كوبًا من الخروب :

- مستر هلليـڤـي .. امسك شوية خروب بأة يستاهلوا بُقك !!

- إيه خروب ده ؟!

- اشرب بس .. اشرب .

أخذ هلليـڤـي يتذوق الخروب باستمتاع .. وقد ساد الحفل جو ودي .. وبرغم ذلك .. كان شيئًا ما زائفًا ومصنوعًا يشعر به أي إنسان إذا حضر هذا الحفل .. وبينما كان ناجي عطا الله مندمجًا تمامًا في نكاته وأحاديثه ونوادره ، التي لا تنتهي مع الإسرائيليين الموجودين بالحفل .. اقترب منه أحد رجال السفارة المصرية (محسن) ، وفي يده تليفون ، وقال له :

- ناجي بيه .. التليفزيون المصري عاوزين يتكلموا مع سعادتك ع الهوا .

- بخصوص إيه ؟!

- بخصوص موضوع جمال بيه .. والحفلة .

Ahmed Madv

أخذ ناجي يتحدث في التليفون :

- آلو .. آلو !!

سأله المذيع :

- ناجي بيه .. الشارع المصري ملتهب ورافض تمامًا لفكرة إقامة حفل ، يجمع بين المصريين والصهاينة .. في وقت تتكرر فيه الاعتداءات الوحشية الإسرائيلية على الشعب الفلسطيني .. إيه رأيك ؟!

رد عليه ناجي بسرعة :

- شوف يا أستاذ .. الشارع الإسرائيلي هوه كمان ملتهب ورافض تمامًا لإقامة الحفل .. بس أنا عاوز أأكد على حاجة مهمة .. احتفالنا بثورة يوليو هنا في قلب تل أبيب .. وعلم مصر مرفوع قدام الكل دليل على قوة مصر.. وأنا بكلمك أهوه من الحفل والأغاني الوطنية إنتوا سامعينها .. ناصر يا حرية .. ناصر يا وطنية .. إحنا بنعمل اللي إحنا عاوزينه هنا .. وبعدين السفارة بتاعتهم عندكوا في مصر ولا حد بيعبرهم ولا بيقولهم إنتوا فين ؟ إحنا كبار قوي .. والإسرائيليين بيعملولنا ألف حساب .

ويسأله المذيع :

- أستاذ ناجي .. هل ستحضر السفارة المصرية الحفل السنوي ، الذي تقيمه إسرائيل والذي تسميه عيد الاستقلال ، بينما هو عيد النكبة وعيد الاغتصاب للأراضي الفلسطينية ؟!

- عيد الاستقـلال إيه ؟ هما دول بيعملوا حفلات .. دول كل حفلاتهم عياط ولطم على اللي ماتوا منهم في الحروب .. دول بيطلعوا القرافة .. إحنا ماجيناش هنا إلا بعد ما الجيش المصري إداهم على دماغهم في 6 أكتوبر ، وأرجو إن الرسالة تكون وصلت .

* * *

Ahmed Madv

كان يوسي كرمي يشاهد التليفزيون المصـري ، وهو في قمة الضيق .. ثم رفع سماعة التليفون ، وكلم مشتيـف مدير الشاباك .. وقال بنفاذ صبر :

- آلو .. أيوه يا فندم .. سمعت اللي قاله ناجي عطا الله في التليفزيون .. لازم يكون فيه رد من الخارجية الإسرائيلية ، وناجي عطا الله ده لازم ينطرد من إسرائيل .. اللي حصل ده إهانة .. إهانة لإسرائيل ولشعب إسرائيل ..

بعد أيام قليلة .. كان ناجي قد تلقى استدعاء من إدارة مصـر في وزارة الخارجية الإسرائيلية بعد تصريحاته الأخيرة .. التي ضايقت بعض المتشددين في إسرائيل .. وذهب ناجي إلى إدارة مصر بالخارجية الإسرائيلية .. حيث كان في انتظاره زئيـف جدعون ، مدير المكتب ، الذي رحَّب به بكياسة تليق بدبلوماسي ، وقال له .. بهدوء :

- أولًا .. لازم سيادتك تعرف إن إدارة مصر في الوزارة هي أهم إدارة عندنا، والسياسة الإسرائيلية يهمها بشكل كبير استمرار التعاون معاكوا .. وتلطيف الأجواء دايمًا .

- وإيه بأة اللي عكر الأجواء يا مستر جدعون ؟!

- يعني .. بعض العبارات حضرتك قلتها في الحفل .. كانت قاسية شوية ، وسابت ردود أفعال مش لطيفة في الجو العام .

بدأ ناجي يفقد أعصابه .. وقال :

- إحنا لوح نقف لبعض ع الكلمة مش ح نخلص .. أجيب لك عبـارات وجمـل زي الزفت ، قالوها سياسيين إسرائيليين عن مصر .. وبيقولوها كل يوم .

- أنا مش عاوز سيادتك تنفعل .. أنا أصريت إن لقاءنا يبأة ودي ، عشان أعبر لك عن وجهة نظر أكيد تهمك .. ويمكن تخليك أكتر حرصًا بعد كده في تصريحاتك .

- أنا عارف كويس بأقول إيه يا مستر زئيـف .. أنا ماباهرتلش !!

Ahmed Madv

- عمومًا الموضوع ده خلص خلاص ، إحنا عاوزين نتكلم في موضوع تاني خالص .

- موضوع إيه ؟!

- ح تسمح لي بس ينضم لنا اتنين تانيين ؛ عشان يشتركوا معانا في النقاش ؟

وانفتح باب أكورديون في مكتب زئيف ، ودخل يوسي كرمي ومشتيـف مديره بالشاباك .. قال زئيـف جدعون ، وهو يقدم مشتيـف لناجي :

- مستر مشتيـف باولا .. مدير إدارة الشاباك .. أمن الدولة .

ثم أشار نحو يوسي ، الذي كان ينظر لناجي بغل ، وقبل أن يقدمه زئيـف .. قال له ناجي مقاطعًا :

- الرائد يوسي كرمي من أمن الدولة .. عارفه كويس !!

قال مشتيـف :

- إحنا بنعتذر يا مستر ناجي في البداية لأننا تعبناك معانا .. إحنا بس عاوزين تفسير لشبكة العلاقات الكبيرة اللي إنت عاملها في تل أبيب .

- وبتسألوني أنا ليه ؟ أنا راجل ليا شعبية والناس بتحبني .. ما تسألوهم هما ..

سأله يوسي :

- ممكن أعرف سبب ترددك على سوق الكرمل .. بشكل مريب ؟!

رد عليه ناجي بضيق :

- واحـد عـازب وعايـش لوحـده أمـا يحـب يجيـب خضـارح يجيبه منـين ؟ من الأجزاخانة !! وعاد يوسي يسـأله ، كأنه يحقق معه :

- وشفناك واقف بتتكلم مع واحد اسمه مصعب أبو الجدايل ، عنده كشك في السوق .. إيه علاقتك بيه ؟!

- أنا ما عرفش حد اسمه مصعب أبو الجدايل !!

Ahmed Madv

ثم التفت نحو يوسي ، موجهًا إصبعه إليه بكل عصبية :

- اسمع .. إنت مرة جيت لي البيت الساعة واحدة بالليل .. وكنت عاوز تدخل بالعافية ، وأنا عديت الموضوع ومارضيتش أعليه .. لكن أقسم بديني .. أفضحكوا في الدنيا كلها .. إنت تحترم نفسك وتعرف بتكلم مين ؟!

قال مشتيـف ليوسي كرمي :

- اسكت خالص .. أنا باكرر اعتذاري يا ناجي بيه .. وأرجوك تقبله .. كرمي .. سيبنا واتفضل إنت .

خرج كرمي ، وهو ينظر لناجي نظرة كلها كراهية .. فقال ناجي معقبًا :

- أهي النوعيات دي بأة اللي ح توديكوا في ستين داهية .. ده لو كان عندنا في مصر ، كان أتوقف .. كان قعد في بيتهم .

أخرج مشتيـف ورقة من جيبه ، وقدمها لناجي ، وقال :

- ده رصيد حسابك في بنك بارليـف !

- وإنتوا بأي حق تطلعوا على حساباتي ؟!

- مستر ناجي .. حسابك في البنك ضخم جدًّا .. ولا يتناسب إطلاقًا مع دخلك الشهري .. من حقنا نسأل عن مصادر الفلوس دي ؟

هنا فقد ناجي أعصابه تمامًا ، وقام وأخذ يصرخ فيهم :

- محدش في الدنيا من حقه يسألني عن مصادر فلوسي .. وأنا ح اسحب كل أرصدتي وح احولها لبنك تاني خارج إسرائيل .. فيلم سخيف وأهبل .. مصادر فلوسي اللي في البنك .. وقابلت واحد اسمه مصعب أبو الجدايل في السوق .. وطبعًا ده ح يطلع من المقاومة .. أبأة بامول العمليات اللي بيعملوها الفلسطينيين .. ويمكن أكون أنا اللي ورا عملية قتل وزير السياحة كمان .. اسمع يا مستر مشتيـف ..

Ahmed Madv

شغل العصابات ده لا يليق بدولة إذا كنتوا عاوزين تبأوا دولة .. وأنا مش ح اسكت على اللي حصل ده !!

ثم صفع الباب خارجًا في غضب مهددًا متوعدًا ، بينما كان مشتيـف ينظر إلى زئيـف .. وكان كل منهما مندهشًا من رد فعل ناجي العنيف المفاجئ .

* * *

في بنك بارليـف .. كان إسحق هلليـڤـي ، مدير البنك ، يحاول أن يهدئ ناجي ، الذي كان في قمة الغضب والعناد والإصرار :

- فيه إيه يا مستر هلليـڤـي .. إنت عمال تلف وتدور ليه ؟ أنا عاوز أسحب رصيدي كله من البنك .. أنا حُر .

قال هلليـڤـي :

- طبعًا إنت حر مستر ناجي .. إنما كان لازم تديني خبر عشان أجهزلك الحساب .. فجأة كده !! ده مش ينفع .. صعب .. طيب إيه اللي حصل بس مستر ناجي .. إنما إنت ليه فجأة زعلت من بنك بارليـف ؟!

- عشان البنك اللي يسرب رصيد عملائه لأي جهة ، مهما كانت ، يبأة بنك غير أمين.

- لأ .. إزاي تقول كده مستر ناجي .. بنك بارليـف أكبر بنك في الشرق الأوسط .

اقترب ناجي منه ، ونظر بعمق في عينيه ، وقال له :

- اسمع يا مستر هلليـڤـي .. ح تجيبوا فلوسي إمتى ؟!

- معرفش يا مستر ناجي .. أنا عندي أوامر من جهات عليا بتجميد أرصدة حضرتك ، لغاية ما يدوني أمر بإني أفتح الحساب مرة تانية .

نزلت مفاجأة تجميـد الرصيد فوق رأس ناجي كالصاعقة .. فصرخ في هلليـڤـي قائلًا :

- يجمدوا أرصدتي أنا ؟ لأ .. ده أنا صايع .. ده أنا أولع لكوا في تل أبيب كلها .. إلا فلوسي .

Ahmed Madv

ودخل الفرّاش بالقهوة ، فقلب ناجي الصينية في وجهه ، وخرج غاضبًا ، وهو يصرخ ، وقد فقد أعصابه تمامًا :

- أنا ح أطربقها على دماغكوا كلكوا .. ح أعرفكوا مين ناجي عطا الله يا حرامية يا ولاد الكلب !!

* * *

في مكتب السفير المصري بتل أبيب .. كان السفير يعاتب ناجي ، ويلومه لومًا شديدًا على ما فعل .. قال له السفير :

- إنت يا ناجي !! ده أنا باضرب بيك المثل في الانضباط وضبط النفس .. الصحافة مسمِّياك الدبلوماسي البلطجي .. ومش عارف أرد أقول إيه؟!

- سيادتك عارف إنهم بيستفزوني بقالهم فترة ، وماكانش ممكن أسكت المرة دي .. وأنا مش عاوز تدخل دبلوماسي ولا عاوز السفارة تدافع عني .. سيبني أنا وهما يا سعادة السفير .. أنا ح اعرف إزاي بأة ألعب معاهم ..

قال السفير بضيق :

- ناجي بيه .. أنا يؤسفني أبلغك إن السفارة استغنت عن خدماتك .

ومرت لحظة صمت ، لم يكن ناجي قادرًا على استيعاب جملة السفير الأخيرة .. لم يكن يتصور أن تتخلى عنه السفارة المصرية في هذه المحنة الصعبة ، ولكنه تمالك أعصابه .. وقال :

- ماشي يا معالي السفير ..

- تحب نحجز لك على طيارة النهاردة .. ولا بكرة الصبح .

- لا النهاردة ولا بكرة يا جناب السفير .. أنا قاعد مش ماشي .. أدينا اترفدنا أهوه من الشغل وروقنا لهم .. وقاعدين على قلبهم لطالون ..

* * *

Ahmed Madv

في مقهى ومطعم كليوباترا كان ناجي ، جالسًا يشرب الشيشة في زهق ، ومزراحي معه وعوفاديا السماك .. ومزراحي يحاول أن يواسيه في محنته :

- مش يعملتوا في نفسك كده ناجي بيه .. لا يمكن فلوس بتاع إنت يروح أبدًا .. لازم فيه وشاية ، وهما أكيد حيتأكدوا إنك إنت صاغ سليم .

- عليّا النعمة لأدفعهم تمن اللي عملوه ده غالي قوي يا مزراحي .. حأخد فلوسي على داير مليم بالفوايد .. وبالتعويض كمان .

- بس مين يعملتوا فيك كده .. إنت كل تل أبيب يحبك .. ويعرفك كويس ؟

- اللي عمل كده أنا عارفه .. مش ح أسيبه .. أصل البلد دي قامت ع البلطجة ، وأنا ح أبلطج لهم .. الظاهر هما ما بيجوش إلا بكده ..

- أنا أعرف واحد محامي كبير مستر ناجي .. يرفع لك قضية ع البنك ، ويجيب لك الفلوس بتاع إنت ، وإنت قاعد في بيت .

- وأنا ح أدورع المحامين يقلبوني هنا كمان يا مزراحي !!

- ده مش ياخد منك أتعاب .. ده يبأه ابن أخويا .. أنا اللي مربيه ده ابني .. هو يرفع قضية ، وبعد ما يكسب القضية .. ياخد هو نسبة من التعويض .

- إذا كان كده .. ماشي .. مكتبه فين ده ولا نروح له فين ده ؟!

في شارع اليعازر بن يهودا ، كان ديـڤـيد مزراحي المحامي جالسًا على مكتبه .. أشقر الشعر .. أزرق العينين .. يبدو على ملامحه الذكاء الحاد ..

قال ديـڤـيد مبتسما لناجي عطا الله :

- مستر ناجي .. أنا مش عاوزك تقلق .. أنا قريت الملف كويس .. موقفك مطمأن تمامًا.

- أنا مش عاوز فلوسي بس .. فلوسي بالفوايد .. بالتعويض .. برد شرف .. برد اعتبار .. باعتذار رسمي .

Ahmed Madv

- حضرتك ح تعمل لي توكيل ، وأنا ح ابعت إنذار للبنك علطول ، والموضوع ح يخلص في خلال أيام .. بس أنا عاوزك تهدا وتطمن خالص .. حقك ح يرجع لك .

- هما دول فيه حق رجع معاهم !!

- لازم تعرف يا مستر ناجي إن السياسة شيء .. والقانون شيء تاني خالص .

- وتفتكر القضية ح تاخد وقت كبير ؟ .. أصل إنتوا قضاياكوا بتطول .

- لأ مستر ناجي .. أنا أوعدك إنك ح تاخد حكم لصالحك من أول جلسة .

* * *

صارت قصة ناجي عطا الله .. حديث كل الأوساط في إسرائيل .. في البيوت .. والمقاهي .

وفي مقهى ومطعم كليوباترا ، كان مزراحي يضع القهوة أمام سراج الصحفي ، بينما كان صوت عبد الوهاب في الراديو يملأ المكان ، وهو يغني «فين طريقك فين» .. وقال سراج :

- هوه مستر ناجي مش جاي النهاردة ولّا إيه يا مزراحي !!

- لا يا حبيبي .. جاي .. بس هوه النهاردة عنده جلسة في المحكمة .. النهاردة ح ياخد حكم لصالحه .

- دي رابع جلسة يحضرها وبيأجلوها .. ما كنت تشوف له محامي عدل يا مزراحي .

تضايق مزراحي ، وقال مدافعًا عن ابن أخيه :

- محامي عدل !! مستر ناجي معاه أحسن محامي في تل أبيب كلها .. ديڤيد مزراحي دارس قانون في فرنسا .

- غريبة .. أنا ما سمعتش اسمه قبل كده يعني !!

- إزاي مش يسمع اسمه مستر سراج .. ده معروف هنا كتير .. كمان ده يبأة ابن أخويا .

Ahmed Madv

- ما تقول كده من الصبح يا عم إيلي !!

ودخل ناجي عطا الله ، وهو في قمة الضيق .. فقال سراج :

- آه .. أهو وصل ناجي بيه .. طمنّا عملت إيه في المحكمة .. نقول مبروك !!

قال ناجي محبطًا :

-إتأجلت برضه .

وترك مزراحي المكان ، في شعور بالذنب ، فهمس سراج لناجي :

- اسمع يا ناجي بيه .. أنا رأيي القضية دي مالهاش نهاية ، وممكن تقعد أكتر من ستين سنة كده من غير ما تتحل .. وح تقعد كده رايح جاي من غير فايدة .. قضيتك عمرها ما ح تتحل بالشكل ده ؟!

- أمال ح تتحل إزاي ؟!

- مفيش غير إنك تفضحهم .. نعمل لك مؤتمر صحفي كبير ، ونجيب وكالات الأنباء والمحطات التليفزيونية ، ونبين للعالم كله إنهم لصوص وحرامية .. ده اللي ح يحرك القضية .

- وإنت شايف إن العالم عنده دم قوي يا سراج .. ما الدنيا كلها عارفة بلاويهم ، والإعلام عمال يزعق ويصوت ويلطم .. والعالم عامل ودن من طين ، وودن من عجين .. إنت بتتكلم في إيه ؟!

- الموضوع ده لازم يكبر وياخد صفة سياسية .. ومصر لازم تتدخل وتضغط ..

- يا عم سيب مصر في حالها .. مصر مش ناقصاني أنا كمان .

- طيب وح تعمل إيه يا ناجي بيه ؟!

- مش عارف يا سراج .. والله ما عارف ..

Ahmed Madv

وشرد ناجي بعينيه بعيدًا متأملًا البرج الذي فيه البنك أمامه .. والعمارة التي بجوار البنك .. طولهما متقارب تقريبًا .. الحراس يروحون ويجيئون أسفل البنك ، وشعر أنهم عصابة من اللصوص سرقوا أمواله .. وها هم يحرسونها .

* * *

في مكتب ديـڤـيد المحامي ، كان ناجي جالسًا .. لقد أرسل له ديـڤـيد ، وقال إنه وجد حلًّا لمشكلته .. وكالعادة كان ديـڤـيد يتكلم بعقل وحكمة .. لا تروقان لناجي في الموقف الراهن :

- مستر ناجي .. أنا لقيت لك الحل .. عشان كده أنا بعت لك.. أنا روحت قعدت مع مدير البنك مستر هلليـڤـي و المستشار القانوني للبنك .. الحقيقة الناس متعاطفين معاك جدًّا .. مستر هلليـڤـي بالذات بيعتز بصداقتك .. إنما هوه مفيش في إيده حاجة يعملها .

- يا سيدي كتر خيرهم .. المهم وصلت معاهم لإيه ؟!

قال ديـڤـيد ممسكًا بورقة .. ويريها لناجي :

- هما مستعدين يدفعولك 20٪ من حسابك في البنك كاش .. وفورًا .

- 20٪ وبقية فلوسي .

- حتاخدهم طبعًا .. إنما مش دلوقت .. لما تحريات الشاباك تنتهي لصالحك .. حتاخد بقية فلوسك .. وبعد كده ح نرفع قضية على الشاباك .. قضية رد اعتبار وح نطالب بتعويض .. هما بس ليهم طلب عندك !!

- هما مين ؟!

- إدارة البنك يعني !!

- هما كمان ليهم عندي طلبات .. مش كفاية الفلوس اللي عندهم !!

- هما يعني شايفين إننا ما دام بدأنا نحل الموضوع وديًّا .. يبأة إنت لازم تتنازل عن القضية في المحكمة .

Ahmed Madv

- قول كده بأة من الصبح .. عاوزيني أتنازل عن القضية علشان يدوني 20٪ من حقي .. إنت شايف إن ده عدل يا مستر ديـڤـيد !!

جلس ديـڤـيد على مكتبه .. ثم قال لناجي بهدوء قاتل :

- مستر ناجي .. ما تنساش إن أنا المحامي بتاعك .. ده عرض معروض علينا .. نقدر نقبله ونقدر نرفضه.. إنما واجبي إني أعرضه عليك .. لأن العرض ده نفسه ممكن بكرة يكون مش موجود ، وساعتها ح تلومني وتقوللي كنت عرضت عليا يا ديـڤـيد .. أنا أكلمهم حالًا وأقول لهم إنك رفضت العرض ، وإن القضية ح تفضل شغالة .. نوبروبليم .

وذهب ديـڤـيد إلى التليفون .. رفع السماعة يكلم مدير البنك :

- آلو .. مستر هلليـڤـي .. أنا ديـڤـيد مزراحي المحامي .. أنا قاعد أهوه مع مستر ناجي عطا الله .. وعرضت عليه عرض البنك .. وهو في الحقيقة .....

كان ناجي ينظر إلى ما يحدث .. ويشعر أنها مهزلة يجب أن تنتهي .. فقاطعه قائلًا وبسرعة :

- موافق !!

نظر ديـڤـيد نحوه باندهاش ، وناجي يؤكد ما قاله :

- مواااافق .. قول له موافق يا مستر ديـڤـيد .

* * *

في مقهى ومطعم كليوباترا ، كان ناجي جالسًا يشرب الشيشة باستمتاع ، وأمامه زجاجة بيرة .. يبدو سعيدًا متفائلًا ، وبجواره يجلس سراج ، وهو في قمة الضيق .. قال له سراج :

- يا ناجي بيه .. تسيب 80٪ من فلوسك وتتنازل عن القضية !!

- ومين قال إني ح أسيبهم .. أصل العالم دي بالها طويل .. وأنا كمان لازم يكون بالي أطول .. مالهم العشرين في المية .. وحشين !!

Ahmed Madv

دخل مزراحي ، ووضع مشروبًا على المنضدة ، وتدخل في الحديث قائلًا :

- اللي عمله ناجي بيه عين العقل .. وما تنسوش كمان إن ديـڤـيد ابن أخويا هو اللي عمل الدِّيل .

- ما هو أخد أتعابه يا مزراحي .. إنت ح تعملها بجميلة !!

قال مزراحي ضاحكًا :

- بس شاطر ديـڤـيد .. ما تنكرش ناجي بيه .

وترك مزراحي المكان ذاهبًا إلى أحد الزبائن .. بينما همس سراج لناجي :

- مش عارف يا ناجي بيه .. إنما ده بيأكد لي ليه الشعب المصري كله ضد التطبيع .. الناس دي مايتعاشروش ، ولا يمكن نآمن لهم أبدًا .

- شوف يا سراج .. أنا أول قرشين عملتهم في حياتى حطيتهم في الريان .

- وراحوا عليك برضه .. ده إنت موعود بأة !!

- أنا الوحيد اللي أخدت فلوسي كاملة على داير مليم من الريان .. ما تخافش عليّا .. أنا حقي لو في بُق السبع ح أجيبه .. إحنا حقنا ضايع ، عشان أساسًا واقعين في بعض .. إنما لو كلنا إيد واحدة ، ماكانش حالنا بأة كده .

- معاك حق يا ناجي بيه .. سلام .

ومضى سراج خارجًا .. وناجي يشد أنفاس النرجيلة ، وهو يفكر بعمق ، ثم هتف بمزراحي :

- ما تغير يا مزراحي الحجر ده .. نفسي أتقطع .. أمال رافي فين ؟ بقالي فترة ما شفتوش .

- رافي .. دخلتوا مستشفى .. عمل عملية خطيرة في القلب .

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. ومحدش يقوللي .. ده كلام يا مزراحي !!

- مارضيتش أشغلك يا ناجي بيه .. إنت كمان كان مشغول في مشاكل كتير .

Ahmed Madv

- وصحته عاملة إيه دلوقت ؟ أوعى يكون بيخلص .. ده أنا ليا عنده فلوس قد كده .

- ما تخافش مستر ناجي .. البني آدم بيموت ، إنما الدين عمره ما بيموت .

- يعني خرج من المستشفى ولا لسه هناك .. طمني !!

- لأ .. خرج وبأة تمام .

- أمال ما بيجيش ليه ؟!

- ظروفه المادية وحشة .. عليه ديون لناس كتير .. ومشاكل مع روني ميتال السمسار..كان واخد عليه شيكات قدمها للمحكمة .. رافي كان عندي إمبارح بيشتكيلي .. وكان بيعيط بالدموع .. حياته خلاص اتدمرت .

- وروني يعمل كده ليه ؟ ده قليل الأصل قوي .. مش قادر يصبرع الراجل !!

ودخل روني ميتال السمسار .. فقال ناجي :

- أهوه جه ع السيرة .. يا ريتنا افتكرنا ربع شيكل !!

- إيه مستر ناجي .. أنا عمال أكلمك في التليفون ما بتردش عليّا .

- أنا عامله سايلنت ؛ عشان مش عاوز أرد على حد .. إيه اللي إنت عامله مع رافي ده يا روني .. ده إنت طلعت واطي واطي يعني ..

- لا .. معلش مستر ناجي .. الحق عمره ما يزعل .. أنا صبرت عليه مرة واتنين وتلاتة ، وأنا مش يقدر يستنى أكتر من كده .. أنا عندي مصاريف .

- إنت عندك مصاريف .. ده إنت عمرك ما حطيت إيدك في جيبك يا راجل ..

- أنا كمان واخد على خاطري منك مستر ناجي .. يعني إنت لما يفكر يبيع الشقة .. يروح لحد تاني غير روني ميتال .. وأنا يعرف من برة .

- إنت عرفت .. ما إنت كنت ح تفطس لي في سعرها ، وأنا مش ناقص خسارة يا روني .. أنا خارج من بلدكوا ملط .. شطبتوا عليا يا ولاد الحرامية .

Ahmed Madv

- لا .. السعر اللي إنت تقول عليه أنا يشتري .

- إنت عارف الشقة جايبة كام .. قبل ما تتكلم ؟!

- عارف .. بس دي كلها مبالغات .. ساعة دفع الفلوس أمور كتير بتتغير .

- أهو شـوف بأة .. أهـو ده اللي خلاني ما أدورش عليك .. معنديش شقق للبيع يا عم .. غير لنا الحجر يا مزراحي .. أحسن دمي هو اللي اتغير ..

- إنت ناوي ترجع مصر إمتى يا مستر ناجي ؟!

- أول ما أبيع الشقة وأقفش فلوسي .. ح أمشي علطول .!

- الفلوس كلها تكون عندك النهاردة بالليل كاش .

- دولارات .. والمبلغ اللي إنت عارفه .. وما تقلبليش دماغي .

- حاضر مستر ناجي .. اللي تشوفه .

* * *

في بار قديم يبدو رديء المستوى ، يجلس به الساقطات والشواذ .. وآخرون .. جاءوا إلى هنا ؛ لكي ينسوا عذاباتهم .. فإذا بهم لا يذكرون إلا ما جاءوا لكي ينسوه .. الإضاءة خافتة .. مظلمة .. مثل كل البارات .. فالخمور لا تحب النور .. والجالس على البار .. يعطي ظهره للجميع ، فهو لا يريد أن يرى أحدًا .. ولا يريد لأحد أن يراه .. ورغم أن الخمر طقس مقدس بالنسبة للديانة اليهودية .. إلا أن من يأتي إلى هنا يريد أن يتوارى بعيدًا .. فهناك أزمة ثقة بين اليهود ودولة إسرائيل .. وأزمة الثقة هذه تعود إلى طبيعة الحياة الاجتماعية في الكيان الصهيوني .. وحسب قانون «العودة» يصبح المهاجر الذي يأتي إلى إسرائيل .. مواطنًا إسرائيليًّا فور مجيئه بصرف النظر عن سيرته الشخصية وماضيه الجنائي .. وتبعًا لذلك يأتي إلى إسرائيل .. أخطر المجرمين الدوليين .. والمزورين .. والمحتالين .. ولذا فشل المشروع الصهيوني في تحقيق وعده بالحياة السعيدة في إسرائيل .. فانهارت نفسيات عدد كبير من المواطنين ،

Ahmed Madv

وأصبح الكثيرون منهم بحاجة إلى العلاج في المستشفيات النفسية .. أو بالذهاب إلى هذا البار .. كان رافي دافيدوفتش جالسًا على البار يشرب حتى الثمالة .. حينما دخل ناجي عطا الله مبتسمًا واثقًا من نفسه .. إلى أن وصل إلى كرسي رافي على البار .. ثم جلس بجواره .. واضعًا يده على ظهره ، وقال :

- اصحى .. فوق !!

التفت رافي ليراه جالسًا بجواره :

- ناجي بك !!

- إيه يابني إنت .. تعيا وتخش المستشفى ومحدش يقوللي .. أعرف بعد ما خرجت .. وبعدين قاطع كده بقالك فترة .. أنا زعلتك في حاجة يا رافي .. ده إنت حبيبي !!

- أنا عارف مستر ناجي .. لكن أنا مكسوف منك .. إنت عمرك ما تخليت عني أبدًا .

- يا راجل ما تقولش كده .. إحنا ناس متحضرين .. ونقدر ظروف بعض .

- إنت إنسان كويس قوي يا مستر ناجي .. إنت ليك عندي فلوس كتير مستر ناجي .. أنا عارف .. إنما أنا ..

- أوعى تنطق .. إنت عبيط ولا إيه ؟ ده أنا لما عرفت اللي عمله معاك روني ميتال .. مرمطت بيه الأرض .. عاوز يسجنك .. الواطي الحقير !!

- أنا خلاص ح يخش السجن مستر ناجي .. المحامي قال لي إن مفيش أمل .. حاولت إني أخد سلفة من البنك عشان أسدد له .. البنك رفض يديني !!

- يغور البنك يا أخي على اللي فيه .. اللهي يولع .. شفت عملوا معايا إيه يا رافي ؟ عارف مين اللي ضرب فيا الإسفين ده ، وعمل الليلة دي كلها !!

- عارف .. عارف مستر ناجي ..

Ahmed Madv

- قريبك .. بتاع الشاباك .

- أرجوك مستر ناجي .. بلاش نتكلم هنا .

- ما تيجي نكمل عندي في البيت .. نتكلم براحتنا .. حتى هنا الخمرة مغشوشة .. زبالة .. إيه ده ؟ إديني يا بني الحساب .. كله .. أنا ومستر رافي .

دفع ناجي الحساب .. وأخذ رافي من ذراعه إلى خارج البار .

* * *

في بيت ناجي .. كان ناجي يفتح زجاجة ، ويصب منها لرافي ، الذي كان منهارًا تمامًا .. قال له ناجي بود :

- شوف يا رافي .. اللي عاوز يعيش سعيد في الدنيا دي .. ما يقعدش يحلم بالسعادة .. يعملها على إيديه .. أنا مثلًا ماتجوزتش لحد دلوقت ليه ؟ علشان عارف إني ماكنتش ح استحمل أي واحدة في الدنيا .. ولا هي كانت ح تستحملني .. ح أقضيها نكد بأة ؟ لأ .. أنا بعيشها لحظة بلحظة .. الثانية اللي بتروح ما بتجيش تاني يا رافي .

- معاك حق مستر ناجي .. معاك حق !!

- والله إنت بتصعب عليّا يا رافي .. من يوم ما عرفتك ، وعمري ما شفتك مبسوط .. غرقان في الكآبة .. ودي تبأة حياة يا راجل !!

- أنا ح أقولك سر مستر ناجي محدش يعرفه .. أنا لما دخلت المستشفى ماكونتش بأعمل علمية زي ما قالولك .. أنا حاولت الانتحار .. وأنقذوني في أخر لحظة .

- لا يا راجل .. ده إنت اتجننت .. تنتحر ليه ؟.. والولية اللي معاك دي ذنبها إيه تنتحر وتسيبها كده وحدانية ومُزة .. ده يلاغيها .. وده يبص لها !!

- أنا انتحرت علشان أسيبها مستر ناجي .

- لأ .. فهمني بأة .. أحسن كده الموضوع عاوز قعدة .. إيه الحكاية يا رافي ؟

Ahmed Madv

- آياليت بتخوني يا مستر ناجي ..

- ما تبقاش شكاك كده .. بتخونك إزاي بس ؟ ما تخرفش يا رافي !!

- أنا ما باخرفش يا مستر ناجي .. آياليت بتخونني .. هنا !!

وأشار إلى جيبه .. فقال ناجي مستفهمًا :

- بتخونك في جيبك .. إيه بتخنصر فلوس من وراك ولا إيه ؟!

أخرج رافي قطعة معدنية من جيبه في حجم زهر الطاولة .. وهو يظهرها لناجي الذي سأله :

- إيه ده ؟!

- ده دليل خيانتها بالصوت والصورة .

- الله .. إنت كنت حاطط لها كاميرات في البيت والّا إيه ؟!

- كاميرات إيه ؟ أنا رافي دافيدوفتش .. واحد من أعظم تلاتة في العالم في تطوير أجهزة المراقبة والإنذار .. الجهاز ده بيبعت موجات كهرومغناطيسية تخش أي مكان وتصور ، وتسجل كل حاجة بالصوت والصورة .

- البتاع الصغير ده ؟!

وأمسك به ناجي باندهاش .. مقلبًا إياه بين أصابعه :

- وده بيشتغل إزاي ؟ قصدي يعني عاوزين نشوف .. نتأكد يعني .. أصل لما بتاع قد كده يخرب البيت ، يعني لازم برضه نبأة واثقين يا رافي .. أصل لو كل زوج معاه واحد من ده ، إسرائيل كلها ح تولع في بعضها .

- إنت مش مصدقني يا ناجي بك .. فاكرني سكران وباخرف !!

- لا ، العفو يا رافي .. أنا بس ما باصدقش غير اللي باشوفه بعينيا .. ما يمكن كانت مجبرة .. هوه مين اللي كان معاها .. لا مؤاخذة في السؤال يعني ..

Ahmed Madv

- يوسي كرمي .. قريبها بتاع الشاباك .

- يوسي كرمي !! ده مش عاتق .. الله يخرب بيته !!

وأمسك ناجي بالقطعة المعدنية :

- بيشتغل إزاي البتاع ده يا عم !!

- أنا ح أوريك الجزء الأولاني عشان تتأكد .

أخرج رافي فلاشة من جيبه .. فتحها ووضع فيها القطعة المعدنية ، ثم هتف بناجي :

- هات لي اللاب توب بتاعك يا مستر ناجي .

- ما نشوفه ع البلازما الكبيرة دي عشان .. (يتدارك) قصدي عشان الصورة تبأة واضحة شوية .. دي سُمعة وأعراض ناس !!

وضع رافي فلاشة في اللاب توب ، ثم عمل وصلة مع الشاشة لتظهر الصورة على الشاشة ، كانت آياليت نائمة على السرير بقميص نوم ، ودخل يوسي كرمي يخلع القميص ، ويستلقي بجوارها .. ثم بدأ يقبلها .. بنهم ووحشية .. كان ناجي يتابع ذلك باستمتاع ، وقال معلقًا :

- آه .. هي آياليت وهو يوسي كرمي .

- مش قلت لك !!

- استنى بس .. مش جايز كان جاى يقول لها كلمتين في السريع وماشي .. خلينا بس نتفرج عشان ما نظلمش حد .. الصوت مش طالع ليه يا رافي ؟!

على الشاشة .. أخد يوسي كرمي آياليت من يدها ، وبدأ يقبلها .

- أهم ح يشتغلوا أهم .. بس دي بوسة إيد عادي يعني .. الحاجات دي مش عاوزة تسرع في الحكم يا رافي .

Ahmed Mady

لم يكن رافي قادرًا على الاستمرار في مشاهدة زوجته وعشيقها .. وحاول أن يغلق الشاشة .. بينما تمسك ناجي الذي بدا مستمتعًا بما يرى ، وقال له رافي :

- مش قادر .. كفاية .. كفاية !!

- استنى بس .. أصل بص لوش آياليت .. حاسس كده إنها بتعمل ده ، وهي من جواها رافضاه .. ليكون مهددها بحاجة .

كانت آياليت على الشاشة تحتضن يوسي كرمي بحب جارف ، ورافي يقول :

- دي رافضة يا مستر ناجي ؟ دي سافلة وحقيرة وقذرة .

كان ناجي مندمجًا متابعًا مع الشريط .. وفجأة انقطع الشريط .. بعد أن ضغط رافي على زر اللاب توب .. وانفجر في البكاء .. وأخذ يخبط على رأسه .. وأمسكه ناجي حتى لا يؤذي نفسه :

- ما تعملش كده يا رافي .. ح تموت نفسك .. الله !! دي ولية خاينة وراجل سافل .. تشوطهم بجزمتك .. إنت بتحبها يا رافي ؟!

وأومأ رافي براسه في استكانة وخضوع .. فقال له ناجي :

- يبأة مالكش عيش في البلد دي يا رافي .. لازم تسيبها .. لازم تهاجر .

- يا ريتني أقدر يا ناجي بيه .

- ح تقدر يا رافي .. تعالى نلعب بولة أنا وإنت .. والمرة دي أنا واثق إنك ح تكسب .

قام رافي وجلس على الترابيزة .. بينما أحضر ناجي حقيبة فتحها ، لتسقط منها رزم الدولارات ووضعها أمامه .. ورصها ، وكان رافي ينظر للدولارات بشبق ونهم .. قال ناجي ، وهو يخرج بعض الشيكات من ظرف :

- دول الشيكات اللي عليك ليّا .. بتاع 180 ألف دولار .. روني ميتال عرض عليّا إنه يشتريهم بميت ألف .. إنما أنا رفضت أبيعك لواحد حقير زي ده؟

Ahmed Madv

ونكس رافي رأسه في استسلام ، وعاد ناجي ليقول لرافي ، وقد أحكم قبضته عليه تمامًا :

- شوف يا رافي .. المبلغ اللي قدامك ده .. يسدد لك دين روني ميتال ، ويدفع لك فوائد قرض البنك والشيكات كمان .. ح أديهملك .. إيه رأيك ؟ مش لو عملت كده ح تقدر تسيب إسرائيل ، وتسافر وتبدأ من جديد ، وتعيش حياتك زي ما إنت عاوز .

- أنا مش قادر أصدق اللي بسمعه .. إنت بتتكلم جد مستر ناجي !!

- إنت عمرك سمعت مني كلمتين يا رافي .. أنا كلمتي واحدة طول عمري .

- لكن إنت ح تعمل معايا كده ليه ؟!

- ح أقولك يا رافي .. أنا ح أديلك ده كله ، وح أنقذك من السجن ، ومش طالب منك غير طلب واحد .. طلب صغير قد كِدَهوه .

- أنا تحت أمرك في أي حاجة مستر ناجي .

- أنا عاوز فلاشة .. فلاشة زي اللي في إيدك دي ..

- فلاشة .. بتاعة إيه ؟!

- فلاشة .. عليها السيستم الأمني اللي إنت مصممه .. لمبنى بنك بارليـڤ .. يرضيك يا رافي يا خويا تبأة فلوسي محبوسة جوه البنك .. وأنا قاعد برة ؟!

قال رافي ، وقد فهم بذكائه ما يجول بخاطر ناجي :

- مستر ناجي .. إنت أكيد مجنون !!

- أنا أعقل واحد ممكن تقابله في حياتك يا رافي !!

- إنت عاوز تسرق بنك بارليـڤ ؟ إنت كده بتنتحر !!

Ahmed Madv

- ما إنت حاولت تنتحر إنت راخر .. بس ببلاش .. إنت قدامك فرصة ذهبية .. تهرب فيها من السجن والاضطهاد والكآبة.. وتاخد لك كام ميت مليون دولار وتعيش ملياردير بعيد عن هنا .

- وح تدخل إزاي ؟!

- ح أدخل إزاي دي بتاعتي .. أنا عاوزك تقوللي بعد ما أدخل أمشـي إزاي ؟ إنت اللي عامل السيستم الأمني جوه البنك .. الوحيد اللي ح يقدر يعطله .. أنا عاوزها عملية نضيفة .. أخش أخد الفلوس وأخرج سُكيتي !!

* * *

أمام بنك بارليـف ، كان ناجي ماشيا بين البنك والعمارة المجاورة للبنك مشية منتظمة ، تعطي إحساسًا بأنه يقيس المسافة بين المبنيين .. مبنى البنك ومبنى العمارة المجاورة له .. كان يحمل حقيبة في يده .. حينما وقفت سيارة بجواره .. نظر ناجي خلفه متوجسًا .. ثم فتح الباب وركب السيارة .. حيث كان بها رافي دافيدوفتش .. وقد ظهرت حالته رثة للغاية ، وشرب كثيرًا .. فتح ناجي الشنطة الموضوعة على قدميه ، وبها رزم الدولارات .. نظر رافي نحو الدولارات .. بلهفة ونهم ، ثم مد يده المرتشية في جيب الجاكت ، وأخرج فلاشة صغيرة .. وأعطاها لناجي .. وضع ناجي الفلاشة في اللاب توب .. كان مكتوبًا على شاشة اللاب توب . Security System of Barlev Bank .. النظام الأمني لبنك بارليـف ، وأعطاه ناجي الحقيبة المليئة بالدولارات ، ونزل من السيارة .. ثم أشار إلى تاكسي متجهًا إلى مطار تل أبيب .. عائدًا إلى القاهرة .

* * *

Ahmed Madv

الفصل الثاني

أطول لحظة في حياة حسام هي تلك اللحظة التي يعود فيها بكل جسمه للوراء .. متأهبًا لكي يقفز قفزته .. مكر مفر مقبل مدبر معًا ، كما قال امرؤ القيس، وكأنه كتبها خصيصًا للكابتن حسام ذلك الشاب النحيف أسمر اللون فارع الطول مصري الملامح .. الكابتن حسام حمدي .. لاعب الوثب الطويل .. هو بطل مصر بالتأكيد .. وله تصنيف عالمي .. وببعض الإرادة يستطيع أن يكسر الرقم الدولي .. ثلاثة متر وستين في الوثب الطويل .. المليمترات هنا تفرق .. كل هذا كان يدور برأس حسام .. وهو يعود بجسمه استعدادًا للقفز .. لا شك أن بابا سيفرح جدًّا إذا فعلها .. ومصر كلها ستفرح .. وسيكرمونه بالتأكيد .. إذا سلم على الرئيس .. سيطلب منه الطلب الذي يعيش من أجل أن يحققه ..

- ليا عندك طلب يا سيادة الريس .

- قول يا كابتن .

- بابا بس يسافر يتعالج في الخارج .. على فكرة بابا رياضي قديم واخد بطولات .. وشرف اسم مصر .

- وماله .. يسافر يتعالج .

آه .. كل هذا متوقف على هذه القفزة التي هو قاب قوسين أو أدنى من أن يقفزها .. وانطلق حسام يجري .. ويجري .. ثم قفز قفزته الرائعة .. حتى صار

Ahmed Madv

طائرًا في الهواء .. هو وأحلامه وأمانيه .. ثم فجأة .. التوت ركبته .. وشعر بألم شديد .. حاول أن يقاوم واستمر مندفعًا بأقصى سرعة.. ولكنه.. لم يستطع .. سقط.. في منتصف الطريق .. وانفجر باكيًا وأخذ يضرب الأرض بيديه .. هذا ما كان يتذكره حسام ويمسح دمعة نزلت من عينيه .. حينما كان يعمل الشاي في المطبخ .. وحينما كان أبوه الكابتن حمدي المصري ، وهو رجل في الستين من عمره أو أقل قليلًا .. جالسًا على كرسي متحرك في الصالة يقرأ الجرائد .. ثم التفت إلى حسام الذي دخل بصينية الشاي ، بعد أن مسح دموعه ، وقال له بحنان أبوي بالغ :

- بأة هوه ده الكلام اللي مزعلك يا كابتن .. مفيش رياضي في الدنيا مارس الرياضة وما خسرش .. هوه فيه حد خد جوائز ولا عمل أرقام زي أبوك .

- يا بابا أنا مش زعلان إني خسرت .. أنا ماكنتش متدرب كويس وأستحق أخسر .

- أهو الاعتراف بالحق فضيلة .. دي بداية النجاح .. ما دام عرفنا غلطنا .. يبأة ح ننجح .. ما بتتدربش ليه بأة ؟!

قال حسام محبطًا :

- أنا زهقان يا بابا .. المناخ الرياضي كله مش عاجبني .. حاسس إن إحنا بننفخ في قربة مقطوعة .. محدش حاسس بينا .. الدنيا كلها مابتتكلمش غير في الكورة .. لما خسرت نازلين شتيمة فيا قدامك أهوه .. ولما اخدت بطولة العالم محدِّش عبرني .

* * *

في مكتب رئيس الاتحاد المصري لألعاب القوى ، كان الكابتن فتحي رئيس الاتحاد متعاطفًا معه إلى حد كبير .. قال له بأبوة :

- يا حسام يا ابني إنت خامة كويسة وجايب بطولة عالم قبل كده .. لما تقعد أكتر من شهر ماتجيش التدريب تبأة بتغلط في حق نفسك .. وحق مصر اللي بتلعب باسمها.

Ahmed Madv

- أنا عندي مشاكل كتير يا كابتن .. مش قادر أركز ..

- الراجل الرياضي لازم ينسى كل مشاكله ، ويركز في حاجة واحدة بس .. إنه يجيب ميدالية لبلده .

- أنسى أبويا يا كابتن !! اللي جايب ميداليات قد كده لمصر .. وقاعد دلوقت عاجز على كرسي .. طيب إنتوا نسيتوه .. عاوزيني أنا كمان أنساه !

- محدش يقدر ينسى الكابتن حمدي المصري يا حسام .. إنما .. العين بصيرة والإيد قصيرة .. العملية اللي الكابتن حمدي لازم يعملها ح تتكلف 450 ألف جنيه وميزانية الاتحاد كلها ملاليم .. إحنا بنغزل برجل حمار .

- يعني إنتوا عاوزيني أنط وأجيب ميدالية ، وأبويا مش قادر يمشي !!

- اسمع يا حسام .. فيه رجل أعمال معروف اسمه عبد اللطيف حجاج .. تسمع عنه !!

- طبعًا .. بتاع مصانع البسكويت .. مش ده اللي إدا اللعيبة بتوع الكورة كل واحد عربية .

- أيوه .. هو بيحب الرياضة جدًا .. وبيشجع الموهوبين اللي زيك .. أنا ح أكلمه .. وتروح له .. وأكيد هوه ح يعمل لوالدك العملية على حسابه .

* * *

في هول ڤيلا عبد اللطيف حجاج ، حيث التماثيل والتحف والنجفة الضخمة.. جلس حسام وأخذ ينظر حوله .. كانت صور عبد اللطيف حجاج مع لاعبي كرة القدم المشهورين معلقة على الجدران ...

وخرج سكرتير عبد اللطيف بيه ، وهتف بحسام :

- اتفضل يا كابتن .

أخذه السكرتير ، ودخلا إلى غرفة مكتب عبد اللطيف بيه ، الذي كان يكلم أحدهم في التليفون :

Ahmed Madv

- يا عم اسمعني بس .. هوه الكابتن طالب خمسة مليون .. والنادي عاوز يديله مليون ونص .. بسيطة .. قريبة .. أنا أدفع له الفرق من جيبي .. أحسن ما التانيين ياخدوه .

قال السكرتير معجبًا :

- أستاذ ورئيس قسم .

فقال عبد اللطيف :

- إمضوا بس معاه وابعتهولي ، وأنا ح أديله الباقي كاش من عندي .. سلام .

قال عبد اللطيف ضاحكًا في انتصار ، وهو يغني :

- أها .. أهوه .. قال إيه عاوزين ياخدوه ؟!

وعاد السكرتير ينافق عبد اللطيف بيه بكل وضاعة :

- يا سلام يا ريس .. والله إنت بتعمل معجزات .

- ولسه .. بعَت للكابتن شريف حسني العربية اللي كان نفسه فيها !!

- وصلت يا ريس .. الواد مش مصدق نفسه .

كانا يتحدثان ، وكأن حسام ليس موجودًا معهما .. قال عبد اللطيف :

- ما هو شريف ده كمان ح نشده راخر .. أنا بلاعبه ع الهادي .

- أستاذ ورئيس قسم يا ريس .

- شوف يا حبيبي .. أنا راجل لا ليا في خمرة ولا في نسوان ولا في أي كيف .. ماليش كيف غير الرياضة وبس .

وفجأة نظر عبد اللطيف نحو حسام مستغربًا ، وقال للسكرتير :

- مين الأخ ده ؟!

- ده حسام .. حسام المصري .

- بتاع إيه ؟!

Ahmed Madv

- ده اللي فتحي بيه كلمك عليه .

- فتحي بيه ؟ وده بتاع إيه هوه راخر !!

- رئيس اتحاد ألعاب القوى .

- آه .. آه افتكرت .. تعالى يا حبيبي .. إنت بتلعب إيه ؟

قال حسام :

- وثب طويل ؟!

- وثب طويل إزاي يعني ؟!

حاول السكرتير أن يشرح لعبد اللطيف لعبة الوثب الطويل .. وعبد اللطيف ينظر نحوه باندهاش .. ولا يفهم ما يقوله :

- يعني يا باشا مثلًا هو واقف هنا .. ويرجع لورا شوية ويقوم جاري لغاية هنا .. ويروح ناطط كذا متر لقدام .

- وزي ما تقطع معاه بأة .. 15 متر .. 16 متر .. ويقيسوا ويدولوا الدرجة .

قال السكرتير منافقًا :

- أستاذ ورئيس قسم .

نظر عبد اللطيف نحو حسام .. وقال له بجهل شديد :

- أنا أصلي مخي حلو في الرياضة .. أنا كنت في أمريكا ، وروحت أحضر ماتش اللي هو الرجبي ده بتاعهم .. كل واحد ماسك عصاية ، ويجروا ورا بعض ويناموا على بعض .. وبهدلة .. في الأول أنا افتكرته شغب ملاعب .. طلعت لعبة .. طلباتك يا كابتن ..

وانفجر السكرتير وعبد اللطيف يضحكان ، بينما كان حسام يزداد تأزمًا واكتئابًا :

- أنا الحقيقة ماليش طلبات يا عبد اللطيف بيه .. أنا والدي الكابتن حمدي المصري .

Ahmed Madv

قال عبد اللطيف مقاطعًا ، وهو يتنهد :

- بتاع إيه ؟!

- كان بطل وثب عالي بالزانة .

ونظر عبد اللطيف مرة أخرى للسكرتير لكى ينقذه :

- وثب عالي بالزانة !! ده إيه ؟!

- اللي هوه سعادتك بيمسكوا عصاية طويلة ، وينطوا بيها فوق .

- أيوه أيوه عارفها .. وإنتوا عيلة غاوية نط كده .. طلباتك إيه ؟!

قال حسام بمرارة :

- والدي كان اتصاب ، وهو بيتمرن وجاله .. بعيد عن سيادتك .. شلل .

وتنهد عبد اللطيف بافتعال :

- لا حول الله يارب .. وعاوز كرسي .. عندنا كراسي إحنا .. مش كده !!

- أيوه يا باشا .

قال حسام :

- لأ .. مش عاوز كرسي .. فيه دكتور في ألمانيا بيعمل العملية دي ، وبابا ممكن يمشي تاني على رجليه .

- والعملية دي تتكلف كام ؟!

- 450 ألف جنيه .. غير طبعًا نفقات السفر والمستشفى والإقامة .

قال عبد اللطيف في تأثر مفتعل :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. بس بأة أحسن أنا دمعتي قريبة .. امسك .. امسك يابو الكباتن .. ألف وخمسمية جنيه أهم ، ولف لك لفة كده على رجال الأعمال، واللي يطلع من ذمة كل واحد منهم ، وإنت ونصيبك .

Ahmed Madv

نظر حسام إلى الألف وخمسمائة جنيه باحتقار .. ويأس .. ثم نهض في ضيق ، وخرج من الغرفة ، وأغلق الباب خلفه .

نظر عبد اللطيف .. مندهشًا نحو السكرتير :

- هو اتضايق ليه الواد ده ؟ ده جزاتي إني باساعده .. صحيح .... إنت ما تدخليش حد من ألعاب القوى خالص .. مفهوم .. هوه بيلعب إيه قلت لي الواد ده ؟!

- وثب طويل .

- يتنيل على عينه .. باين عليه خايب .. أنا هرشته من مشيته .

قال السكرتير منافقًا كالعادة :

- أستاذ ورئيس قسم .

* * *

كان حسام جالسًا أمام التليفزيون ، وعلى الشاشة كان عبد اللطيف يتحدث بكل ثقة للمذيع قائلًا :

- أنا راجل رياضي طول عمري .. قلت لازم أشجع ولادنا اللي بيرفعوا اسم مصر ، عشان كده أنا بيعتبروني الأب الروحي لكل الرياضيين في مصر .

قال المذيع :

- بس يا أستاذ عبد اللطيف بعض النقاد بيقولوا إن اهتمامك كله مُنصب على نجوم كرة القدم ، وإن مساهماتك في الألعاب الأخرى شبه معدومة تمامًا .

- أهو ده كلام مش مظبوط خالص .. أنا مفيش لعبة ولا بطولة اتاخدت في مصر في أي مجال ، إلا وِبادعمها .. جودو .. كاراتيه .. فـوللي .. باسكيت .

- ما الـفـوللي هو الباسكت يا أستاذ عبد اللطيف !!

- بلاش .. عندك ألعاب القوى وأبو الكباتن معانا أهوه .. وأنا بأقول الكلام ده مش تفضل مني .. أنا خدام الرياضة .. كلمني قال لي فيه واحد عنده واخد بطولة في ال .. في ال .. في ال إيه يا أبو الكباتن ؟!

Ahmed Madv

قال رئيس اتحاد ألعاب القوة :

- في الوثب الطويل يا عبد اللطيف بيه .

فرد عليه عبد اللطيف :

- الله ينور عليك .. الواد جاني وقاللي بابا عاوز يعمل عملية في ألمانيا ح تتكلف كذا .. روحت كاتب له الشيك .. الناس دي رفعت اسم مصـر .. ما نقدرش نتخلى عنهم ..

فرد رئيس الاتحاد :

- ربنا يباركلك يا عبد اللطيف بيه .

- وغيره وغيره وغيره .. ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط .

وألقى حسام بكوب الشاي فانكسر .. ثم أمسك بالتليفون في عصبية وطلب البرنامج .

داخل الأستديو ، كان عبد اللطيف حجاج جالسًا مع المذيع والضيوف ، يتلقى التليفونات من المشاهدين :

- آلو .. مساء الخير .. أحمد حجازي من الوراق .

- مساء الخير .. اتفضل حضرتك يا أستاذ أحمد .

- أولًا .. أنـا عـاوز أقـول كلمـة حـق .. الراجـل ده .. عبد اللطيف حجاج .. أنا لا أعرفه ولا عمري قابلته .. ولا ليّا معاه مصلحة .. إنما اللي عمله للرياضة وللرياضيين محدش عمله .. ده راجل محترم .. أنا أسمع إنه فاتح بيوت ناس رياضيين ، محدش حاسس بيهم ولا معبرهم .

قال عبد اللطيف بتواضع زائف :

- لا .. كفاية كده .. أرجوك .. ما تضيعش ثوابي بأة !!

- لأ .. سيبوني أتكلم .. أنا لو قعدت أحكي من هنا للصبح على اللي بيعمله الراجل ده ، الوقت مش ح يكفي .. الراجل ده لازم يتعمل له تمثال .

Ahmed Madv

ورد عبد اللطيف :

- لا .. أرجوكوا .. معلش .. اقطعوا الخط .. أنا معملتش حاجة .. إذا كنت وقفت جنب حد فرَّح 85 مليون مصري .. إذا ربنا جعلني سبب عشان أفرحه .. متهيألي تبأة حاجة بسيطة جدًّا ماتساويش اللي هو عمله .

وظهر السكرتير خارجًا من الكونترول .. كان هو الذي يتكلم منتحلا اسم أحمد حجازي ، ويشير لعبد اللطيف بيه بإصبعه أن كله تمام .. وعبد اللطيف يشير له بإصبعه هو أيضًا .

و قال المذيع :

- معانا تليفون تاني .. آلو !!

وإذا بحسام هو الذي يتكلم .. كان صوته ممتلئًا بالمرارة والغيظ :

- أنا حسام المصري بطل بطولة العالم العسكرية للوثب الطويل .. أنا باتصل عشان أقولكوا كفاية كدب.. كفاية نصب.. الراجل اللي عمالين تطبلوله وتطلعوه السما .. كداب .

وتغيرت ملامح عبد اللطيف .. ولم يعرف ماذا يقول .. كانت كلمة حسام مفاجأة كبرى بالنسبة له .. وورطة صعبة لن يخرج منها ، واستمر حسام يتكلم :

- أنا لاعب الوثب الطويل اللي روحت له لما رئيس الاتحاد بعتني ليه ؟ وعاملني كأني شحات ومادانيش حاجة .. ماكنتش طالب غير أنه يساهم في عملية جراحية لأبويا الكابتن حمدي المصري ، عشان يمشي على رجليه .

وانفجر عبد اللطيف ثائرًا ، وقال :

- الكلام ده محصلش .. ولا عمري شفته ولا سمعت اسمه .. التليفون ده دسيسة .. وأنا أرفض أتهان قدام الناس بالشكل ده .. دي قلة أدب .

Ahmed Madv

وقام عبد اللطيف من البرنامج ، وهو يسب ويلعن ، ويقسم أنها مؤامرة لتشويه صورته.. خارجًا من الأستديو في ضيق .. وهو يصرخ بأعلى صوته :

- الواد ده إيه اللي دخله في البرنامج .. إزاي تسيبوه يتكلم ! ... دافعين له فلوس عشان يشتمني ويشوه صورتي قدام الناس .

وفشلت كل محاولات الموجودين في تهدئة عبد اللطيف بيه ، راعي الرياضة ، الذي ضُرب في مقتل ، بعد مكالمة حسام له على الهواء مباشرة .

* * *

فتح حسام باب شقته .. ليجد أمامه أربعة رجال أقوياء ، بادره أحدهم بغلظة :

- إنت حسام المصري !!

- أيوه .

- تعالى عاوزينك ..

- إنتوا مين ؟!

وجذبوه بعنف خارج الشقة ، وأغلقوا الباب .

كان سكرتير عبد اللطيف واقفًا على السلم .. وما أن رأى حسام .. حتى أمسكه من ياقة قميصه ، وقال له :

- إنت ياد عامل لي فيها جريء ، وبتتطاول على أسيادك يا روح أمك .. إنت تشتم الباشا !!

حاول حسام أن يدافع عن نفسه .. ودارت معركة شرسة على السلم ؛ إذ انهالوا عليه ضربًا .. وهو يقاوم بكل شجاعة .. إلى أن طرحوه أرضًا .. وتركوه ومضوا ، بعد أن أشبعوه ركلا بأقدامهم ، وقال له السكرتير ساخرًا :

- دي اصطباحة بس .. لو ما لمتش نفسك بأة وحطيت لسانك في بُقك .. ح تتروق الترويقة الصح !!

Ahmed Madv

على السلم أمام الشقة ، كان حسام يحاول أن ينهض ولا يستطيع .. اقترب منه ناجي عطا الله ، وخبطه على كتفه مداعبًا .. ونظر حسام نحوه ، وهو لا يصدق عينيه ، حينما رأى ناجي عطا الله أمامه ، وهتف به فرحًا :

- ناجي باشا !!

ابتسم ناجي ، وفتح له ذراعيه ، وقال بحنان :

- إزيك يا حسام ؟!

وألقى حسام بنفسه في أحضانه وانفجر باكيًا .. تأثر ناجي كثيرًا حينما رأى الكابتن حمدي المصري .. على كرسي متحرك .. وسلم عليه بحرارة .. وقبله في رأسه .. وقال له بكل حب :

- إزيك يا أبو الكباتن ؟!

- والله يا باشا حسام ابني في سيرتك علطول .. يقوللي يا بابا أنا عمري ما شفت زيه في حياتي .. هوه اللي إداني الثقة وخلاني آخد الميدالية الذهبية ..

- ما هو ابني يا كابتن .. ده مش ابنك إنت وحدك .

* * *

في مطعم أنيق يطل على الأهرامات ، كان حسام وناجي يتناولان العشاء .. وقد حكى حسام لناجي كل شيء .. كل ما حدث له .. منذ أن افترق عنه ناجي عطا الله ، الذي قال له :

- عشان كده بأة كانوا نازلين فيك ضرب ..

قال حسام بتأثر :

- شفت بابا يا ناجي باشا ؟!

- ماله .. راجل زي العسل .

- أنا ممكن أعمل أي حاجة في الدنيا ، عشان بابا يرجع يمشي تاني على رجليه ..

Ahmed Madv

- ح يمشي .. ح يعمل العملية وح يمشي وح يجري وح ينط كمان .. اعتبر نفسك من اللحظة دي بتشتغل معايا .. ما تشيلش هم بأة ..

- ح اشتغل إيه يا باشا ؟!

- إحنا لما أخدنا بطولة العالم العسكرية .. رقمك كان تلاتة متر ستين .. إحنا عاوزين نوصل الرقم ده أربعة متر عشرين .. صعب ده يا حسام !!

اندهش حسام من سؤال ناجي عطا الله المباغت ، ولم يفهم تحديدًا ماذا يريد منه حقًّا .. هل أتى ناجي عطا الله ؛ لكي يوفر له فرصة عمل ، أم لكي يدفعه لكي يلعب في بطولة جديدة .. وعاد ليسأله :

- هوه إحنا ح نلعب في أنهي بطولة يا باشا ؟

- بطولة خاصة .. إنما أهم من كل البطولات اللي دخلتها قبل كده .. عاوزة تدريب جامد وعاوزة شغل .. مستعد يا كابتن !!

- أنا تحت أمرك يا ناجي باشا .

قال ناجي ، وهو يصدر أوامره ، كأنه عاد لأيام الميري ، فأغلظ صوته ، وكأنه يتكلم في الطابور :

- بكره تجهز نفسك عشان ح تيجي معايا شرم .. ستة الصبح تكون جاهز بشنطتك ياكابتن .. انصراف .

* * *

في منطقة الغوص بشرم الشيخ ، كان مدير الأوتيل واقفًا بجوار رجل أجنبي ، وبعض البودي جاردات ، وحالة من القلق والتوتر الشديد تسود الموقف ، ومدير الأوتيل يحاول أن يهدئ من روع الرجل ، الذي كان ينظر في ساعته ، وهو في قمة الذعر قائلا :

- Don't be worried sir, your wife with the best diver.

- 5 hours, 5 hours! What happened to her ?

Ahmed Madv

كانت زوجة الرجل قد نزلت للغطس .. ولم تعد .. خمس ساعات قد مرت دون أن يعثروا لها على أثر ، وتبددت بارقة الأمل حينما طلع ثلاثة رجال غطاسون ، وأشاروا للمدير أنهم لم يجدوا زوجة الرجل الأجنبي :

- ما لقيتهومش برضه !! أخدها وراح فين ابن المجنونة ؟!

وهمس أحدهم للمدير الواقف بجواره :

- هوه مش عارف دي مرات مين .. ده جوزها يقفل لنا الأوتيل .. ده عضو الكونجرس الأمريكي ده .. ومراته إسرائيلية يا محسن باشا !!

خبط المدير على رأسه قائلا :

- كمان !! الله يخرب بيتك يا إبراهيم .. ومالقيتوش غير ده تنزلوه معاها ؟!

- هوه الوحيد في الأوتيل اللي بيتكلم عبري كويس ، وهي شبطت فيه ؟

وأخيرًا تنفس المدير الصعداء ، حينما رأى إبراهيم آتيًا من بعيد على قارب صغير ، وبجواره امرأة جميلة ، ترتدى مايوه أزرق على كاش مايوه ، وكان يقول لها نكتة باللغة العبرية والمرأة منفجرة في الضحك .. نظر المدير نحو المرأة مستغربًا وقال :

- بس .. مش دي الست اللي نزلت معاه .. التانية كانت لابسة مايوه أصفر .

واقترب القارب ، وتهلل الرجل الأمريكي لرؤية زوجته ، وأخذها في أحضانه ، وهي سعيدة للغاية ، بينما اختلى المدير جانبًا بإبراهيم ، وهمس له :

- كنت فين يا حيوان ده كله ؟!

قال إبراهيم باستهتار ، كأنه لم يفعل شيئًا :

- ح أكون فين يا ريس .. تحت المية .

ضغط المدير على أسنانه ، وهو يكاد ينفجر غيظًا ، وقال وهو يزغده :

- تحت المية خمس ساعات يا إبراهيم !!

Ahmed Madv

أشار إبراهيم نحو المرأة الأجنبية بود ، وقال :

- دي .. دي بنت حلال مصفي .. ده ربنا كتب لها عمر جديد .. فيَّصت مني تحت المية ، وعملت لها تنفس صناعي .. الروح ردت فيها على أخر لحظة .

- وكنتوا بتعملوا إيه ده كله يا إبراهيم ؟!

- كنت باوريها الشعب المرجانية يا ريس .. وبعدين المدام أصلها غاوية قراميط .. كل ما تشوف قرموط بيلعب في المية تتهبل .. الظاهر معندهمش قراميط في بلادهم ..

أخذه المدير من ذراعه جانبًا بعنف ، وصرخ فيه :

- البحر الأحمر مافيهوش قراميط يا إبراهيم !!

قال إبراهيم باستعباط :

- يا راجل !!

- هي مش كانت نازلة المية معاك بمايوه أصفر .. المايوه اللي كانت لابساه راح فين يا إبراهيم !

- لا .. لا يا ريس .. أنا لا يمكن أقبل إنك تتهمني التهمة الحقيرة دي .. أنا أسرق مايوه على أخر الزمن .. أنا أمد إيدي على حاجة مش بتاعتي .

- إنت فاهمني كويس يا صايع .. الست غيرت المايوه فين وليه وإزاي ؟!

- يا ريس ما هي طالعة لابسة المايوه قدامك أهه وأخر احترام ، وجوزها استلمها .. ما تكبروش الموضوع !!

- المايوه كان أصفر !!

- أزرق يا باشا .

- لأ .. أصفر .

- ما يمكن إزرق في المية .. فيه مايوهات كده لونها بيغير !

Ahmed Madv

- التاني كان مايوه قطعة واحدة .. ده قطعتين !!

- مش أحسن ما تبأة نازلة بقطعتين ، وأرجعهالكوا بقطعة واحدة .

قال المدير منفعلا :

- الموضوع مش ح يعدي على خير.. دي مرات عضو الكونجرس الأمريكي .

- باشا .. هوه إنت زعلان قوي وشايل في نفسك كده ليه ؟ إنت بتغير على مرات عضو الكونجرس الأمريكي أكتر من عضو الكونجرس الأمريكي .. ما الراجل واقف مبسوط وزي الفل أهوه .. الراجل واثق في نفسه ، وواثق في مراته ، ودي الحتة اللي ناقصانا مع بعضينا يا ريس .. الثقة .

انتبه عضو الكونجرس فجأة إلى تغيير زوجته للمايوه ، فتوقف وأمسك بذراعها وسألها عن المايوه ، وهي تحاول أن تبرر في ارتباك واضح .

وشعر إبراهيم أن أمره قد انكشف .. ونظر عضو الكونجرس نحوه بضيق ، وقد تغيرت ملامحه تمامًا .. فانفلت إبراهيم وقفز في الماء.. هاربًا من المواجهة التي ستكون نتيجتها محسومة مقدمًا في غير صالحه ، وظل يسبح حتى وصل إلى شاطئ الأوتيل .. وخرج من الماء فوجد بعض السائحات الإسرائيليات ، يُشرن نحوه ، فابتسم لهن ، وظل يتكلم معهن بالعبرية بطلاقة .. لتنهال فجأة يد قوية على ظهره فصرخ مرتعدًا ، وقد ظن أنه المدير ، وقال له :

- والنعمة الشريفة جايالي بمايوه أزرق يا بيه .. أنا مستلمها كده !!

والتفت إبراهيم ليجد ناجي عطا الله واقفًا أمامه مبتسمًا فاتحًا ذراعيه ، وهو يهتف به :

- إزيك ياد يا إبراهيم ؟

وصرخ إبراهيم من الفرحة هذه المرة ، وألقى بنفسه بين ذراعيه :

- ناجي باشا !!

- إنت ح تُحضنِّي وإنت مبلول ياد يا إبراهيم !!

Ahmed Madv

فقال له إبراهيم ، وهو في قمة السعادة والفرح :

- يا باشا من المفاجأة .. مش قادر أتمالك مشاعري سعادتك .. أنا مش مصدق عينيا !!

- غير هدومك وتعالالي عاوزك .. أنا مستنيك على البيسين .

- حمامة يا باشا !!

وجرى إبراهيم إلى داخل الكابينة مسرعًا ، وهو يقذف ناجي بقبلاته ، وناجي يبتسم ويضرب كفًّا بكف ، عائدًا إلى الكافيتريا في الأوتيل ، حيث كان حسام بانتظاره .. أفكار كثيرة كانت تدور في رأس حسام ، لا يجد لها أي تفسير أو مبرر .. وجاء ناجي عطا الله .. جلس في هدوء .. وهو يدخن سيجاره الضخم .. صامتًا .. غامضًا كأنه يخفي أسرار الكون كله بداخله .. حاول حسام أن يكسر هذا الجليد المتراكم بينه وبين ناجي عطا الله .. فهتف به :

إنما يا باشا سعادتك ما قولتليش إحنا ح نبدأ إمتى ؟!

- أنا مش قلت لك ما تسألش .. كل حاجة ح تعرفوها في الوقت المناسب .

- ح نعرفها .. هوه فيه حد غيري يا باشا ؟!

والتفت حسام ليجد إبراهيم آتيًا من خلفه ، مرحبًا بناجي عطا الله بطريقته الشبابية المجنونة :

- الباشا الكبير وعم الشباب كلهم ..

والتفت إبراهيم ، وما أن رأى حسام جالسًا مع ناجي عطا الله ، حتى صرخ :

- إيه ده ؟ وحسام المصري أبو الكباتن بتاع الأولمبياد كمان ؟!

وقف حسام ونظر إليه في ضيق ، وقال بفتور :

- إيه ده ؟! إبراهيم ؟!

Ahmed Madv

قال إبراهيم بترحاب مبالغ فيه :

- ما تنط في حضني يا سِمْ سِم .. ما تبآش مِنَفْسِن من جوه بأة .. هي دي نطة اللي نطيتها في الأوليمبياد .. كسفتنا ، والمذيع عمال يقول ياللا يا حسام .. عاوزين ميدالية يا حسام .. وراح واخد الصفر المتين .. والله يا باشا .

وانفجر إبراهيم ضاحكًا ، بينما نهض حسام في غضب استعدادًا للانصراف :

- لا .. أنا ماشي يا باشا .. بعد إذنك .

قال ناجي آمرًا :

- استنى يا حسام .

- يا باشا أنا ما أقعدش مع الواد ده في مكان واحد .. الواد ده لسانه طويل ، ولو مالمش نفسه مش ح يحصل له طيب .. أنا عامل اعتبار لوجود سعادتك .

قال إبراهيم بشماتة طفولية :

- أهوه شوف يا باشا إحنا ما بنتشطرش غير على بعض .. طيب كنت أتشطرع الواد الأمريكاني اللي أخد الميدالية منك .. والله لو تشوف منظره يا باشا ، وهوه بيقع .. تفطس على روحك من الضحك .

انفجر حسام غاضبًا وصرخ فيه :

- احترم نفسك يا ابني إنت .

ثم قام وقد زاد انفعاله ، وقد بدا أنه سيهم بالهجوم على إبراهيم .. فقال إبراهيم باستهانة :

- الله .. ده ح يضربني .

وقام هو الآخر .. وتواجه الاثنان كثورين يستعدان للعراك .. فصرخ ناجي فيهما :

- اخرس يا كلب يابن الكلب إنت وهوه .. واترزوا ومحدش يفتح بقه .. ح تضربوا بعض قدامي .. أقعد ياد يا إبراهيم .

Ahmed Madv

جلس إبراهيم مفتعلا الأدب ، وقال :

- خدامك يا باشا .

بينما ظل حسام واقفًا يغلي ، فنهره ناجي قائلا :

- ما تقعد يا حسام .. إحنا مش في فصل ، ح أقعدكوا واحد واحد .

جلس حسام في ضيق ، وقد أعطى ظهره لإبراهيم ، وناجي ينهال عليهما :

- بداية زي النيلة .. زي وشكوا .. أنا قلت كبرتوا وعقلتوا وبطلتوا لعب العيال ده .. الحق عليّا اللي فكرت فيكوا .. اعتمد عليكوا إزاي بالهبل اللي إنتوا فيه ده ؟!

- اعتمد عليا يا باشا ، وإنت مغمض في أي حاجة .. أنا سدّاد .

- الشغلانة اللي أنا عاوزكوا فيها عاوزة رجالة .

قال حسام ، مشيرًا نحو إبراهيم :

- ومادام عاوزة رجالة يا باشا .. ده ح يعمل إيه معانا ؟!

- شايف يا باشا هوه اللي ابتدا أهوه .. ما هي الأشكال دي كده .. تسكت له يتجرأ عليك ..

ثم وجه كلامه لحسام ، وقال :

- لا .. أنا راجل قوي يا بتاع الأولمبياد .. ولو عاوزني أوريك الرجولة مُمْكِن قوي .. ده السياح بييجوا من أخر الدنيا لإبراهيم عزقلاني .. بالطلب !

وقام الاثنان وتواجها مرة أخرى في استعداد للعراك ..

كاد كل منهما يهم بضرب الآخر ، بينما ناجي يصرخ فيهما بحزم :

- اخرس يا حيوان إنت وهوه .. محدش يتكلم ولا يفتح بُقه فيكوا يا كلاب .. أنا هنا بس اللي ح اتكلم .

فجلس الاثنان في أدب ، وردا بصوت واحد :

- حاضر يا باشا .

Ahmed Madv

كان مدير الأوتيل ومعه عضو الكونجرس يبحثان عن إبراهيم ، ومعهم ثلاثة بودي جاردات أجانب ، والمرأة التي كانت مع إبراهيم .. إلى أن رأوه جالسًا مع ناجي وحسام ، فأشاروا نحوه ، وجرى البودي جاردز وأمسكوا به في عنف ، وسدد أحدهم لكمة لإبراهيم في وجهه أسقطته أرضًا ، ثم حملوا إبراهيم معًا ، وسددوا له عدة لكمات أخرى .. لينفجر الدم من أنفه .. فقام حسام مسرعًا ، وانهال ضربًا على الرجل ، الذي لكم إبراهيم فأسقطه أرضًا .. واتحد الاثنان في لحظة .. كانا ينهالان على البودي جاردات ضربًا بمهارة وقوة وحماس .. وقد نسوا أنهم منذ لحظة واحدة كادا يتعاركان معًا .. بينما كان ناجي عطا الله جالسًا في مكانه هادئًا مبتسمًا ، كأنه يشاهد مباراة مصارعة ، بل إنه كان أحيانًا يشير لهما بتسديد ضربة معينة .. باليمين .. خطافية .. كأنه مدرب ملاكمة أو مصارعة.. كان كل شيء يتحطم حول البيسين .. والناس تجري .. والكراسي تطير في الهواء .. وفي النهاية ، كان حسام وإبراهيم يتبادلان الأكف ، ويحملان البودي جاردات ويلقيان بهم في البيسين .. ثم نفضا أيديهما .. بجوار ناجي .. كأنهما لم يفعلا شيئًا.. وهتف حسام :

– لا مؤاخذة يا باشا .. قطعنا كلام سعادتك ..

وسأله إبراهيم ببساطة :

– إيه بأة الشغلانة اللي سعادتك عاوزنا فيها ؟!

– تحب تقدم استقالتك للأوتيل قبل ما نمشي ؟

وابتسم إبراهيم في سخرية من السؤال .. ثم أشار إلى التلفيات التي حدثت بالأوتيل ، والخراب الذي أصاب الكافيتريا ، وأردف قائلا :

– أعتقد بعد اللي حصل ده كله انهم مش ح يبأوا متمسكين بيَّا قوي .. وأنا رأيي يا باشا عشان نبدأ الشغل علطول، إن إحنا ناخدها قَزْح على بره دلوقت حالًا .. ياللا يا كابتن .. افتح سبرنت .. ورّينا خطوتك .. إحنا مستنيين معاليك في الباركينج يا ناجي باشا .

Ahmed Madv

وقام إبراهيم جاريًا وحسام يجري خلفه ، وقد غادرا المكان بسرعة .. بينما قام ناجي عطا الله في وقار ماشيًا ، مغادرًا المكان هو الآخر .

* * *

في الطريق من شرم الشيخ إلى القاهرة ، كانت السيارة تمضي بين الجبال ، وبها ناجي وحسام وإبراهيم ، الذي كان يقود السيارة بسرعة جنونية .. وفجأة سأله ناجي :

- إنت مش خريج آداب قسم عبري يا إبراهيم ؟!

- أيوه يا باشا .

- وطالع الأول على الدفعة !

- بامتياز يا باشا .

- أمال ما اتعينتش في الجامعة ليه ؟!

- الوسايط يا باشا .. عينوا الخامس والسادس والسابع عشان ولاد أساتذة في الكلية .

وعلى مقهى في الطريق ، جلس الثلاثة يستريحون قليلا ويتناولون بعض المشروبات ، فقال ناجي لإبراهيم :

- وإنت كنت عاوز تتعين معيد يا إبراهيم ؟!

- أقولك الحق يا باشا .. قلت أحسن اللي جات منهم .

ومضت السيارة في غروب الطريق الصحراوي .. طريق شرم إلى القاهرة .. لا حسام ولا إبراهيم يعرفان إلى أين هما ذاهبان .. وماذا يريد منهما ناجي عطا الله .. شخص واحد فقط هو الذي كان يعرف ماذا يريد ، وإلى أين هو ذاهب .. اسمه ناجي عطا الله .

* * *

Ahmed Madv

في كوفي شوب ، كان تهامي ونوسة جالسين معًا وقد بدا عليهما الاكتئاب .. كانا صامتين والدموع تنهمر من أعينهما .. كان تهامي يمسح دموعها بيده ، ونوسة تمسح دموعه بيدها .

قال تهامي لنوسة :

- إنتي بتعيطي ليه يا نوسة دلوقتي ؟!

- إنت كمان بتعيط !!

- لأ .. أنا عاوزك تجمدي كده .. مروضة أسود قد الدنيا وتعيط ؟!

- مش قادرة أتخيل إني أعيش من غيرك يا تهامي !!

- ده نصيبنا بأة ح نعمل إيه ؟ أبوكي وأمك معاهم حق .. خلاص مفيش أمل .. أنا مش قادر أكفي نفسي .. أكفيكي إنتي إزاي ، وأفتح بيت إزاي ؟!

- أنا مستعدة أسيب الدنيا كلها علشانك يا تهامي .. أنا مش ح اتخلى عنك !!

- حتى ده ما نقدرش نعمله يا نوسة .. أهلك ماعملوش معايا حاجة وحشة .. أنا اللي قصرت .. هما ذنبهم إيه ؟ عاوزين يطمنوا عليكي ، وده حقهم .

- إنت بتقول إيه يا تهامي .. ح تسيبني !!

وخلع تهامي الدبلة ، وأعطاها لها ، وهو يتقطع من الحزن .. فقالت له نوسة من بين دموعها :

- إنت بتعمل إيه ؟!

- حتى الدبلة كنتي إنتي اللي جايباها من فلوسك يا نوسة .. أنا إنسان فاشل .. وما أستاهلكيش !!

* * *

في صالة الجيم .. كان تهامي يلعب على الحديد ، ويحمل أثقالا مختلفة .. كان بداخله طاقة يريد أن يخرجها .. ثورة يريد أن يبددها .. فجأة وجد يدًا تطرق

Ahmed Madv

على كتفه ، والتفت ، فوجد أمامه ناجي عطا الله .. كغريق ألقي إليه بطوق النجاة ، فهتف به صائحًا بحب دافق :

- ناجي باشا .. والمصحف أنا ما مصدق عينيا يا باشا !!

- عاوزك ياد يا تهامي .. ورايا .

ومضى تهامي خلف ناجي عطا الله ، وهو في قمة الفرحة والدهشة من روعة المفاجأة .. جلسا في محل كباب ، وكميات مهولة من اللحم تنزل أمام تهامي ، الذي كان يأكل بشراهة .. وهتف ناجي للجرسون :

- هات لنا تلاتة كيلو تاني .. بس حمرا مافيهاش سمين .. كُل يا تهامي .

- ربنا يخليك يا باشا .

- بأة إنت بتاخد 800 جنيه في الشهر !

- أيوه يا باشا .

- يعني تاخد المرتب ويا دوب تنزل تفطر وخلاص ؟!

- أيوه يا باشا .

- طيب أنا ياد مش مديلك تليفوني ، وقايل لك لو عوزت حاجة تكلمني .

- بصراحة اتكسفت يا باشا .

نظر ناجي نحو تهامي وجسده الضخم ، وهو يتأمل عضلاته .. ثم سأله :

- إنت بتشيل كام دلوقت يا توتو ؟!

- 185 كيلو يا باشا .

- بس .. ده إنت كنت معدي الميتين كيلو !!

- صحتي تعبانة مش زي زمان يا باشا .

- لا .. باين عليك .. هفتان .. كُل .. كُل يا تهامي .. إنت ح تسيب الجيم اللي إنت شغال فيه ده ومش جايب همه .. إنت ح تشتغل معايا .

Ahmed Madv

بعد أن أكل تهامي كثيرًا .. كثيرًا .. وارتاحت معدته .. بدأت مشاعره تلتهب، وبدأ يحكي لناجي عطا الله .. أزمته العاطفية وحبه الجارف لنوسة .. ثم انفجر باكيًا على صدر ناجي عطا الله .. كطفل يلجأ إلى صدر أمه ..

قال له ناجي :

- ولما إنت متنيل بتحبها .. بترميلها الدبلة في وشها وتسيبها ليه يا حمار !!

قال تهامي من بين دموعه :

- ماكنتش أقدر اعمل غير كده يا ناجي باشا .. مش عاوز أربط مستقبلها بواحد فاشل ، مالوش مستقبل زي حالاتي .

- ده إنت تجيب كآبة ياله .. هي أبوها بيشتغل إيه ؟!

- في السيرك .. مروض أسود !!

- آه .. إنت خفت يلسعك كرباج في لحظة غضب .. يكوِّمك !!

حاول تهامي أن يبتسم ، ولكنه قال بمرارة :

- ساعات بصة يا باشا .. تبأة أشد من الكرباج .

- أنت ح تنكسف يا روح أمك .. البنت دي .. هي اسمها إيه ؟!

- نوسة !!

قال ناجي كأنه يصدر أمرًا عسكريًّا :

- البنت دي خطيبتك ، وح تتجوزها في خلال أقل من شهر كمان .

- يا ريت يا باشا .. يا ريت !!

- بس لازم نصلح الهباب اللي إنت هببته الأول .

- إزاي يا باشا !!

* * *

Ahmed Madv

في بيت نوسة ، كان ناجي داخلا إلى البيت ، ومعه تهامي ، وقد ارتدى بدلة .. ومعه باقة ورد أنيقة .. بينما كان أبو نوسة مروض الأسود ، رجل فارع الطول في استقبالهما .. وناجي يقدم له نفسه :

- ناجي عطا الله .. لواء سابقًا وملحق إداري في الخارجية سابقًا برضه .

- أهلًا يا فندم .. اتفضل يا فندم .

أمسك ناجي بتهامي ، الذي كاد أن يذوب من الخجل ، وقال له :

- اقعد يا تهامي .. إنت مكسوف كده ليه ؟ بص بأة يا أبو نوسة .. الواد ده بيحب نوسة ، ونوسة بتحبه ، وإحنا جايين عشان نحط النقط ع الحروف .

قال أبو نوسة بلهجة أبوية تقليدية :

- الحب مش كفاية يا ناجي بيه .

- أنا عارف .. ما هو أنا جاي عشان كده .. ده أنا بهدلته .. يتقدم كده لبنات الناس ، فرداني من غير ما يرجع لي .. أصل أنا في مقام أبوه .. أنا اللي مربيه .

حاول تهامي أن يتكلم .. ولكن ناجي قاطعه قائلا :

- بس ياد إنت .. خليني أكمل كلامي .. إنت معايا يا أبو نوسة ؟!

- شوف يا ناجي بيه .. تهامي لما دخل من الباب وطلب البنت ، قولنا له أهلًا وسهلا .. قال إنه ح يعمل وح يسوي .. ولا عمل ولا سوى وصبرنا عليه .. وفي الآخر كمان عاوز يقعد البنت من شغلها .. يعني لا عاوز يرحم ، ولا يسيب رحمة ربنا تنزل .

- ده واد عبيط سيبك منه .. كلمني أنا يابو نوسة .. صلي ع النبي .

- عليه أفضل الصلاة والسلام .

- شقتهم موجودة .. في عمارات العبور .. وآدي تنازل عاملهوله باسمه .

Ahmed Madv

مسح تهامي دمعة نزلت من عينيه ، وقال :

- ربنا ما يحرمني منك يا باشا .

- بس ياد إنت !!

وأخرج ناجي علبة قطيفة بها مشغولات ذهبية ، وقدمها إلى أبو نوسة :

- والشبكة أهيه !!

أخذها أبو نوسة ، ولمعت عيناه ، وهو يتأملها بفرح .. وعاد ناجي ليكمل كلامه قائلا :

- والمهر إدِّينا شهر مش أكتر ، وح ندفع اللي تقولوا عليه .. عدانا العيب كده ؟!

- مش مسألة فلوس واللهِ يا ناجي بيه .

-أنا عارف .. بس الحاجات دي لما تتحدد الكل بيرتاح .. قلت إيه يا أبو نوسة !!

- مقدرش أرد لك كلمة يا ناجي بيه .. كفاية دخلتك علينا وتشريفك لينا .

- على خيرة الله .. نقرا الفاتحة .. بسم الله الرحمن الرحيم ...

ورفع الثلاثة أيديهم ليقرأوا الفاتحة ، وإذا بأسد يمر ماشيًا في البيت بجوارهم ، ثم وقف ورفع رأسه ، وحك لبدته بأظافره ، وأخذ يتأملهم قليلا .. والتقت عيناه بعيني ناجي ، الذي كان قد شرع في قراءة الفاتحة .. فرفع رجليه فوق الكنبة مذعورًا ، وهو يختم بسرعة :

- ... صدق الله العظيم !!

وكأنه لم يصدق عينيه ، هتف بـ «أبو نوسة» هامسًا :

- إيه ده ؟ أسد !! أسد يا أبو نوسة !!

قال أبو نوسة بهدوء :

- لا .. ما تخافش .. ده سلطان .. ده طيب قوي .. خش جوه يا سلطان .

Ahmed Madv

ودخل الأسد إلى الحجرة الأخرى في طاعة كاملة .. بينما كان ناجي يرتعش ، ولا يقوى على الكلام .. ثم سمع صوت سلطان ، وهو يزأر ، فقام واقفًا ، وقال لأبو نوسة :

- إحنا تحت أمركوا يا أبو نوسة .. لو طلبتوا عينيا أطلعها وأديهالكوا .. هوه الباب منين الله يخرب بيتك يا تهامي !!

وخرج مسرعًا وخلفه تهامي ، وناجي يلعنه ويلعن اليوم ، الذي قرر فيه أن يأتي ويخطب له نوسة .

* * *

في مقهى بمنطقة الحسين .. في هذا الجو المصري الرائع ، الذي طالما اشتاق إليه ناجي ، وهو في إسرائيل .. كان ناجي جالسًا مع جمال عبد الناصر ، المستشار الإعلامي الأسبق للسفارة المصرية في تل أبيب .. سحب ناجي نفسًا عميقًا من الشيشة التي أمامه ، وقال لجمال متعجبًا :

- بذمتك مش حاجة تضحك يا جمال بيه .. إنت يطلعوك من الشغل ، ويحققوا معاك عشان مارضيتش تسلم على الإسرائيليين ، ولا تحط إيدك في إيديهم .. وأنا يطلعوني من الشغل عشان قربت من الإسرائيليين وصاحبتهم .. طيب هما عاوزين إيه ؟

- أنا مش زعلان إنهم طلعوني من الخدمة .. بالعكس .. أنا مقتنع جدًّا باللي عملته يا ناجي بيه .. كفاية إني باغمض عيني ، وبانام وأنا مرتاح ، وحاسس إني محترم نفسي .

- طيب وناوي تعمل إيه ؟ ح تشتغل فين ؟!

- فيه قناة خاصة كلموني عشان أقدم برنامج تليفزيوني .. بس لسه بافكر .

- وتفكر ليه .. ده أنا سامع إنهم بيدفعوا كويس !!

Ahmed Madv

- أيوه .. إحنا بس مختلفين ع السقف .

- هو الأستديو مالوش سقف ؟ ده في الشتا يبأة موت .

- لأ .. أنا بأتكلم على سقف الحرية .

- آه .. سقف الحرية .

ودخل الصحفي سراج ، الذي ما أن رآه ناجي ، حتى هتف به :

- إيه ده ؟ سراج بيه الصحفي الكبير .. إيه الصدف الحلوة دي .. شايف أهو جه ع السيرة .. قلت سقف الحرية .. راح ناطط لنا .

وتعانقا هو وسراج عناقًا حارًّا ، وقال سراج :

- أنا جاي أقابل جمال بيه .

نظر ناجي نحو جمال ، وقال له :

- بس .. يبأة هو اللي ح يعد لك البرنامج .. ما هو الصحفيين دلوقت سابوا الجرايد وجريوا ع التليفزيون .. فلوسه حلوة يا عم .

ردَّ سراج بسخرية مُرة :

- يا سيدي إحنا ما سيبناش الجرايد .. الجرايد هي اللي سابتنا .

- سابتكوا .. إيه إنت سبت الجورنال ؟!

- اكتشفوا فجأة إني باروح إسرائيل بقالي 25 سنة .. مع إني بانشر التحقيقات باسمي وصورتي .. ومن تل أبيب .. واحد فجأة طلع ويهاجمني وحولوني للتحقيق وبأت قضية وأخدت حكم .. وأديني باستأنف ..

انفجر ناجي ضاحكًا ، وقال :

- يعني إحنا التلاتة مرفودين .. الباشا عشان وطني وبيشتم فيهم ، وأنا عشان صاحبتهم وقربت منهم .. وإنت عشان قعدت معاهم وبتكتب عنهم .. الله !!

Ahmed Madv

إسرائيل دي نحس بأة .. اللي يقرب منها يتلدع علطول .. الله يخرب بيت أبوهم .. غيَّر يا بني الشيشة !!

وانفجروا جميعًا ضاحكين .. وسأله جمال :

- إنما ما قولتليش .. إنت مش كنت عاوز مني خدمة ، وقلت لي في التليفون حاجة مهمة جدًّا بالنسبة لك .. عاوز إيه ؟!

- لا .. خدمة إيه بأة ؟ وإحنا التلاتة بأينا قاعدين ع الرصيف كده .

وأصر جمال أن يعرف إذا كان هناك شيء يستطيع أن يقدمه لناجي .. فسأله ناجي :

- تعرف المستشار الطبي بتاعنا في سفارتنا في ألمانيا ؟!

- لأ .. إنما أعرف المستشار الإعلامي .. ده دفعتي وصاحبي جدًّا .

- بس .. يبأة هوه بأة اللي يكلم لنا المستشار الطبي !!

- أؤمرني .. بخصوص إيه ؟!

وحكى له ناجي عن مأساة الكابتن حمدي المصـري القعيد ، ورغبته في أن يعالج في ألمانيا .. ووعده جمال أن يتصرف ، حينما أحس بتعاطف ناجي الشديد مع الكابتن.

* * *

لم يصدق حسام أذنيه وناجي عطا الله يبشره بأنه حجز لأبيه في مستشفى في فرانكفورت ، وأنه أرسل الأشعة والتحاليل الأخيرة له إلى المستشفى هناك، وأنهم أعطوه موعدًا لإجراء العملية بعد شهر .. انفجر حسام باكيًا من فرط التأثر .. ملقيًا بنفسه بين ذراعي ناجي .. الذي ربت على كتفه بحنان دافق، ثم مسح حسام دموعه وسأله :

- مين ح يدفع مصاريف العملية يا ناجي بيه دول نص مليون جنيه !!

Ahmed Madv

- إنت اللي ح تدفعها .. إنت مش شغال معايا .. ح أخصمهم من مرتبك .

- وإيه الشغلانة دي اللي ح تجيب لي نص مليون جنيه ؟!

- فيه شغلانات بتجيب أكتر من كده كتير يا سِمْ سِمْ .. إنت مش عاوز الكابتن حمدي يمشي على رجليه .. امشي إنت ورايا وما تسألش !!

ومضى ناجي تاركًا حسام يضرب أخماسًا في أسداس ، ولا يعرف ولا يفهم ماذا سيفعل معه ناجي عطا الله هذا .. الذي هبط من السماء فجأة مثل بابا نويل .. ليحقق الأحلام المستحيلة .

* * *

دخل زاهر مكتبه ليجد ناجي جالسًا في انتظاره ، وحسام وإبراهيم وتهامي يقفون خلفه كأنهم حرس خاص ، يرتدون نظارات سوداء ، وكاد أن يغمى عليه من الرعب ، حينما أحاطا به كأنهما ظباط من أمن الدولة أتوا للقبض عليه .. وهتف به إبراهيم ، كأنه يجري معه تحقيقًا :

- المهندس زاهر عبد الحميد الفار !!

قال زاهر مرتعدًا :

- أيوه !!

وأمسك به تهامي ، وذهب به إلى ناجي الذي لف على كرسيه ، ونظر نحوه مبتسمًا ، وقال له بوداعة :

- إزيك يا زاهر ؟!

فوجئ زاهر بناجي .. فأعطاه التحية العسكرية ، ووقف انتباه في احترام وخشوع .. وقال وهو يتعثر في النطق :

- ناجي بيه عطا الله .. دي خطوة عزيزة يا باشا .. الشـــركة نورت يا فندم ، والله العظيم أنا ما مصدق عينيا !!

Ahmed Madv

زجره إبراهيم قائلا :

- رُدع الباشا كويس .. الباشا بيقولك إزيك ، تقول له الله يسلم سعادتك .. السؤال على أد الجواب .. الباشا ما بيحبش اللوك لوك .. الواد ده ح يتعبنا يا باشا !!

وأخرج زاهر أوراقًا من جيبه في خوف وقدمها لناجي .. كأنه يعترف بجريمة لم يفعلها ، وقال وهو يبلع ريقه بصعوبة :

- أنا خلصت الخدمة العسكرية ، وأخدت الشهادة يا باشا.. وبعتولي استدعا تلات مرات سعادتك ما اتخلفتش ولا مرة .. حتى روحت مرة رابعة من غير ما يبعتولي .. قلت يمكن عاوزيني في حاجة .. ودي يا باشا .. بطاقة الرقم القومي .. أهيه ودي شهادة الضرايب .. مع سعادتك أهيه ..

فحص حسام الأوراق ، ثم قدمها لناجي بيه قائلا :

- بياناته كلها مظبوطة يا باشا .

وضعها ناجي جانبًا .. ثم سأل زاهر بهدوء :

- إنت بتاخد كام هنا يا زاهر !!

- ألفين جنيه يا باشا .. دي مفردات مرتبي أهيه .. مع سعادتك في الورق ..

- والألفين جنيه دول .. بتاخدهم صافي !!

- لأ يا باشا .. أنا بادفع 40٪ ضريبة للدولة .. وبادفع تأمينات ومعونة شتا وضرايب عقارية عن الشقة اللي بابا الله يرحمه سابهالنا نعيش فيها .. هوه كان جايبها في الستينات بتمانية جنيه ونص .. قدروها بتلاتة مليون .

- كويس .. والمرتب على كده بيصفصف على كام يا زاهر ؟!

- 460 جنيه يا باشا ..

Ahmed Madv

- و 460 جنيه يعملوا إيه لمهندس كمبيوتر عبقري زيك .. ده انت ما شاء الله عليك بتدخل ع النت تجيب الرقم بتاع الكريدت كارد لأكبر رجل أعمال ، وتخش تشتري اللي إنت عاوزه وتخرج ، ولا من شاف ولا من دري .. مش كده يا زاهر ؟!

كاد زاهر يسقط من فرط الرعب ، حينما أشار ناجي إلى ذلك .. ونزل على قدميه ، يقبل يده في خوف .. وهو يكاد يبكي :

- ناجي باشا .. أبوس إيدك .. أنا خلاص والله .. بطلت أعمل الحكاية دي .

- طيب اسمع يا زاهر .. أنا عاوزك .. أنا جاي عشان أخدك تشتغل معايا .

- أنا ليا الشرف يا باشا .. إنما .. أصل أنا هنا باشتغل بعقد ، ولسه ما اتثبتش .. و .. هو سعادتك ح تفتح شركة كمبيوتر ؟!

- مالكش دعوة .. إنت ما تسألش !!

ثم قام ناجي واقفًا .. وزاهر في منتهى الرعب ، وقال بلهجة آمرة :

- تعالى معانا يا زاهر .. مش عارفين نتكلم هنا .. عاوزين ناكل لقمة مع بعض .. عشان نتكلم براحتنا !!

ثم أضاف قائلًا :

- أنت ح تقف تتنح لي .. هاتوه .

وخرج زاهر معهم وخلفه حسام وإبراهيم وتهامي ، كأنه مقبوض عليه ، وهو يكاد يسقط من الرعب والخوف .. ولا يعرف إلى أين هم ذاهبون به .

* * *

في مطعم بنزلة السمان يطل على أبو الهول ، والأهرامات تبدو خلفه ، وأبو الهول رابض ينظر نحو المطعم ، وكأنه يشارك ناجي وفرقته العشاء الفاخر، وكميات من الجمبري والسيمون فيميه ، والأسماك تنزل أمام الجميع ، وهم يأكلون بشهية مفتوحة .. وحالة من السعادة الغامرة تلف الجميع .. إلا زاهر الذي كان متوترًا وشاردًا ، ولا يفهم شيئًا من حوله .

Ahmed Madv

في جانب من المطعم السياحي ، كانت مجموعة من العجائز تتناول العشاء ، ومعهم بنت جميلة .. ويتكلمون معًا بصوت خفيض ، والبنت الجميلة تنظر نحو إبراهيم ، وتبتسم ، وإبراهيم يغمز لها .. وانهال ناجي بيده على كتفه ، وصرخ فيه :

- ما تركز ياله .. إنت إيه ؟!

- ما أنا مركز يا باشا .. دول جروب كانوا عندي في شرم ، واشتغلت معاهم ..

- دول إسرائيليين !!

- خلاص بأة يا باشا خللي الطابق مستور .. بس سواح جلدة قوي .. مرة أخدت جروب يهودي ، ونزلت بيهم تحت المية ، وفرجتهم ع الشعب المرجانية مرجانة مرجانة .. لما انقطع نفسي .. وفي الآخر قعدوا يلموا من بعض .. وعملوا اجتماع قمة .. وادوني خمسة دولار .

لم يتمالك حسام أعصابه .. ونظر نحو إبراهيم باحتقار ، وقال له :

- بذمتك إنت مش مكسوف على دمك .. واخد الإسرائيليين تفسحهم .. يا عميل يا خاين يا عديم الوطنية .. أهو اللي زي ده لازم يتشنق في ميدان عام يا باشا !

قال إبراهيم مدافعًا عن نفسه :

- أكل عيش .. الله .. أعمل إيه يعني ؟ اللي عملته ده ليه ما تعتبروش عمل وطني يا أبو الكباتن .. ياللي مشرف مصر .. لما اطلع خمسة دولار من جيوبهم .. أنا الكسبان .. ولا إيه رأيك يا باشا ؟!

نظر ناجي نحو زاهر الذي بدأ يأكل في أظافره ، وركبتاه ترتعشان ، وسأله فجأة :

- وإنت إيه رأيك يا زاهر ؟!

قال زاهر ، وهو يبلع ريقه :

- مش عارف يا باشا .. إنما سعادتك ماقولتلناش .. هوه إحنا ح نشتغل مع سعادتك في إيه بالظبط ؟!

Ahmed Madv

قال ناجي ببساطة ، وهو يطفئ سيجارته :

- إحناح نسرق بنك !!

كان للجملة وقع هائل على الشباب .. كأنها لطمة مفاجئة .. فتجمدت ملامحهم ، ونظروا نحو ناجي عطا الله غير مصدقين لما سمعوه..

بلع زاهر ريقه ، فوقف في زوره .. بينما سأله إبراهيم :

- والبنك ده فين بالظبط يا ناجي باشا ؟

- في إسرائيل .

كاد زاهر يسقط من الرعب ، بينما هلل إبراهيم وصفق بيديه ، وقال :

- الله أكبر .. هوه ده الكلام ؟!

لم يتعامل حسام مع الموقف بسرعة ، مثل إبراهيم .. فعاد ليسأل :

- إنت بتتكلم بجد يا باشا ؟!

قال ناجي بغلظة :

- أنا عمري هزرت معاكوا يا حسام !!

قبل تهامي يده وش وظهر ، وهتف كأنه يكلم نفسه :

- يااااه .. اتمنيتها وربنا بعتهالي .. طول عمري حاسس إن ربنا مخبيلي خير كبير قوي .. الحمد لله .. الحمد لله .

أما زاهر .. فقد ذهب في غيبوبة .. وبدأ تهامي يصفعه على وجهه عدة صفعات خفيفة ، وإبراهيم يحاول أن يوقظه حتى أفاق بصعوبة .. وهو يرتعد .. ويتوسل لناجي عطا الله :

- ناجي بيه .. ما تعفيني أنا من القصة دي .. أنا ح أبأة عبء عليكم .. أنا بتجيني حالة عصبية .. وبأقع من طولي ومابقاش دريان بنفسي .

Ahmed Madv

لم يلتفت ناجي لما قاله زاهر ، واستمر في عرض أفكاره وتعليماته للجميع :

- لازم تعرفوا إن كل واحد فيكم له دور محدد في العملية .. إحنا ح نبأة زي فريق المنتخب .. كل واحد له مهمة نازل يعملها .

قال حسام بسرعة :

- أنا جاهز يا باشا .

التفت ناجي نحو إبراهيم وسأله :

- وأنت يا إبراهيم .

قال إبراهيم بثقة :

- خدامك عماد متعب يا باشا .

ثم التفت إلى زاهر ، وسأله :

- وإنت يا زاهر ؟!

ولم يستطع زاهر أن يرد .. قال مترددًا :

- أنا .. أنا بس عاوز أسأل سؤال يا باشا .

قال ناجي بنفاذ صبر :

- اسأل يا زاهر ؟!

كان زاهر يحبس دموعه من فرط الخوف ، وقال متوسلا :

- والنبي يا ناجي بيه ما تزهق مني .. أنا عمري ما اتخانقت مع حد .. طول عمري قافل عليّا باب بيتي ، وعايش في حالي .. كافي خيري شري .. أقوم يوم ما أشطح أنطح .. أسرق بنك .. وفي إسرائيل !!

وضع ناجي يده على كتف زاهر ؛ ليهدئ من روعه ، وقال له .. بصوت يملؤه العقل :

- اسمع يا زاهر .. لازم تعرف إن أنا عارف كويس جدًّا أنا باعمل إيه ، ولا يمكن ح أطلب من أي حد فيكم حاجة هوه ما يقدرش يعملها .. عندك تهامي ده

Ahmed Madv

مثلًا .. طول بعرض بعضلات .. إنما مخه بالعافية .. يا دوب يمشيه .. تفتكر ممكن أطلب منه أنه ينزل لي برنامج معقد على الكمبيوتر ، ويفك شفرة ويتحكم في ليزر سيستم .. إنما لو طلبت ده من ولد عبقري زيك .. متهيألي مسألة سهلة جدًّا بالنسبة لك .. مش كده ؟!

قال زاهر ، وهو يرتعد :

- إنما العملية دي يا باشا فيها أي خطورة علينا ؟

ابتسم ناجي عطا الله ابتسامة واسعة ، وقال :

- لأ .. خطورة .. إنت بتقول إيه ؟ دي فسحة .. إحنا ح ناخد تاكسي وننزل قدام البنك .. نضرب باب البنك برجلينا ، ونخش ع الخزنة نفتحها بطفاشة ، وناخد الفلوس ونمشي .. إيه رأيك .. حلوة !!

حاول حسام أن يدخل في صلب الموضوع بجديته المعهودة .. وقال :

- الخطة ايه يا باشا ؟!

- ح تعرفوا كل حاجة بس لما المجموعة تكمل .

وقال إبراهيم معترضًا :

- هوه إحنا لسه فيه ناس تانية معانا يا باشا .. ما إحنا حلوين كده ع الأقل اللقمة ما تتقسمش ستين حتة وتتنبر .. وبركتها تروح ..

زجره ناجي قائلًا :

- وله .. اخرس خالص .. إنت ليه محسسني إنك داخل جمعية ، وعاوز تقبضها الأول ..

وعاد حسام يسأل بجديته :

- مين معانا تاني يا باشا ؟!

- عبد الجليل .

* * *

Ahmed Madv

في الدويقة كانت الحارة كلها هائجة .. مشتبكة في معركة حامية الوطيس .. كل أشكال العراك .. الضرب بالروسيات .. والشلاليت .. وبالمطاوي .. والكراسي الطائرة .. وحلل الماء الوسخ تلقى من البلكونات .. ولأن بيوت الحارة متلاصقة ، فأنت لا تستطيع أن تعرف من النظرة الأولى .. من الذي يتعارك مع من ؟ وأسباب الشجار والعراك هنا غير مفهومة .. الذي يمكن أن تستنتجه أن الناس هنا .. مزاجها وحش .. ومخنوقة .. ومحدش طايق نفسه .

وكان عبد الجليل .. أوحشهم مزاجًا وأكثرهم خنقة .. فاتحًا المطواة ، ومتقدمًا بها من بعضهم في جرأة .. والجميع قد انكمشوا في ركن من الحارة ، والنساء ترقع بالصوت .. والرجال تحاول كبح جماح هذا الثور الهائج ، والذي لا يعلم أحد لماذا سبب هياجه .. بينما وقفت سيارة في أول الحارة .. نزل منها إبراهيم ، وفتح الباب في احترام لناجي بك عطا الله ، الذي لا يفارق السيجار فمه .. وخلفه المجموعة كلها .. وقف ناجي عطا الله ونظر متأملا المشهد .. كأنه فنان يتأمل لوحة بديعة .. وعبد الجليل مندمج تمامًا في الشجار العنيف ، الذي وصل إلى ذروته ، حتى أنه لم يلحظ مجيء ناجي ومن معه .

أشار إبراهيم نحو عبد الجليل ، وهمس إلى ناجي عطا الله :

- هو ده يا باشا !!

- هوه ..

قال إبراهيم ، وهو يتأمل عبد الجليل :

- ده مش يسرق بنك .. ده ح يقلِّبنا إحنا يا باشا .

وذهب ناجي إلى عبد الجليل ولسعه على قفاه .. فاستدار وهو يهم بالانقضاض على من ضربه ..فإذا به ناجي عطا الله .. الذي ما أن وقعت عينا عبد الجليل عليه ، حتى صرخ من الفرحة ، وألقى بالمطواة فرشقها في أحد الأبواب .. وفتح ذراعيه بكل ترحاب صارخًا :

- الباشا الكبير ..

Ahmed Madv

وألقى بنفسه بين ذراعيه ، وأخذ يربت على كتفه بقوة ، حتى أن زاهر ابتعد قليلا للخلف ، خوفًا من عبد الجليل ، الذي كان ينظر نحو ناجي بك .. بحب ، وهو يقول بتأثر :

- عليا النعمة ما مصدق نفسي يا باشا .. أنا أكيد بحلم .. حد يقرصني يا جدعان .. ناجي باشا عطا الله هنا في الحارة الوسخة دي .. حاجة ساقعة ياد يا بيومي للبهوات .

وضع ناجي يده على كتف عبد الجليل ، وقال :

- إزيك يا عبد الجليل ؟!

- مستورة يا باشا ولا ينقصنا إلا رؤياك .

- وأديك شفتني .

- يبأة خلاص .. مش عاوز حاجة من الدنيا .

نظر ناجي نحو الحارة المتهالكة ، والمكان الذي يعبر عن نفسه .. وقال :

- لا .. شكلك لسه عاوز حاجات كتير .. أنا عاوز أتكلم معاك يا عبد الجليل .

- يبأة نطلع فوق يا باشا .. عندي فوق .. نقعد براحتنا ..

وأزاح عبد الجليل أحدهم من طريقه قائلا :

- أوعى ياد يا ابن الهرمة وسّع للباشا .. اتفضل يا باشا .. أهلًا وسهلًا .

ووضع ذراعه في ذراع ناجي عطا الله ، ثم همس له مشيرًا إلى حسام وزاهر وتهامي وإبراهيم :

- مين دول يا باشا .. حكومة ولا إيه ؟!

وتقدم الجميع نحو مدخل البيت المتهالك ، الذي يسكنه عبد الجليل ، وناجي يتأمل البيت الذي بدا آيلا للسقوط ، وقال :

- مش عارف عندي إحساس إن البيت ح يقع ، والخطة ح تبوظ قبل ما نفتح الموضوع .. البيت دا متين يا عبد الجليل !!

Ahmed Madv

- دا حتة حديدة .. أساساته عشرة على عشرة .. ما تقلقش يا باشا .. دا بقاله ييجي 300 سنة على كده لا محوّأ فيه زلزال ، ولا حتى لو الجبل ذات نفسه وقع عليه .

- بس مش شكله مايل شوية !!

- لأ .. ما هي دي عدلته.. اتفضلوا .

وما أن دخل ناجي وفرقته البيت ، حتى بدأ يتأرجح ، وكأنه سيسقط بالفعل ، فصرخ زاهر :

- البيت بيقع .. البيت بيقع !!

قال عبد الجليل :

- ما تخافش يا باشمهندس .. هوه بيتهز كده ، إنما ما يقعش أبدًا .

ثم همس لناجى :

- هوه الكابتن قلبه خفيف كده ليه يا باشا ؟!

قال ناجي ، وهو يتكأ على أحد الجدران ، والبيت يتحرك من تحت الجميع :

- عيال طرية .. حد في الدنيا يخاف من بيت بيقع على دماغه .

ودخلوا جميعًا إلى البيت .. وزاهر يقرأ في سره الشهادة ، ويدعو الله أن يخرجهم من هذا البيت بسلام .. بيت عبد الجليل مكون من حجرة واحدة .. ضيق للغاية .. أشبه بزنزانة بها شباك وحيد (عريض) يطل على البيت المقابل القريب جدًّا .. يستطيع إذا مد ذراعه أن يحضـر شيئًا من البيت المقابل ، وكانت أم عبد الجليل نائمة في ركن من الحجرة .. ومغطاة .. حتى أنهم لم يشعروا بها في دخولهم .. ولا هي شعرت بهم .. قال عبد الجليل مرحبًا :

- اتفضلوا يا باشوات .. يا دي النور ..

- نتفضل فين ؟!

Ahmed Madv

قال عبد الجليل بخجل أولاد البلد :

- معلش البيت مش أد المقام .

- ما تقولش كده .. عيب .. دا مش بيت أصلًا .. إزيك يابو حديد ؟!

قال عبد الجليل بحب جارف ، وكأنه يتذكر أيامًا رومانسية رائعة :

- يااااه .. والله زمان يا باشا .. أحلى أيام في حياتي قضيتها مع سعادتك .. فاكر يا باشا أيام السجن الحربي !!

قال إبراهيم هامسًا لحسام :

- رومانسي قوي .. لما أحلى أيام في حياته أيام السجن الحربي .. أمال أيامه دلوقتي شكلها إيه ؟!

قال ناجي ، وهو يشير نحو عبد الجليل ، كأنه يتكلم عن بطل شعبي :

- عبد الجليل يا شباب كان مسجون في السجن الحربي ، وقدر يهرب من الزنزانة ويكسر الحديد ويقطع القضبان ، ويخرج 16 مرة عشان كده كانوا مسمينه أبو حديد ..

أومأ عبد الجليل برأسه في سعادة .. مؤكدًا كلام ناجي بك ، بينما قال حسام :

- ما شاء الله .. ما شاء الله .. ده يتحط في موسوعة جينيس .

وحاول عبد الجليل أن يبدي تواضعًا زائفًا ، فقال في خجل مصطنع :

- ما خلاص بأة يا باشا .. دي أيام الشقاوة ..

حاول إبراهيم أن يتقرب من عبد الجليل فسأله :

- إنما كنت بتعملها إزاي يا عوبد ؟!

شعر عبد الجليل أنه صار خبيرًا أمام هؤلاء التلامذة ، الذين أتوا مع ناجي باشا، فانبرى يشرح لهم بكل ألاطة :

- شوف يا باشمهندس .. الحديد قاسي .. ما تقساش عليه .. خده ع الحنين .. مبرد قد كده .. بالعقل وعلى مهلك .. يقطع عرق حديد تُخن كده .

Ahmed Madv

قال إبراهيم منافقًا :

- الله .. يا سلام .. والله الراجل ده بيقول حِكَم .

وحاول ناجي أن يغير الموضوع ، فقال له :

- طب اسمع يا عبد الجليل .. أنا عاوزك في شغل ..

- أنا خدامك يا باشا .

- طيب .. شوف يا عبد الجليل ...

وقبل أن ينهي ناجي جملته ، تناهى إلى أسماع الجميع صوت رجل وسيدة في البيت المقابل ، والسيدة تضحك والرجل يلاحقها .. ويأتي صوت المرأة :

- على مهلك يا راجل .. صوتنا جايب أخر الحارة يا مسعد .. يا راجل !!

ويأتى صوت الرجل :

- ملعون أبو أم الحارة ع اللي فيها .. اللي مش عاجبه يحط برطوشة في بقه ويتسد .

قال ناجي ، وقد قطع صوت الرجل والمرأة تفكيره :

- الناس قاعدين معانا .. ما تيجي نروح نتكلم في أي حتة .

واغتاظ عبد الجليل من الحرج ، الذي أوقعاه فيه الرجل والمرأة ، فقال :

- لا مؤاخذة يا باشا .

ثم ذهب إلى الشباك ، وصاح غاضبًا في الرجل والمرأة :

- اتلمي يا ولية في ليلتك ، وأقفل الشباك ، واتسد يا راجل يا قُفة !!

وقف الرجل بفانلته الداخلية واللباس ، وقال لعبد الجليل :

- الدنيا حر .. هي ناقصاك يا عبد الجليل !

فرد عليه عبد الجليل متوعدًا :

- ماشي يا مسعد .. عليّا الطلاق لأورِّيك .

Ahmed Madv

قال ناجي :

- هما فاكرينك إيه بالظبط يا عبد الجليل ؟!

فثارت ثورة عبد الجليل ، وصرخ في الرجل :

- لم نفسك إنت والولية يا مسعد .. أحسن ما أجيلك .

ومد يده محاولا أن يمسك بخناق الرجل ، وأراد أن يبطحه ، فأمسك به ناجي مهدئًا إياه ..

ثم ذهب إلى الشباك ، وقال بهدوء للرجل ذي الفانلة الداخلية واللباس :

- يا أخ مسعد .. براحتك خالص .. بس ياريت على مهلك ، عشان البيت آيل للسقوط .. تتحمأ حمأة من دول ، نلاقي نفسنا في ثانية تحت الأنقاض .

ثم التفت ناجي إلى عبد الجليل ، وقال :

- شوف يا عبد الجليل ..

وجلس ناجي على أم عبد الجليل النائمة دون أن يشعر .. فسمع صراخ الأم :

- آآآاه !!

اندهش ناجي ، وسأل عبد الجليل :

- إيه ده ؟ هوه مسعد أثره واصل لحد هنا ؟!

قال عبد الجليل بحنان :

- لا يا باشا .. دي أمي ست الحبايب .

تعجب ناجي وسأله :

- هي اللي مع مسعد جوّه .. دي أمك !!

- لا يا باشا .. أميع الكنبة اللي سعادتك قاعد عليها .

قام ناجي مسرعًا من فوق السيدة العجوز معتذرًا :

- أنا آسف .

Ahmed Mady

قال عبد الجليل :

- أما أصحيها تعمل لنا الشاي .

- لأ .. خليها نايمة يا عبد الجليل .. ربنا يخليهالك .. إيه الصوت ده ؟!

كانت أم عبد الجليل تشخر بصوت عالٍ مرعب ومخيف ، وكأنها تحتضر :

- الست دي يا باشا ست مكافحة .. أصيلة .. عليّا النعمة لو طلعت في التليفزيون وحكت اللي شافته في حياتها .. ليطلعوها حج ولا عمرة .. إنما مين ح يوصلنا للتليفزيون .. لولا الست دي كُنا ضعنا أنا وإخواتي الأربعة .. ربتنا وكبرتنا لحد ما وقفنا على رجلينا .

فسأله ناجي :

- وإخواتك الأربعة فين ؟!

- في السجن يا باشا .. واحد هجام والتاني مخـــدرات ، والتالت بيكسـر شقق ، والرابع مظلوم يا باشا !!

كان البيت يتأرجح أثناء الحوار .. وزاهر يكاد يصرخ أو يسقط مغشيًّا عليه من الرعب .. فقال متوسلا :

- أنا رأيي نخش في الموضوع يا باشا ، قبل البيت ما يقع !!

- شوف يا عبد الجليل .. إحنا ح نسرق بنك !!

قال عبد الجليل بسرعة وببساطة :

- صلاة النبي أحسن .. متوفقين إن شاء الله .

فأردف ناجي :

- بنك في إسرائيل .

- إنشالله يكون في أمريكا .. مش فلوسه صاحية نشطب أمه .. إتكلنا على الله .. نقرا الفاتحة .

Ahmed Madv

نظر ناجي إلى زاهر معاتبًا وفخورًا ، في نفس الوقت ، بعبد الجليل :

- شايف الناس .. كلمة ورد غطاها .. لا أسئلة بأة ولا رغي .

هرش عبد الجليل في ذقنه ، ثم سأل ناجي على استحياء :

- بس لا مؤاخذة يا باشا مفيش أي حاجة كده تحت الحساب ، أمشي بيها نفسي لحد ما ربنا يوفقنا ونشطب ع البنك .. أصل أنا جارر من القهوة مشاريب ومعسل فوق الستاشر جنيه .. فمنظري في المنطقة بأة مش لطيف .

- ما أنا بقول برضه الحاجة الساقعة ماجاتش ليه ؟

فتحت أم عبد الجليل عينيها لترى ناجي وفرقته في الحجرة .. اندهشت لوجودهم في الحجرة .. فلم تحييهم ، وإنما نظرت نحو ابنها وسألته :

- مين دول يا واد يا عبد الجليل ؟!

قال ناجي :

- مساء الخير يا حاجة ..

قالت الأم ، وقد ظنت أنها كبسة بوليس :

- مساء الخير يا خويا .. والنبي عبد الجليل ما عمل حاجة .. ده أمير .. وهو اللي قاعد معايا وشايلني .. أبوس إيدك يا بيه !!

حاول عبد الجليل أن يهدئ من روع أمه قائلا :

- ما تخافيش يامه .. دول مش حكومة .. ده ناجي بيه عطا الله القائد بتاعي .. وجاي لي جايبلي مصلحة .. ادعيلنا يا أمه .

- إلهي وإنت جاهي ربنا يوفقكم وينصركم على من يعاديكم ، ويجعل لكم في كل خطوة سلامة .. قولوا إنشالله ..

قال الجميع في صوت واحد :

- إنشالله .. آمين يارب .

- تعالوا .. أما أرقيكم يا حبايبي .

Ahmed Madv

وبدأت أم عبد الجليل في الرقية ، والبيت يهتز جدًّا ، وزاهر يصرخ :

- لأ .. البيت بيقع .. والمصحف الشريف بيقع !

جرى زاهر وخلفه حسام وإبراهيم وتهامي وناجي .. وعبد الجليل يحمل أمه على كتفه .. والبيت يتساقط فوق رؤوسهم ، وأم عبد الجليل مستمرة في الدعاء لهم ، كأن شيئًا لم يحدث ، وكأن البيت قد سبق له وانهار قبل ذلك عدة مرات .. ومضوا مبتعدين عن الحارة ، وأم عبد الجليل تلاحقهم بدعواتها :

- منصورين بعون الله .. ومتوفقين وراجعين من مشواركم سالمين غانمين .. إنت واللي معاك يا عبد الجليل ، يابن بطني .. قادر كريم يارب .

* * *

في زاوية صغيرة بإحدى المناطق الشعبية ، كان الشيخ حسن يخطب في المصلين ، ويعطيهم درسًا دينيًّا بعد صلاة العشاء .. بكل سماحة ، كان الشيخ حسن يتكلم بصوته المؤثر العميق في خشوع :

- الحلال بيِّن والحرام بيِّن .. يعني إيه ؟ يعني ربنا سبحانه وتعالى جعل للإنسان جهاز إنذار داخلي .. حينما يهم بعمل الحرام .. يقوم إيه .. يرن .. هو ده المنبه اللي لو باظ ، يخسر الإنسان دنيته وأخرته .

كان ناجي عطا الله جالسًا في الصفوف الخلفية ، وبجواره إبراهيم وحسام وزاهر وتهامي وعبد الجليل .. كانوا يجلسون في خشوع ، وعلى وجوههم أمارات الورع والتقوى .

قال الشيخ حسن ، بعد أن أنهى الدرس :

- ربنا يفتح عليكم جميعًا ، ويجعل نهاركم نادي إن شاء الله .

قام المصلون وتركوا المسجد واحدًا بعد الآخر .. بينما ظل ناجي والمجموعة جالسين في أماكنهم ، ينظرون نحو الشيخ حسن ، الذي لفت نظره هؤلاء الذين

Ahmed Madv

ظلوا جالسين بعد نهاية الدرس فنظر نحوهم .. وما أن رأى ناجي عطا الله ، حتى أشرق وجهه ، وهتف بود وحب دافق :

- اللهم صلِّ ع النبي .. يا سلام .. سيادة اللواء ناجي باشا عطا الله .. مش معقول !!

وذهب إلى ناجي عطا الله فاتحًا ذراعيه ، وعانقه بحب شديد ، وهو يردد :

- والله العظيم ولا ليك عليا يمين ليك وحشة كبيرة يا فندم ..

- وإنت كمان ما روحتش عن بالي يا شيخ حسن .. إزيك يا شيخ حسن ؟!

- نعمة من الله .. نحمده على كل شيء .. طيب تصدق بالله .. إنت أتيت لي في المنام منذ ليلتين .

- الله أكبر .

- رأيتك مقبلًا عليَّ .. مبتسمًا بشوشًا ومديت يدك ، وقلت لي .. عاوزك يا شيخ حسن.

- وأنا فعلًا عاوزك يا شيخ حسن .

- شفت بأة .. رسائل القلوب !!

- أعرفك الأول يا شيخ حسن .. الإخوة الأفاضل .. دول زي أولادي وإخواتي الصغيرين ..

وسلم حسام على الشيخ حسن باحترام ، وقال :

- حسام .

وسلم إبراهيم باستحياء وخشوع :

- إبراهيم .

- زاهر .. تهامي .. عبد الجليل .

أما عبد الجليل ، فحاول أن يقبل يد الشيخ حسن ، فسحبها بسرعة مستغفرًا ، وقال معجبًا بهم :

Ahmed Madv

- الحياء سمة المسلم الصحيح .. ما شاء الله .. ما شاء الله .. سيماهم على وجوههم .. ربنا يكرمهم إن شاء الله .

- ربنا يكرمنا كلنا .. الشيخ حسن يا ولاد كان صول في مصنع الأسلحة والذخيرة .. وطلع معاش مبكر .. بس كان إيه ؟ أسطى مفيش زيه .. دماغ !!

قال الشيخ حسن مبتسمًا :

- أيام يا ناجي بيه .. أيام ...

- طيب شوف بأة يا شيخ حسن .. إحنا جايين لك .. عشان عاوزينك في شغل ..

- مش بقول سيادتك ابن حلال .. والله وما ليك عليا يمين .. الحال واقف وقفة ما يعلم بيها إلا ربنا .

- إنت بتصرف منين يا شيخ حسن ؟!

- أهي وزارة الأوقاف كانت بتبعت لي قرشين كل شهر .. يعني نواية تسند الزير .. ولو بيعنا كتابين في الدين .. قزازة مسك ولا عنبر .. كام سواك .. أهي بتتقضى .. إنما .. ولاد الحلال بأة قاعدين يبعتوا فيَّا شكاوي لأمن الدولة عشان يعني القضية القديمة ، اللي خرجنا منها بفضل الله وكرمه .

- إنت مش خرجت من القضية دي براءة ؟!

- لأ .. أخدنا حكم تلات سنين سجن .. وطلعنا في نص المدة .. حُسن سير وسلوك .. إنما شكلهم كده ناويين على قطع عيشي .

قال ناجي ، وهو يربت على كتف الشيخ حسن :

- ما تقولش كده .. الرزق ده بتاع ربنا سبحانه وتعالى يا شيخ حسن .

- ونعم بالله .. لا حيلة في الرزق .. ولكم رزقكم وماتوعدون .

- الله يفتح عليك يا شيخ حسن ..

Ahmed Madv

ومرت لحظة صمت .. خشي الشيخ حسن أن يضيع فيها موضوع الشغل، الذي فتحه ناجي بك .. ولم يستمر فيه .. فسأله بفضول المحتاج :

- والشغل ده .. يعني .. الشغل اللي سعادتك عاوزني فيه .. أنا قصدي العائد يعني .. هل يوفر حياة معقولة كريمة .. أنا لا أعني رفاهية لا سمح الله .. إنما .. أنا بأتكلم عن الأساسيات .

- كريمة إيه ومعقولة إيه يا شيخ حسن .. هي شغلانة واحدة .. ح تعملها معانا .. وح ترتاح بعد كده طول عمرك .. إنت وأسرتك وولادك .

- اللهم صلي ع النبي .. وش سعد طول عمرك يا ناجي بيه .. وإيه طبيعة العمل يا فندم ؟!

تنهد ناجي .. ثم نظر حوله ، وقال بصوت عميق هادئ :

- إحنا عاوزينك يا شيخ حسن عشان ح نسرق بنك !!

قال الشيخ حسن مصدومًا .. مفاجئًا :

- إيه ؟ نسرق بنك ؟! أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم .. حد الله بيني وبين الحرام .

فأضاف ناجي عطا الله بسرعة ، وبنفس الهدوء والعمق :

- ح نسرق بنك .. في إسرائيل !!

فمد الشيخ حسن يده بسرعة أكبر ، مصافحًا ناجي ، وقال :

- وإن ينصركم الله فلا غالب لكم .. لنقرأ الفاتحة .

ورفع الجميع أيديهم بالدعاء ، وقالوا في صوت واحد ، يملؤه الإيمان العميق :

- بسم الله الرحمن الرحيم ....

Ahmed Madv

Uploaded By
A.M.
لصالح مواقع
مكتبتنا
واحة الكتب
مدينة الكتب

http://www.kotobdown.com

http://wahetelkotob.com

http://www.maktbtna2211.com

Ahmed Madv

الفصل الثالث

حينما كانت السيارة تنطلق في الطريق الصحراوي ، وبها ناجي والمجموعة كلها ، متجهة إلى بورسعيد .. كانوا جميعًا شاردين غارقين في صمت مطبق .. كان كل منهم يسأل نفسه .. لماذا وافق على المضي في هذه العملية الانتحارية ؟ فهم ليسوا لصوصًا بالفطرة .. ولا هم تشكيل عصابي .. بل إن معظمهم لا يعرف الآخر .. شيء واحد فقط هو الذي كان يربط بينهم جميعًا.. هو ناجي عطا الله ، الذي كان كل منهم يدين له بولاء غريب وطاعة عمياء .. وحب جارف .. أما ناجي عطا الله فقد كان شاردًا هو الآخر .. ليس في أسرته ، فهو ليس له أسرة .. ولا في مستقبله .. فهو نادرًا ما يفكر في الغد .. كان يسأل نفسه .. إلام ستنتهي هذه الرحلة العصيبة !! .

في مطعم أسماك شهير على البحر ، كان ناجي والمجموعة يأكلون السمك والجمبري وفواكه البحر باستمتاع شديد ، وقطع انهماكهم في تناول الطعام صوت عبد الجليل .. سعيدًا مستمتعًا:

- الله .. عليا النعمة يا باشا الشغل معاك يرد الروح .. سمك ورز وقاعدين ع البحر كمان .. إيه العظمة دي .. والنبي ما تسيبنا يا باشا .. إحنا نشقلط البنك ده ونشوف لنا بنك تاني إنشالله في أمريكا علطول كده وإحنا حاميين .. ده ورا ده ؟!

قال ناجي باسما :

- وأنت بعد ما تسرق البنك ح تحتاج تسرق بنك تاني ؟!

- أمال نقعد كده لا مؤاخذة عواطلية .. البحر يحب الزيادة .

Ahmed Madv

وتدخل الشيخ حسن مستنكرًا :

- أهو الطمع ده بأة اللي يودي في داهية .. القناعة كنز لا يفنى .. هوه بنك واحد ، وبارك الله فيما رزق ، وخلاص .

قال ناجي ، وهو يمسح فمه ، وقد انتهى من طعامه :

- يا سلام يا شيخ حسن .. اللهم قوي إيمانك .. تفتكـــروا إحنا رايحين نسرق البنك ده بالذات ليه ؟!

رد إبراهيم :

- يا باشا اتوكل على الله .. ليه إيه ؟ ده كلام .. رزق وربنا باعتهولنا .. وصحبة حلوة .. وجو وتغيير مناظر .

- إنت ليه محسسني إنك طالع رحلة يا إبراهيم .. واخدها ببساطة كده ورايق .. اللى إحنا رايحين نعمله ده عملية انتحارية تقريبًا .. عملية شبه عسكرية وأي غلطة صغيرة قد كده ح نروح كلنا في ستين داهية .. إنت فاهم يا إبراهيم !!

ارتعد زاهر وسقطت الملعقة من يده حينما سمع كلام ناجي الأخير .. ورد حسام دون أن يسأله ناجي .. وكأنه ينتظر السؤال :

- أنا .. مع إني محتاج فلوس .. إنما أنا عاوز أعمل أي حاجة ليها قيمة .. تعبت يا باشا من الفشل .. نفسي أنجح .. أنجح في أي حاجة !!

ورفع الشيخ حسن يده متبرعًا بالإجابة من نفسه ، وقال :

- يكفينا ثوابًا إننا سنغزو أعداء الله في عقر دارهم حتى لو مُتنا .

ارتعد زاهر حينما سمع كلمة «مُتنا» وسقطت شوربة السمك فوق رجليه ، والتفت ناجي إلى عبد الجليل ، ليسمع وجهة نظره ، والذي قال بسرعة :

- أنا يا باشا بقول بدال ما أبلطج على أهل حتتي ومنطقتي .. أهم الجماعة دول أولى بالبلطجة !!

Ahmed Madv

ونظر ناجي نحو تهامي الذي أشار نحو الدبلة التي في إصبعه ، وقال :

- أنا بأة بصراحة .. خاطب وجاي أكوِّن نفسي ..

وضحكوا جميعًا .. ثم التفت حسام نحو ناجي وسأله :

- إنما إنت ما قولتلناش يا باشا اشمعنى البنك ده اللي اخترته عشان نسرقه ؟!

في مقهى من مقاهي بورسعيد الجميلة .. جلسوا جميعًا يتناولون الشاي والشيشة .. وفي عمارة من العمارات القديمة ذات البلكونات الخشبية ، كانت سيدة عجوز جالسة ونائمة واضعة رأسها على سور البلكونة .. كانت تفيق من آن لآخر .. وتنادي أحدهم :

- يا أمين .. يا أمين .. واد يا أمين ؟!

وكان ناجي يجيب عن السؤال قائلا :

- الجماعة الصهاينة دول سرقوا أرضنا في فلسطين واحتلوها وشردوا أهلها ، أصحاب الأرض الأصليين ، واعتبروا إن ده حقهم .. قال إيه عشان كانوا قعدوا فيها شوية من تلاتلاف سنة .. والعالم كله وقف يتفرج .. والجماعة الصهاينة دول لما طالبوا ألمانيا إنها تدفع لهم مليارات الماركات ، قال إيه تعويض عن اللي عمله فيهم هتلر من حوالي 70 سنة .. الألمان دفعوا ولسه بيدفعوا .. وسابوا ألمانيا واتدوروا على سويسرا ، وطالبوا بفتح الخزاين في بنوك سويسـرا .. عشان قال إيه مليارات الدولارات اللي أجدادهم حطوها في بنوك سويسرا أيام الحرب العالمية .. من غير أي دليل ، ومع ذلك إسرائيل قدرت تاخد مليارات من بنوك سويسرا .. طيب ما دام هما بيدوروا على حقهم كده .. اللي بقاله 70 سنة ، واللي بقاله 3000 سنة .. مش إحنا كمان برضه من حقنا ندور على حقنا .

قال الشيخ حسن مؤكدًا :

- الحق عمره ما يموت يا ناجي باشا .. ما ضاع حق لمطالب .

Ahmed Madv

- الله يفتح عليك يا شيخ حسن .. التاريخ بيقول إن أيام النبي موسى خرج من مصر 600 ألف يهودي ، واخدين معاهم دهب وفضة ونحاس بما يقدر بمليارات مالهاش حصر .. يعني قشطوها ومشيوا .

قال عبد الجليل بعفوية :

- ولاد الحرامية .. أتاري الحديد ولع في مصر .

فقال ناجي :

- بنك بارليـف اللي إحنا ح نروح ننضفه ، ح يكون فيه ما لا يقل عن 800 مليون دولار .

قبَّل الشيخ حسن يده «وجه وضهر» ، وقال :

- فضل ونعمة من الله ..

وأردف ناجي :

- الفلوس دي جزء من المعونة الأمريكية العسكرية اللي إسرائيل بتدفع منها مرتبات الجيش الإسرائيلي .. ح نجيبها من هناك على هنا .. وكل واحد فيكو ح ياخد نصيبه هنا في مصر .. من غير ما حد ح يحس إن إحنا لا روحنا ولا جينا .

وتصاعد إلى أسماعهم صوت المرأة ، وهى تنادي مرة أخرى :

- يا أمين .. يا أمين .. واد يا أمين ؟!

كان الجرسون يغير الشيشة ، فسأله ناجي :

- يابني ما تشوفوا اللي اسمه أمين ده .. حرام عليكم ، الست صوتها اتنبح .

- سيبك منها يا باشا .. سيبك منها .. أصل مخها مش مظبوط .. تعبانة .

وعاد إبراهيم ليسأل ناجي :

- بس يا باشا مش كان أربعة كفاية يقوموا بالعملية ، عشان كل واحد ياخد ميتين مقفولين .

Ahmed Madv

واعترض حسام قائلا :

- ناجي باشا .. الواد ده طماع وزبالة .. والعملية ح تفشل لو جه معانا .

وكالعادة زجره إبراهيم :

- ما بلاش إنت تتكلم عن الفشل يا كابتن !!

فقال زاهر وقد نفذ صبره :

- يا جماعة .. لو تحبوا تروحوا إنتوا وأرجع أنا .. أنا معنديش مانع .

وصرخ فيهما ناجي كالعادة :

- اخرس إنت وهوه .. مَحدِّش له قرار في الموضوع ده غيري أنا .. وأنا كمان اللي ح أقرر نصيب كل واحد فيكم حسب دوره .. مفهوم ولا لأ ؟!

ورد الجميع في خجل :

- إحنا آسفين يا باشا .

وبينما هم جالسون على المقهى ، أتى رجل في نحو الخمسين من عمره ، بورسعيدي اللهجة والمظهر ، متهللا فرحًا حينما رأى ناجي عطا الله واستقبله بكل ترحاب وكرم أهل بورسعيد :

- وإني بقول بورسعيد منورة يا ناجي بيه .. أهلًا وسهلًا .. يادي النور .. منورين يا شباب .

- إزيك يا ريس فرج .. عملت لنا إيه في العربية اللي ح تودينا العريش ؟!

- عشر دقايق على بال ما نشرب الشاي .. الوله ح يجيني بالمفتاح .

- لسه عشر دقايق !!

كانت المرأة المسنة النائمة في البلكونة ، والتي تضع رأسها على سور البلكونة تفيق فجأة .. ثم تنظر من البلكونة ، وتنادي بصوت واهن .. يثير الشجن :

- يا أمين !! يا أمين ؟! أمين ما جاش لسه يا فرج !!

Ahmed Madv

- لسه يا أم أمين .. خشي نامي إنتي وأما ييجي ح أبأة أنده عليكي ..

- أديني قاعدة مستنياه ، أحسن ما ييجي يلاقيني نايمة ما يرضاش يصحيني .

- يا ستي خشي نامي .. وأنا ح أبأة أصحيكي !!

قالت المرأة بلهجة بورسعيدية حزينة :

- أصلي مش جاي لي نوم .. واحشني الوله .

كانت أم أمين تنعس وتضع رأسها على البلكونة ، وتذهب في غفوة قصيرة .

قال ناجي لفرج :

- القهوجي بيقولّلي مخها مش مظبوط !!

قال فرج مدافعًا :

- قطع لسانه .. هوه فيه في بورسعيد كلها عقل في عقل أم أمين .. دي ست كُمل .. دي توزن عشر رجالة .

فسأله ناجي :

- وأمين ابنها ده سايبها كده ليه ؟!

- أمين .. مش ح ييجي يا باشا !!

- ليه ؟!

- أمين مات من خمس سنين .. كان شغال عسكري في البوليس .. ع الحدود ، وفي يوم جاله عيار طايش من ولاد الكلب الإسرائيليين خلص عليه .

- أيوه أنا فاكر حاجة زى كده حصلت من فترة فعلًا ، وتقريبًا الحكومة الإسرائيلية اعتذرت رسميًّا ، والحكومة المصرية قبلت الاعتذار .

قال فرج بمرارة :

- أم أمين ما قبلتوش ولا صدقت إن أمين مات ، وعاشت زي ما انت شايفها كده .. مستنياه .. لا راحت الدفنة ولا حضرت الجنازة .. ولا حتى عيطت

Ahmed Madv

عليه .. أصلها ما كانلهاش غيره .. وأهي كل يوم تقعد في البلكونة تستناه .. عايشة ع الأمل .

وسادت الجميع حالة من الاكتئاب الشديد، حينما عرفوا حكاية أم أمين .. وسأل ناجي فرج :

- وبتصرف منين الست دي ؟!

- المحافظة عملت لها معاش وبتاخد معاش أمين .. بس قال إيه بتحوشهوله في البوستة عشان تجوزه بيه .. مسكينة .

وقف ناجي في ضيق، وشعر باختناق مفاجئ .. ثم عبر الشارع وتركهم .. حتى لا يرى أي منهم تلك الدمعة الساخنة التي نزلت على خده رغما عنه .. كان باب شقة أم أمين يطرق طرقًا خفيفًا، وأم أمين تجري نحو الباب، وهي تثبت الطرحة على رأسها، فرحة سعيدة مبتهجة، وهي ترد على الطارق :

- أكيد وصل .. جاية يا أمين .. جاية يا حبيبي ..

وفتحت الباب لتجد ناجي عطا الله واقفًا أمامها يبتسم في عذوبة، فاندهشت وسألته :

- مين .. مين حضرتك يا بيه !!

- أنا اللواء ناجي عطا الله، القائد بتاع أمين ابنك .

ردت أم أمين بطيبة شديدة :

- اتفضل يا باشا .. أمين بقاله كتير ما نزلش .. وحشني قوي .. ما تدوله أجازة إنشالله 48، ولا حتى 24 أشوفه بس، ويرجع لكم .

- إنتي عارفة يا أم أمين إحنا معتمدين على أمين قد إيه ؟ ابنك راجل، ومفيش حد زيه .. ده حتى اترقى دلوقت .

ونظر ناجي نحو صورة أمين المعلقة على الجدار .. شابًّا جميلا مبتسما في حضن أمه ..

Ahmed Madv

قالت أم أمين :

- ربنا يخليك يا سعادة الباشا .. والنبي ده أمين ح يفرح قوي ، لما أقول له ع الكلام الحلو اللي إنت بتقوله عليه .

قال ناجي بهدوء :

- بس أنا مش عاوزك تقلقي عليه .. أمين في مهمة عظيمة .. وإنشاء الله ربنا ح يوفقه فيها .. أنا جاي لك بنفسي عشان حاجتين .. أولًا بلغني إنك ما بتناميش وقلقانة عليه .. اطمني .. أمين زي الفل .. نامي وارتاحي يا أم أمين .. الحاجة التانية .. أمين باعت لك دول ، عاوزك توضبي البيت .. وتجيبي كل اللي نفسك فيه ، وكل شهر ح يبعت لك زيهم .

وأعطاها ناجي عشرة آلاف جنيه .. رزمة واحدة أمسكت بهم أم أمين ، وقالت مندهشة :

- إيه ده كله يا بيه .. هوه أمين ساب الداخلية !!

- لأ .. إنما هوه في بعثة .. بعثة حلوة قوي .. ربنا غناه .. ما بآش محتاج أيُّها حاجة .. عيشي وانبسطي واتمتعي .. عشان هوه كمان ينبسط .

أخذت أم أمين تدعو لناجي ودموعها في عينيها :

- ربنا يخليك يا بيه .. ما نتحرمش منك .. ربنا يطمن قلبك زي ما طمنت قلبي .

- ودلوقتي تخشي تنامي وتريحي جتتك .. مش اتطمنتي !!

ردت أم أمين :

- طيب وأمين ح ييجي إمتى ؟!

قال ناجي وعيناه دامعتان :

- قريب .. قريب إن شاء الله يا حاجة .. سلاموا عليكم !!

وحاولت أم أمين أن تقبل يده من فرط امتنانها بما فعل ، فسحب يده ، وقبل هو رأسها ، وخرج وهي تلاحقه بدعواتها .

* * *

Ahmed Madv

في طريق بورفؤاد العريش ، كانت السيارة تنطلق ، وناجي والمجموعة كلها جالسون في صمت .. وصوت عبد الحليم حافظ وهو يغني (عاش اللي قال للرجال عدُّوا القنال) .. ينبعث من الراديو .. وقد شعر كل منهم أنه مقبل على عملية وطنية .. وليست عملية سرقة بنك .. وقفت السيارة عند موقف السيارات في العريش حيث كان بانتظارهم أحد السائقين ، وكان الريس فرج البورسعيدي معهم ، وقال لناجي بيه :

- شوف بأة يا ناجي بيه .. أَجرْتلك أنضف ميكروباص في العريش كلها .. وسواق عاقل يمشي بيك تحس إنه لسه واقف مامشيش .. تعالى يا سليم .. ح تاخد البهوات توديهم عند أبو موسى .. في رفح .. ماتمشيش إلا لما توصلهم لحد باب البيت .. فاهم يا سليم .. اجري هات العربية .

* * *

في الطريق إلى رفح ، حاول ناجي أن يبدد الصمت ، ويفتح حوارًا مع الأسطى السائق .. فسأله :

- إنت من سينا يا سليم ؟

- أيوه يا بيه .

- وأبو موسى ، أخباره إيه ؟!

- تمام .. كله تمام .. والشباب كلهم مغادرين على غزة ؟!

- مسافة السكة .. رايحين نجيب بضاعة وجايين على بالليل .

- غريبة دي .. الناس بتاخد بضاعة من هنا توديها هناك .. أول مرة حد يسافر ياخد بضاعة من هناك علشان يجيبها هنا .

قال ناجي مبررًا :

- لأ .. أصلها مش بضاعة بضاعة .. إحنا لينا قرشين كده عند ناس ، ورايحين ناخدهم .

Ahmed Madv

قال إبراهيم بلغة عبرية :

- ده سواق رزل وغلباوي قوي .

توقف السائق بالسيارة حينما سمع إبراهيم يتكلم بالعبرية ، وقال في ضيق :

- إنتوا يهود !!

قال ناجي :

- يهود مين يا عم .. ده إبراهيم .. واد غاوي مقالب .. اطلع بأة يا أسطى .

وقفت السيارة حيث كانت لجنة بوليس واقفة على الطريق.. وأخذوا الرخص من السائق .. ثم نظر الظابط داخل السيارة وتأمل الوجوه .. فقدم له ناجي الكارت بكل ثقة .

- ناجي عطا الله .. لواء سابق وملحق إداري بالخارجية سابقًا .. رايحين نحضر فرح عقبال عندك .

- فرح مين ؟!

- فرح بنت أبو موسى .. في رفح .

- ودول مين اللي معاك ؟!

- دول الفرقة علشان نهيص للعروسة .. أصل علي حميدة ضارب في العالي دلوقت .. جيبنالهم فرقة من مصر تحيي الليلة .. نقطة العروسة .

نظر الظابط إلى الشيخ حسن بلحيته الخفيفة مندهشًا ، وقال :

- ومين ده ؟!

- ده .. ده المأذون .. بطاقتك يا مولانا .

- فقال الظابط :

- لا .. خلاص .. اتفضلوا إنتوا .. اطلع .

Ahmed Madv

وتحركت السيارة وقد تنفسوا الصعداء وأخذوا يغنون معًا أغنية الفرح ، التي تغنيها فرق الزفة والأفراح .

- بسم الله الرحمن الرحيم ، وح نبتدي الليلة .. لالا..لالا !!

وتحركت السيارة بعيدًا إلى أن اختفت تمامًا .

* * *

أمام بيت أبو موسى .. كانت اللمبات والزينات معلقة على البيت ، وأصوات الغناء والتصفيق في الفرح .. ونزل ناجي والأولاد من الميكروباص ودخلوا إلى البيت .. كان إبراهيم يتمايل مع الأغاني السيناوية الجميلة التي تنبعث من البيت .. ولا يمكن أن يتصور مخلوق أن هؤلاء الشباب الضاحكين العابثين .. ذاهبون الآن لسرقة أكبر بنك في إسرائيل .. كان أبو موسى واقفًا في ساحة البيت ، السيناوي الطابع ، وكان الفرح على الطريقة السيناوية .. وخروف يشوى على الفحم .. والأغاني والرقصات السيناوية تملأ المكان بهجة وسعادة .. ودخل ناجي ، الذي ما أن رآه أبو موسى ، حتى تهلل فرحًا لرؤيته ، وشد على يده بقوة ، وربت على ظهره بعنف :

- والله اتشرفنا يا ناجي بيك .. يا أهلًا بالشباب .. والله وجوهكم هادي وجوه سعد .. وجوه خير !!

- ربنا يتمم بخير يابو موسى .

ثم اختلى به جانبًا وأعطاه رزمتين من الدولارات ، وهمس له :

- دول 20 ألف دولار يابو موسى .. نقطة العروسة !!

نظر أبو موسى نحوهم وكأنه يعدهم .. فقال ناجي مستدركًا :

- ما تعدش يا أبو موسى .. إحنا سبع أنفار في تلاتة بواحد وعشرين ألف !!

وأعطاه رزمة أخرى ، قائلًا :

- ودول بأة مني أنا .. نقطة العروسة .

Ahmed Madv

- مجبولة منك يا ناجي بيك .. بس بالأول لازم تاخدوا واجبكم .. أنتم ضيوفنا ، اتفضلوا .. اتفضلوا بالبيت تغيرون تيابكم وتغسلون وجوهكم من السفر .. هادا بيتك يا ناجي بك إنت وضيوفك .

وتحرك أبو موسى وخلفه ناجي والمجموعة ، خارجين من الساحة إلى غرفة داخلية .. هي غرفة الاستقبال في بيت أبو موسى .. أرائك على الجدران وجلسات مختلفة .. وأطقم صالون مختلفة .. عدد كبير من الجنسيات جالسين بالمكان من السودان وأريتريا وتركيا وأثيوبيا .. بعضهم كان نائما .. وبعضهم كان يدخن .. كل منهم بجواره زجاجة ماء وزجاجة لبن وأنبوبة أكسجين صغيرة .. اللغات مختلفة .. واللهجات .. تشعر كأنك في صالة سفر بأحد المطارات ، واندهش زاهر وسأل ناجي بك :

- إيه ده يا باشا ؟ مين دول ؟ إحنا فين ؟!

- ده يا زاهر تقدر تعتبره موقف بني آدمين .. اللي هربان من حكم ، واللي عامل لجوء سياسي .. واللي طفشان من بلده .. أو من مراته .

- وكل دول ح يعدوا من النفق ؟!

ونظر ناجي نحو البضائع المتكدسة الذاهبة إلى غزة .. سجائر .. طعام .. وقود .. وقطع غيار سيارات وصابون وزيت وسكر وموبايلات ، وقال معقبًا :

- ده ولا قرية البضايع في المطار .

ودخل أحدهم من رجال البوليس ، وقدم القهوة على صينية .. وهمس ناجي لأبو موسى :

- بأقولك إيه يا بو موسى .. إحنا ح نمشي إمتى ؟! أوعى يكون بالدور .. أنا مش ح أستنى دول كلهم .. أنا متفق معاك ع الميعاد .

قال أبو موسى هامسًا :

- أصبر يا ناجي بيه .. لما أبو شعلان يديني الإشارة !!

Ahmed Madv

وتساءل إبراهيم :

- أبو شعلان مين ؟!

- اللي في الناحية التانية .. في رفح الفلسطينية .. اللي ح يفتح لكوا بعد ما تعدوا النفق بالسلامة إن شاء الله .

ورن تليفون أبو موسى ، الذي رد بسرعة قائلا :

- آلو .. أبو شعلان .. كيفك يابو شعلان .. والله زعلان اللي ما جيت الفرح لحد دلوقت .. طيب .. الشباب ح يجولك .. ده الحين .

وضع أبو موسى السماعة ، ثم أشار لهم بأن يتبعوه ، وكان أحد أتباع أبو موسى واقفًا يسلمهم زجاجة مياه .. وزجاجة لبن وأنبوبة أكسجين صغيرة.. ثم مضوا جميعًا وراء أبو موسى ، خارجين من غرفة الاستقبال إلى حجرة داخلية .

في جو مظلم وكئيب ، وكأننا انفصلنا عن العالم ، وفي حجرة بدروم أشبه بمقبرة لا أثر للحياة بها .. نزل أبو موسى .. وخلفه ناجي على سلم ، يؤدي إلى أرضية الحجرة .

قال زاهر مرعوبًا :

- هما مدينا قزازة المية دي ليه يا باشا ؟!

- مش يمكن تعطش يا زاهر !!

وأمسك عبد الجليل بأنبوبة الأوكسجين ، وفحصها سائلا :

- الأنبوبة دي إيه نظامها يا باشا .

- أنبوبة أوكسجين .

قال عبد الجليل :

- أكشوجين .. هوه إحنا ح ندهن حاجة يا باشا ؟!

قال ناجي آمرًا :

- بقولكوا إيه ؟ مش عاوز غلبة .. زي ما اعمل تعملوا زيي وخلاص .

Ahmed Madv

وضغط أبو موسى على زر كهربائي ، فانفتح غطاء حديدي في الأرضية ، وهو غطاء النفق .. وانسحب للداخل .. فبدت هوة سحيقة مظلمة بمكان الغطاء .. وظهر في بدايتها سلم حديدي ، يتجه إلى أسفل .. هو الطريق إلى النفق .. كان الجميع ينظرون نحوه برعب شديد .

قال زاهر وهو يرتعد :

- ده ضلمة قوي .

وضغط أبو موسى على زر آخر فأضيئت لمبات النفق .. وهي لمبات كهربائية متباعدة معلقة على الحائط بأسلاك ممتدة بطول النفق .. كل ثلاثة أمتار توجد لمبة والنفق ضيق للغاية .. عرضه لا يزيد عن 70 سم ، وارتفاعه لا يزيد عن 170 سم ، مرفوع على أسقف خشبية عبارة عن ألواح من خشب رديء ، تسند السقف الذي يبدو أنه ترابي .. والأرضية من الرمال تبدو رطبة وموحشة .. كأنه مدفن .. الضوء خافت وموحش وخانق .

قال ناجي ، بعد أن أضيء النفق :

- لو صبر القاتل ع المقتول .. أهو نور أهوه يا زاهر .. فرح العمدة تحت .. ماتعرفش تخف لنا النور شوية يا أبو موسى .

قال زاهر مرتعدًا :

- لأ .. خليه منور يا ناجي بيه أبوس إيدك !!

ومرت لحظة عصيبة من التردد والخوف بدا أثرها على الجميع .. كان ناجي ينظر إلى حسام الذي يبدو أكثرهم إصرارًا وشجاعة .. فتقدم حسام ونزل من السلم الحديدي إلى الهوة بكل جسارة وقوة .. ونظر ناجي إلى إبراهيم ، الذي كان يبلع ريقه في ارتباك ، ولكنه لم يرض أن يظهر أقل شجاعة من حسام .. فقال مشجعًا نفسه :

- أنا راجل غطاس تحت المية ما يهمنيش .. أشوف وشكم بخير يا إخواننا .

Ahmed Madv

ونظر ناجي إلى الشيخ حسن ، الذي قال بإيمان عميق :

- قُل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

ونزل الشيخ حسن بإيمان وثقة إلى النفق .. ونظر ناجي نحو تهامي يوصيه ، وهو يبدأ في النزول إلى النفق :

- على مهلك يا تهامي .. النفق يا دوب متلصم .. انزل بالراحة ما تهبدش نفسك .

وأخيرًا نظر ناجي إلى زاهر .. الذي كاد يسقط من فرط الهلع ، حينما نظر إلى الهوة التي أمامه ، وأغمض عينيه وأدار وجهه .. ثم بدأ يجهش بالبكاء .. قائلا متوسلا :

- لأ .. لأ يا ناجي بيه أبوس إيدك .. أنا مش ح أقدر أنزل .. ده ضيق قوي .. أنا حاسس إني ح أتخنق تحت .. أنا عندي فوبيا من الأماكن المقفولة .

قال عبد الجليل ببساطة ، وهو ينظر نحو النفق مشجعًا زاهر :

- ضيق إيه يا باشمهندس .. ما هو برح ويرد الروح .. ما تنزل يا عم .. أهوه .

ونزل عبد الجليل مسرعًا إلى النفق ، وكأنه سباك يدلف إلى بلاعة .. قال ناجي معقبًا :

- طبعًا ما انت النفق اللي انت عايش فيه إنت وأمك .. ده بالنسبة له سويت !!

قال عبد الجليل من أسفل النفق بسعادة :

- والله شرح شراحة تحت .. انزلوا بس ح تنبسطوا !!

أمسك ناجي بزاهر بحنان .. وقال :

- تعالى يا زاهر .. ما تخافش .. أنا معاك .. حط إيدك في إيدي .. ح ننزل مع بعض ..

كان زاهر يرتجف .. وقال ، وهو يرتعش من الخوف متشبثًا بناجي :

- ما تسيبنيش .. ما تسيبنيش يا ناجي بيه .

- ما أنا ماسكك أهوه يابني .. أمسك إنت أعصابك شوية .. اقفل يا بو موسى .

Ahmed Madv

واختفوا جميعًا داخل النفق ، وأبو موسى يضغط على الزر ليغلق الباب الحديدي بالكهرباء .. ثم أغلق نور الحجرة .. ليغرق المشهد في ظلام دامس .. داخل النفق كان ناجي عطا الله وفرقته يمشون ، وقد انتابتهم حالة من التوتر الشديد ؛ خاصة زاهر الذي التصق بناجي إلى حد كبير ، متشبثًا به كأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة .. فحاول ناجي أن يكسر حدة الموقف وكآبته ، فقال بثقة :

- أنا عارف إنكوا قلقانين .. إنما فكروا كده وإحنا راجعين بالفلوس ، بعد ما نخلص الشغلانة ، وكل واحد فيكم يحقق اللي كان بيحلم بيه .. أكيد إحساسكم ح يكون مختلف عن إحساسكم دلوقت !!

قال زاهر ، وهو يخرج صوته بصعوبة :

- هوه إحنا ح نرجع من النفق ده برضه يا باشا !!

- طبعًا .. محدش فيكوا سألني أنا ليه اخترت نخرج من هنا ونرجع من هنا !!

فرد إبراهيم :

- أنا كان نفسي أسأل سعادتك السؤال ده .. بس سعادتك مانع الأسئلة .

- بالعكس .. ده سؤال كويس له قيمته .. لو كُنا عدينا من المعابر ، كان لازم يشوفوا باسبورتاتنا ويثبتوها في الخروج .. إحنا كده لا دخلنا ولا خرجنا .. ولايمكن حد يثبت إن إحنا لينا أي علاقة بالموضوع .

قال عبد الجليل منافقًا ناجي عطا الله :

- عليّا الطلاق باشا .. باشا كبير قوي .. شفتوا الدماغ !!

قال حسام ساخرًا من عبد الجليل :

- بذمتك إنت فاهم الباشا بيقول إيه ؟!

Ahmed Madv

وضحكوا ومضوا ، وقد كان لكلامهم فعل السحر في تهدئة الموقف إلى حد ما .. وأعطاهم بعض الثقة في أنفسهم .. ولكن صوت زاهر المرتعد اخترق حالة الثقة المفاجئة هذه ، وقال :

- بس ده ممكن يقع علينا يا ناجي بيه !!

- يا زاهر يا حبيبي .. لازم تعرف ليه اخترت نفق أبو موسى .. ما الأنفاق كتير ، ويعدونا بأقل من اللي دفعناه لأبو موسى .. إنما ده للحق أكثر نفق مبني بضمير .. الراجل حاطط مسلح .. دي المعابر اللي الحكومات عاملاها دي ممكن تتهد .. إنما الأنفاق .. لما تعمل فيها إيه .. حتة حديدة .

قال إبراهيم معقبًا :

- والله زين ما اخترت يا ريس .. الغالي تمنه فيه برضه !!

وقال تهامي الذي بدأ يتعب من ارتطام رأسه بسقف النفق :

- قد إيه النفق ده يا ناجي بيه ؟!

- مش كبير .. يعني بتاع9 كيلو .

قال زاهر صارخًا :

- 9 كيلو ؟!

- فاكرين لما كنا بنروح نتمشى في بورفؤاد من الـفيلا لحد المعدية .. المسافة دي قد إيه 18 كيلو .. يعني دي نص المسافة بالظبط .

قال إبراهيم :

- بس كُنا بنتمشى ع البحر يا ريس .. مش في نفق !!

وبدأت الثقة تتزعزع بداخلهم ، فعاد ناجي يحاول أن يسري عنهم ، وقال :

- أنا مش عاوزكوا تفكروا إنكوا ماشيين في نفق .. كل واحد منكم يتخيل إنه بيتمشى ع البحر .. فاكرين لما كنت بأقولكوا غمضوا عينيكوا وأتخيلوا .

Ahmed Madv

نظر الشيخ حسن إلى المكان وتنهد ، وقال :

- يا سبحان الله .. أهو مصير الإنسان في النهاية حفرة زي دي .. آه لو نتعظ !

انزعج ناجي من خيال الشيخ حسن ، الذي ذهب مباشرة نحو الموت .. وقال مغيرًا الموضوع :

- افتكر لنا حاجة حلوة يا شيخ حسن .. بقولكوا اتمشواع البحر .

وشرد إبراهيم بعيدًا .. وابتسم .. وقال بمرح طفولي :

- أنا متخيل يا باشا .. والله العظيم متخيل .. الله .

- متخيل إيه يا إبراهيم ؟!

قال إبراهيم بسعادة :

- إن أنا في مارينا .

سعد ناجي جدًّا بخيال إبراهيم ، وقال مشجعًا إياه :

- الواد ده خياله عالي قوي .. شايف إيه يا هيما ؟

- شايف حتة موزّة ماشية قدامي ع الشط .. حكاية .. لابسة مايوه روز بوردة بيضا على صدرها .. يااااه .. إيه الشفايف دي .

تضايق الشيخ حسن من خيال إبراهيم الخليع ، وقال :

- استغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم .

فرد ناجي :

- يا عم سيبه .. الراجل بيتخيل .. حد قالك تخش في خياله .. هو بيتمشى في مارينا .. اتمشى إنت في الحسين .

وفجأة بينما كان إبراهيم مستغرقًا في خياله على شاطئ مارينا .. صرخ مذعورًا :

- يا نهار أسود !!

- إيه انت راخر ؟!

- أصل وانا بأتخيل إن أنا بالاغي الموزة .. جوزها دخل علينا .

Ahmed Madv

وضربه ناجي مداعبًا .. وضحكوا جميعًا ، وخرجوا من أول محور من محاور النفق ، وقد صاروا نفسيًّا أحسن حالا إلى حد ما ..

قال عبد الجليل :

- إنما الناس اللي كانوا قاعدين فوق ما نزلوش معانا ليه يا باشا ؟!

- تلاقيهم مستنيين بقية البضاعة .. أصل دول كلهم مهربين !!

قال حسام ، وكأنه يتحسس وجيعته :

- مش كلهم يا باشا .. أكيد فيهم شباب طالع عين أهله ، ومش لاقي أي خرم إبرة يعدي منه غير النفق ده .. تعرف يا باشا أنا بعد ما آخد نصيبي وارجع مصر ح اعمل مشروع يشغل كل الشباب اللي قاعدين على القهاوي دول .

فرد إبراهيم :

- ما تنبرش فيها يا أبو الكباتن وحياة أبوك .. نطلع من هنا على خير الأول !

- احترم نفسك بأقولك .. إنت واد واطي قوي .

وتواجه الاثنان .. وبدا أن كلا منهما يهم بالوثوب على الآخر ، فصرخ فيهما ناجي :

- الله يخرب بيوتكوا .. حد يتخانق في نفق يا ولاد المجنونة .. أمشي ياد يا إبراهيم وابعدوا عن بعض خالص .. جتكوا البلا .. خلاص يا حسام !!

وفجأة سقط زاهر على الأرض ، وهو يتنفس بصعوبة ، ويكاد يحتضر :

- ناجي بيه .. أنا حاسس إني باتخنق ، مش قادر آخد نفسي .. مفيش أوكسجين .. آه !!

- اشرب مية يا زاهر .. اشرب يا زاهر .. ماتخافوش طول ما الكهربا شغالة في النفق .. فيه مضخات بتضخ هوا جوه النفق .

وعقّب إبراهيم على كلام ناجي قائلا :

- ربنا يبارك له أبو موسى .. صارف على النفق صارف يعني !!

Ahmed Madv

- لا هوه راجل محترم .. كان بادي بنفق واحد .. ما شاء الله دلوقت عنده أربع خمس أنفاق بياكل منهم الشهد .. خلاص بأة يا زاهر .. فيه كهربا يعني فيه أوكسجين .. والكهربا أهية قدامك شغالة .

شرب زاهر بعض الماء .. وبعض اللبن ، ثم أخذ نفسًا عميقًا ، وقد تحسنت حالته بعض الشيء .. وفجأة انطفأت اللمبات وانقطع التيار الكهربائي ، وصرخ زاهر مرعوبًا :

- الكهربا انقطعت ؟!

قال ناجي للجميع بحزم .

- حطوا أنابيب الأوكسجين بسرعة .

وأضاءوا البطاريات ووضعوا أنابيب الأكسجين على أنوفهم ، وقد انتابتهم حالة من الربكة ، وأشار لهم ناجي أن يتحركوا بسرعة قبل أن ينفذ الأوكسجين ، وانطلقوا يجرون داخل النفق ويهرولون .. وهم ممسكون ببطاريات ، كانت تعكس خيالاتهم في ركضهم السريع المرعب ، فبدا المشهد كلوحة سريالية مفزعة ، ثم اختفوا في الظلام .. كانوا قد بدأوا يشعرون بالتعب والعرق الغزير ينهمر من وجوههم .. وهم يركضون خلف بعضهم بعضًا ، وكل منهم ممسك ببطارية ، ثم فجأة أضاءت اللمبات من نفسها وعادت الكهرباء .. فخلع ناجي أنبوبة الأوكسجين بسرعة ، وقال :

- اخلعوا أنابيب الأوكسجين بسرعة .. لازم يفضل معانا أوكسجين كفاية .. ما نضمنش بقية الطريق .. اشربوا لبن .. اشربوا مية .

وأخذوا يشربون الماء واللبن ، وشعروا أن العملية قد بدأت بالفعل .. وقد كست ملامحهم الجدية والخطورة ، وقال إبراهيم ساخرًا كعادته :

- وأبو موسى بعد المصاريف دي كلها مش قادر يجيب جنراتور .

Ahmed Madv

وسقط زاهر على الأرض مرة أخرى ، واقترب ناجي منه بسرعة ، محاولا إفاقته .. فأفاق زاهر ، وقرب زجاجة اللبن من فمه ، وقال له ناجي بحنان :

- اشرب يا زاهر .. اشرب اللبن ده .

- لأ .. لأ .. ما بحبش اللبن .. ما باشربوش يا ناجي بيه .. ح ارجَّع لو شربته .

- يابني اشرب .. ح اجيب لك نسكافيه منين هنا !!

فانفجروا جميعًا ضاحكين .. قال زاهر وهو يتنهد :

- معلش .. أصل الأماكن المقفولة دي بتخليني ..

قاطعه ناجي قائلا :

- هي فين اللي مقفولة دي .. ده الطريق مش عاوز يخلص .. ده مفتوح فتحة سودة .

استند زاهر على ناجي ، وقام ومضوا جميعًا داخل النفق .. وناجي يصدر لهم تعليماته وأوامره :

- ما تبصش يمينك ولا شمالك يا زاهر .. بص قدامك .. ح تلاقي الطريق مالوش نهاية .. ياللا .. ياللا يا زاهر !!

قال الشيخ حسن ؛ ليشد من أزرهم :

- يا معين يا جبار يا رحمن .. اللهم أعنا على شدتنا !!

فردد الجميع خلفه :

- آمين !!

وصرخ عبد الجليل فجأة :

- بركتك يامه !!

قال ناجي منزعجًا :

- الله يخرب بيتك .. سَوَرْتِلي وداني !

واقترب عبد الجليل من ناجي هامسًا :

- باشا .. باشا .. هوه النفق ده مافيهوش دورة مية .. أصلي محصور !!

Ahmed Madv

- ما تعملها في أي حتة يا عبد الجليل .. إحنا في الفورسيزون .. اجري قدام كده واعملها .. بس على جنب مش في وسط الطريق .. إبأة خد الباب وراك .

وجرى عبد الجليل مسرعًا ، واختفى في نهاية هذا الجزء من النفق ، وانفجروا ضاحكين ، وهم يسمعون صوت تبول عبد الجليل العالي جدًّا .. فقال ناجي مداعبًا :

- لو قعد كده كتير .. ح يهد علينا النفق .. الواد ده ينفع يشتغل في المطافي .

وسرت عدوى الضحك بينهم جميعًا .. فأخذوا يضحكون .. حتى زاهر نفسه دمعت عيناه من فرط الضحك ، وفجأة ظهر أمامهم من منحنى آخر في النفق رجل أسود اللون نحيف .. طويل القامة ، ممسكًا بعدد من البنادق .. قال إبراهيم حينما رآه :

- إيه ده ؟ الواد عبد الجليل ماله اتحرق كده ليه يا باشا !!

- ما هو فقد مية كتير يا إبراهيم !!

تقدم الرجل منهم فتبينوا ملامحه وصدموا لرؤيته .. ووقفوا متسمرين في أماكنهم ..

قال الرجل بلهجة سودانية :

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فرد ناجي :

- وعليكم السلام يا أخ .. أهلًا وسهلًا .. نورت النفق !!

- الإخوة من مصر !

- أيوه .. والأخ منين إن شاء الله ؟!

- من السودان .

قال ناجي بحب مفتعل :

- أحسن ناس .. وهي مصر والسودان إيه ؟ ما واحد !!

Ahmed Madv

- أي خدمات ؟!

- لا .. اتفضل .. اتفضل حضرتك .

- بالسلامة إن شاء الله .

واختفى الرجل من نهاية محور النفق ، ماضيًا في طريقه .. قال ناجي معقبًا :

- أمير قوي قوي .. مين ده ؟! إيه النفق ده .. هوه منفد على أنفاق تانية ولا إيه .

عاد عبد الجليل .. وما أن رأى ناجي والمجموعة ، حتى قال :

- بقولك إيه يا باشا .. النفق ده بسم الله الرحمن الرحيم .. باين عليه مسكون .

فصرخ زاهر في فزع :

- مسكون !!

- عليّا النعمة ، يا باشا ، وأنا واقف بافك زنقتي اِتخايلت بعفريت طويل واسود ، ومعدي ورايا .

قال ناجي :

- ما جالنا .. والراجل بأة عاوز يشيلنا من ع الأرض شيل !!

- العفريت !!

أومأ ناجي برأسه مؤكدًا :

- آه !!

وظهر فجأة رجل ضخم كث الشارب عريض المنكبين ، حاملا مجموعة من الأكياس ، وفوجئ ناجي والمجموعة به .. ووقفوا في أماكنهم متسمرين .. كان الرجل يتكلم بلهجة تركية عربية ، وما أن رآهم ، حتى بادرهم قائلا :

- السلام عليكم ..

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

Ahmed Madv

- الإخوة من مصر .

- يا أخي المصري بيبان في أي حتة .. والأخ منين ؟

- من أستنبول ..

- أحسن ناس .. وهي مصر وتركيا إيه ؟ ما واحد .

- فيه خدمات ممكن نقدمهالكم أفندم ؟!

- يا عم الله يخليك .. توصل بالسلامة .

- سلام أفندم .

واختفى هو الآخر في منحنى من منحنيات النفق .. وهم ينظرون نحوه باندهاش .. كأنهم يرون شبحًا ، وقال ناجي محاولا تغيير الموضوع :

- ما النفق ونس أهوه .. وناس رايحة وناس جاية .. بطلوا كآبة بأة .. ما تفكها يا زاهر .. أنا حاسس إني ماشي في شارع جامعة الدول العربية الساعة 2 بالليل .. مش ناقص غير الحناطير ، وناس تفرقع بومب في النفق .

فسأله تهامي :

- الناس دول جايين منين يا باشا ؟!

- الناس دي لازم تكون جاية من أنفاق تانية .. أبو موسى زباينه معروفين .

وأثناء سيرهم في النفق وجدوا خروفًا يأتي مسرعًا أمامهم .. تجاوزهم وذهب إلى عكس اتجاههم ، وزاهر يصرخ .

قال إبراهيم مندهشًا :

- إيه ده .. خروف في النفق ؟

فرد ناجي :

- الخروف ده رايح مصر .. سمع عن أزمة اللحمة .. قال يساهم في حلها .

Ahmed Madv

وضحكوا حتى كادوا يستلقوا على قفاهم من الضحك .. ومضوا يحاولون الانتهاء من هذا النفق الطويل ، وقد استبد بهم التعب الشديد والإرهاق ، بعد أن نفد الماء واللبن .. إلى أن وصلوا أخيرًا إلى نهاية النفق .. ولكن .. يا للمفاجأة .. نهاية النفق مسدودة تمامًا ، وصرخ زاهر :

- النفق مسدود .. أنا ح اموت هنا .. أنا كنت حاسس من الأول !!

قال ناجي مندهشًا :

- إحنا ماشيين أكتر من 9 كيلو .. إحنا تُهنا ولا إيه ؟!

قال الشيخ حسن :

- ح نعمل إيه دلوقت يا باشا ؟!

فرد عبد الجليل :

- مفيش لا مؤاخذة غير حل واحد .. إحنا ناخدها قزح كده لحد ما نرجع لأول النفق مطرح ما جينا ، ونخبط على أبو موسى لحد ما يفتح لنا !!

نظر تهامي نحو أنابيب الأكسجين ، وقال مذعورًا :

- الأوكسجين خلص .. لو الكهربا قطعت ح نموت هنا .. مش ح نعرف نرجع .

قال إبراهيم في يأس :

- ده إحنا وصلنا لغاية هنا بالعافية !!

قال الشيخ حسن :

- كلم أبو موسى يا باشا .. يبعت لنا حد ياخدنا .

- أكلمه إزاي ؟ مفيش سيجنال !!

وانخرط زاهر في البكاء ، وأخذ الشيخ حسن يقرأ الآيات المنجيات ، ويتمتم بآيات القرآن الكريم.. كان ناجي يفكر في هذه المفاجأة غير السارة .. ثم قال لنفسه بصوت عال :

Ahmed Madv

- إحنا ممكن نكون مشينا غلط .. دخلنا في نفق تاني .. مفيش غير إن إحنا نرجع .. مش ح نقعد كده نبص لحيطة سد .. لازم نرجع !!

وتحركوا جميعًا للعودة .. وفجأة انفتح باب في سقف النفق ، لم يكن ظاهرًا .. كان يبدو كجزء من السقف ، ونزل منه وجه لرجل عربي .. ملامحه فلسطينية ، له لحية بيضاء ومعه بطارية .. كان كأنه يبحث عنهم .. وقال بلهجة عربية مليئة بالكرم والترحاب :

- حمد الله ع السلامة ناجي بيه .

صرخ ناجي فرحًا :

- أبو شعلان !!

وصرخوا جميعًا من الفرح ، وأنزل أبو شعلان حبلا غليظًا ، فجروا نحو الحبل ، الذي نزل من فتحة سقف النفق .. طوق النجاة .. الذي أتى في اللحظة الأخيرة .

Ahmed Madv

الفصل الرابع

كمن عادوا إلى الحياة بعد الموت .. جلس ناجي وفرقته في بيت أبو شعلان، في رفح الفلسطينية، يأكلون بنهم .. إلا ناجي الذي كان يشعل سيجاره، وينظر من النافذة شاردًا مفكرًا .. دخل أبو شعلان بالقهوة، وقدمها لناجي الذي تناولها شاكرًا وقال :

- هي البلد فاضية كده ليه يا أبو شعلان .. هوه فيه حاجة ؟!
- لا .. ده بس فيه مشكلة ع الطريق .. الطريق مقفول !!
- أمال ح نروح غزة إزاي ؟!
- على بالليل تكون الأمور هديت.. أديكوا منورينا يا ناجي بيه .. فيه مشكلة بين جماعة حماس وبتوع فتح .
- وإيه سبب المشكلة يا أبو شعلان ؟
- واحد من إخواننا في فتح كان بيجوِّز ابنه .. راح واحد من إخواننا بتوع حماس عشان يجامل .. ضرب صاروخ في الفرح .. صاروخ من بتاع الأفراح بس يظهر إنه كاد يعمل حريق بالفرح .. الحكاية كبرت .. دول افتكروا أنهم جايين يفسدوا الفرح ، ودول اعتبروا إن اتهامهم ده إهانة .. والموضوع كبر وصارت عركة بين الاتنين .
- ربنا يهدي النفوس يابو شعلان ..

Ahmed Madv

وخرج أبو شعلان ليعد الشاي للشباب .. قال عبد الجليل لناجي :

- يطلعوا مين حماس وفتح دول يا باشا ؟!

قال ناجي في غيظ :

- مش عارف مين حماس ومين فتح يا عبد الجليل !!

قال حسام ساخرًا :

- ده ساقط إعدادية يا باشا .. ح يعرف منين ؟

- وإنت تعرفهم يا حسام ؟!

قال حسام بثقة :

- إيه يا باشا .. ده أنا مؤهل عالي .. سيادتك نسيت ولا إيه ؟ بكالوريوس تربية رياضية .. حماس وفتح .. فيه حد ما يعرفش حماس وفتح !!

- مالهم .. تعرف إيه عنهم ؟!

قال حسام مرتبكًا :

- مش .. يعني .. أصل .. أنا أصلي شفتهم في قناة الجزيرة في الاتجاه المعاكس .. المذيع كان جايبهم مع بعض .. واحد كان بيتكلم بحماس ، والتاني اتفتح فيه .

فتوجه ناجي بالسؤال إلى إبراهيم :

- وإنت يا إبراهيم ؟!

- أنا ماليش في السياسة يا باشا .. أنا باتفرج على مزيكا .. ماليش في الجزيرة .

- بأة مش عارفين حماس وفتح .. إنتوا مش دريانين بالدنيا !!

قال تهامي :

- ما أخدناهاش دي يا باشا والنعمة الشريفة !!

انفعل ناجي مؤنبًا إياهم ، وقال :

- لازم تعرفوا اللي بيحصل حواليكوا .. لازم تفهموا !!

Ahmed Madv

قال حسام :

- هي إيه المشكلة بينهم بالظبط يا باشا ؟

- المشكلة إن دول مش طايقين دول .. ودول واقعين مع دول .. جم دول حبوا يخلعوا دول ويركبوا على دول .. وطبعًا المشكلة بين دول ودول جات على هوا دول .. عشان أمريكا وإسرائيل طبعًا عاوزين يوقّعوا دول في دول .. وفي النهاية دول ودول .. إيه ؟ ما واحد .

قال إبراهيم :

- طيب أنا عندي سؤال يا باشا .. إحنا مع دول ولا مع دول ؟!

- إحنا شوية مع دول وشوية مع دول .. وبنحاول نلم دول على دول ..

ودخل أبو شعلان .. فسأله ناجي :

- هى المسافة من هنا لغزة قد إيه يابو شعلان ؟!

قال أبو شعلان :

- عشرين كيلو يا ناجي بيه .. أول ما الطريق يتفتح ح نمشي علطول .. ما تقلق !!

* * *

الطريق في هذه المنطقة من رفح إلى غزة تابع لسلطة حماس .. كان معظم الواقفين من رجال الشرطة ، لهم ذقون خفيفة ، وأوقف أحدهم السيارة التي كان يقودها أبو شعلان ، ومعه ناجي عطا الله والمجموعة ، وسأله الظابط :

على وين يابو شعلان ؟!

رايحين للحاجة فاطمة في الشيخ عجلين ..

فقال الظابط ، وهو ينظر إلى ناجي والمجموعة :

- وين هوياتكم ؟

- دول أمانة عندنا يا أخي .. يابو مجاهد .

Ahmed Madv

فأشار الظابط لهم بالمرور ، وانطلقت السيارة حتى دخلت على منطقة المخيمات الفلسطينية ، التي تبدو أقرب إلى العشوائيات في مصـر.. نفس حالة البؤس التي يعيشها الفلسطينيون في معاناة وفقر شديد .. ما أتعس شعوبنا .. كان ناجي يفكر في ذلك .. حينما هتف أبو شعلان :

- هادي المخيمات ناجي بك !!

- والله ما حسينا إن إحنا سيبنا مصر يا أخي .. عندنا الدويقة ومنشية ناصر كده بالمللي .. مش كده يا عبد الجليل .. هي يعني مصر وغزة إيه ؟ ما واحد ..

- الله يخلي العروبة ناجي بك .

كانت السيارات الفارهة تمر وخلفها الحراسة المشددة ، فبدا منظرها في المشهد غريبًا ومتناقضًا .. فقال ناجي :

- هي الدنيا واقفة كده ليه؟ هوه مين اللي معدي ده ؟!

- ده واحد من المسئولين !!

وابتسم ناجي .. وقد تذكر مواكب المسئولين في مصر .. وقال :

- يا سلاااام .. والله ما حسينا إن إحنا سيبنا مصر .. العشوائيات ومواكب المسئولين زي عندنا بالمللي .. عندكوا وقفات احتجاجية ؟!

وانطلقت السيارة بهم حتى وصلت .. إلى بيت الحاجة فاطمة .. وهو بيت من دور واحد .. محاط بحديقة صغيرة .. قال أبو شعلان مشيرًا نحو بيت الحاجة فاطمة :

- أصل الحاجة فاطمة دي أمنا كلنا يا ناجي بيه .. ست طيبة والبلد كلها تحلف باسمها من ساعة ما وصلتوا ، وهي كل شوية تتصل تطمأن عليكوا .. ولما عرفت إن الطريق مسكَّر ، والله ما نامت إلا لما اتأكدت إنكوا مرقتوا .

- هي عندها كام سنة دلوقت يا أبو شعلان ؟!

Ahmed Madv

قال أبو شعلان فخورًا :

- 83 سنة .. إنما ما شاء الله .. ربنا يديها الصحة وطول العمر .. هادي بركة .

وطرق أبو شعلان الباب .. وإذا بالتي تفتح الباب هي (هوني ألدن) اليهودية المتطرفة .. كانت ترتدي الكوفية الفلسطينية .. وتبتسم لناجي الذي عانقها بأبوة وحب .. وقالت :

- حمد الله ع السلامة يا ناجي بك .. أتمنى إن الرحلة كانت مريحة .. وماتعبتوش .. اتفضلوا .. اتفضلوا !!

نظر إبراهيم لها معجبًا .. وحسام أيضًا ، ولاحظ ناجي ذلك فهتف بهما :

- إنت متنح ليه ياد إنت وهوا .. ما تخشوا !!

ودخلوا جميعًا إلى بيت الحاجة فاطمة ؛ حيث غرفة استقبال كبيرة ، بها أرائك خشبية بسيطة للغاية وبها طابع ريفي .. جلسوا جميعًا وقد بدا انبهار كل من حسام وإبراهيم بهوني ألدن ، بينما كان ناجي يقدمها لهم :

- أعرفكم يا ولاد ..هوني جمال الدين .. ح تشترك معانا في العملية .. عاوزكم تعتبروها من اللحظة دي أختكم !!

قال إبراهيم مقدمًا نفسه :

- يا أهلًا وسهلًا .. ده إحنا نشيلها على راسنا يا باشا .. إبراهيم .. إبراهيم عزقلاني .

قالت هوني مبتسمة :

- بتاع العبري .

- الله !! هوه أنا صيتي جايب لحد هنا .. بأهنيكي على معلوماتك .

وانبرى حسام المصري واقفًا في أدب .. وقال لها :

- حسام المصري .

Ahmed Madv

قالت هوني :

- بطل العالم في الوثب الطويل .

قال ناجي :

- وده بأة المهندس زاهر .

قالت هونى :

- عبقري الكمبيوتر والليزر .

قال زاهر :

- فرصة سعيدة .

وأشارت هوني نحوهم واحدًا تلو الآخر ، وهي تقول :

- والشيخ حسن .. وتهامي وعبد الجليل .. صح .. ولا أنا نشنت غلط ؟!

قال عبد الجليل :

- نشنتي ونشانك رشق يا مزمزيل .

قالت هوني بسعادة :

- فرصة سعيدة جدًّا .. زي ما اتخيلتكم بالظبط ..

لاحظ حسام أن هوني تتكلم المصرية بطلاقة فقال معقبًا :

- لهجتك مصرية خالص .

- أنا عشت في مصر ست سنين ..

- كنتي عايشة فين ؟!

- في مصر الجديدة .. في الكوربة .

خبط إبراهيم على رأسه ، وكأنه تذكرها ، وقال :

- وأنا بقول شفتك فين قبل كده .. كنتي بتروحي تاكلي آيس كريم في الدونتس .. وكان دايمًا معاكي واحدة صاحبتك ، لابسة بادي فوشيا علطول مابتغيروش !!

Ahmed Madv

قال ناجي مغتاظًا :

- إيه يا حيوان .. آيس كريم إيه ؟ إحنا قاعدين في نادي ، ولا كوفي شوب !!

ثم سأل هوني :

- .. أمال فين الحاجة فاطمة ؟!

- بتصلي .. دلوقت تيجي .. هي مستنياكوا من إمبارح .. تشربوا قهوة عربي !!

قال حسام :

- ياريت .

أخذت هوني تصب لهم القهوة من إبريق القهوة العربي في فناجين صغيرة ، وقدمتها لهم .. سألها حسام :

- إنما حضرتك جيتي إزاي من مصر .. قصدي ماجاتش معانا ليه يا ناجي بيه ؟

فقال ناجي :

- هوني مش جاية من مصر .. جاية من إسرائيل ؟! هوني إسرائيلية .. واسمها هوني ألدن .

وبهت الجميع حينما قال ناجي عطا الله ذلك .. وبصق الشيخ حسن القهوة، التي أخذها منها ، وأخذ يمضمض فمه .. وقال الشيخ حسن :

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وقال عبد الجليل :

- لا .. كده إحنا ضربنا يا باشا .. هي مصرية ولا إسرائيلية !!

- أنا أقولكوا .. أنا مولودة في لوجانو على حدود إيطاليا .

قال إبراهيم :

- الله دي طلعت إيطالية .. على أخر القعدة ح تطلع من دمنهور !!

Ahmed Madv

ضحكت هوني ، وقالت :

- أبويا جمال الدين أبو سيف .. كان رجل أعمال مصـري واتجوز أمي راشيل في لوجانو .. وخلفوني .. وعشت هناك مع أب مسلم وأم يهودية .

ومسحت هوني دمعة من عينيها ، وهي تتذكر كيف اغتال الإسرائيليون أباها في لوجانو ، أمام عينيها ، وهي طفلة صغيرة .. كيف رأت بعينيها الدماء تنهمر من كل مكان في جسده .. وذهبت بعد ذلك لتعيش مع أمها .. في سويسرا.. كيف تهودت رغمًا عنها وسافرت إلى تل أبيب .. لتدرس في الجامعة العبرية ، وظل بداخلها.. مشهد قتل أبيها .. وكيف أقسمت أن تثأر لأبيها .. وهكذا صارت هوني ألدن .. هنا .. في بيت الحاجة فاطمة .. ترتدي الكوفية الفلسطينية ، وتشارك في كل ضربة ، يمكن أن توجع إسرائيل ..

وقالت هوني :

- بابا كان على اتصال دائم بالمقاومة في فلسطين ، وابتدا يمدهم بالفلوس والسلاح ؛ عشان يقدروا يثبتوا على موقفهم قدام الاحتلال الإسرائيلي .. وكان دايمًا يقعد معايا .. يفهمني الجرايم الوحشية اللي اليهود عملوها .. ويحكيلي عن المجازر في قانا وصبرا وشاتيلا .. وآلاف الأطفال اللي ماتوا من غير ذنب على إيد الصهاينة .

قال إبراهيم :

- الله يحرقهم بجاز .. والله .. الواحد لو يلاقي فرصة ، كُنا هديناها على دماغهم .. اسمع يا ناجي بيه .. دم الراجل ده مش ح يروح هدر .

قال له ناجي مقاطعًا :

- إيه ياد الوطنية اللي نزلت على أهلك فجأة كده .. اتكتم !!

وعادت هوني تحكي لهم قائلة :

- بعد ما حصل اللي حصل ، كان لازم أروح أعيش مع ماما في جينيـف .. حاولت بكل الطرق إنها تعمل لي غسيل مخ وتهودني .. ما طيقتش .. روحت

Ahmed Madv

على مصر عند عمتي .. قعدت كام سنة وبعدين رجعت لماما قلت لها .. إني فكرت كويس وإني خلاص ح اسمع كلامها .. جابت لي منحة في الجامعة العبرية في تل أبيب ، وعشت هناك وأنا مانسيتش يوم واحد .. ليلة ما دخلوا على بابا المكتب وقتلوه قدامي .

ومرت لحظة صمت .. سادت الجميع .. لم يستطع أحد أن يتكلم .. وقطع شرودهم صوت الحاجة فاطمة ، وهي داخلة على كرسيها المتحرك .. مبتسمة وديعة .. ترتدي طرحة بيضاء جميلة ، وقالت مرحبة :

- يا أهلًا وسهلًا .. خطوة عزيزة يا ناجي بيه .

قال ناجي ، وهو يقبل يدها :

- والله واحشاني يا ست الكل .. خش ياد أنت وهوه بوسوا إيد الحاجة .

وهرع الشباب يقبلون يدها ، وهي تبتسم في حب .. وتربت عليهم كأنها أمهم جميعًا :

- بسم الله ما شاء الله .. ربنا يحميكم .. إنت ما قدمتيلهمش حاجة ياهوني يا بنتي .. معقولة !!

قال ناجي :

- ما هو من عاشر القوم يا حاجة .. دي عايشة في تل أبيب .

قالت الحاجة فاطمة ضاحكة :

- والنبي أبدًا .. دي إيدها مخرومة .. طلعي يا بنتي من التلاجة .. أنا عاملة مقلوبة .. سخنيها وحطيهالهم ، ونزلي طبق فاكهة يقزقزوا فيه .

- والله ما تتعبي نفسك يا حاجة .. إحنا عارفين الظروف !!

- مالها الظروف .. الظروف زي الفل .. قصدك ع الحصار يعني اللي عاملينه ع البلد .. والنبي اللقمة أما تتقسم طعمها بيحلو يا ناجي بيه .

- ربنا يخليكي يا حاجة فاطمة .. ومايحرمناش منك أبدًا .

Ahmed Madv

- وإنتوا ناويين إمتى إن شاء الله يا ناجي بيه .

- الليلادي .. بعد المغرب كده نتكل على الله .

- مش ح ينفع الليلادي يا ناجي بيه ؟!

- ليه يا حاجة فاطمة ؟!

- اسمع اللي بقولك عليه !!

- النهاردة السبت .. أجازة في تل أبيب ، والبلد فاضية .. مش ده اتفاقنا !!

- خليها السبت الجاي .. يوم من يوم قريب يا ناجي بيه !!

- ح نقعد أسبوع هنا .. لا يمكن .. ما إحنا مرتبين كل حاجة يا حاجّة فاطمة !!

- كل تأخيرة وفيها خيرة .. وإنتوا مآنسينا يا ناجي بيه !!

- وح نقعد فين أنا والجيش ده كله ؟!

- عند زياد ابن أخويا .. بيته ما شاء الله واسع ، ويساع من الحبايب ألف .

* * *

زياد رجل في نحو الستين من عمره أبيض الشعر ، يبدو أكبر من سنه ، يرتدي جلبابًا أبيض .. جالسًا وأمامه النارجيلة ، يسحب دخانها بضيق ، وأمامه أيضًا يجلس فايز أبو شنب زوج أخته صباح .. وكان زياد يتأمل فايز ، ويقول لنفسه هذه غلطتي أنا .. أنا الذي وافقت على هذه الزيحة اللعينة ..

نظر زياد نحو زوج أخته ، محاولا أن يتمالك أعصابه ، وقال :

- اسمع يا فايز .. أنا لما جبلت أجوزك أختي صباح ، ما كنت أتصور أنك تعمل ها التصرفات المشينة .. كيف يعني تمد يدك عليها يا فايز .. كيف !!

- يا زياد يا خويا هادي مرتي ، وأنا حُر ما تتدخل في حياتي .. أرجوك !!

- اسمع يا فايز .. أخطاءك زادت كتير ، وأنا ساكت عليك .

- شو بتهددني يا زياد .. أنا ما باتهدد !!

Ahmed Madv

هنا قام زياد ، وقال ثائرًا هائجًا ، وكأنه يفرغ ما بداخله مرة واحدة :

- أنـا مـا بهـددك .. أنـا حايـش عنك حامد ابني .. ولو عرف باللي بتعمله مش ح يسكت .. روحت أخدت فلوس من الحاجة فاطمة .. وما رجعتها .. ونقلت أرض صباح أختي باسمك وقولنا ماشي .. ومية البير مابتدفعها لفارس .. والراجل بييجي ياخد حقه مني .. إنما ها دا كتير يا فايز .. ما تكبر المشاكل .. وكفاية اللي إحنا فيه !!

وصرخ مناديًا في زهق :

- يا صباح .

وخرجت صباح ، وهي مرتدية إيشارب مكسورة الخاطر ، ونظرت باستسلام نحو الرجلين اللذين في أيديهما مصيرها .. فقال زياد :

- ياللا .. روحي مع جوزك .. ربنا يهدِّي سركم .

وأخذ فايز صباح في يده .. وخرجا .. لم يكن أي من الأطراف الثلاثة مقتنعًا بهذه النتيجة .. لا زياد ولا فايز ولا حتى صباح .. إنما .. نحن في غزة .. يجب أن نتعايش على أي وضع .. فليس شرطًا هنا أن تكون مقتنعًا لكي تعيش .. وطرق الباب .. فقام زياد متثاقلا .. وفتحه ليجد ناجي عطا الله ومجموعة الشباب من خلفه .. كانت الحاجة فاطمة قد أوصته بهم .. ووصايا الحاجة فاطمة .. أوامر نهائية طبعًا .. فرحب بهم زياد بكرم دافق .. قال ناجي في خجل :

- مساء الخير يا عم زياد .. معلش بأة طيِّنا عليكم كده زي القضا المستعجل .. بس أتعشم إن الحاجة فاطمة تكون شرحت لك الموقف .

- لا .. ما تقول ها الكلام .. هادا بيتكم .. اتفضلوا يا شباب .

- معلش أولادي بره .. إنتوا ببيتكم .. اللي يحب يعمل شي .. المطبخ هناك أهوه .

قال عبد الجليل :

- أقوم أعمل لكم دور شاي يا باشا .

Ahmed Madv

رد زياد ببساطة :

- ياللا .. قوم .. والله وحشتني مصر .. إيه يا أبطال .. ح تقعدوا كده متل الضيوف .. قوموا غيروا تيابكم .. الغرف بالدور الثاني .. كل واحد ياخد الجلباب اللي على مقاسه .. اعتبروا نفسكم ببيتكم .. عندي شباب متلكم الله يخليكم ويعافيكم .

وذهب عبد الجليل ليعمل الشاي ، وطلع الجميع إلى الدور العلوي .. تاركين ناجي جالسًا مع زياد .. يأخذ نفسًا ، من الشيشة ، باستمتاع ثم مد ليّ الشيشة إلى ناجي ، فقال متحرجًا :

- الله يخليك يا عم زياد .

- قوللي يابو طارق .

على الحائط كانت صور أبناء زياد معلقة ، كان أصغرهم يبدو في السادسة عشرة من عمره .. ولكن صورته بالية وقديمة بعض الشيء.. أشار ناجي نحو صورة الشاب الصغير ، وقال :

- هو ده طارق يابو طارق ؟!

- أيوه يا ناجي بيه .

- ده الصغير ؟!

قال زياد بحزن دفين :

- لا .. طارق هو الكبير .. هوه البكري .. أول خلفتي .. ربنا يفك أسره .

- هوه معتقل ؟!

- اعتقلوه الصهاينة من 16 سنة .. وكان لسه ماكمل الستاشر سنة .. مسكين حبيبي .. قضى نص عمره معي ، ونص عمره التاني بالمعتقل .. ما شفته من يوم ما اعتقلوه .

- ربنا يفك أسره إن شاء الله يابو طارق .

- عشان ناس تعيش .. لازم ناس تانية تدفع التمن يا أخ ناجي .

Ahmed Madv

- واعتقلوه ليه ؟!

- كان بيأوي ناس مطلوبين من المقاومة عنده .. وجم خدوه .. ومن يوميها ما رجع .. لكن ح يرجع إن شاء الله .

وحاول ناجي أن يغير الموضوع ، فأشار نحو الصور الأخرى .. لأبناء زياد الثلاثة ، وقال :

- .. ومين دول بأة ؟!

- ده حامد وده نجيب وده ياسر الصغير .. رجال ح يعجبوك كتير .

- ربنا يخليهملك يابو طارق !!

انتشر الشباب في البيت ، وقد شعروا بطمأنينة غريبة .. كأنهم في بيتهم.. كانت الأسلحة هنا وهناك .. بنادق ومسدسات ورشاشات .. قال إبراهيم مستعجبًا :

- إيه ده ؟ البيت كله سلاح !!

فرد عليه حسام :

- أمال إيه يا ابني .. ناس بتنضرب كل يوم .. لازم يكون عندهم سلاح يدافعوا بيه عن نفسهم ..

قال الشيخ حسن :

- وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم .

وقال تهامي :

- أنا طول عمري أسمع عن اللي بيعانيه أهل غزة من التليفزيون .. لكن أول مرة أحس إنهم تعبانين قوي كده .

فعلق زاهر قائلا :

- شيء فظيع إن الإنسان يعيش مهدد كل لحظة بالموت .

Ahmed Madv

كان عبد الجليل يعمل الشاي ، فهتف بهم في ضيق :

- ما تفتكرولنا حاجة حلوة بأة يا إخواننا .. إيه الغم ده !!

مد ناجي يده في جيبه ، وأخرج رزمة الدولارات .. وقدمها على استحياء لعم زياد الذي قال في غضب ، وهو يدفع يده :

- دخل فلوسك في جيبك يا ناجي بيه .. والله دي إهانة ، وما كنت أحب إن دي تكون بداية علاقتي معك !!

- اسمعني بس .. اللي ما يشوفش م الغربال يبأة أعمى يا أبو طارق !!

- الخير كتير والحمد لله .. وإنت أخوي ودول أولادي .. ما يصح اللي أنت بتقوله ده يا ناجي بيك .. ده إحنا إخوة .

- خلاص .. خلاص يا أبو طارق .. ما أنا مش غريب برضه .. هوه إنت لما تميِّل على أخوك في حاجة ، ولا يميل عليك .. فيها إيه يعني ؟!

- اقفل ها الموضوع يا ناجي بيك .. وين الشاي .. إيش اسمه الولد اللي راح يعمل الشاي ؟!

- الشاي يا عبد الجليل لعمك أبو طارق .

ودخل عبد الجليل بصينية الشاي ، وقد امتلأت بالأكواب والفناجين .. فقال ناجي ساخرًا :

- الله يخرب بيتك .. كل ده .. خلصت لهم الشاي والسكر .

لم يكن زياد ذلك الرجل الطيب الصامت ، والذي تلمح في عينيه انتظارًا دائمًا لشيء ما .. لا تعرف .. هل هو ينتظر أبناءه ، الذين لم يأتوا بعد ، أم ينتظر ابنه الذي غاب عنه في المعتقل لستة عشر عامًا .. أم ينتظر تحرير فلسطين وعودة الأرض .. قال زياد فجأة لناجي :

- تعرف يا ناجي بيه .. أنا ما أعرف تفاصيل .. لكن أنا واثق إنكم رايحين تعملوا شيء كبير لِـهَالْوطن .. اللي ييجي لحد هون ، لازم يكون شايل كفنه على يده .. لازم تعرفوا إن إحنا كلنا في خدمتكم .

Ahmed Mady

- بس أهم حاجة طبعًا يا أبو طارق .. محدش ياخد خبر إن إحنا قاعدين هنا .

- ما تحمل هم .. بيت زياد ما فيه حدًا يجرؤ يقرب منه !!

ونزل الأولاد من الدور العلوي ، وقد ارتدوا جلاليب واسعة وضيقة غير متسقة مع أجسامهم ، وجلسوا في راحة ليشربوا الشاي ، فقال زياد مرحبًا بهم :

- مرحب يا شباب .. النهاردة 28 شعبان .. ربنا أراد إن إحنا نصوم رمضان مع بعض .

وفتح الباب ليدخل ظابط بوليس .. فارع الطول عريض المنكبين ، وما أن رأوه حتى أصيبوا جميعًا بالرعب .. فتركوا الشاي ووقفوا ذاهلين .. قال الظابط محييًا :

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال زياد للضابط الذي دخل فجأة :

- تعالى يا حامد ..

تنفس ناجي الصعداء .. بعد أن وقع قلبه في قدميه ، هو وفرقته ، وقال :

- حامد !! هو ده حامد ؟! ده أنا دمي نشف !!

قال زياد لابنه :

- سلم على عمك ناجي بيه عطا الله .. وإخواتك من مصر .

مد حامد يده ليسلم على ناجي ، وعلى الشباب برجولة وصرامة .. وقد غلبت على شخصيته لمحة دينية .. جميلة .. وقال زياد وهو يقدمه :

- حامد زياد .. ابني الكبير .. ملازم أول من حماس .

- ونعم الناس .. إنتوا اللي ناضلتوا وصمدتوا ووقفتوا قدام الصهاينة الكلاب وعلمتوهم الأدب !!

ودخل نجيب الابن الثاني لزياد ، واندهش لوجود هؤلاء في بيته .. فقال زياد :

- وهادا نجيب زياد ابني الأوسط .. أمين سر الشبيبة بغزة .. من فتح .

Ahmed Madv

- ونعم الناس .. إنتوا تاريخ النضال الفلسطيني .. إنتوا اللي ضربتوا أول طلقة ورميتوا أول حجر .

ودخل شاب في نحو الثامنة والعشرين .. وسيم أنيق .. يبدو عصريًّا للغاية .. مبتسمًا وقال متهللًا :

- مساء الخير ..

قال زياد :

- هادا ياسر ابني الأصغر .. آخر العنقود .. تعالى يا ياسر .

- وده مع دول ولا مع دول ؟!

- لا .. ده بأة مع المورستان .. ده مع نفسه .

فسأله ناجي :

- فى سنة كام يا ياسر ؟!

- رابعة Computer.

- ونعم الناس ..

ثم أضاف قائلًا :

- أنا بأة ليا دماغ لوحدي غير أخويا حامد وأخويا نجيب .. أنا شخصيًّا كلها أسبوع ، وأخلص الجامعة ، وأهج بعيد عن هنا .

قال إبراهيم مشجعًا له :

- أحب دماغك دي قوي .. أنا أصلي زيك كده غاوي هَجَجان .. وناوي تروح فين .. أمريكا !!

فقال ياسر بلهجة شبابية عصرية :

- أعوذ بالله .. لأ يا عم .. أنا مرتب نفسي على السويد .. خواجات بجد .. وأوروبا صح .

Ahmed Madv

ابتسم إبراهيم ، وقال بخبث :

- تبأة مربط مع مُزة هناك .

- بقالنا أربع سنين .. نتقابل ع الشات .. قمر .

واندمج الاثنان في حديث شبابي متدفق .. عن البنات .. وعن أحدث طرق الإيقاع بهن ..

قال الشيخ حسن لحامد المنتمي لحماس :

- والله يا أخ حامد اللي أنتوا بتعملوه ده ثوابه عند ربنا كبير قوي .. عشان كده الشعب اختاركوا ، ومهما كان الصهاينة عندهم سلاح ، والأمريكان الكفرة واقفين جنبهم .. قادر ربنا سبحانه وتعالى يقويكم: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

- الله يفتح عليك يا شيخ حسن .. إنما إنتوا جايين تعملوا إيه ؟!

- ده سؤال لا أستطيع الإجابة عليه .. اعذرني يا أخ حامد .. إنما تأكد إننا بصدد مهمة كبيرة .. إدعيلنا إن ربنا يوفقنا ونتمها على خير .

فربت حامد على كتف الشيخ حسن بود دافق ، بينما كان نجيب جالسًا مع تهامي وعبد الجليل ، وقد صارت العلاقة بينهم ودية أيضًا .. طبيعة الشخصية العربية أنها تبدأ دائمًا هكذا بفتح الأذرع والعناق والقبلات .. وشلالات من كلمات الحب .. أخي .. شقيقي .. حبيبي .. نور عيني .. تقبرني .. ولكن بعد كل هذا سرعان ما ينشأ خلاف صغير ، يؤدي إلى قطيعة وجفاء وشلالات من الكلمات الحادة القاسية ..

كان ناجي يفكر في ذلك ، حينما كان هو وعم زياد جالسين يتبادلان الآراء .. وكان زياد سعيدًا للغاية ؛ لأنه وجد شخصًا يتكلم معه .. وكأنه كان ينتظره منذ زمن بعيد ، فقال زياد :

- لما مسكت حماس السلطة ، طلبوا من فتح إنهم يسلموا سلاحهم .

Ahmed Mady

- المفروض يا أبو طارق .. هما السلطة الشرعية.. عشان ما تبآش فوضى.

- نجيب ابني ما رضيش يسلم سلاحه .. وحامد وقف له .. العيال كانوا ح يقعوا في بعض .

- وإنت كان رأيك إيه ؟!

- محدش يسلم سلاحه في بلد معرض للضرب كل يوم يا ناجي بيه .. قبل ما نفتش بعض .. لازم نشوف الصهاينة بيعملوا إيه ؟ إحنا واقفين لبعض ، وسايبين عدونا يمرح بكيفه .. دي دولة المورستان .. وزير الصحة العيان .. وزير التعليم الخرفان .. وزير الدفاع الهربان .

- وأخرتها يا أبو طارق ؟!

- أدينا عايشين لما يبان لها أخر يا ناجي بيه .. ولا مايبانلهاش !!

ونزل الشباب من الدور العلوي ، وقد ارتدوا ملابس النوم (جلاليب) إلا ياسر وإبراهيم .. وانضموا إلى ناجي وزياد ، فقال زياد مشيرًا نحوهم :

- الأجيال الجديدة دي بأة هما اللي ح يخلصوا .. مش كده يا ناجي بيك !!

- الحقيقة مناظرهم ما تطمنش قوي يا عم زياد .

وضحك الجميع ، وبدا أن جوًّا عائليًّا قد ساد اللحظة ، فقال ياسر :

- وإيه آخر أخبار النكت في مصر ؟!

اعترض ناجي قائلا :

- لأ .. إحنا عاوزين نسمع نكت غزاوية .. فيه أزمة نكت جامدة قوي في مصر .

قال إبراهيم بسعادة :

- قول لنا واحدة يا ياسر .. قول بأة !!

- اتنين محششين من غزة .. واحد بيقول للتاني إيش رأيك إحنا نصير إحنا الاتنين فنانين .. قال كيف .. قال بسيطة .. إنت فنان تشكيلي وأنا فنان أشكيلك .

Ahmed Madv

وانفجر الجميع ضاحكين .. وعاد ياسر ليلقي نكتة أخرى ، وقال :

- غزاوي راح ع الحج شاف الناس بيرجموا إبليس بالحجارة .. جاب عجل سيارة وولع فيه.

وانفجر ناجي ضاحكا ، وقال :

- يخرب عقلك يا ياسر .. ده أنت مصيبة !!

وعلق زياد بأبوة دافقة :

- أهو طول النهار والليل هيك .. ينكت .. ويهزر .. دماغه ضاربة .

وعاد ياسر ، وقد انفتحت نفسه ليلقي بالنكتة الثالثة :

- قررت غزة ونابلس والخليل يبنوا جسر بين الـمُدن التلاتة .. الغزازوة عليهم الحديد والنبالسة الحجارة والخلايلة الأسمنت .. بعد أسبوع الجسر وقع على دماغ الناس .. الخلايلة قالوا .. يا خسارة راحوا الأسمنتات .. والنبالسة قالوا .. يا خسارة راحوا الحجارة .. والغزازوة قالوا منيح ما حطينا حديد .. كان راح علينا هوه كمان ..

وسرت عدوى الضحك بين الجميع .. حتى أنهم لم يتمالكوا أنفسهم ، فقال زياد ، وقد انفتحت نفسه هو الآخر :

- .. اسمع هادي يا ناجي بيه .. أعلنوا حظر تجول في غزة .. طلعوا الغزاوية يشوفوا إيش الموضوع ؟!

وانفجر الجميع ضاحكين في صخب .. وعلق ناجي قائلا :

- هو إنتوا قرايب الصعايدة والا حاجة .

قال زياد ضاحكًا :

- إحنا ولاد عم الصعايدة .. هوه إحنا لوما كان فينا عرق صعيدي .. كُنا صمدنا كل ها الصمود يا ناجي بيه .

Ahmed Madv

وصمت الجميع .. بعد الضحك المتواصل تدمع العيون .. هنا قال ناجي :

- آه والله.. معاك حق .

وقام إبراهيم ومعه ياسر ، مستأذنًا ناجي ، وهو يقول :

- بعد إذنك يا ناجي باشا .

ووضع ياسر ذراعه في ذراع إبراهيم .. وخرجا بسرعة .. ونظر ناجي نحوهما ، وابتسم ابتسامة واسعة .. ما أسرع لقاء الشباب معًا .. هكذا في أقل من ساعة .. صارا صديقين !

* * *

في شوارع غزة ، كان إبراهيم يقود سيارة ياسر ، ويتمشيان بها بجوار الجامعة .. يتفرجان على البنات الجميلات .. ولما مرت بجوارهما .. فتاة صارخة الجمال .. قال إبراهيم لياسر :

- إيه ده .. مستوى الجمال عالي قوي عندكوا .. ورايح تاخد من السويد !!

- قال إيه اللي رماك ع الـمُر .. اللي أمر منه ، وهي بلدنا دي لو عارفين نعيش فيها وناكل ونشرب ونتعلم .. كنت فكرت أسيبها يا صاحبي .

- وهي بلدكوا بس اللي العيشة فيها صعبة يا ياسر .. بلادنا كلها كده !!

ثم غمز إبراهيم لإحدى الفتيات ، وقال :

- إيه ده ؟ شفت دي .. لأ .. صاروخ أرض جو يا معلم !!

وابتسمت الفتاة ، ومرت من أمامه .. فقال ياسر :

- لأ .. لو عاوز تمتع نظرك بجد بأة .. تعالى ورايا ..

- على فين !

- على بيت الصمود .

- بيت إيه ؟!

- ما تتخضش .. هوه اسمه كده .

Ahmed Madv

وقفت السيارة أمام بيت الصمود وقال ياسر ، وهو يشير نحوه :

- بيت الصمود ده حاجة كده زي المدينة الجامعية ، الحكومة عملته لأطفال لبنان اللي مالقوش ملجأ بعد حرب سبتمبر 94 .. بعد مجازر إسرائيل في صابرا وشتيلا كبروا دلوقت بسم الله ما شاء الله بأوا حاجة تفرح .. بنات تحل من على حبل المشنقة .

- يا حبيبي يا يسور .. يلعن أبو أم الحروب .. مش عارف الناس الهبلة دي بتحارب ليه ؟ طمع وغل ونفسيات سودة.. تعرف يا ياسر .. نفسي كل الولاد اللي في الدنيا يمشوا مع كل البنات اللي في الدنيا .. والدنيا تبأة كلها حب وضحك ودلع .. يا سلاااام .

ونظر إبراهيم نحو البنات الجميلات ، اللاتي يدخلن إلى بيت الصمود ، وقال :

- البداية مبشرة قوي .. أنا حاسس إني ح أقعد في غزة فترة يا يسور .. الظاهر إن نصيبي ح ييجي هنا .

* * *

في بيت الحاجة فاطمة ، كانت صورة طارق الأسير الفلسطيني في السجون الإسرائيلية .. ابن زياد ، الذي غاب منذ ستة عشر عامًا ، معلقة على الجدار .. نظر زياد نحوها بأسى ، وقال :

- تعرف يا أخ ناجي اللي بيموت فدا الوطن .. أهوه بنبكي عليه وبيفضل عايش بالذاكرة زي أخر صورة شفناه بيها .. إنما طارق.. لا بكيته ولا أقدر أبكيه .. أصعب شي إن ابنك يكبر بعيد عنك .. وملامحه تتغير .. ما نعرف شو صار شكله الآن .

- ماحاولتش تروح تزوره طول السنين اللي فاتت أو تشوفه ؟!

- الزيارات ممنوعة من سنة 94 .. لمين تحكي ؟!

Ahmed Madv

- طيب ماحاولتش تكلم حد في السلطة .. في الحكومة يخليك تشوفه .. هما مش يقدروا يدخلوا هناك برضه .

- دول عاوزين واسطة عشان يدخلوا .. حكومة .. وين الحكومة يا أخ ناجي !!

ومرت لحظة من الصمت الحزين .. لم يكن هناك أحد عنده جواب على سؤال عم زياد .. وقطع ناجي الصمت الرهيب قائلا :

- تعرف إحنا مصيبتنا إيه يا أبو طارق .. إن إحنا رِخصنا قوي ، وإحنا اللي رَخَّصنا نفسنا .. أهو الأسير ده لو كان إسرائيلي ، كانت الدنيا قامت وماقعدتش عليه .

فردت الحاجة فاطمة بثقة :

- طارق جاي .. ما تقلبوهاش غم إنت وهوه .. أنا عمر قلبي ما كدب عليا .. وقلبي بيقول لي أنه جاي .. إمبارح طارق جاني بالحلم يا أستاذ ناجي .. الإسرائيليين اللي اعتقلوه ما قدروا يمنعوا إنه يجيني في الحلم .. وقاللي يا ستي أنا وإنتي ح نحج العام اللي جاي سوا .. وح أطوف بيكي بين الصفا والمروة .. والله يا زياد طارق جاي .

ربت ناجي على كتف الحاجة فاطمة .. وقبل رأسها في تأثر ، وقال لزياد :

- اسمع يا بو طارق .. الحروب والمظاهرات ما جابتش طارق .. والصريخ والزعيق والأعلام مارجعش طارق .. عارف إيه اللي يجيب طارق .. الفلوس !!

* * *

أمام بيت الصمود ، كان إبراهيم وياسر وبنتان جميلتان جالسين على دكة ، وقد انتحى إبراهيم بإحداهن جانبًا .. وراح يقدم نفسه :

- إبراهيم عزقلاني .. شاب مصري ضايع ، ولقيت نفسي من حوالي ربع ساعة تقريبًا.

جذبه ياسر ، وقال هامسًا :

- إيه يا عم السكة دي .. ما بتمشيش هنا .. الكلام ده عندكوا في مصر .

Ahmed Madv

- هي الصياعة هنا غير عندنا .

- البنت هنا مش بتاعة تامر حسني وعمرو دياب .. هنا فتى أحلام البنت له مواصفات تانية .

- مواصفات تانية .. إزاي يعني ؟!

- هنا البنت من أول ما بتتولد ، وهي مرتبطة بالبطل اللي في المقاومة .. اللي يستشهد عشان خاطر بلده .

- يعني أموت نفسي قدامها عشان تحبني يا ياسر !!

- لأ .. لازم تحبها بوطنية .. أصل اللي بيحب بس عندنا بيقولوا عليه تافه .

- تافه .. أنا الكلمة دي باسمعها كتير اليومين دول !!

- سطر حب وسطر مقاومة .. كلمة حب وكلمة وطنية .. ح تلاقي الموضوع مشي معاك .

- حاضر .. بس لو لخبطت أبأة لاغيني إنت برضه !

وعادا إلى البنتين ، وقال ياسر للبنت مشيرًا بفخر نحو إبراهيم :

- إنتي عارفة الشاب البسيط اللي قدامك ده .. اللي قاعدة جنبه عادي ، ومش مدياله أي اهتمام .. لو تعرفي ح يعمل إيه في إسرائيل .. كان زمانك أخدتيه بالحضن .

فسألته البنت :

- وشو ح تعمل بإسرائيل ؟!

- ح العبهملك ع الشناكل .. بس قولي إن شاء الله .

أشار ياسر نحو إبراهيم بفخر ، وقال :

- الأخ إبراهيم .. بطل من أبطال المقاومة .

- تعيش يا ياسر الله يخليك .. ما تجيبي بوسة بأة !!

Ahmed Madv

وحاول أن يقبلها فقاومته بدلال ، فقال إبراهيم لها :

- أهوه .. إحنا بأة كمقاومة مانحبش المقاومة .. ليه ؟ متعصبين كده ليه ؟! إيه يا ياسر .. إنتوا معندكوش هنا أي مُكنة .. كوفي شوب متطرف .. نايت بعيد شوية !!

قال ياسر مستنكرًا :

- نايت إيه وكوفي شوب إيه ؟ دي بلاد بتحارب !!

- آه ما أنا عارف .. بس اللي بيحارب وبيناضل ده ، مش برضه يحب يقعد قعدة هادية رايقة ؛ علشان لما ينزل يحارب يبأة عليّا وعلى أعدائي .. مش كده يا قمر .. طيب حتى نركب العربية .. نتمشى شوية ع البحر .

وركبوا السيارة .. لتنطلق بهم إلى الكورنيش .. كان إبراهيم يحاول إظهار براعته في القيادة أمام البنت الجميلة الجالسة بجواره ، ولم يستطع أن يتحكم في عجلة القيادة .. فاصطدم بالسيارة الواقفة أمامه .. نزل صاحب السيارة المصدومة ، بعد أن تحطمت الشنطة الخلفية غاضبًا ، وصرخ في إبراهيم :

- عميت بعينك يا ولد !!

- أنا آسف .

- يعني إيه آسف .. من وين نصرفها آسف ؟!

واقترب أحد رجال الشرطة من إبراهيم ، وسأله بغلظة :

- الهوية .. ورخصة القيادة ؟!

وارتبك إبراهيم وأسقط في يده ، ولم يعرف ماذا يقول ، فصرخ فيه الظابط :

- انزل إنت وهوه .. تعالوا معي واتركوا السيارة هون .

Ahmed Madv

كان ناجي وزياد يشاهدان التليفزيون في التراس ، وعلى الشاشة كانا يتابعان هتافات حماسية وآراء زاعقة ، فقال زياد ساخرًا :

- شوف يا ناجي بيه المشكلة إن الكلام بأة كتير ، والفعل قليل .. إنت سامع حواليك ناس عمالة تهتف وتزعق ، إنما ما أنت مصدق إذا كان ده حقيقي ولا مجرد كلام .

- معاك حق يابو طارق ..

- عبد الناصر لما أمر الشهيد مصطفى حافظ سنة 55 إنه يكون فرقة الفدائيين .. هادي كانت خطوة لا تقل عن ثورة .. فهمت عليّا ؟!

ورن تليفون زياد ، فأمسك بالتليفون ، ورد قائلا :

- أيوه يا ياسر .. وينكم .. قسم الشرطة .. ليش ماسكين إبراهيم ؟!

وانزعج ناجي ، وقال :

- إبراهيم في القسم .. ليه ؟!

- طيب .. أناح أكلم أخوك يجيلكم .. ماتقلق ناجي بيك .. حامدح يروح يجيبه .

أخذ ناجي ينفخ في غيظ ، وهو يقول :

- الله يخرب بيتك يا إبراهيم !!

واستطاع حامد .. أن ينهي الموضوع .. فأفرجوا عن إبراهيم .. الذي عاد ليجد ناجي في قمة الثورة والغضب ، والذي ما أن رآه .. حتى صرخ فيه :

- إحنا جايين نعاكس بنات ياله !! جايبكوا من أخر الدنيا ، وبقالي تلات شهور عمال أدرب فيكم وأعلمكم .. وأخرتها جاي تفضحنا هنا !

- أعاكس مين يا باشا .. ما تظلمنيش .. هي دي بلد فيها حد يتعاكس .. عارف إحنا كُنا فين أنا وياسر .. في بيت الصمود والبنات اللي كانوا معانا كلهم من المقاومة اللي معاها بندقية واللي معاها آلي واللي لابسة حزام ناسف .

Ahmed Madv

- وكنت خارج معاهم رايح على فين ياله ؟!

- كُنا رايحين عشان نتكلم في المقاومة .. إنت فاكر إحنا فين يا باشا .. ح أطلع بيهم على شارع جامعة الدول العربية .. دي بلد مفيهاش وسيلة من وسائل الترفيه .. ده أنا ما اتخايلتش ببتاع عصير حتى زي فرغلي ، نقف نشرب فخفخينا ولا حاجة .

- ده أخر إنذار ليك يا إبراهيم !!

- حاضر يا باشا ..

* * *

في رمضان .. حينما يؤذن لصلاة المغرب .. تخلو الشوارع في غزة من المارة .. وتسري حالة من الروحانية .. ربما تجد بعض الموائد هنا أو هناك .. ليأكل الفقراء ، الذين لا يجدون إفطارًا .. اعتادت غزة حظر التجول .. إنما في وقت الإفطار .. لا يمكن أن تلمح أحدًا سائرًا ، فالمسلمون يأكلون في نفس الوقت .. ورغم الأزمة الاقتصادية .. وندرة الطعام في الأسواق ، إلا أن رمضان خيره كتير .. ومائدة عم زياد .. طرح الله فيها البركة ..

قال ناجي ، وهو ينظر إلى الحلل والأطباق :

- إيه اللي إنت عامله ده كله يا أبو طارق .. دي وليمة .. كتير ده والله .. مين اللي ح ياكل ده كله بس !!

- دي حاجة بسيطة يا ناجي بيه .

كان تهامي وعبد الجليل يأكلان بنهم ، فزجرهما ناجي هامسًا :

- إهدا يا عبد الجليل .. خف يا تهامي .. البلد تعبانة .. خللوا عندكوا رحمة .

وبعد الإفطار ، جلس الجميع ليشربوا القهوة في التراس ، وقد شعروا أنهم عائلة واحدة .. قال ناجي ، وهو يرتشف رشفة من فنجان القهوة باستمتاع شديد :

Ahmed Madv

- والله يا جماعة .. أنا معنديش أسرة .. إنما أول مرة أندم إني ما عملتش أسرة النهاردة .. أول مرة أحس باللمة الحلوة اللي اتحرمت منها طول حياتي .

قالت الحاجة فاطمة :

- لسه القطر ما فاتك يا ناجي بيه .. إنوي كده إنك تتجوز بنت الحلال وألف مين تتمناك .

- لسه ح نفكر في الجواز يا حاجة فاطمة .. ما خلاص بأة راحت علينا .. خللي الأجيال الجديدة تتجوز !!

ونظر حسام نحو نضال .. نظرة بها رغبة وحياء في نفس الوقت .. أتبعها إبراهيم بنظرة بها رغبة فقط .. وقالت الحاجة فاطمة لناجي ضاحكة :

- ما تقولش كده يا ناجي بيه .. سيب موضوع الجواز ده عليا أنا !!

- عندك عروسة ليا ؟!

- بنت الحلال موجودة .

- طيب أنا عاوز أتجوزك إنت يا حاجة .. قلتي إيه ؟!

وضحك الجميع ، وكان زياد أكثرهم ضحكًا .. قالت الحاجة فاطمة بحنان دافق :

- ده إنت ابني .. بس حضر إنت القرشين ، وأنا جاهزة بالعروسة .

وأمسكت فاطمة بفنجان ناجي .. ونظرت فيه بعد أن ارتدت نظارتها ، وقالت :

- فنجانك أهوه .. صرة فلوس كبيرة أهية تحت رجليك !!

- صرة واحدة بس .. ربنا يستر .. ما تبصي كويس يا حاجة فاطمة .. يمكن فيه حاجة مرمية هنا ولا هنا !!

وانفجر الجميع ضاحكين .. وكانت ليلة من أجمل ليالي العمر بالنسبة لهم جميعًا ..

* * *

Ahmed Madv

في حجرة نجيب المنتمي إلى فتح .. حيث كان تهامي وعبد الجليل يقيمان .. سأل تهامي .. من هي الحاجة فاطمة يا نجيب .. فقال له :

- دي أهم شخصية في غزة .. الست الطيبة دي قوية .. جبارة .. ما حد يرد لها كلمة .. كل أولادها استشهدوا بالمقاومة ، وهي زي الجبل ما انهزت .

قال عبد الجليل ، وهو يسلك أسنانه :

- ونفسها حلو قوي في الطبيخ يا نجيب يا خويا .. أنا من حلاوة الأكل عضيت على لساني !!

وسأله تهامي :

- إنما .. هي عايشة منين .. بتصرف منين ؟!

- الحاجة فاطمة بتصرف على نص غزة .. فلوس عندها .. سلاح عندها .. القيادات كلها لازم تروح عندها .

- نسخة من أمي .. أنا أمي الحارة كلها بتعمل لها ألف حساب .. والله وحشتني أمي .. ربنا يمسيها بالخير .

قبل مدفع الإفطار ، وفي ملعب اليرموك ، وهو ملعب يبدو كساحة شعبية .. يلعب فيها الشباب كرة القدم .. اقترب الشباب من الملعب .. يريدون تسلية صيامهم باللعب .. وكان عدد من الشباب الفلسطيني يستعد لمباراة قبل الإفطار .. والبعض أتى ليتفرج .. ويشجع .. قال ياسر :

- اللي لابسين أخضر دول بتوع حماس .. واللي لابسين أصفر بتوع فتح .

فسأله إبراهيم :

- وإحنا ح نلعب مع مين ؟!

أجاب ياسر :

- مع اللي عاوز .. ياللا بينا ..

Ahmed Madv

واقترب ياسر من أحدهم ، وقال له :

- عاوزين نلعب يا كابتن .. عاوزين نخش التقسيمة .

قال الشاب :

- أهلًا وسهلًا .

وقاموا بعمل التقسيمة ، فانضم بعضهم إلى فريق حماس ، والبعض الآخر إلى فريق فتح ، وبدأت المباراة وذاب الجميع فيها تمامًا .. فعلا .. الحياة أقوى من الموت .. والسلام أقوى من الحرب .. وكرة القدم أقوى من أي انتماء .. تلك حالة المشهد العربي الراهن .. كالعادة ، كان زياد وناجي في انتظار الذين تأخروا عن الإفطار .. وما أن دخلوا ، وقد انهمر العرق على وجوههم ، وهم يتناقشون بحدة .. في أحداث المباراة .. حتى قال لهم ناجي غاضبًا :

- تاني يا إبراهيم .. كنتوا فين ده كله .. المدفع ضرب ومستنينكوا !!

- معلش يا باشا .. كنا بنلعب كورة .. والماتش كان نار .. بس قطعناهم .

- قطعتوا مين ؟!

- قطعنا فتح .. كنت بالعب مع حماس ، وجبت أربع إجوان .

والتفت ناجي نحو الشيخ حسن ، وسأله :

- وإنت يا شيخ حسن ، كنت بتلعب إنت راخر ؟!

- مع فتح .. بس هاردلك المرة دي .. دي مش كورة .. دول بيكسروا .

قال زياد بطيبة :

- طيب خشوا .. خشوا اتشطفوا ، وتعالوا عشان تاكلوا .. ياللا يا شباب .

* * *

Ahmed Madv

إذا أردت أن تفهم مدينة من المدن ، وأن تعرف حقيقتها بعيدًا عن الجرائد والإعلام .. فانزل إلى السوق .. تأمل الوجوه التي تروح وتجيء وتبيع وتشتري .. وراقب البضائع التي في المحلات وعلى العربات .. فإذا وجدتها.. مهملة .. متربة .. فاعرف أنك في سوق الشجاعية .. في فترة المحاصرة اقتصاديًا وعسكريًا وسياسيًا .. أسواق غزة تدل عليها .. النقص الواضح في الأشياء الضرورية .. والبضائع المهربة .. والأسعار المبالغ فيها .. كل هذه علامات لا تخطؤها العين .. الكساد والتضييق لا يجعلان البائع يعرض بضاعته بحماس .. ولا الشاري يقبل عليها بحماس أيضًا .

في سوق الشجاعية ، كان الأولاد يتمشون ، ومعهم ياسر ، يشترون ملابس رياضية .. لاب توب .. كاميرا ديجيتال وأشياء من هذا القبيل .. كانت علامات المرح والسعادة بادية على وجوههم ، وقد صار ياسر صديقًا بحق لهم .. وأخيرًا عرف ناجي .. لماذا طلب منه الأولاد فلوسًا .. كانوا يريدون شراء هدية لياسر، فاليوم هو عيد ميلاده .. أتم واحدًا وعشرين عامًا .. والتف الجميع حول التورتة ، وقال زياد :

- النهاردة ياسر بلغ سن الرشد 21 سنة .. يعني من الوقت ده .. هو مسئول عن نفسه .. صار راجل ملو هدومه .

- ليه وأنا إمبارح ماكنتش راجل يا بويا .. أنا مولود من بطن أمي راجل .

وضحك الجميع ، وقال زياد مؤكدًا :

- أمال .. أمال .. وسيد الرجالة كمان .

قال ناجي باسمًا :

- ياللا نطفي الشمع .

ووقفوا جميعًا يغنون أغنية عيد الميلاد ، ويطفأون الشموع ، ثم أخرج إبراهيم الهدية التي اشتراها من سوق الشجاعية .. وقال إبراهيم :

- اللاب توب اللي كان نفسك فيه يا ياسر .. كل سنة وإنت طيب .

Ahmed Madv

- إيه ده ؟ إنت كنت جايبهولي أنا يا إبراهيم .. إنت مش قلت لي إنك عاوزه !

- كنت جايبة علشانك يا ياسر ..

وتعانقا ونظر ياسر نحو الهدايا الكثيرة ، التي أحضـرها له الشباب ، واغرورقت عيناه بالدموع .. فقال ناجي ضاحكًا :

- يا ولاد الكلب .. بأه إنتوا سحبتوا الفلوس دي كلها مني ؛ علشان تجيبوا هدية لياسر .. طيب ماقولتوليش ليه ؟!

وذهب ناجي نحو ياسر ، وعانقه قائلا :

- كل سنة وإنت طيب يا ياسر .. كل سنة وإنت طيب يابني !!

قال ياسر :

- والحاجة فاطمة يعني مالهاش حس .. معقولة .. نسيتينى ولا إيه ؟!

وأخرجت الحاجة فاطمة مبلغًا كبيرًا من المال ، ودسته في يده ، وقالت :

- ودي حاجة تتنسي يا واد إنت .. تعالى .. أمسك .. خد دول ، وروح اشتري اللي إنت عاوزه !!

كان زياد في قمة الغضب يتكلم في التليفون ، وناجي جالسًا أمامه لا يعرف سر هذا الغضب المفاجئ .. كان زياد يصرخ في التليفون :

- كيف يعني بلطجة .. سرقة .. ها الحافي المنتن بيسرقنا بالشهر الكريم .. قول له زياد صبر عليك كتير يا فايز .. المرة دي مش ح أعديها !!

ووضع زياد السماعة في ضيق ، فسأله ناجي :

- إيه بس ؟ مالك يابو طارق ؟!

- فايز جوز أختي نقل سياجه مترين بأرضي .. ولامم شوية شلطجية تبعه ، وقاعدين بالأرض !!

- لأ .. فهمني بالمصري كده .. عشان أنا تُهت منك يابو طارق .

Ahmed Madv

- قصدي أقولك إنه سرق 400 متر في أرضي يا ناجي بيك .. مزروعة حمضيات .. برتقال وليمون .. وحاطط بلطجية على الأرض ، وطردوا الفلاحين اللي بيزرعوها .. والله أنا غلبت مع ها الكلب .

- صلي على النبي كده .. مفيش حق بيروح .. هي أرضك دي فين ؟!

* * *

صحيح أن المهمة الأساسية لناجي وفرقته .. هي اقتحام وسرقة بنك بارليف في إسرائيل .. إنما أحيانًا تضطرك الحياة إلى إنجاز مهام صغيرة في الطريق إلى المهمة الكبرى .. فايز .. زوج أخت زياد استحل لنفسه ما لا يملك .. فهل يمكن السكوت على ذلك ؟! إن إعادة الحق لأصحابه مسألة لا تتجزأ ؛ لذا انقض ناجي وفرقته على الأرض ، التي اغتصبها فايز ، ودارت معركة بينهم وبين فايز ورجاله .. كانت النصرة فيها لناجي والشباب .. وبعد أن هرب فايز ورجاله ، قام ناجي وفرقته بنقل السياج ، وأعادوا الأرض ، وعلقوا يافطة مكتوب عليها (أرض زياد أبو طارق) ممنوع الاقتراب .. في أقل من ساعة ، أعيد كل شيء كما يجب أن يكون .. والعلقة الساخنة التي نالها فايز ورجاله .. كانت إنذارًا شديد اللهجة ، بألا يتكرر ذلك بعد الآن .. فعلا .. ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة .

ومرت الأيام الجميلة في بيت عم زياد بسرعة مذهلة .. وجاء وقت الرحيل .. لم يكن أحد يتصور أن هذه الزيارة العابرة .. تلك المحطة المؤقتة ، سيكون لها بداخلهم هذا الأثر العميق .. أول ما أتوا إلى هنا .. كانوا يستعجلون الرحيل .. وها هم راحلون ، ولكنهم .. يشعرون بلوعة الفراق .. ياسر .. والحاجة فاطمة .. وعم زياد .. حتى حامد ونجيب ..

قالت الحاجة فاطمة لهم بحب دافق :

- خلاص بكرة نويتوا تمشوا إن شاء الله !!

- ربنا يكرمنا يا حاجة فاطمة .. ادعيلنا .

Ahmed Madv

خلاص .. حانت لحظة الوداع الأخيرة .. وستبدأ العملية .. كان ناجي مجتمعًا بالأولاد ، وفي يده الخريطة .. خريطة غزة وفلسطين وتل أبيب .. وكان يضع خطوطًا حمراء متقطعة على طريق كل منهم .. قال بخطورة وجدية :

- شوف يا إبراهيم .. إنت وعبد الجليل نجيب ح ياخدكوا في عربيته من هنا لغاية البحر .. ح تنزلوا تعوموا من هنا لحد هنا .

وأشار نحو نقطة على الخريطة ، تبعد نحو بضعة كيلو مترات ، قائلًا :

- دي مستوطنة إسرائيلية اسمها نسانيت .. ح تعوموا في حدود ربع ساعة ، وهناك فيه ناس من فتح ح ياخدوكوا من نسانيت إلى تل أبيب ..

ثم التفت إلى حسام وتهامي ، وقال :

- حسام .. وتهامي .. حامد ح ياخدكوا لحد النقطة دي .. ده مفاعل ديمونة .. الطريق ده فيه أسلاك شائكة .. ح تعدوها وح تلاقوا عربية مستنياكوا عليها علامة المفاعل ، وح يوصلوكوا لغاية تل أبيب .. لحد باب العمارة اللي ح نكون مستنينكوا فيها .. مفهوم !

ودخل زياد عليهم .. فتوقف ناجي عن الكلام .. كان زياد يشعر أن فراغًا كبيرًا سيحدث له بعد رحيل ناجي وفرقته .. فقال بلهجة مليئة بالحنان :

- والله العظيم أخدنا عليكم يا ناجي بيه .. وما تتصور قد إيه إحنا حبيناكم !!

- إحنا كمان حسينا إن إنتوا أهلنا يا أبو طارق .

- أبأوا مروا علينا وإنتوا راجعين بالسلامة إن شاء الله !!

- أكيد .. وأنت كمان لازم تجيلنا مصر يابو طارق.

- بس يفتحوا المعبر ح تلاقيني عندك .. أنا والحاجة فاطمة .

- يا سلاااام .. ده يبأة يوم الـمُنى !!

Ahmed Madv

وفجأة سمع صوت قصف مدوٍّ شديد ، ارتجت له الغرفة كلها .. فقال ناجي منزعجًا :

- إيه ده ؟ فيه ضرب قريب من هنا .

- ح يكون مين غير الصهاينة ولاد الكلب .. من الصبح ع الحال ده .

الأكثر رعبًا من أصوات الانفجارات وطلقات الرصاص ، كان صوت طرقات متوالية على باب بيت عم زياد .. طرقات عنيفة .. ملحة .. فجرى إبراهيم ليفتح الباب .. فوجد بعض الشباب الفلسطينيين ، كانوا يحملون ياسر مضرجًا في دمائه .. فصرخ إبراهيم :

- يااااسر !! ياسر !!

وانتفض زياد ، وقال بصوت مخنوق ، لم يستطع أن يخرج من صدره :

- ابنى !!

وجرى عليه ، وأخذ يقبل رأسه ويديه ، وهو يبكي بكاءً شديدًا ، وهو يردد :

- قتلوه الصهاينة .. قتلوه !!

أما ناجي عطا الله .. فقد وقف مبهوتًا .. لا يعرف ماذا يقول .. في تلك اللحظة الصعبة التي انخلع فيها قلبه ، وهو يرى الشاب الصغير ، وقد فارق الحياة .. دون أن يكون له أي ذنب .. ولا حتى دفاعًا عن أي انتماء .. لم يكن تابعًا لحماس ولا لفتح .. ولا لأي قوى سياسية .. الغريب .. أن الشهيد كان مبتسمًا .. ابتسامة غامضة غريبة .. لقد جاءت القنبلة في اللحظة التي كان مبتسمًا فيها كعادته .. فقتلته .. ولكنها لم تستطع أن تقتل الابتسامة على شفتيه .

* * *

فى مظاهرة مفجعة ، كان الأولاد يحملون نعش ياسر ، ويسيرون في الجنازة، وناجي عطا الله يربت على كتف زياد ، الذي يمسح دموعه باكيًا بحرقة.. هذه

Ahmed Madv

المشاهد كان الشباب قد رأوها في التليفزيون قبل ذلك حتى باتت مشاهد عادية .. اعتادوها .. إنما لم يكن أحد منهم يتصور أنها بهذه الدرجة من المأساوية والحزن العميق .. فالذي يمشي في الجنازة .. ليس كمن يتفرج عليها.. حينما قرر ناجي عطا الله واتفق مع هؤلاء الشباب ، الذين لا رابط بينهم سوى أنهم جميعًا اجتمعوا على سرقة أكبر بنك في إسرائيل .. كانت دوافعهم مادية أو تاريخية .. لنقل .. دينية .. مما سمعوه عن هذا الكيان الكريه ، الذي فرض نفسه على المنطقة .. ورغم كل هذا .. فليس منهم من يعرف .. أو قرأ مثلا عن الصهيونية وماهيتها تحديدًا .. خطرها على الوطن .. ولكن أحدًا منهم لم يعش لحظة حقيقية مثل تلك اللحظة الأليمة ، التي انكفأوا فيها جميعًا على جسد الشاب ياسر ، الملقى بلا حراك ، وقد فارق الحياة .. فصار عندهم جميعًا دافع جديد .. أقوى من كل الدوافع السابقة .

Ahmed Madv

الفصل الخامس

الطريق من غزة إلى تل أبيب نحو 60 كيلو .. كان الباص يمضى في طريقه إلى تل أبيب ، وبه جنسيات مختلفة لسواح وصحفيين وبعض رجال الصليب الأحمر .. كان ناجي مرتديًا الملابس اليهودية والشعر المستعار ذا الضفائر المنسدلة على كتفه والعباءة السوداء .. وكان زاهر يرتدي زي خادم في معبد يهودي .. وللمفارقة ، كان الشيخ حسن يرتدي الملابس الدينية اليهودية .. وكذلك هوني ، فبدوا كأنهم مجموعة دينية تنتمي لأحد التيارات اليهودية .. كانت الإذاعة العبرية في الباص تعلن عن نجاح العملية التي قصفت الجامعة ، واستهدفت بعض الإرهابيين .. ودون أن يشعر ، أخرج ناجي سيجارًا وكاد يشعله .. فضربته هوني على يده تنبهه .. فأخفى السيجار بسرعة ، ناظرًا إلى السماء في خشوع .. بينما كان بعض اليهود الجالسين في الباص ينظرون نحوه مبتسمين ، في ود ، وهو يومئ برأسه في حالة إيمانية مفتعلة .. ووقف الباص فجأة .. وفي نقطة تفتيش ، طلع أحد الضباط الإسرائيليين ، وأخذ يتفقد الوجوه .. بدا الذعر على وجه زاهر .. الذي أخذ يرتعد عند دخول الظابط عليهم .

اقترب الظابط الإسرائيلي من ناجي فوجده ممسكًا بتوراة عبرية ، وهو يرتل في صمت .. فانحنى أمامه في إجلال واحترام ، وقبل كتفه .. أما زاهر فكاد يسقط من

Ahmed Madv

الرعب والخوف .. بينما أمسك ناجي بيده مشجعًا ، ورفع الشيخ حسن يده هامسًا بالدعاء ، وهو يقول :

- اللهم اجعل لنا من أمرنا رشدًا وانصرنا على القوم الكافرين .

فهمس له ناجي بغيظ :

- إنت فاكر نفسك في الحسين .. ما تهدا بأة .. ادعي في سرك يا شيخ حسن !!

قالت هوني هامسة لناجي :

- خلاص كده إحنا دخلنا على تل أبيب .. ياللا عشان قربنا ننزل .

.. كان حسام وتهامي يحاولان عبور الأسلاك الشائكة ؛ ليصلا إلى تل أبيب . وعبر الحدود البحرية .. كان إبراهيم وعبد الجليل يحاولان الوصول أيضًا .. الوجوه التي تقابلها في الحدود هي التي تحدد إذا كان الله قد كتب لك النجاة أم النهاية .. وصل ناجي وهوني والشيخ حسن وزاهر إلى الشقة التي أعدتها لهم هوني .. لنسمها غرفة العمليات .. كل شيء حسبه ناجي بدقة .. وكل واحد له دوره المحدد .

ما أن دخلوا الشقة ، حتى خلعوا العباءات السوداء والشعور المستعارة ، وفتح زاهر جهاز الكمبيوتر ، وأخذ يعمل بمهارة عليه .. كانت مهمته أن يعطل الكاميرات ، التي رصدت دخولهم إلى المبنى.

كانت صورة دخولهم إلى العمارة .. قد سجلت بالفعل ، وكان زاهر يمسحها من على المونيتور جزءًا فجزءًا تدريجيًّا .. إلى أن وقال :

- كده إحنا لا دخلنا من باب العمارة ولا طلعنا الشقة !!

وأردف ناجي :

- مش لازم نضيع وقت .. إحنا ح نغير هدومنا .. وهما لما ييجوا يبأة يغيروا بسرعة .. إحنا لازم نبدأ العملية بعد ربع ساعة !!

Ahmed Madv

أمسك الشيخ حسن بالملابس العسكرية الإسرائيلية ، وقال بضيق :

- أعوذ بالله .. أنا جتتي ما طايقة يتحط عليها لبس الكفرة دول .. ما ينفعش تعفيني من حكاية اللبس دي !!

- البس يا شيخ حسن .. البس .. داخل تسرق بنك في إسرائيل ، ح ألبسك إيه ؟ بدلة سفاري .. ياللا خش البس وإنت كمان يا زاهر .. وإنت يا هوني .. بسرعة .

وقطع صوت ناجي صوت طرق على الباب ، فتقدمت هوني من وراء الباب ، ثم ردت بالعبرية :

- من الطارق ؟!

وأتى صوت حسام :

- افتحي يا هوني .. أنا حسام !!

وفتحت هوني الباب ، فوجدت أمامها حسام وتهامي ، كانا يرتديان ملابس جنود إسرائيليين .. وابتسمت قائلة :

- حمد الله ع السلامة يا حسام .

وتبادل حسام وهوني نظرة عاطفية.. ولاحظ ناجي تلك النظرة ، فحاول حسام أن يبددها قائلا :

- إيه رأيك يا باشا .. إحنا قولنا بدال ما نلبس هنا .. نيجي جاهزين !!

قال تهامي :

- بس أنا البدلة اللي لابسها ح تتقطع عليا .. ضيقة قوي !!

فقال ناجي :

- هوه إنت ح تلاقي حد مقاسك بالساهل ياد يا توتو !!

وخلع تهامي الجاكت وأخرج منه بطاقة .. وبعض الشيكل .. العملة الإسرائيلية .. فسأله ناجي قائلا :

- إيه ده ياد يا تهامي .. الفلوس دي جيبتها منين ؟

Ahmed Madv

- كانت موجودة في جيب الجاكت بتاع العسكري الإسرائيلي اللي ضربناه .

- أنا علمتك كده برضه .. تمد إيدك في جيوب الناس .. ح تروح من ربنا فين ؟ إنت حرامي يا توتو .. ما تتكلم يا شيخ حسن ؟!

- إن الضرورات تبيح المحظورات .

- يا عيني ع الفتوى .

وانفجروا جميعًا ضاحكين .. قال زاهر سعيدًا بما حققه :

- شفت يا ناجي بيه .. حسام وتهامي دخلوا من باب العمارة ، وعدوا على كل الكاميرات من غير ما يبان لهم أثر .

- هايل .. هايل يا زاهر !!

قال تهامي ، وهو يبلع ريقه :

- مفيش لحمة هنا يا ناجي بك .. أحسن أنا واقع من الجوع .

وذهب تهامي إلى الثلاجة ، وأخرج طبقًا به لحم بارد وقطعة خبز .. وأخذ يأكل باستمتاع وشهية ، فصرخ فيه الشيخ حسن :

- استنى .. ما تاكلش !!

- فيه إيه يا شيخ حسن ؟!

- اللحمة دي مدبوحة حسب الشريعة الإسلامية ولّا لأ ؟!

أمسك ناجي بفازة .. مهددًا ، وقال بحزم :

- شيخ حسن .. اجري ألبس يا شيخ حسن، بدل ما ألبسك دي في وشك .. ياللا !! ياللا يا زاهر إنت كمان .

ودخل الشيخ حسن وزاهر إلى حجرة داخلية ليرتديا الملابس العسكرية الإسرائيلية ، أما هوني فكانت تنظر ليد حسام المجروحة ، وسألته برفق :

- إنت متعور ؟!

Ahmed Madv

- لأ .. ده جرح بسيط كده ، وإحنا بنط من على السلك !!

وأحضرت هوني قطنًا وميكركروم لتطهر الجرح وتربطه .. قال حسام :

- هوه إبراهيم وعبد الجليل لسه ماجوش يا باشا ؟!

- مش عارف إيه اللي أخرهم .. المفروض يوصلوا معاكم !!

كان تهامي يأكل باستمتاع ، وأمامه التليفزيون يقلب في قنواته بالريموت .

وفجأة إذ بالمذيع يعلن أنه تم القبض على شاب مصري وغرق آخر .. حاولا التسلل إلى الحدود الإسرائيلية بحرًا .. الجهات الأمنية الإسرائيلية تؤكد أنهما عضوان في تنظيم ، كان يخطط لعملية إرهابية في تل أبيب .

نظر ناجي نحو الشاشة ، وقد تحجرت عيناه بالدموع .. وصرخ في حرقة :

- إبراهيم .. عبد الجليل !!

ورفع تهامي يده عن الطعام .. وضرب زاهر الأرض بقدميه في عصبية وخوف ، وخرج حسام والشيخ حسن وهوني من الداخل ، وسادت المكان حالة من الصمت والكآبة.. لم يكن أحد يتصور .. أن الموت سيأتي بهذه السرعة .. وانفجر الشيخ حسن باكيًا ، ورفع يده إلى السماء قائلا :

- اللهم ارحمهما يارب العالمين .. وأسكنهما فسيح جناتك .. شباب زي الورد .. في الجنة ونعيمها إن شاء الله .

كان منظر الشيخ حسن ، وهو يدعو لإبراهيم وعبد الجليل مرتديًا الملابس العسكرية الإسرائيلية غريبًا ومؤلـمًا .. وقال زاهر مرتجفًا :

- إحنا قاعدين هنا ليه دلوقت يا ناجي بيه .. مادام مسكوا إبراهيم يبأة أكيد عرفوا مكاننا .. لازم نمشي دلوقت حالا .. لازم نرجع مصر !!

كان ناجي في قمة الحزن .. ويملؤه الشعور بالذنب .. كان يشعر أنه السبب فيما حدث .. حاول أن يبرر لنفسه ، فقال لهم :

Ahmed Madv

- اللي حصل ده كان ممكن يحصل لأي حد فينا .. إحنا كلنا معرضين للموت في أي لحظة ، وجايين ، وإحنا عارفين كده .. العملية ح تتم .. وإبراهيم وعبد الجليل كأنهم معانا بالظبط ، ونصيبهم ح يروح لأهاليهم !!

كان زاهر قد انتابته حالة هيستيرية .. وفقد سيطرته على أعصابه :

- مش ح نلحق نعمل العملية يا ناجي بيه .. أرجوك لازم نمشي قبل ما يمسكونا إحنا كمان .

وإذا بطرق عنيف على الباب .. فوقف الجميع ، وقد انتابتهم حالة من الرهبة .. وسقط زاهر مغشيًّا عليه .. أدركوا أنهم سقطوا لا محالة في أيدي الإسرائيليين .. وتمالكت هوني أعصابها ، وذهبت نحو الباب ، وقالت بالعبرية :

- من الطارق !!

ومن خلف الباب ، رد عليها صوت بالعبرية أيضًا ، وقال بحزم :

- افتحي الباب وإلا ح أفجر الشقة وارفعوا إيديكم جميعًا .

لم تعرف هوني كيف تتصرف ، ولكن ناجي تنفس الصعداء .. وقال :

- الصوت ده أنا عارفه .. ده الواد إبراهيم .. افتحي يا هوني .

وفتحت هوني لتجد إبراهيم أمامها مبتسما ، ويقول في عبث طفولي :

- نشفت دمكوا .. صح !!

- الله يخرب بيتك .. وده وقت لطافة ياد إنت .. فين عبد الجليل ؟!

- عبد الجليل ده كان ح يضيعني يا باشا .. أنا بصراحة مش عارف ده جاي معانا أساسًا ليه .. معلش يعني الشغل مافيهوش عواطف .. مش طالبة بأة سكان العشوائيات والشئون الاجتماعية دي .

ودخل عبد الجليل في ضيق ، وكأنهما كانا في نزهة ، وقال معاتبًا :

- اوعى يا عم .. عليّا الطلاق ما أروح معاك مشوار تاني !

Ahmed Madv

- عبد الجليل فاجأني يا ناجي باشا أنه بيعوم بطريقة الضفادع في السباحة .. بيعوم وهو بيضرب المؤخرة لفوق ، كأني عايم جنب كورة كفر !!

وانفجر الجميع ضاحكين ، بعد حالة الكبت والضيق التي ملأتهم منذ لحظات قليلة .. حتى زاهر كان يضحك .. ويضحك حتى دمعت عيناه .. وعاد عبد الجليل يكمل :

- بأة ده اللي أخرنا يا إبراهيم .. إحنا واصلين تل أبيب من ساعتين يا باشا .. هوه اللي ماشي عمال يكلم النسوان .. اللي واقفين قدام الكباريهات ..

قال إبراهيم مدافعًا عن نفسه :

- يا باشا والله ما حصل .. وده بيفهم حاجة .. دول اتنين موزز كانوا معدين ، وبيسألوني على عنوان .

- وأنت تعرف إيه في تل أبيب عشان تدلهم على عنوان !! العملية ح تبدأ دلوقت ..

وألقى ناجي بعلبة سجائر حديد ، تلقفها الشيخ حسن بسرعة ، ثم قال :

- عاوزك يا شيخ حسن بأة تلف لنا قنبلة .. لفة معتبرة .

جلس الشيخ حسن .. وأخذ يعمل على تركيب القنبلة بمهارة شديدة .. وتذكر يوم أن عملها وأعطاها للجماعة إياها .. فألقوا بها في منطقة الأزهر ومات مسلمون .. وأقسم ألا يعود لذلك مرة أخرى .. ولكنه يعود لها الآن .. انتهى الشيخ حسن من صنع القنبلة .. وأعطاها لناجي بيه .. الذي أخذها منه .. وألقى بها لإبراهيم .. الذي تلقفها بمهارة ، وقال :

- مقبولة يا باشا .. من يد ما نعدمها .

- القنبلة دي ح نرميها جوه المبنى اللي في أخر الشارع .. كان مبنى تحقيقات للمخابرات الإسرائيلية ودلوقت تحت الإصلاح .. مفيهوش حد ..

- واشمعنى المبنى الفاضي ده يا باشا .. كنا عايزين نكسب ثواب !!

Ahmed Madv

وأجابه ناجي قائلا :

- إحنا مش جايين نقتل يا شيخ حسن .. إحنا جايين ناخد فلوسنا ونمشي .. لو الخطة مشيت زي ما رسمتها ، ح نكون كلنا بكرة الصبح في مصر .. وكل واحد فيكوا معاه ميت مليون دولار .

ظهر رد فعل هائل على وجوه الجميع .. فقال ناجي :

- هوني .. انزلي مع إبراهيم .. أنا عاوز كل شيء يتم بصورة طبيعية جدًّا .

وخرجت هوني ومعها إبراهيم لينفذا أول خطوة من العملية الكبرى ، وحسام يودعها بنظرة وهي أيضًا .. أمام البنك ، كان الشارع خاليًا تمامًا .. كل المحلات مغلقة فهي ليلة السبت .. وإجازة في تل أبيب .. كانت دورية بوليس بسيطة واقفة على بُعد .. وفي نهاية الشارع كان ثمة مبنى تحت الإصلاح .. وقد غُطِّي بساتر قماشي ، ولم يكن أي شيء يدعو للقلق .

كان إبراهيم وهوني يرتديان الملابس العسكرية الإسرائيلية ، كأنهما جنديان .. ويتمشيان كأي حبيبين ، وقد تأبطت هوني ذراع إبراهيم .. والحراسة الإسرائيلية واقفة قرب البنك .. وسيارة بوليس في أول الشارع .. كان إبراهيم يتكلم العبرية مع هوني في الطريق .. بل كان بعض جنود الحراسة يحيونهما بالعبرية ، وإبراهيم يرد عليهم .. وفجأة همس لهوني بالعربية :

- هوني .. أنا عاوز أسألك سؤال ، كاتمه في قلبي من غزة إلى تل أبيب .

- ما تتكلمش عربي هنا .. هاتودينا في داهية !!

- حد قال لك إن عينيكي محصلتش !! وإن بُقك عبارة عن فراولتين طازة .. لسة مقطوفين من على الشجرة !!

فقالت له ، وهي تفتعل الابتسام :

- حد قال لك إنك بني آدم مش طبيعي !!

- ليه كده بس ؟!

Ahmed Madv

- ده وقت الكلام الفارغ ده !!

- يا هوني يا حبيبتي .. الإنسان مننا لو ما عبرش عن اللي جواه في أي لحظة ، وكتم اللي بيحس بيه .. يطق .. يفرقع ..

وأخرج علبة السجائر الحديدية (القنبلة) ، ثم ألقى بها داخل المبنى .. ووضع يده بثقة على كتفها .. ومرا بجندي إسرائيلي مسلح ، كان واقفا ينظر نحوهما ويبتسم .. ويحيي إبراهيم بتحية عسكرية ، وإبراهيم يرد التحية ، ثم يقبلها في خدها أمام الجندي ، ويمضيان بعيدًا عن المبنى .. كان أبطالنا جميعًا قد ارتدوا الملابس العسكرية الإسرائيلية ، وقد التفوا حول الشيخ حسن الذي يبدو ، وكأنه يفجر القنبلة عن بُعد بجهاز في يده .. قال ناجي قلقًا :

- إنت متأكد إنك فتحت القنبلة قبل ما ترميها يا إبراهيم ؟!

- يا باشا .. إلا متأكد دي .. القنبلة جوة المبنى وجاهزة للانفجار .

- أمال فيه إيه يا شيخ حسن ؟!

- مش عارف والله يا ناجي بيه .. أنا عامل كل حاجة صح !!

كان الشيخ حسن يكرر محاولة تفجير القنبلة بجهاز في يده .. دون أي رد فعل .. وفجأة دوّى صوت انفجار هائل .. وابتسم ناجي في راحة ، وقال :

- بارك الله فيك يا شيخ حسن .

وتحرك الجميع خارجين من الشقة إلى سطوح العمارة ، بينما في الشارع أمام البنك .. كانت سيارات البوليس والإسعاف تجري نحو موقع الانفجار مبتعدة عن البنك .. وسادت حالة هرج ومرج في المنطقة ، والنيران تلتهم المبنى .. وخرجت سيارة مطافئ مسرعة من مبنى البنك ، في محاولة يائسة لاحتواء الانفجار المهول .. ورغم اعتياد الإسرائيليين على الانفجارات .. والأحزمة الناسفة .. والعربات المفخخة ، إلا أنهم يشعرون بذعر مبالغ فيه إذا سمعوا أي انفجار ؛ لأنهم يشعرون

Ahmed Madv

أنهم محاصرون بالكراهية .. من كل البلاد التي تحيط بهم .. فالهاجس الأمني هنا هو أكبر هاجس .. ولذا فقد يبدو فعلا .. أن إسرائيل تريد السلام .. والعالم كله مخدوع بتلك الفكرة .. حقًّا .. إنها تريد السلام مؤقتًا .. لكي تعد نفسها أكثر ، وتقوي نفسها أكثر وأكثر .. ثم بعدها .. تفعل ما تريد .

على سطوح العمارة المجاورة للبنك ، كان ناجي وفرقته على أهبة الاستعداد للعبور إلى برج البنك .. الخطوة الثانية من العملية تحتاج إلى قفزة .. قفزة رائعة .. من الذي سيقفزها .. الكابتن حسام طبعًا .. بطل الوثب الطويل .. جاءت لحظته .. سينط ليثبت خطافًا فوق سطوح عمارة البنك .. ويربط سطوح العمارتين بحبل غليظ .. يعبر عليه ناجي وباقي فرقته .

وأخرجت هوني حبلا غليظًا بخطاف .. وفردته .. وأعطته لناجي الذي مشى به .. ثم ذهب إلى نهاية السطح .. ليفاجأ بأن الامتداد الحديدي الذي كان موجودًا هنا لم يعد موجودًا .. يبدو أنهم أزالوه ، وقد صارت المسافة بين العمارة وبرج البنك أكبر من تقديره لها ، وقال ناجي في غيظ :

- كان فيه تندة حديد هنا .. إتشالت إمتى ؟ المسافة كبرت قوي .. ومش ح ينفع حد ينطها ؟!

وتحرك حسام إلى جواره ، ونظر إلى المسافة بين البرجين ، وناجي يهز رأسه معترضًا .. على ما يجول بخاطر حسام .. فقال له حسام بثقة :

- ح أنطها يا باشا ؟!

- لأ .. العملية كلها ح تتأجل !!

ولكن حسام قال بإصرار :

- ح انطها يا باشا .. مش ح أنزل معاكوا .. ح أنطها !!

قال ناجي بحزم :

- ياللا يا حسام .. نفذ الأمر .. ح ننزل كلنا دلوقت حالًا .

Ahmed Madv

وقال حسام بعناد :

- لأ يا باشا .. أنا ح أنط .. إحنا ما جيناش المشوار ده كله عشان نتراجع .. الخطة ح تتنفذ زي ما سيادتك قلت لنا بالظبط .

- قلت لأ .. أنا مش جايبكم هنا عشان تموتوا .

- وحياة أبويا ما ح أرجع مهما حصل .. ح أنطها .. ما تخافش عليّا يا باشا .. ما تخافش .. أنا مش ح أفشل المرة دي .. أنا حاسس إني ح أنجح !!

وأمسك حسام بيد ناجي ، وقال له متوسلا :

- اديني الفرصة دي .. والمصحف الشريف ح تيجي .. أنا زمان كنت محبط وقرفان ومش طايق حياتي .. ماكانش عندي أي رغبة في إني أعمل أي حاجة .. أنا المرة دي لقيت نفسي يا ناجي بيه .. أبوس إيدك سيبني أنطها .

نظرت هوني نحو حسام ، في خوف عليه من المخاطرة التي ينوي أن يقوم بها ، وقالت :

- اسمع كلام ناجي بيه يا حسام ؟!

- لأ .. ح أنطها يا هوني .. حتى لو لغيتوا العملية كلها .. حتى لو نزلتوا كلكوا وسيبتوني .. ح أقف لوحدي وأنطها يا ناجي بيه .

أخذ إبراهيم يضرب كفًّا بكف ، وهو يقول :

- عليا النعمة الواد ده اتجنن !!

- أنا ما اتجننتش يا إبراهيم .. أنا عاقل قوي وعارف بقول إيه ؟ ولعلمك أنا مش ح أنط النطة دي عشان خاطر الفلوس .. أنا حتى مابأيتش أفكر في الفلوس .. أنا أخدت ثقة في نفسي ، وهي دي نطة الثقة .

هنا تدخل الشيخ حسن ، وقال بإيمان عميق :

- خلاص يا ناجي بيه .. خلّي توكلك على الله .. نقرا المعوذتين كده ، ونقصد كريم .. وإن شاء الله مش ح يخذلنا الحي الذي لا ينام .

Ahmed Madv

قال ناجي ، وقد رضخ أخيرًا :

- ياللا يا حسام .. ربنا معاك .

وعاد حسام إلى نهاية السطوح ؛ ليعطي لنفسه المسافة المطلوبة حتى تنجح وثبته .. وقف يحرك قدميه للتسخين .. وكل النظرات من حوله زائغة قلقة متوترة .. كانت هوني تبدو في قمة الرعب والقلق على حسام ، كأنها هي التي ستثب .. بينما أعطى ناجي ظهره لحسام ؛ حيث لم يكن يستطيع أن ينظر نحوه من فرط خوفه عليه .. أما الشيخ حسن فكان يتمتم بأدعية دينية .. كان كل ما يشغل ذهنهم في تلك اللحظة العصيبة أن ينجح حسام في قفزته .. حتى إبراهيم تغيرت ملامحه ، وترقرقت الدموع في عينيه ، ولأول مرة أحس أنه يحب حسام حبًّا شديدًا ، رغم أنهما على خلاف دائم .. ووقف تهامي بجسمه الضخم يمسح دموعه كالأطفال .. أما حسام فقد بدأ يجري .. ويجري ، وكأنه يسمع صوت المعلق الذي كان يذيع مباراته ، التي خسـرها في الأوليمبياد .

وقفز حسام قفزة رائعة في الهواء ، متجهًا إلى سطوح عمارة البنك .. والقلوب كلها معلقة به ، وبدا البرج الآخر بعيدًا كأنه في النصف الثاني من الكرة الأرضية .. سؤال مرعب كان يسيطر على عقول كل الواقفين .. ماذا لو أخفق حسام في وثبته وسقط من هذا الارتفاع الشاهق ؟!

كل القلوب كانت معلقة بجسده ، وهو طائر بين البرجين ، ولا يملك جناحين .. لا يملك سوى رغبة في أن ينتصر على إحباطات وإخفاقات كثيرة مر بها .. كان برج البنك بعيدًا جدًّا من وجهة نظر حسام والمجموعة .. أما من وجهة نظر عمارة البنك .. فبدا أنه موشك على الوصول .. وتحت أسفل البرجين وبينهما ، بدا وكأن خفاشًا يطير بين البرجين في ذلك الارتفاع الشاهق .. وقد هرول رجال البوليس والإسعاف والمطافئ نحو المبنى المشتعل بالنار .. وأخيرًا وصل حسام .. وضع مشط قدمه اليمنى على حافة السطح .. وانكفأ بكامل جسده على أرضية السطح ..

Ahmed Madv

فألقى له ناجي بقبلة في الهواء .. وهلل الجميع .. وصفقوا له .. كأن مصر حصلت على كأس إفريقيا .. ونسوا أنهم .. عصابة جاءت لتسرق هذا البنك ، الذي تضيء لافتته المعدنية ، إضاءة متقطعة ، كأنها ترتعد من فكرة وصول ناجي وفرقته إلى هنا .. واندفع إبراهيم جاريًا نحو طرف السطح ، وصرخ مهللا :

- كابتن مصر وعم الرياضة كلها يا سِمْسِم .. ده مش يستاهل بوسة في الهوا يا باشا .. عليا النعمة لو أعرف أنطها كنت روحت بوسته من بُقه !!

قال حسام في فرحة هستيرية :

- خمسة متر 20 .. ضربت الرقم العالمي يا باشا .. خمسة متر 20 .

وأشار له ناجي بيده بمعنى براڤو .. إنت هايل .. ثم تغيرت ملامحه ، وبكل جدية أشار نحو عبد الجليل ، فتقدم منه في احترام عسكري ، وقال :

- أؤمر يا باشا ..

- اشتغل ..

وأخرج عبد الجليل الشنيور .. وبدأ في عمل خابور في جدار السطوح .. بينما قام حسام بإطفاء أنوار إعلان بنك بارليڤ ، فأظلم السطوح تمامًا .. وبينما كان عبد الجليل يعمل بمهارة ودقة ، قال له إبراهيم مداعبًا :

- أعمل لك همة يا أسطى .. عشان عاوزينك في شغلانة طرية .

- أصل الطوبة هنا ناشفة قوي .. فلازم ناخدها بالراحة .. ما تقساش عليها .

أخرج إبراهيم سيجارة ، أعطاها لعبد الجليل ، وقال :

- الله ينور يا أسطى باشا .

- تعيش يا هيما .

أخذ عبد الجليل السيجارة ، ووضعها خلف أذنه ، فصرخ فيه ناجي :

- ما تخلص يابني .. إحنا قاعدين في السبتية إنت وهوه .. ياللا .. هوني .. انزلي إنتي بأة وخليكي جاهزة .. كده العملية بدأت .

Ahmed Madv

جلس زاهر وفتح اللاب توب .. ليظهر في البنك من الداخل .. كوريدور مليء بالأشعة الضوئية الكثيفة .. غابة من الأشعة تتحرك حركة عشوائية .. قال زاهر :

- دي أشعة الليزر اللي في طريق الخزنة يا باشا !!

وضع ناجي يده على كتفه ، وقال :

- ح تقدر تلغيها يا زاهر ؟!

- لأ .. يا باشا .. ممكن أحول مسارها بس .. أتحكم في الطريق اللي هي ماشية فيه .. إنما ألغيها خالص .. مش ممكن !!

- أبأة خللي بالك ، وإنت بتحول مسارها .. دي لو نزلت على بني آدم .. تسيحه !!

قال عبد الجليل أثناء انهماكه في وضع الخابور بالحائط لناجي عطا الله :

- إنما .. يبأة إيه الليزر ده يا باشا ؟!

- مالكش دعوة يا عبد الجليل .. خليك في اللي إنت فيه .. إنت مالك بالليزر .. إنت راجل بتاع خوابير !!

- أنا خلصت يا باشا .. بس بأقفِّل ع الشغل .. أصل أهم حاجة الفينيش سعادتك .

أمسك ناجي بالخابور ، وجذبه بقوة سائلا :

- يستحمل ؟!

- يشد تلات تريلات يا باشا .. جرَّب سعادتك .

نظر ناجي نحو الجميع ، وقال بحزم :

- ياللا يا رجالة .

ووضع ناجي حلقة معدنية ، تنتهي بالحبل الغليظ في الخابور .. ثم ثبتها جيدًا ، وأعطى طرفها الآخر لتهامي قائلا :

- إرمي ده لحسام يا تهامي ؟!

Ahmed Madv

ألقى تهامي بالحبل الغليظ ، بكل قوة إلى حسام الذي تلقفه بسـرعة ، وقام بتركيبه في زاوية حديد من اليافطة المعدنية لإعلان بنك بارليـڤ ؛ ليصبح هناك حبل مربوط بين العمارة والبرج ، الذي فيه البنك .. وقال ناجي :

- ياللا يا رجالة .. بسم الله توكلنا على الله .. عبد الجليل .

ولبس عبد الجليل حزامًا يربط بطنه .. وله حلقة معدنية ثبتها في الحبل ، ثم قفز منتقلا في سهولة ويسر إلى سطوح البنك في البرج الآخر .. وتبعه تهامي وإبراهيم ، وجاء الدور على الشيخ حسن ، الذي قفز وهو يتمتم :

- بسم الله توكلنا على الله .. يا قوي .

بين البرجين على الحبل الغليظ ، وعند مرور الشيخ حسن .. كان بعض الضباط الإسرائيليين يمرون تحت المبنى ، ورفع أحدهم رأسه إلى أعلى ، فقال الشيخ حسن :

- وأغشيناهم فهم لا يبصرون .

وجاء دور زاهر ، الذي قال لناجي وهو يرتعش :

- أنا .. أنا مش ح أقدر يا باشا .. أنا عندي فوبيا من الأماكن العالية .. لو بصيت تحت ، ممكن أموت !!

- غمض عينك وإحنا ح نزقك .. ما تخافش !!

توسل زاهر ، وجسده كله ينتفض :

- أبوس إيدك يا باشا .. أنا ح أشتغل من هنا .. أنا عطلت الكاميرات كلها اللي جوه البنك خلاص .. وبأحول مسار الليزر .. أنا ممكن أعمل كل حاجة من هنا .

- يعني إيه ؟ وح نتقابل إزاي ؟!

- ح أخلص شغلي وأنزل أستناكوا تحت .. قدام الجراج بتاع البنك .. أركب معاكوا وإنتوا خارجين .

Ahmed Madv

- أنا ما بحبش القرارات المفاجأة دي يا زاهر !!

- عشان خاطري يا باشا .. عشان خاطري !!

ورق قلب ناجي له .. فاستسلم لرغبته ، وقال :

- طيب خليك إنت .. الجهاز اللي بيني وبينك خليه مفتوح .. وتخلص وتنزل من سلم الجراج .. وتقابلنا في ضهر العمارة .. تقف تستنانا .

وربط ناجي نفسه ، ثم تعلق بالحبل الغليظ ، وقفز من فوق السطوح ليعبر بين البرجين .. فانخلع الخابور من مكانه .. وناجي في منتصف الطريق بين البرجين ، لينقطع الحبل ، ويسقط ناجي ممسكًا بالحبل بين البرجين .. وبهت الجميع ، وهم يرون ناجي عطا الله معلقًا في الهواء ، وشعروا أن قلوبهم هي التي سقطت من هذا الارتفاع الشاهق ، ولم يبدد مخاوفهم سوى تعليق ساخر لناجي ، حين قال ببساطة، وهو يلوم عبد الجليل :

- يشد تلات تريلات !! مش ح نبطل الطلسأة أبدًا .. بتوفَّر في المونة .

- عليّا النعمة يا باشا ده أنا مخدم عليها جامد .

وتعاون الجميع في رفع ناجي عطا الله الذي استند بجسمه على زجاج برج البنك .. صاعدًا إلى أعلى ، وتهامي والجميع يشدونه إلى أعلى ، حتى وصل إلى سطوح البنك .

وقف الجميع على سطح البنك ، وتقدم ناجي من أحد أبواب السطوح ، وكان عبارة عن قضبان حديد فولاذية ..وتقدم عبد الجليل ، وأخرج الجهاز الذي تدرب عليه ، وبدأ في تقطيع القضبان الحديدية بمهارة شديدة ؛ ليحدث فتحة تسمح بدخول شخص .. دخل ناجي أولاً وخلفه الجميع .. بينما ظل تهامي لا يستطيع الدخول ، بسبب ضخامة جسمه ، ولكنهم استطاعوا أن يجعلوه يدخل بصعوبة ، واختفوا من فوق سطح البنك .. بين سلالم كثيرة وقضبان حديدية لأبواب موصدة .. كان أبطالنا يتحركون بداخلها بسرعة ، وناجي يحمل في يده

Ahmed Madv

خريطة المرور داخل البنك .. ويشير إلى الاتجاه الذي يتحركون إليه .. برشاقة وخفة .. وعبد الجليل يعالج الأبواب الحديدية في كل مرة .. إلى أن يفتحه ، وقال :

- المكن ده نضيف قوي يا باشا .. بيقطع الحديد ولا كأنه بيقطع حلاوة .. صيني ده يا باشا .. أصل الصين ما سابتش حاجة ما عملتهاش .

وفتح أخر باب ليخرجوا منه جميعًا إلى قاعة في نهاية الكوريدور .. كان في نهايتها شباك صغير في جانب من الكوريدور .. وهنا قال ناجي :

- إحنا دلوقت فوق القاعة اللي فيها الخزنة الرئيسية بتاعة البنك .. افتح الشباك ده يا عبد الجليل .

نجح عبد الجليل بمشقة بالغة في أن يفتح الشباك .. وأطل ناجي برأسه من الفتحة .. وهم يمسكون بجسده .. ورأس ناجي وعنقه تدلفان من فتحة الشباك .. ليجد نفسه في سقف القاعة التي بها الخزنة الرئيسية .. ورأى أشعة الليزر تروح وتجيء بشكل عشوائي مرعب داخل القاعة ، كأنها تبحث عن الفريسة .. وأخرج ناجي مسدسًا معلقًا في كتفه ، وقام بإطلاق حبل ثبته في الحائط بموازاة سقف القاعة .. وتعلق ناجي بالحبل ، وقد انكمش جسمه تمامًا متفاديًا الليزر .. إلى أن وصل إلى الناحية الأخرى من القاعة ، وتبعه الجميع في استخدام الحبل المشدود في سقف القاعة ، وصلوا إلى باب القاعة .. ليروا أمامهم غابة من أشعة الليزر الحارقة ، تتحرك بشكل مرعب وعشوائي وسريع جدًّا .. فانكمشوا جميعًا في نهاية الكوريدور ، وقال ناجي :

- محدش يتحرك إلا بإشارة مني .. أشعة الليزر دي لو لمست واحد ، ح تخلص عليه في ثانية .. دي تسيح الحديد مش البني آدمين .

كانت الأشعة تقترب منهم جدًّا .. ثم تعود لحركتها العشوائية المرعبة .. أمسك ناجي بجهاز اللاسلكي ، وكلم زاهر الذي كان جالسًا فوق السطح بأجهزته ، محاولا التحكم في تلك الأشعة المرعبة .. وقال له :

- إحنا في الكوريدور يا زاهر .. مش قادرين نتحرك .. الليزر لسه موجود قدامنا .

Ahmed Madv

كان زاهر يحاول أن يمسح لونًا .. لونًا .. وشعاعًا .. شعاعًا ؛ ليحرك الأشعة من مسارها بصعوبة .. يكتب أرقامًا ثم يضغط على OK .. كان الكوريدور كأنبوبة .. يقف ناجي وفرقته في طرفها الأيسر أمام الباب ، ثم بدأت المساحة التي أمامهم تخلو فجأة من أشعة الليزر ، التي تحركت إلى السقف ، لتعطيهم مساحة يتحركون من خلالها .. قال ناجي للمجموعة :

- ح نمشي خطوتين بس .. خطوتين بالعدد .. فاكرين الطابور أيام الميري .. خطوتين .. يعني خطوتين !!

وتحركوا جميعًا خطوتين بالظبط إلى الأمام ، ثم توقفوا ، وقال ناجي :

- هانت .. كلها عشرين خطوة ، ونوصل للخزنة .

وتحركت .. أشعة الليزر من السقف ، وصارت خلفهم ، وانفتحت مساحة جديدة خالية من الأشعة ، أمامهم .. فقال ناجي :

- خطوتين كمان .

وتحرك ناجي خطوتين والمجموعة من خلفه .. وهكذا صار أبطالنا محاصرين بأشعة الليزر من أمامهم ، ومن خلفهم .. وكأنهم في سجن من النيران الملتهبة .. كان زاهر يمسح عرقه ، وهو يقوم بإخلاء مساحات متتالية ؛ ليتحرك الجميع تدريجيًّا نحو باب الخزنة الرئيسية .. قال زاهر :

- اتحركوا يا ناجي باشا .. خطوتين كمان .. أيواااه !!

وفجأة سمع زاهر أصوات أقدام صاعدة على السلم .. وكلاب تنبح ، كانت في طريقها إلى السطوح .. أحس زاهر بأنها النهاية ، فأغلق الأجهزة بسرعة ووضعها في الحقيبة ، وعلقها على ظهره .. وأصوات الكلاب تقترب ، وكذلك أحذية الجنود .. بينما كانوا كلهم واقفين كتماثيل .. محاطين بالليزر من خلفهم ، ومن أمامهم ، وكل منهم لا يستطيع حتى أن يهرش .. قال ناجي في قلق :

- زاهر قفل الجهاز !!

Ahmed Madv

فرد حسام :

- أحسن يكونوا مسكوه يا ريس !!

- مسكوه !! وإحنا واقفين الوقفة السودة دي .. هوه مين اللي قال البحر أمامكم والعدو وراءكم يا شيخ حسن ؟!

- طارق بن زياد .

- ييجي يشوف الزنقة اللي إحنا فيها .. الليزر أمامكم والليزر وراءكم !!

قال تهامي :

- وإحنا ح نفضل متحنطين كده لإمتى يا باشا ؟!

قال الشيخ حسن بثبات :

- إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا .

قال إبراهيم :

- تفتكر يا باشا .. زاهر لو اتمسك .. ممكن يبلغ عننا ؟!

- شوف يا إبراهيم .. زاهر أجبن من إنه يبلغ عننا .. ودي المصيبة .. عشان زاهر لو مابلغش عننا ح نقعد واقفين وقفتنا دي ليوم الاتنين اللي جاي !!

ورفع الشيخ حسن يده بالدعاء بخشوع ، وهم محاصرون بالأشعة :

- اللهم كُن لنا معينًا وسندًا .

وردد الجميع في صوت واحد :

- آمين .

- أيواااه يا شيخ حسن .. أهو جه دورك الحقيقي في العملية .. إنت تدعيلنا وتقرالنا كام آية إن ربنا يطلعنا من المحنة دي على خير .

ورد عبد الجليل :

- ندرًا عليّا لو طلعت من هنا على خير لأبطل بلطجة على خلق الله .. وألم نفسي وما أرميش بلايا على حد .

Ahmed Madv

قال إبراهيم :

- وأنا ح أعمل ليلة لأهل الله .. وح أفرش ميدان التحرير موائد الرحمن .

وقال حسام :

- وأنا أول حاجة ح أعملها ح اروح أحج وأعمل عمرة ، وأصلي كل يوم ركعتين شكر لله .

وقال تهامي :

- وأنا كمان .. بس يارب والنبي تطلعنا من هنا .

وأضاف الشيخ حسن :

- المحنة اللي إحنا فيها دي يا إخواننا .. سببها إن إحنا نسينا فرض الله ..

ثم أخذ الشيخ حسن يردد : «اللهم اجعل لنا مخرجًا مما نحن فيه» ، والكل يردد خلفه :

- آمين !!

كان الجنود الإسرائيليون قد انتشروا على السطوح والكلاب البوليسية تتشمم كل ملليمتر .. بينما كان زاهر مختبئًا بداخل أحد الخزانات .. غارقًا في المياه .. وقد أغمض عينيه .. وأوقف دقات قلبه ، وانقطعت أنفاسه .. وفي نفس الوقت ، كان ناجي وفرقته لا يزالون محاصرين بين أشعة الليزر .. والشيخ حسن مستمرًّا في دعائه .

- اللهم اجعل لنا من أمرنا رشدا وقنا عذاب النار .

والجميع يردد :

- آمين !!

قال ناجي :

- وعذاب الليزر يا شيخ حسن والنبي كمان !!

Ahmed Madv

وفجأة أتى صوت زاهر من الجهاز الذي في يد ناجي ، وهو يقول :

- ناجي بيه إنت سامعني !!

- سامعك .. إلّا سامعك .. ده انت أحلى صوت كنت أتمنى أسمعه في حياتي .. والله العظيم الواد ده صوته أحلى من صوت نجاة الصغيرة .

- الحمد لله مشيوا .. ده أنا دمي نشف .

- إنت بتحكيلي عن مشاكلك يا زاهر .. ما تخلصنا من الوقعة السودة دي !!

- خليكوا زي ما انتوا .

قال ناجي ساخرًا :

- ده إحنا خللنا هنا .. إعملك هِمة يا زاهر .. إنت أصلك مش مقدر الوقفة اللي احنا واقفينها دي .. عبد الجليل ما غسلش رجليه من أيام الجيش .

وأزال زاهر أشعة الليزر من أمامهم ، وانفتحت الخزنة أخيرًا ، ودخلوا جميعًا إليها .. وهم في حالة هيسترية من الفرح .. وقال ناجي :

- شايفين المنظر .. أجمل منظر شفته في حياتى .. ياللا بسرعة .. إعملولكوا هِمة .. لازم نكون برة البنك في أقل من خمس دقايق .

وبدأوا في تجميع الدولارات بسرعة في أكياس خاصة ، كانوا يخرجونها من جيوبهم .. وكلما ملأ أحدهم كيسًا يعلقه على كتفه .. في دقائق معدودة .. كانوا قد حملوا ما أرادوا وتحركوا خارجين من الخزنة ، ونزلوا عبر السلالم المؤدية إلى الجاراج أسفل المبنى ، وفجأة تعثر الشيخ حسن وسقط محدثًا صوتًا في سقوطه .. ليظهر فجأة رجل أمن البنك .. كان جالسًا في أحد الأدوار .. أمام المونيتور ، وبعد أن سمع الصوت .. أعد مسدسه ، وخرج يبحث عن مصدر الصوت .. كان ناجي وفرقته يحملون الحقائب في الطريق إلى الجراج ، فرفع رجل الأمن مسدسه ، وبالعبرية قال لهم بخشونة :

- ارفعوا إيديكم .

Ahmed Madv

ورفع الجميع أيديهم مستسلمين .. وفجأة انهالت يد ناجي على رأسه ، فسقط مغشيًّا عليه .. وجرى عبد الجليل نحو رجل الأمن الإسرائيلي مخرجًا المطواة .. وهو يهم بذبحه ، فأمسك به ناجي وزجره بغلظة ، وقال :

- إنت بتعمل إيه ؟ إحنا مش جايين نقتل يا عبد الجليل !!

وقاموا بسرعة بتوثيق رجل الأمن وكمموه ، ثم انطلقوا إلى الجاراج في أسفل العمارة .. كان الجاراج خاليًا إلا من بعض السيارات القليلة ، بينما وقفت سيارة شرطة أمام الباب الخلفي للعمارة .. نزلت منها هوني مرتدية زي ظابط ، وبجوارها زاهر يرتدي زي ظابط هو الآخر ، وتقدمت هوني من الحرس الواقفين عند الباب ، وقالت بعبرية سليمة :

- هل شعرت بأي شيء غريب عندك في الجاراج ؟

- لا يا سيدتي !!

قالت هوني بلهجة آمرة :

- تعالى معي .. افتح الجاراج !!

وفتح الرجل باب الجاراج ، ودخل مع هوني في سيارتها إلى الجاراج .. كانت هوني تفتش الجاراج والحارس أمامها .. وزاهر خلفها .. ثم فجأة .. أخرجت هوني من سترتها إسبراي مخدر .. وقامت برش وجه الحارس ، فسقط على الفور .. ومن خلف السيارات ظهر ناجي وفرقته ، ووضعوا الحقائب في السيارة ، وخرجوا من الجاراج في سيارة الشرطة ، فوجدوا أمامهم سيارة بوليس ، بها ظابط إسرائيلي .. نزل الظابط موجهًا كلامه إلى إبراهيم :

- ماذا تفعل هنا ؟!

قال إبراهيم بعبرية سليمة :

- نمر على المنشآت الحيوية ..

Ahmed Madv

وقالت هوني للظابط بلهجة آمرة :

- وماذا تفعل أنت هنا ؟. اذهب إلى الناحية الأخرى .. بعضهم سمع حركة مريبة داخل الكوفي شوب .

- حاضر يا فندم ..

ثم التفتت إلى إبراهيم ، وقالت :

- اطلع !!

وتحرك الجميع مبتعدين عن المكان ، وانطلقوا في شوارع تل أبيب ، وهم يصـرخون في فرح .. وقال ناجي :

- أدي الشغل المظبوط .. شغل على مية بيضا .

ثم نظر نحو البنك ، الذي أطفأت يافطته ، وأخذ يغني في سعادة :

- البنك جميل .. جميل البنك .. البنك جميل وفيه مليار .. من إسرائيل لشط النيل .. ح يروح مشوار.

وصرخ الجميع من فرط النشوة :

- الله .. إيه الحلاوة دي ؟!

ما أجمل النجاح .. ما أروع الانتصار .. عشرات الأعوام مرت على نصر أكتوبر .. لم نحس بهذا الإحساس من يومها .. كان ناجي يتذكر أغاني ، لم يعرفها ولم يعاصرها هذا الجيل .. عاش اللي قال للرجال عدوا القنال .. الله يا عبد الحليم .. ووردة .. ماذا قالت .. وشادية .. وأفاق ناجي من شروده ، وقد صارت السيارة في أطراف تل أبيب .. وقال :

- بعد تلت ساعة ح نكون في غزة .. ومن غزة عشر دقائق نكون في رفح .. ومن رفح نعدي النفق .. ساعة بالظبط وتكون الفلوس دي معانا في مصر .

Ahmed Madv

سأله زاهر بخوف :

- والطريق أمان يا باشا !!

- الفلوس اللي معانا دي يا زاهر تأمن أي طريق .. الحدود بين البلاد معمولة عشان الناس اللي ع الحدود تاكل عيش يا زاهر !!

وفجأة إذا بسيارة بوليس إسرائيلية ، تتبعهم وتلاحقهم بإصرار ..

قال إبراهيم ، وهو ينظر في مرآة السيارة :

- فيه عربية جاية ورانا يا باشا .. قاطرانا من بدري .

نظر ناجي خلفه ، وقال لإبراهيم :

- خش يمين يا إبراهيم ؟!

وانحرف إبراهيم بالسيارة ، فانحرفت سيارة البوليس خلفه ، وبدأت مطاردة بين السيارتين .. كان إبراهيم يحاول قدر المستطاع أن يهرب منها .. وسيارة البوليس تعطيه إشارات بالتوقف .. وتلاحقه .. إلى أن تجاوزتهم سيارة البوليس ، ثم وقفت أمامهم بقوة لتقطع عليهم الطريق .. ولم يكن أمام إبراهيم سوى أن يتوقف فجأة ..

وخرجوا جميعًا في استعداد للقتال ، ليجدوا أمامهم أبو شعلان نازلا من السيارة ، التي كانت تطاردهم .. فتنفس ناجي الصعداء ، وقال له :

- أبو شعلان !! ده أنا قطعت الخلف بسببك ياأبو شعلان !!

- الحدود كلها مقفولة والدوريات اتغيرت ، ومش ح تقدروا ترجعوا غزة الليلة !!

- مش ح نقدر نرجع يعني إيه ؟ هوه إحنا كنا سرقنا البنك عشان نستثمر الفلوس دي في تل أبيب !!

ومرت لحظة صمت .. كان الجميع في حيرة شديدة .. ثم قال أبو شعلان :

- ما فيه قدامكم غير طريق واحد ..

- أي طريق .. المهم نخرج من هنا !!

Ahmed Madv

- تطلعوا من هون على لبنان .. ومن لبنان ح تلاقوا طريقة ، تروحوا بيها مصر .. الحدود فيها مسالك ودهاليز .. ما يعرفها غير اللي عايش فيها .. تعالوا ورايا .

ومضت السيارتان حتى خرجوا من المدينة إلى الطرق الزراعية ، على أطراف تل أبيب .. وتوقفت السيارتان أسفل سفح جبل ، كان يبدو موحشًا .. أشار أبو شعلان نحو قمته ، وقال :

- ح تطلعوا على الجبل ده .. وتنزلوا من الناحية التانية .. بعـد ستة كيلو ح تدخلوا الحدود اللبنانية .. ع الطريق حتلاقوا استراحة للسواقين يشربون فيها الشاي .. وصاحبها اسمه أبو وهدان .. ح تخبروه إنكم جايين من طرف أبو شعلان .. وهوه ح يوصلكم على بيروت !!

- إحنا مش عارفين نشكرك إزاي يابو شعلان !!

- إحنا إخوة ناجي بيك .. ما فيه شكر بين الأشقاء !!

وتعانق الاثنان عناقًا حارًّا ..

أخرج ناجي حقيبة من السيارة ، وتقدم بها نحو أبو شعلان .. فقال أبو شعلان معترضًا :

- إيش بتسوي .. إحنا ما بنقبل تمن مساعدة الإخوة الكرام .. المقاومة لا تحتاج لمصاري .. المقاومة تحتاج إلى إيمان وعزيمة .. والاتنين موجودين بفضل الله.

فقال ناجي :

- امسك بس .. دي حاجة بسيطة على ما قُسم .. دول كام مليون دولار تمشُّوا بيهم نفسكوا .. دول عشان اللاجئين اللي في غزة .. الفلوس دي يا أبو شعلان تاخدها تديها للحاجة فاطمة ، وقولَّلها ناجي عطا الله بيسلم عليكي ، وبيبوس إيديكي .

Ahmed Madv

ونظر الشباب نحو ناجي عطا الله معترضين على تصرفه .. فقال مؤكدًا :

- أهوه .. شايف .. لو عليهم يدولكوا الفلوس كلها .. هوه ده الشعب المصري .. ياللا نشوف وشكم بخير .

وطلع الجميع إلى الجبل ، وهم يحملون ملايين الدولارات ، التي سرقوها من بنك بارليف ..

* * *

أمام المبنى الذي ألقيت فيه القنبلة في الشارع ، الذي يقع فيه البنك ، كان هناك انتشار أمني مكثف أمام البنك ، بينما وقفت سيارة ، ونزل منها مناحم جدعون مدير الموساد ، وهو رجل سمين بعض الشيء يبدو عليه الذكاء الشديد والهدوء .. وجهه مغلف دائما بابتسامة غامضة ليس لها مبرر .. تعطيه حالة من الثقة المتناهية .. نظر نحو المبنى نظرة حالمة ، كأنه يشهد مشهدًا حالـمًـا في فيلم رومانسي .. وبجواره وقف شاؤول .. مساعده الذي أتى قبله بنحو ربع ساعة .. فالتفت إليه مناحم ، وقال :

- حصل إمتى الانفجار بالظبط يا شاؤول !!

- من 35 دقيقة .

- فيه أي حد أصيب أو قتل يا شاءوول ؟

- لأ يا فندم .

أخذ مناحم يتأمل المبنى ، ثم قال ببرود :

- أنا شايف المبنى كمان واقف على رجليه ، لا فيه عامود واقع ، ولا حتى باب مخلوع ، ولا شباك مكسور .. دي قنبلة إيه دي ؟!

- القنبلة مافيهاش أي مواد مدمرة .. حاجة كده زي اللي في الحفلات والمهرجانات .. تعمل صوت جامد ودخان شديد .. من غير أثر مدمر .

- غريبة .. واللي رموها دول بأة .. كانوا بيهزروا معانا .. ولا بيعملوا الكانديد كاميرا .. هه !! هاهاها .. هاهاها !!

Ahmed Madv

ثم نظر نحو مساعده ، وقال كأنه يلقي بنكتة :

- يبأة مش دي القنبلة يا شاؤول .. دي الإبراتيف .

- سيادتك تقصد إيه ؟!

- دي القنبلة اللي اترمت هنا .. علشان كلنا نيجي هنا ، ونقف هنا الوقفة دي .. القنبلة الحقيقية ح تنفجر في حتة تانية .

* * *

في مكتب مناحم ، كان مناحم وشاؤول جالسين .. وقد أعياهما التفكير .. وكان مناحم يلعب على الكمبيوتر لعبة ما ، ويبدو مستغرقًا تمامًا فيها .. قال شاؤول بعد أن ردَّ على التليفون :

- مفيش أي إخباريات يا فندم بأي انفجارات في أي مكان تاني !!

قال مناحم بهدوء ، وهو لا يزال مندمجًا في لعبته :

- اصبر .. اصبر يا شاؤول .. دلوقت ح نسمع .. مبنى فاضي بيتصلح .. مفيهوش حد .. لما يترمي فيه قنبلة لعبة زي دي .. تفتكر اللي رماها .. قاصد إيه ؟!

فأجاب شاؤول :

- يمكن حد مختل عقليًّا حب يعمل أي منظر.. فيه ناس عندها هوس بالحاجات دي !!

قام مناحم من على مكتبه ، ونظر نحو شاؤول .. وعلى وجهه ابتسامة ساخرة .. ثم وضع يده على كتف شاؤول بحنان زائف ، وقال :

- يعجبني فيك يا شاؤول إنك بتحب الحلول المريحة المنطقية .. مختل عقليًّا بيحب الفرقعة رمى القنبلة وجري وهيَّص .. ومفيش ضحايا ولا خسارير .. شالوم .. شالوم .. ونروح نتعشى مع زوجاتنا .. إيه رأيكوا .. أقولك على حل تاني غير حكاية إنه مختل عقليًّا ده .. نقول ده ماس كهربائي .. إيه رأيك في ماس كهربائي يا شاؤول .. ولا مختل عقليًّا أحلى !!

Ahmed Madv

قال شاؤول ، وقد أحس بالإحراج :

- أنا مقصدش يا سيد مناحم !!

- أنا عارف يا شاؤول .. ودي مشكلتك طول عمرك .. اللي بيشتغل شغلتنا لازم يقصد .. لازم يكون طول الوقت بيفكر في الورست سيناريو .. فيه مبررات جاهزة الرأي العام ياكل منها .. إنما إحنا ماناكلش منها .

ثم فجأة تغيرت ملامح مناحم ، وقال بجدية وخطورة :

- فيه قنبلة اترمت جوه المبنى ده .. اللي رماها واحد أو اتنين أو تلاتة .. وأكيد وراهم تنظيم .. وإحنا أعداءنا كتير .. بص يا شاؤول على الشارع ، وشوف المنشآت الحيوية اللي فيه .. دي قهوة .. ودي صيدلية .. وده بنك بارليـف .. أما يكون معاك قنبلة .. معقولة ترميها في الخرابة دي !!

وقف مناحم عند الشباك ، ونظر نحو العمارات البعيدة ، ثم تساءل باستعباط :

- هي يافطة البنك مطفية ليه ؟!

* * *

أمام المبنى ، كان المكان قد حوصر بالشـرائط الصفراء لعدم الاقتراب ، وسيارات الإسعاف تروح وتجيء ، ونقالة يحملون عليها سيدة ورجلا مُسنًّا وامرأة تبكي .. وكان أحد المذيعين واقفًا أمام الكاميرا ، ويصف المشهد قائلا :

- تعرض مبنى حكومي لانفجار قنبلة ألقيت على المبنى .. مما أدى إلى تخريب المبنى بالكامل ، وسقوط عدد من الضحايا .. ولم تعلن أي جهة مسئوليتها عن الحادث ، وإنما تشير أصابع الإتهام إلى بعض الفصائل الإرهابية من منظمة حماس .. من تل أبيب القناة الثانية .

كان مناحم جالسًا ، في سيارته ، وهو يقول لشاؤول :

- شفت بأة يا شاؤول .. أنا ما أنزلش من بيتي ع الفاضي .. أهو كده بأت حاجة تستاهل .. بأيت ماسك كارت في إيدك .. بتوع السياسة بأة يلعبوا بيه على

Ahmed Madv

راحتهم .. وزيرة الخارجية الأمريكية جاية الأسبوع اللي جاي .. أهو يلاقوا حاجة يتكلموا معاها فيها .. لما يكون عندك صداع بتحتاج إيه ؟!

- أسبرين .

- ولو كان عندك أسبرين ومعندكش صداع .. لازم تجيب لنفسك صداع ، عشان الأسبرين يبأله قيمة .. وماترميهوش .

وأتى رجل إلى مناحم ، كان يبدو مرتبكًا ، وهمس في أذنه قائلا :

- البنك الكهربا مقطوعة فيه كله .. وأجهزة الإنذار معطلة .. والكاميرات متعطلة كلها.. فيه حاجة مش طبيعية في البنك يا سيد مناحم !!

فنظر مناحم إلى شاؤول مبتسما وقال :

- شفت يا شاؤول .. متخلف عقليًّا !!! وعاوز تروح بدري .. هو اللي زينا ح يشوف راحة في حياته .. اطلع على البنك يا بني .

* * *

في المنطقة الجبلية الوعرة على الحدود بين إسرائيل ولبنان ، كان ناجي وفرقته يمشون بين الأشجار والمرتفعات .. وقد أنهكهم التعب .. فقال عبد الجليل :

- أعوذ بالله .. هوه الجبل ده مالوش آخر ؟!

ورد الشيخ حسن :

- اصبر يا عبد الجليل .. تحمل .. لكل مُجتهد نصيب إن شاء الله .. تعرف إن شوية العرق دول ، هما اللي ح يحلِّلوا القرشين ، اللي ربنا أنعم علينا بيهم .

وقال إبراهيم :

- آه هما شوية العرق دول اللي ح يخلُّوني أرجع .. حرام عليك يا عبد الجليل .. إذا كُنا ماشيين في الخلا ده كله ، والريحة واصلاني .

Ahmed Madv

وظلوا صاعدين .. في الظلام ، وهم يحملون ملايين الدولارات ، لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون تحديدًا .. كانت لحظات الصمت ، التي تلفهم جميعًا أصعب من تلك التي يتكلمون فيها .. كان كل منهم يشعر أن النهاية قريبة جدًّا .. إلى أن لمحوا عن بُعد منطقة تبدو فيها الأنوار .. فقال حسام :

– هوه إحنا فين دلوقت يا باشا .. إحنا لسه في إسرائيل !!

ورد ناجي قائلا :

– والله بأة السؤال ده يا حسام له ثلاث إجابات .. المنطقة اللي باينة هناك دي اسمها مزارع شبعا في الحدود ، بين جنوب لبنان والجولان وإسرائيل .. حوالي 25 كيلو تقريبًا .. لبنان بتطالب إسرائيل إنها تنسحب منها .. إسرائيل قالت .. المزارع دي أساسًا سورية ، وبما إننا محتلين جزء من سوريا من 67 ، تبأة دي تبع سوريا .. يعني تبعنا .. السوريين قالوا لأ .. دي لبنانية بأة بالعند .. جات الأمم المتحدة راحت جارّة خط .. سموه الخط الأزرق .. وقالت إيه ؟ بما إن مزارع شبعا سورية .. وإسرائيل حاطّة إيدها على جزء من الجولان .. يبأة نخليها كلها تحت وضع اليد .. لحد ما يقعدوا مع بعض .. السوريين والإسرائيليين ، ويخلصوا الليلة كلها .

فسأله حسام :

– طيب الناس اللي في المزارع بيعملوا إيه يا ناجي بيه ؟!

– بيعملوا زتون وخوخ .

ثم نظر إلى عبد الجليل ، الذي كان يستمع إلى ما يقوله ناجي ، فاتحًا فمه ببلاهة .. وقال له :

– إنت فاهم حاجة من اللي بنقولها يا عبد الجليل ؟!

– أنا خدامك يا باشا .

* * *

Ahmed Madv

داخل البنك بإسرائيل ، كان مناحم جدعون ماشيًا وخلفه رجاله ، وقد أعادوا الكهرباء .. ثم أخذوا يمرون في الدهاليز والممرات ، إلى أن وجدوا رجل الأمن الموثق .. نظر مناحم نحوه ببرود ، ثم أشار لهم أن يفكوا وثاقه ، وينزعوا الشريط اللاصق من على فمه ، وقال بهدوء :

- حمد الله ع السلامة .. إيه اللي حصل يا كابتن ؟

- حسيت بحركة عند السلم ، وأنا واقف في النوباتشية بتاعتي .. خرجت أشوف فيه إيه ؟ لقيت كام واحد بيجروا وفي إيديهم شنط .

- كام واحد ؟! يعني تلاتة .. أربعة .. عشرة ؟!

- مقدرش أحدد يا فندم .

- شكلهم إيه ؟!

- ما لحقتش أتحقق من ملامحهم .. لأني أخدت ضربة على دماغي ، وغبت عن الوعي ..

- كتر خيرهم والله .. النهاردة تل أبيب جاي لها إرهابيين من نوع جديد.. إرهابيين قلبهم حنين قوي .. يرموا قنبلة لا تخرب ولا تموت حد .. ويمسكوا العساكر بتوعنا .. يا دوب يخبطوهم على دماغهم .

وخرج أحد الرجال من الداخل مسرعًا ، وهمس لمناحم :

- الخزنة الرئيسية مفتوحة يا فندم ، وكل اللي فيها إتاخد !!

فخرج مناحم مسرعًا ، وخلفه الرجال ، ونظر بكل برود إلى الخزنة الخاوية ، والتقط ورقة مالية وقال :

- دول سايبين ورقة بعشرين شيكل .. كتر خيرهم .. تفتكر الجماعة دول دخلوا لغاية هنا إزاي يا شاؤول .. دول أكيد متخلفين عقليًا .

كان شاؤول ، ينظر في الأرض ، وقد شعر بالخزي .. بينما كان مناحم مبتسما كعادته ، كأن شيئًا لم يحدث .

* * *

Ahmed Madv

على الحدود بين إسرائيل ولبنان ، كان ناجي وفرقته يصعدون الجبل ، وقد اقتربوا من قمته .. وضباب كثيف قد ملأ المكان .. حتى أنهم كانوا لا يرون بعضهم بعضًا .. وقد أمسكوا بحبل يربط بينهم ؛ حتى لا يغيب أحدهم عن الآخر .. قال ناجي :

- كله يمسك في الحبل كويس .. اللي ح يبعد مش ح نعرف نلاقيه تاني .

ردَّ زاهر :

- نستنى يا باشا لـمّا الضباب يخف شوية .. أنا مش شايف صوابع إيديا !

- قلت لازم نعدي الناحية التانية قبل النهار ما يطلع .. ومحدش يقترح حاجة .. أنا هنا بس اللي أقرر ، واللي أقوله يتنفذ من غير كلام .

كانوا يمشون بشكل عسكري ، وكأنهم في طابور من طوابير الجندية ..

وفجأة سقط زاهر في هوة ، وصرخ صرخة مروعة .. وتعاونوا جميعًا على رفع زاهر ، الذي كاد يفقد الوعي ، وشرب ناجي جرعة من زجاجة ماء ، وأخذ يبخ في وجه زاهر .. وهو يضربه على خده قائلاً :

- اشرب مية يا زاهر .. اشرب مية !!

قال زاهر ، وهو يلتقط أنفاسه :

- معلش يا باشا .. أصل أنا عندي عقدة من الأماكن العالية ..

- هي كام عقدة يا زاهر .. في النفق قلت لي أصلي متعقد من الأماكن المقفولة .. ودلوقت برضه مش عاجبك .. هوه لا تحت الأرض نافع ، ولا فوق الجبل نافع .

قال الشيخ حسن :

- سيبها على الله يا زاهر .. إنوي خير كده ، وربنا ح يسهلها إن شاء الله .

ورد عبد الجليل :

- ندرًا عليا يا شيخ حسن لما نرجع مصر بالسلامة لأحجج أمي .

Ahmed Madv

- مكتوبالها إن شاء الله ، وح تسافر معايا كمان .. أول ما نوصل مصـر بالسلامة ، ح أعمل شركة سياحة للحج والعمرة .. وإنت يا حسام ناوي ع العمرة إنت راخر ؟!

- إن شاء الله يا شيخ حسن ..

- وإنت يا إبراهيم .. مش ناوي بأة ربنا يهديك كده وتلتزم !!

- وانت شايفني كافر يا شيخ حسن ؟!

- لا صلاة ولا صوم ولا عبادة .. ما أنا معاشرك أهوه أديلي فوق الشهر .. سجادة الصلاة مافردتهاش !!

- إنت حاططني في دماغك ليه يا شيخ حسن ؟!

- بعد الخير اللي ربنا إداهولك ده ، لازم تتوب توبة نصوحة .

- أتوب من إيه ؟!

فزجرهم ناجي قائلًا :

- بس ياد إنت وهوه .. إيه يا شيخ حسن .. إنت عشان تعمل حجوزات لشـركة السياحة بتاعتك ح تمسكوا في بعض .. مش تستنوا لما نتنيل ونعدي المصيبة اللي إحنا فيها دي .

* * *

جلس مناحم في مكتبه ، وأمامه عدد من رجال الموساد على ترابيزة الاجتماعات ، وخبير المفرقعات وشاؤول مساعده .. كان مناحم يتكلم في التليفون مع القيادة :

- أيوة .. تمام .. أنا برضه شايف كده .. شالوم مستر برزدنت !!

وضع مناحم السماعة ، ونظر إليهم ، وقال :

- زي ما قلتلكم من شوية .. بنك بارليـف لا حد دخله ولا حد خرج منه .. لا يمكن إعلان سرقة بنك بارليـف .. وإلا ح تسقط هيبة الدولة .. شكلنا

Ahmed Madv

ح يبأة إيه قدام العالم كله .. إحنا من بكرة الصبح بنعمل تجديدات في البنك ، ورجالتنا شغالين جوه المبنى .

قال شاؤول :

- هل فيه أمل في احتواء الموقف يا سيد مناحم ؟

- اللى عملوا كده لا يمكن يكونوا خرجوا من إسرائيل ، والفلوس لا يمكن تكون خرجت من إسرائيل !!

ودخل أحد الرجال .. فسأله مناحم :

- عملت إيه يا إيزاك ؟ مش عاوز النملة تخرج من إسرائيل يا إيزاك !!

- قوات الجيش انتشرت على كل الحدود .. وطلعنا المروحيات بتمسح الحدود كلها .. يا مستر مناحم .

نظر مناحم في ساعته ، وقال :

- الساعة بأت تلاتة الفجر .. حاجة غريبة .. أنا لو عدت عليّا الساعة واحدة وما نمتش .. أفوق وأحس إني نمت تمن ساعات .. وأحس بنشاط وحيوية كأني واخد منبه .. إمبارح قعدت أفكر .. إيه أغلى حاجة الرب إداهلنا .. العمر .. يعني لو ربنا أدالنا 60 سنة ، والواحد بينام 8 ساعات كل يوم .. نبأة بنضيع 20 سنة من عمرنا نايمين .. لو دخلنا الحمام .. نقول مرتين في اليوم .. كل مرة عشر دقائق .. كمان عشر دقايق وإحنا بنغسل وشّنا وسناننا .. وبناكل تلات مرات في اليوم .. كل مرة عشر دقايق .. يعني إحنا بنضيع تقريبًا تلتين عمرنا .. إنت بتحسب معايا يا شاؤول ، ولّا نمت !!

- لأ .. أنا خلاص فُقت يا مستر مناحم ..

- فيه جملة المصريين بيقولوها في الأفلام باستغرب قوي لما باسمعها .. يقولك ادفع نص عمري ... نص العمر ضايع لوحده في كلام فاضي .. إوعوا تفتكروا

Ahmed Madv

إني بأضيع وقتكوا .. أنا برضه بالكلام الفاضي اللي بقوله ده .. أنا بأفكر وأنا بأتكلم ..بنك بارليـڤ .. اتسرق !!

ثم قام ، وانفجر مناحم ضاحكًا من على مكتبه ، والتفت إليهم ، وقال :

- أنا مش قادر أصدق .. نفس الإحساس اللي جالي يوم 6 أكتوبر 73 .. لما قالولي المصريين هدوا خط بارليـڤ .. والله .. لولا إن فيه معاهدة سلام بيننا وبينهم ، كنت قلت المصريين عملوها تاني .. الحركة أصلها شكلها مصري .

ودخل مدير مكتبه ، وقال :

- مستر إسحق هلليـڤـي يا مستر مناحم ..

دخل إسحق هلليـڤـي مدير البنك ، وقد بدت عليه آثار من أوقظ من النوم لتوه ، وآثار الفزع بادية عليه بوضوح ، فاستقبله مناحم بترحاب شديد قائلا :

- أهلًا مستر هلليـڤـي .. إحنا آسفين قوي اللي صحيناك من النوم .. بس فيه مسألة بسيطة كده ، عاوزين نتكلم معاك فيها .

وخرجا من المكتب الرئيسي إلى المكتب الآخر ، وجلس إسحق مرتبكًا ، ومناحم واقفًا أمامه ، وقال :

- أنا عاوزك تِهْدا خالص .. هات ليمون لمستر هلليـڤـي .. هي خزنة البنك الرئيسية في الظروف الطبيعية بيكون فيها كام تقريبًا ؟

- من عشرين لتلاتين مليون دولار .. عشان فيه تحويلات كتير لازم تكون كاش .. علشان المرتبات اللي بنصرفها لبعض الهئيات الأجنبية زي السفارات ، ومكاتب التمثيل الدبلوماسي .

- عندك فكرة مثلًا الخزنة الرئيسية دلوقت في البنك فيها كام ؟

- الرقم بالظبط مش عندي .. إنما النهاردة بالذات فيه حالة خاصة .

- وإيه هي الحالة الخاصة ؟

Ahmed Madv

- فيه تحويلات من بنك أمريكا أكسيلت كاش .. يعني الموجود في الخزنة لا يقل عن ميت مليون دولار .

قال مناحم منفعلا :

- كام !!

ثم تمالك أعصابه بسرعة ، وأعاد ابتسامته إلى وجهه ، وقال بهدوء :

- مستر هلليـڤـي .. كام واحد عنده المعلومة دي ؟!

- عدد محدود جدًّا .. ليه يا مستر مناحم ؟!

- أرجوك ما تسألنيش أي سؤال يا مستر هلليـڤـي .. أنا راجل بقالي أربعين سنة بسأل .. ما اتعودتش إن حد يسألني .. خلينا نتكلم بهدوء أكتر .

ودخل الساعي بالليمون ، ووضعه أمام هلليـڤـي .. فقال مناحم :

- تسمح لي أشرب الليمون اللي طلبتهولك .. أصل أنا محتاجه أكتر منك !!

ثم أمسك بكوب الليمون ، وشربه عن آخره وتجشأ .. ثم قال :

- أنا عارف إن السيستم الأمني للبنك مصمم على أحدث طريقة في العالم .. مش كده ؟!

- طبعًا يا مستر مناحم ..

- رافي دافيدوفتش اللي عامل السيستم .. ده جينيوس .. عبقري يا هلليـڤـي !!

- أيوه يا مستر مناحم .. هو بيعمل شغله كويس .

- أمال إيه اللي ما بيعملوش كويس يا هلليـڤـي ؟!

- لأ .. بيشرب كتير .. وسلوكياته مش عاجباني ، وأنذرته أكتر من مرة .

- متجوز بنت صغيرة .. أمورة ، اسمها آياليت .. مش كده هلليـڤـي ؟

- أنا كده قلقت يا مستر مناحم .. أرجوك فهمني إيه اللي حصل ؟!

Ahmed Madv

قال مناحم صارخًا :

- قلت لك ما تسألنيش .. أنا محبش حد يسألني !!

وسكت هلليـفـي خائفًا من صرخة مناحم وبلع ريقه .. بينما أكمل مناحم بمنتهى الهدوء :

- بنك بارليـف اتنشل يا مستر هلليـفـي .. إحنا اتقلّبنا يا مستر هلليـفـي .

* * *

في الحدود الإسرائيلية اللبنانية ، بدأت معالم المنطقة تظهر بين الضباب الكثيف .. وكان أبطالنا يجلسـون على الأرض ، وقد أنهكهم التعب .. ومرت دورية إسرائيلية من بعيد ، فاختفوا خلف الأشجار إلى أن ابتعدت الدورية .. الجبال التي كانت موحشة في الليل .. استفاقت .. وبدت مغطاة بالعشب الأخضر الرائع .. الذي يمتد على مرمى البصر .. بلا نهاية وأشجار الزيتون اللاتي وقفن هنا .. يا للمفارقة !! بدت كفتيات رائعات الجمال استيقظن من نومهن .. وأخذن يتثنين ويتمايلن في دلال ، فرحات منتشيات بمجيء اليوم الجديد ، رغم أنف الصهاينة .. ورغم كل شيء .. كان المنظر بديعًا وقت الفجر ، فجلس ناجي وفرقته والحقائب المليئة بالدولارات بجوارهم .. ثم نظر نحو السهل الممتد متأملا المنظر بسعادة ، وهتف بإحساس دافق :

- الله .. الأرض أجمل حاجة في الدنيا يا عيال .. شوفوا الروعة .. عرفتوا ليه الناس بتموت عشانها .. حد يبأة عنده الجمال ده كله وينطرد منه .. ويبجوا الصهاينة يبنوا عليه مستوطنات ؛ عشان يعملوا حياة مزيفة لناس غُرب .. الأرض مش حبَّاهم .. اللي هناك دي .. الكيبوتس .. المستوطنات اللي الصهاينة بنوها والعالم كله واقف يتفرج !!

قال الشيخ حسن :

- الفجر شقشق .. نلحق نصليه قبل الشمس ما تطلع .. اللي مش متوضي المية أهيه .. ربنا مسهلها .. ياللا يا إخواننا .

Ahmed Madv

قال ناجي ، وقد انتابته حالة من الصوفية :

- أنا عاوز أصلي يا شيخ حسن .

- خلاص يبأة إنت الإمام .. إنت أكبرنا سنًّا ومقامًا .

- لأ .. أنا عاوز أصلي وراك يا شيخ حسن ..

وذهبوا نحو الجدول الذي تنهمر منه المياه وتوضأوا .. حتى نضال (هوني) ذهبت لتتوضأ هي الأخرى .. فقال لها الشيخ حسن :

- وإنتي ح تصلي كمان يا أخت نضال ؟ بِشَعْرِك ده !!

- أيوه يا شيخ حسن !!

قال ناجي :

- سيبها يا شيخ حسن .. مش بالشَّعْر .. ربنا رب قلوب !!

* * *

حالة من الهلع والذعر سادت جهاز الموساد كله .. كانت سرقة بنك باركليف بمثابة طعنة في مقتل .. العقلية اليهودية لا تهتز إلا بضربة في الأمن أو المال .. وعملية بنك باركليف كانت ضربة مزدوجة .. كان الخوف اليهودي مطبوعًا على كل الوجوه في مكتب مناحم .. لا يشغلها سوى كيف حدث هذا .. ولماذا .. ومتى .. ومنْ فعلها .. شخص واحد كان ينظر بابتسامة مطمئنة اطمئنانًا غريبًا .. وكأنه طفل ضخم ، يتابع في شغف لعبة على الكمبيوتر .. هو مناحم ، الذي نظر نحو الجميع ، وسألهم بطفولة وبراءة :

- يعني عشان ميت مليون دولار يتشالوا من الخزنة ، وينزلوا السلالم .. عاوزين كام واحد يشيلهم ؟!

فرد أحدهم :

- ع الأقل حداشر يا سيد مناحم .

Ahmed Madv

- حداشر يدخلوا البنك من غير ما حد يحس .. إزاي ؟ كانوا لابسين طاقية الإخفا مثلًا !!

ودخل مدير مكتبه ليعلن عن مجيء رافي دافيدوفتش .. كان رافي زائغ العينين من فرط الشراب ، ولا يعلم سبب مجيئه .. فقال مناحم متهللا :

- رافي .. الجينيوس بتاعنا .. اتفضل أنا ح اطلب لك قهوة ؛ علشان نعرف نتكلم .. قهوة دوبل بسرعة .

وأخذه وخرجا إلى مكتب آخر .. ثم وضع يده على كتفه بحنان ، وسأله بمودة :

- رافي .. عاوزك تركز معايا .. لو عاوز أدخل أسرق خزنة بنك بارليف .. إيه ممكن يمنعني .. كلمني عن المراحل الأمنية اللي ممكن تعوقني ، وأنا داخل .

- أنا معملتش كل النظام الأمني يا مستر مناحم .. أنا صممت بس شبكة الليزر اللي بتودي للخزنة .. ده تخصصي !!

- أنا عارف طبعًا .. معلش خدني على قد عقلي .. أنا دخلت البنك .. وعديت كل الخطوط الأمنية وأجهزة الإنذار والكاميرات والأبواب المكهربة وخلاص .. وصلت لحد الليزر بتاعك .

- لا يمكن حد يعرف يدخل يا مستر مناحم .. لأن الكود اللي معمول بيه حركة أشعة الليزر .. مصمم باحتمالات عشوائية لانهائية .. يعني لو ناموسة عاوزة تدخل ح تتحرق .. مسألة معقدة جدًّا .

- والكود ده معاك إنت طبعًا !!

- حتى أنا معرفش أفكه ؛ لأنه أول ما بيشتغل ، بيعيد تغيير أوضاعه بنفسه .

- طيب لو أنا قلت لك إن فيه حد دخل وفك الشفرة .. وبطل مفعول الليزر !!

وتجمدت ملامح رافي ، وفتح عينيه في دهشة ، وقال :

- مش ممكن يا مستر مناحم !!

Ahmed Madv

أتت القهوة .. ووضعها الساعي أمام رافي .. نظر مناحم نحو البخار المتصاعد من القهوة ورائحة البن اللذيذة .. ثم مد يده وأخذ منها رشفة ، وقال :

- معلش .. أنا حاسس إني محتاج القهوة دي أكتر منك يا رافي .. إنت كده باين عليك فُقت .. إنما أنا عاوز أفوق .

ونظر مناحم نحو رافي .. نظرة ذات مغزى ، وقال له هامسًا :

- رافي .. إنت كنت مقدم طلب تسافر تشتغل في بنك في سويسرا ؟!

- أيوه يا مستر مناحم .. إنما .. هما اللي كانوا طالبيني !!

- متهيألي بعد اللي حصل ، لا يمكن يفكروا تاني في المسألة دي .

- إزاي ده حصل ؟ أنا مش مصدق !!

ثم أحكم مناحم نظرته في عيني رافي ، وقال :

- رافي .. إنت فيه مشاكل مع مدام آياليت مراتك !!

- سيد مناحم .. إنت بتتهمني بإيه ؟!

- سددت ديونك الأخيرة منين يا رافي ؟

- أنا واخد قرض من البنك ، ومستر هلليـڤـي عارف .. أنا لا أقبل أن يوجه ليّا اتهام بشع زي ده .. يعني إيه ؟ أنا ح أبيع السيستم لحد ؟ أبيع بلدي ؟!

كان رافي يتكلم ، وأنفاسه تعلو وتهبط .. وشفتاه ترتعشان .. هنا قال مناحم بهدوء قاتل :

- شفت إنت فُقت إزاي من غير قهوة يا رافي !!

- وحتى لو أديت أي حد الشفرة بتاعة الليزر زي ما بتقول .. ح يدخل البنك إزاي ؟ ويوصل للخزنة إزاي ؟! أنا آخر مرحلة يا سيد مناحم .. الكلام اللي بتقوله ده لا يمكن يتحقق ، بأي صورة من الصور .

- ما هو أنا ماسك الموضوع م الآخر أهوه يا رافي .. نخلص من حكاية الليزر الأول .. وبعدين نمشي خطوة خطوة .. خلينا نمشي من ورا لقدام !!

Ahmed Madv

- مستر مناحم .. أنا مهندس كمبيوتر مش لص .. وأنا واحد من تلاتة من أكبر خبراء الليزر في العالم كله .

- أنا عارف ده طبعًا ومقدر يا رافي .. إنت فخر بلدنا .. إسرائيل كلها عارفة إن إنت مالكش مثيل يا حبيبي .

ودخل مدير مكتب مناحم ، وهمس في أذن مناحم :

- السيد مزراحي بره يا افندم .

- دخله المكتب التاني !!

في المكتب الثاني لمناحم ، دخل مزراحي مرعوبًا ، وجلس حينما دخل عليه مناحم متهللا .. فقام واقفًا في احترام :

- شالوم مستر مناحم .

- شاي هنا للسيد مزراحي .

ثم التفت إلى مزراحي ، وابتسم :

- أنا أسمع كتير عن القهوة الجميلة بتاعتك .. نفسي آجي يوم أقعد عندك .. بس المشاغل بأة .

- ده أنا أتشرف يا سيد مناحم ..

- إنت عارف طبعًا اللي حصل .. المبنى اللي انفجر جنب القهوة !!

- أنا أول ما عرفت نزلت جري من البيت يا فندم ؛ عشان أطمن ع القهوة .. أصلي كنت قافل يومها علشان أجازة .

- إحنا نشكر الرب يا مستر مزراحي .. إنت طبعًا تعرف مستر رافي دافيدوفتش !!

- أمال .. ده زبون عندي يا مستر مناحم .

- ومين تاني زباين عندك يا مستر مزراحي ؟

- ناس كتير .. أصل أنا تقريبًا زباييني هما هما مابيتغيروش .. بيعتبروا القهوة مكانهم .

Ahmed Madv

- زي مين مثلًا .. يعني مستر رافي لما بيجيلك .. مين شلِّته ؟!

- عوفاديا السماك ، وروني ميتال السمسار ، ومستر ناجي عطا الله المصري .

- ناجي عطا الله .. ده كان ملحق إداري في السفارة المصرية .. عمل شوية مشاكل كده ، وتقريبًا استقال أو مشوه .

- أيوه يا مستر مناحم .. بس والله كان راجل كويس قوي .. كان عامل روح للقهوة .. بعد ما مشي افتقدناه كتير .. هوه صحيح مصري .. بس كان يحب إسرائيل كتير .

* * *

على الحدود بين إسرائيل ولبنان ، في ذلك السهل الممتد في الجانب الآخر من ناحية لبنان .. تلك المنطقة المتوترة .. كان للطبيعة هنا رأي آخر على ما يبدو .. كان العشب ناميًا ، وقد استفاق في ذلك الصباح الباكر على قطرات الندى .. وكانت الأشجار منتشية وارفة .. أما ناجي وفرقته .. فقد وقفوا يصلون صلاة الجماعة ، وخلفهم الحقائب الملآنة بملايين الدولارات التي استولوا عليها من بنك باركليف .. كان المشهد عجيبًا وفريدًا .. يجمع بين الجمال والبطولة والإيمان .. والأحلام والآمال .. والأموال أيضًا .. ورفع ناجي عطا الله يده عاليًا بالدعاء ، ورد الجميع من خلفه :

- آمين .

أما في منطقة الحدود التي في سفح الجبل من ناحية تل أبيب .. فكانت سيارات الجيش الإسرائيلية تروح وتجيء ، وحالة هستيرية من حالات التفقد والتفتيش في المكان ، وقد زاد الضباب كثافة في المكان ، فانعدمت الرؤية تقريبًا .

في السفح الآخر من الجبل ، كان ناجي وفرقته يتحركون ببطء بسبب الضباب الكثيف .. قال ناجي مداعبًا :

- يا سلام .. على كوباية شاي مظبوطة .. ممكن أدفع فيها مليون جنيه !!

Ahmed Madv

فقال عبد الجليل :

- مليون جنيه في كوباية شاي يا باشا !! ده أنا بقالي عشر سنين بَجُر شاي من القهوة .. ما دفعتش غير 16 جنيه على بعض .

وانفجروا جميعًا في الضحك .. وقال ناجي :

- الحاجة بتغلى وترخص يا عبد الجليل حسب الوقت اللي إنت محتاجها فيه .. يعني الملايين اللي إحنا عاملينها مخدات دي .. دلوقت حالًا مالهاش أي قيمة .. إنما أول ما نرجع مصر بالسلامة .. حياتنا كلها ح تتغير .

نظر إبراهيم نحو ناجي ، وسأله على استحياء :

-ناجي باشا .. إحنا كلنا عارفين ح نعمل إيه بالفلوس .. إنما سعادتك ما قولتلناش .. بتفكر تعمل إيه ؟!

- أول مرة في حياتي أحس إني مش عارف أفكر يا إبراهيم .. مخي واقف .. الحاجة الوحيدة اللي مافكرتش فيها لما أخد الفلوس ، ح أعمل بيها إيه ؟!

- تعيش يا باشا .. تتمتع .. تعمل بزنس .. تدلع نفسك !!

واعترض الشيخ حسن قائلا :

- استغفر الله العظيم .. إنتَ لا يمكن ح تتغير أبدًا ..

- استنى بأة يا شيخ حسن .. هوه أنا قلت نخالف الشرع .. يعني مثلًا أنا لو من الباشا كنت أتجوز أربعة .. وأغير فيهم .. ما دام قادر .. إيه اللي يمنعني !!

- يمكن لو كنت أدَّك يا إبراهيم ، كنت لقيت حاجات كتير أعملها .. ساعات باسأل نفسي هما المليونيرات اللي عندهم مليارات بيعملوا إيه بالفلوس دي كلها .. الغريب إن الفلوس لما جات السؤال بأة أصعب من الأول .

Ahmed Madv

قالت نضال :

- تحبوا تعرفوا رأيي يا ناجي بيه ؟!

- قولي يا نضال ..

- أنا رأيي .. إن الفلوس ما تتقسمش .. الفلوس دي كلها يتعمل بيها مشروع ضخم .. ناجي بيه يبأة رئيس مجلس إدارته وكلنا شركا فيه .. إيه رأيكوا في الرأي ده ؟!

صمت الجميع ، وقد بدا عدم اقتناعهم بالمشروع .. كان كل منهم له أجندته الخاصة .. ومرت لحظة صمت .. وفجأة بين الضباب الكثيف ، وقفت سيارة عسكرية ، ونزل منها خمسة جنود يمسكون البنادق والرشاشات .. صوبوها نحو رؤوس ناجي والشباب في غلظة .. فرفعوا أيديهم في استسلام تام .. لم يكن أحد منهم يتصور أن النهاية ستكون بهذه السرعة ، وأن الأحلام ستنهار كلها في لحظة .. وبدا شبح الموت مطلا من بعيد .

Ahmed Madv

الفصل السادس

كان مناحم جالسًا في مكتبه ، وحوله رجال الموساد .. ثم أتى أحدهم ، وهمس في أذن مناحم بشيء ما ، وضغط على الريموت كنترول ليفتح التليفزيون على قناة المنار .. حيث كان المذيع يعلن خبرًا مهمًّا ، يقول فيه :

- قامت قوات حزب الله بالقبض على سبعة جنود إسرائيليين ، تسللوا إلى الحدود اللبنانية فجر اليوم .. وتم اعتبارهم أسرى حرب ..

والتفت الكل نحو التليفزيون مندهشين ، ومناحم لا يصدق أذنيه .. وعلى الشاشة كان ناجي وفرقته جالسين كالأسرى ، وعيونهم مغطاة وحولهم رجال حزب الله الملثمون مدججون بالسلاح .. نظر مناحم نحوهم متأملا .. ثم نظر إلى وجه ناجي عطا الله .. محاولا تذكر هذا الوجه ، بينما كان شاؤول يرد بالعبرية على تليفون من قيادة الجيش .. ثم وضع السماعة ، وقال لمناحم :

- اللي بيتقال ده كدب .. مفيش أي جنود غابوا عن مواقعهم ، أو تسللوا عبر الحدود .. الإدارة العليا للجيش عاوزة تكذب الخبر فورًا!!

قال مناحم ببرود :

- لا يا شاؤول .. الخبر صحيح .. ومش ح نكذبه .. دول أسرى إسرائيليين ، ولازم نطالب بيهم بأي تمن .. ح نسيب ولادنا يا شاؤول!!

Ahmed Madv

- إنما دول مش جنود إسرائيليين يا سيد مناحم .. القيادة أكدولي الكلام ده .

- أنا موافقك وموافق القيادة .. إنما دول عندي أغلى من ولادي .

- إزاي يا سيد مناحم ؟!

هنا قام مناحم ، وأخذ نفسًا عميقًا ، وقال :

- عشان السبعة دول هما اللي سرقوا البنك يا شاؤول !!

ثم ألقى بكوب أمامه على الأرض .. وقد بدا مناحم لأول مرة في قمة العصبية والعنف الدموي ، وقال بنفاد صبر :

- دلوقتي تقدر تروح تنام ساعتين يا شاؤول .. اتفضلوا .

* * *

في حجرة بأحد معسكرات حزب الله ، كان ناجي والمجموعة جالسين على الأرض يأكلون ، وناجي يشرب سيجارًا وبيده كوب الشاي ، ومعهم مجموعة من رجال حزب الله .. أبو حسين وأبو عبد الله .. ربت أبو حسين على كتف ناجي ، وقال له بود :

- والله اللي عملتوه هادا عمل عظيم يا أخ ناجي .. إنتوا عملتوا عمل بيشرف ويرفع الراس يا أبطال !!

- الله يخليك يا أبو حسين .. وده ييجى إيه في اللي إنتوا بتعملوه !!

- والله مصر أم الدنيا وقلب العروبة النابض مهما اتقال عنها .. يظل فيها أمثالكم يضحوا بأرواحهم عشان يعلموا الصهاينة درس ما ينسوه ، كيف ما بتقولوا بمصـر .. ضربة معلم .

- بص يابو عبد الله .. إحنا أكلنا عيش وملح مع بعض .. وأكرمتونا وقابلتونا مقابلة مفيش بعد كده خالص .. يعني اللي في قلبه حاجة يقولها للتاني ، عشان النفوس تبأة صافية .

- اتفضل .. قول يا أخ ناجي ..

Ahmed Mady

- مصر يا أبو حسين .. مصر اللي قعدت ستين سنة بتحارب ، وشايلة القضية فوق دماغها .. مصر اللي عبرت في 6 أكتوبر ، وانتصرت ودافعت عن كرامة الشعب العربي كله .. مصر اللي جاعت وشقيت وضحت بشباب زي الورد .. تقولوا عليها كده يا بو حسين ؟ تقولوا عليها باعت القضية .. ده إحنا فرحنا بيكوا يابو حسين .. لما خليتوا الصهاينة 35 يوم مستخبيين زي الفيران في الملاجئ .. اللي يشتم مصر يابو حسين عمره ما يكبر .. وده اللي إسرائيل عاوزاه .. مصر هي الأم ، واللي يشتم أمه خسران .

- مصر في قلوبنا .. وما فيه حد يقدر ينكر اللي مصر عملته .. إنتوا بدأتوا الخطوة يا أخ ناجي .. وإحنا بنكمل طريق النضال حتى تبأة راية العرب والمسلمين مرفوعة دايمًا .. يسلموا الشباب ويسلم الوطن ..

ثم نظر نحو حقائب الدولارات ، وقال :

- وإيش بدكم تسووا بكل ها المصاري يا أخ ناجي !!

- قبل كل شيء يا أبو حسين .. إحنا عاملين حسابنا في مبلغ صغير كده على ما قُسم للمقاومة اللبنانية ؛ عشان نعبر عن حبنا وتقديرنا ليكوا ولنضالكم .

- الحمد لله .. الحزب مو بحاجة لمصاري ، بيكفي دعم الشارع العربي لإلِهُ .

قال إبراهيم سعيدًا :

- والله العظيم ده راجل كده .. وأنا كنت عارف إنه مش ح يقبل مليم .

وسأله ناجي :

- هوه إحنا ح نمشي على مصر من هنا إمتى يابو حسين ؟

- قوام زهقتوا مننا !!

- نزهق منكوا .. ده إحنا لو قضينا بقية حياتنا هنا ما نزهقش .. إحنا بس عاوزين نرجع مصر بالحاجة اللي معانا .. عشان بنوضب لعملية تانية .

- العملية التانية جاهزة يا أخ ناجي .. وح تسووها هون !!

Ahmed Madv

- عملية إيه ؟!

- شوف يا أخ ناجي .. إحنا أول ما اعتقلناكم ماكنا ندري مين إنتم .. صورناكم وأعلنا إننا أسرنا سبع عساكر إسرائيليين .

- كويس ..

- إحنا أعلنّا عن سبعة صهاينة ، وبنريد سبعة صهاينة .. مو أكتر من هيك .

- سبع صهاينة ، ودول أجيبهم لك منين يا بو حسين !!

- أنا واثق إنك لو فكرت شوية بالتأكيد ح تلاقي طريقة .. اللي دخل تل أبيب واقتحم أكبر بنك وأخد المصاري ووصل لحد هون .. يعمل ها العملية بأصابع رجليه .

- إنت عاوزني بعد اللي عملته ، أرجع تل أبيب تاني ولا إيه !!

- وليش تل أبيب !! المستوطنات اليهودية على بُعد شي تلت ساعة من هون ..

- ودي ح ندخلها إزاي يابو حسين ؟!

- والله عيب .. عيب ها السؤال الساذج من بطل مثلك يا أخ ناجي .

وخرج أبو حسين من الحجرة ، وسقط ناجي شاردًا على مقعده .. الصفقة واضحة .. مقابل الخروج السلمي بالأموال والأرواح التي معه ، لابد من عملية .. عملية حقيقية .. خطف وأسر واعتقال .. وأشياء لم تخطر بباله على الإطلاق، ولكن هل يوجد حل آخر ؟!

* * *

في مبنى التليفزيون بالقاهرة ، كان المذيع يقرأ نشرة الأخبار ، مؤكدًا حالة القلق الشديد في المنطقة بعد إعلان إسرائيل الحرب على حزب الله ، إذا لم يسلم الأسرى الإسرائيليين .. وفي الوقت نفسه ، يطالب الحزب بالإفراج عن سبعمائة أسير في سجون إسرائيل ، إذا تم التفاوض تبادل الأسرى بين الطرفين .

Ahmed Madv

وعلى الشاشة ، ظهرت صور لقيادات يهودية وقيادات حزب الله .. ثم صورة للأسرى معصوبي الأعين .. ونظر المذيع نحو الڤيديو .. حيث مؤتمر صحفي ، ومندوب رئاسة الجمهورية في مصر واقفًا ، يعلن أن :

مصر تحذر جميع الأطراف المتنازعة من التورط في حرب ، لن يدفع ثمنها إلا شعوب المنطقة ..

ثم عاد المذيع .. الذي ابتسم فجأة وقال :

- فاز النادي الأهلي على نادي الزمالك بهدف للا شيء أحرزه عماد متعب .. وقد أعقبت المباراة أحداث مؤسفة من الشغب بين جمهور الناديين .

* * *

في مكتب الموساد ، كان رافي جالسًا على كنبة نائما على نفسه .. حينما فتح الباب ، ودخل مناحم .. نشيطًا .. مبتسما كعادته ، وخلفه مدير مكتبه وشاؤول مساعده ، وقال بود :

- مساء الخير يا رافي .. أتمنى تكون نمت كويس !!

- أنا عاوز أفهم أنا هنا ليه ؟!

- العصبية عمرها ما كان لها فايدة .. إنت ما نمتش كويس ، وإحنا كمان .. هو لما أكبر بنك في إسرائيل يتسرق .. النوم ييجي إزاي يا رافي !!

- وأنا إيه علاقتي بالحكاية دي ؟!

- ده إنت اللي معاك المفتاح .. إحنا بس عاوزين نعرف مين اللي خده منك يا رافي .. مش إنت اللي كنت قافلها .. أكيد إنت اللي تعرف اتفتحت إزاي .

وضغط على زر ، فظهرت صورة ناجي وفرقته معصوبي الأعين على الشاشة ، وقال :

- واحد من دول يا رافي هو اللي أخد منك خريطة الطريق .. بص لهم كويس يمكن تفتكر .. الراجل الطيب اللي واقف في النص ده شكله مش غريب يا رافي .. زي اللي شفته قبل كده .. خش عليه كده بالزوم يا شاؤول .

Ahmed Madv

ودخلت الكاميرا على وجه ناجي عطا الله والعصابة على عينيه ، وعاد مناحم يسأل رافي :

- معقولة مانتش عارفه يا رافي .. أنا عارف إن عينيه مستخبيين .. هي العينين مهمة .. إنما التكنولوجيا حلت كل حاجة .. حط له عينيه يا شاؤول .

وقام بوضع عيني ناجي عطا الله على العصابة ، فظهرت صورته واضحة تمامًا .. ومناحم ينظر لملامح وجه رافي ، الذي بدا مرتبكًا للغاية :

- مين ده يا رافي ؟!

- ده ناجي بيه عطا الله ..

- أيواااه .. الله يريح قلبك يا دافيدوفتش .. وده ظابط عندنا في الجيش الإسرائيلي ؟

- لأ .. ده كان الملحق الإداري في السفارة المصرية.

- أمال إيه اللي ملبسه لبس الجيش الإسرائيلي يا رافي ؟!

- وأنا إيش عرفني .. سيد مناحم .. الخيالات اللي بتحاول تثبتها مالهاش أي أساس ولا دليل.. حتى لو كان ناجي عطا الله هوه اللي سرق البنك .. أنا ماليش علاقة بالقصة دي !!

- معقول يا رافي .. مش كان صديقك !! أخر مرة شفته إمتى ؟!

- في القهوة .. ومش أنا لوحدي .. ناجي عطا الله كان مصاحب إسرائيل كلها.. عوفاديا السماك وروني ميتال السمسار ومزراحي .. وغيرهم .

- أنا عارف ده كويس .. ده كان ناقص يرشح نفسه في الانتخابات .. بس الظاهر لعبة السياسة ما عجبتوش .. وفضّل يتجه للبيزنس .. والرب وفقه في أول عملية .. خبط 800 مليون دولار من بُق السبع .. بس لا يمكن يكون عمل الصفقة دي لوحده .. أكيد له شركاء كتير!!

Ahmed Madv

ثم اقترب منه ، وأمسك به في عنف ، وصرخ فيه :

- وإنت الشـريك الأساسي .. شفت الكارثة اللي حطيتنا فيها يا رافي .. البنك اتسرق .. ومش قادرين نعلن .. وعارفين السارق ومش قادرين نجيبه !!

* * *

جلس مناحم في مكتبه يحاول أن يربط الخيوط ببعضها البعض .. يبحث عن أسباب اختراق إسرائيل بهذا الشكل الرهيب .. وكان قد أرسل في استدعاء يوسي كرمي ضابط الشاباك .. الذي دخل إليه .. وجلس .. كانت صورة هوني ألدن على شاشة اللاب توب .. نظر مناحم إلى الصورة .. ثم نظر إلى يوسي كرمي .. دون أن ينطق بكلمة .. قال يوسي كرمي بسرعة :

- اسمها هوني ألدن .. يهودية إسرائيلية كانت طالبة في الجامعة العبرية .. وعضوة في الهلال الأحمر .. أنا أعرفها كويس .

- إسرائيلية .. ودي إيه اللي لمها على دول ، وإيه علاقتها بناجي عطا الله ؟!

- علاقتها بناجي عطا الله ماكنتش كويسة أبدًا.. وكانت دايمًا على خلاف معاه .. أنا كتبت رأيي في الراجل ده كذا مرة .. ومحدش التفت للتقارير اللي رفعتها للقيادة .

قام مناحم وذهب إلى النافذة .. ثم التفت إلى يوسي ، وقال له بوضوح :

- يوسي .. إنت إيه علاقتك بآياليت مرات رافي دافيدوفتش !!

فوجئ يوسي بالسؤال ، فرد مرتبكًا :

- دي .. دي قريبتي يا سيد مناحم .. وأنا كنت دايمًا باتدخل بينها ، وبين رافي لما تحصل بينهم مشاكل .

قال مناحم بخبث :

- فاهم .. فاهم .. إنما إيه درجة تدخلك يا يوسي .. يعني كنت بتطبطب عليها مثلًا .. بتمسح لها دموعها !!

Ahmed Madv

ونظر يوسي محبطًا إلى الأرض ، وقال معترفًا :

- كان فيه علاقة بيني وبين آياليت يا سيد مناحم .

- أيوه .. أنا أحب اللي ييجي معايا دوغري .. أصلها حاجات بنركبها على بعض يا يوسي .. زي البازلز .. ورافي كان عارف العلاقة دي ؟!

- معرفش يا سيد مناحم !!

- لأ .. كده أنا عرفت .. رافي كان متأكد إنك على علاقة بمراته .. وكان لازم ينتقم ، وبدل ما ينتقم من آياليت .. انتقم من إسرائيل كلها .

* * *

كانت المنطقة كلها قد صارت في حالة رعب من الحرب الوشيكة .. وفي القاهرة .. كان المذيع يؤكد أن إسرائيل تهدد حزب الله بشن حرب شرسة ، إذا لم يفرج عن الأسرى السبعة ، الذين تسللوا عبر الحدود .. وحزب الله يؤكد أنه إذا ما حاولت إسرائيل شن أي عمل هجومي طائش .. فإنها ستضرب بالصواريخ في عمق تل أبيب .. حالة من التوتر في المنطقة والدبلوماسية المصرية تسعى بين الأطراف ؛ لتهدئة الأجواء بين الأطراف المتنازعة .

ثم قلب المذيع الصفحة ليلقي الخبر الآخر ، وقال :

- لا تزال مشكلة جدو وشيكابالا تتصدر اهتمام الرأي العام .. وسيصرح سمير زاهر بتصريحات خطيرة في مؤتمر صحفي باتحاد الكرة صباح الغد .

* * *

في حجرة بثكنات حزب الله ، كانت غرفة عمليات تقريبًا تضم أبو حسين وخلفه أبو عبد الله واقفًا يشرح لناجي عطا الله والمجموعة خطة العملية القادمة ، وأمامهم خريطة للمنطقة .

Ahmed Madv

- هادي أمامكم الخريطة.. هادي لبنان وهادي إسرائيل .. وهضبة الجولان وهادي مزارع شبعا .. وهون الخط الأزرق اللي رسمته الأمم المتحدة بالعام 2000 .. هادي المنطقة اللي فيها الجنود الإسرائيليون بين جبل السمان وجبل روسي من الشمال ووادي العسل من الجنوب .. هنا مزرعة اسمها فشكول .. تحت السيطرة الإسرائيلية ..

- ودي ح ندخلها إزاى يا أبو حسين ؟!

* * *

في مقهى كليوباترا ، كان عوفاديا السماك جالسًا في ضيق ، وكان المقهى بلا زبائن تقريبًا .. ومزراحي بجواره ، يشكو الأحوال ، ويقول له :

- شايف وقف الحال ده يا مزراحي .. القهوة من ساعة القنبلة اللي ضربت في آخر الشارع ، وأهي قدامك بتنش .. الزباين خايفة تيجي .

- الزبون طبعه جبان .. ما إنت عارف يا مزراحي .. مفيش غير إنك تقلل الأسعار شوية عشان تشد الزبون .

- أكتر من كده إيه يا عوفاديا !! ده أنا ناقص أطلبلهم الطلبات ، وأحاسبلهم عليها .. ده أنا أبويا كان عنده قهوة في مصر ، وكانت الحرب شغالة والضرب والغارات طول الليل .. حتى لما كان الإنجليز يعملوا حظر تجول .. المصريين كانوا ينزلوا برضه ويسهروا .. ويغنوا .

- والشلة راحت فين يا مزراحي ؟!

- والله ما أعرف.. روني في بيته وخايف .. ورافي أنا مش عارف هوه فين .

- عندي في المحل نفس الحال .. لما بتقفل بتقفل من كله يا مزراحي !!

ورن تليفون عوفاديا فرفعه ، وإذا بالمتكلم هو كوبات حوليم ، تاجر خوخ إسرائيلي من مزرعة فشكول في الجنوب ، يعرض عليه شراء عشرة أطنان من أجود أنواع الخوخ ، وبسعر معقول جدًّا ..

Ahmed Madv

وشعر عوفاديا بحسه اليهودي أنها فرصة مواتية لن تتكرر .. واتفق عوفاديا مع التاجر على اللقاء في مطعم فشكول .. صباح اليوم التالي .. وأغلق السماعة .. وقد سرت بداخله رعدة فرح .. أخفاها بسرعة .

فقال له مزراحي :

- وشك انشرح .. الظاهر التليفون ده جابلك خبر كويس !!

- أبدًا والله يا مزراحي .. ده تاجر من فشكول ، عنده شوية خوخ بايظين ، وعاوز يلبسهملي .. أما نشوف .

- طيب ما تنسانيش بأة في طن عشان أشغل بيه القهوة .. بيتطلب عندي هنا !

- بس ده غالي عليك .. الراجل طالِب في الطن الواحد خمستلاف دولار ..

- اسمع كلامي ، خدلك اتنين تلاتة طن ، وحطهم في التلاجة قبل ما سعره يزيد .

* * *

في الطريق إلى مزارع شبعا ، كان إبراهيم يقود سيارة UN ، مرتديًا ملابس الـ UN وبجواره ناجي وخلفه نضال .. قال إبراهيم :

- دلوقت أنا عرفت الإسرائيليين متبتين فيها ليه ؟ حد يسيب الحلاوة دي .. هوه الراديو مش شغال ولا إيه ؟ العربية مافيهاش كاسيت .

أخذ إبراهيم يحرك مؤشر الراديو ، وإذا بأغنية عبرية خليعة لمغنية مثيرة .. قال إبراهيم معلقًا :

- دي أغنية إسرائيلي يا باشا .. بتغنيها واحدة اسمها ليفيانا .. شوف الكلام بتقول له اضربني .. قطعني .. علقني .. شدني من شعري .. دوس عليّا برجليك .. وبعد ده كله ح أحبك .. أموت في المعاني الرخيصة دي يا باشا .

قالت نضال :

- واضح إنك بتفهم عبري كويس قوي .

Ahmed Mady

- أنا عشت معاهم أربع سنين في شرم .. باشوفهم ومعاشرهم .. الإسرائيلية عنيفة مع الراجل بتاعها وشخصيتها قوية .. تحب الراجل اللي يديها على دماغها .. تنعم وتطرى في إيده علطول .. الأمريكانية بأة .. موضوع تاني .. تحس إنها هبلة شوية .. الفرنساوية تحب الشياكة والتعامل اللذيذ .

- هوه إنت حياتك كلها كده يا إبراهيم ؟!

- كلها كده إيه يعني يا نضال ؟!

فقال له ناجي :

- كلها نسوان وتفاهة وهبل زي اللي إحنا سامعينه دلوقت !!

- لا .. أنا بس راجل مش مكلكع .. بحب الحياة .. بحب أعيشها .. لو مكتوب لنا نموت.. نموت وإحنا بنصوت وبنلطم ، ولا وإحنا بنغني ومفرفشين .. متهيألي التانية أحسن !!

قالت نضال :

- ومين له نفس يغني ويفرفش وبلادنا محتلة يا إبراهيم ؟!

قال إبراهيم هامسًا لناجي :

- تصدق أحرجتني .. خلت رقبتي قد كده .

- هوه إنت بتحس .. سوق .. سوق وأنت ساكت !!

ومضت السيارة .. في طريقها إلى الجبال والمزارع .. وأمام بوابة منطقة مزارع شبعا .. كان الحرس واقفين ، وهم ممسكون بالسلاح .. أخرج ناجي رزمة من الدولارات ، وأعطاها للحارس الواقف على البوابة ، فأعطاه التحية العسكرية باحترام شديد ، ودخلت السيارة إلى مزارع شبعا .. حتى وصلت إلى مزرعة فشكول ، ووقفت أمام مطعم صغير .. ونزل إبراهيم ونضال من السيارة ، ووقفا

Ahmed Madv

في انتظار خروج ناجي من المطعم .. دخل ناجي مطعم فشكول ، وطلب فنجانًا من القهوة ونظر في ساعته ، وكأنه على موعد مع أحدهم .. وفجأة دخل عوفاديا السماك الذي ما أن رأى ناجي ، حتى تهلل لرؤيته وفتح ذراعيه قائلا بحب :

- مستر ناجي .. مش ممكن ؟ إيه المفاجأة دي .

- عوفاديا .. إزيك يا عوفاديا .. واحشني !

وجلسا متواجهين في حب .. كصديقين قديمين ، وقال عوفاديا :

- والله من ساعة ما سبت إسرائيل ، ومالناش سيرة غيرك يا ناجي بيه .. إيه المفاجأة دي .. إنت بتعمل إيه هنا مستر ناجي ؟!

- يا عوفاديا يا أخويا أنا بعد ما سبت الخدمة.. قلت أقلب عيشي على مهلي كده .. لقمة العيش اللي تخلص قوام قوام ماشي .. إنما اللي ح توجع دماغي بناقصها أحسن ..

- طول عمرك شاطر مستر ناجي .

- وإنت بأة جاي تعمل إيه هنا يا عوفاديا ؟!

- كلمني تاجر خوخ ، وعنده عشرة طن خوخ عاوزني أشيلهم .. ومديني ميعاد هنا .

- كوبات حوليم !!

- إيه ده بأة .. هوه كلمك إنت كمان !! إوعى تعلي عليّا مستر ناجي .. إحنا أصحاب ..

- أعلِّي عليك برضه يا عوفاديا .. إنت حبيبي .. وبعدين أنا لا يمكن أعلِّي عليك لسبب بسيط .

- إيه ؟!

- عشان أنا كوبات حوليم .

Ahmed Madv

واندهش عوفاديا وتجمدت ملامحه .. فقال ناجي ، مخرجًا إياه من تلك الحالة :

- اسمع يا عوفاديا .. أنا جاتني هنا لقمة عيش حآكل منها الشهد .. وإنت عارفني محبش آكل لوحدي عشان ما أزوَرْش .. عشان كده فكرت فيك .

قال عوفاديا ، ولعابه يسيل :

- إنت حبيبي مستر ناجي .

- شوف يا عوفاديا يا أخويا ... أنا كلمتك إنت بالذات ؛ عشان أنا عارفك كويس .. راجل عملي .. وما دام ليك مصلحة .. عمرك ما تضيعها من إيدك أبدًا .

- طلباتك يا ناجي بيه .. أنا تحت أمرك .

- قبل ما أقولك ع المصلحة .. أحب أعرفك بنفسي .. أنا أبويا اسمه الدولار .. وأمي اسمها اليورو .

- أحسن ناس وإحنا ولاد عم .. يعني أنا عمي الدولار ومرات عمي اليورو .

أخرج ناجي رزمة دولارات من جيبه ، وأعطاها لعوفاديا ، وقال :

- شايف اللي في إيدك دي .. دول عشر تلاف دولار .. حطهم في جيبك الشمال .. فوق القلب علطول .. كلمني عن إحساسك دلوقت .

أخذها عوفاديا بسرعة ، ووضعها في جيبه بلهفة ، وعاد ناجي يسأله :

- مش حاسس إنك دفيت شوية ؟! ودقات قلبك بأت أحسن ؟

- أنا خدامك يا ناجي بك !!

مد ناجي يده وأخرج الباكو من جيب عوفاديا ، وسحبه بعيدًا ، ثم سأله :

- قوللي بأة إحساسك بعد ما شلتهم من جيبك .. النبض ضعف شوية ؟! وفيه رعشة بسيطة وبوادر شلل مؤقت وإيديك سقعت .

- قوللي يا ناجي بك .. إنت عاوز إيه ؟!

Ahmed Madv

- قبل ما أقولك أنا عاوز إيه ، لازم تعرف أنا ح أديلك إيه ؟ الباكو اللي إنت شفته ده .. أنا ح أديلك منه ميت باكو .

- كام ؟!

- مليون دولار !!

وفتح ناجي الحقيبة التي في يده الممتلئة بالدولارات ، ثم أغلقها بسرعة ، ونظر نحو عوفاديا ، وقال :

- شكلهم حلو قوي يا عوفاديا .. ولو عملت اللي ح أطلبه منك .. ح تروَّح بالشنطة دي .. شوف يا عوفاديا .. إنت عارف إن أنا ماليش دعوة بالسياسة .. دول يضربوا دول .. ودول يجتمعوا عشان يخسروا دول .. دول يعملوا اجتماع قمة عشان يخوفوا دول .. اللي ما يعرفش يخش في الليلة دي ، ويخبط له خبطة صح .. يبأة حمار .. إنت حمار يا عوفاديا ؟!

- لأ يا ناجي بيه .. أنا مش حمار !!

- ما أنا عارف إنك مش حمار .. أمال أنا كلمتك ليه ؟ أنا عاوز سبع أنفار إسرائيليين في شغلانة مش ح تزيد عن أسبوع .. واكلين شاربين نايمين .. وكل واحد ح أديله باكو زي اللي إنت شفته ده في اليوم .. إيه رأيك ؟!

- موجودين .. أجيبهملك بالتليفون دلوقت حالًا .. إنما ح يشتغلوا إيه ؟!

- أسرى !!

- إيه ؟!

- أسرى .. أسرى .. فيها حاجة دي ؟!

أمام المطعم في فشكول ، كان إبراهيم واقفًا مع فتاة إسرائيلية ، ترتدي زي البوليس الإسرائيلي .. أعطاها سيجارة ، وظل يضحك معها ويغازلها ، وقد بدا

Ahmed Madv

إعجاب الفتاة به .. بينما كانت نضال في السيارة تراقب ما يحدث .. وكان إبراهيم يهمس للفتاة الإسرائيلية في أذنها قائلا :

- يا راشيل يا حبيبتي ما قولناش حاجة .. شغالة ع الحدود .. وبتأدي واجبك إنما تنزلي كل 45 يوم ده كتير .. ده إنتي لو جبل ما تستحمليش .. إنتي ست برضه وليكي أحاسيسك ومشاعرك .. إنتي إيه ظروفك النهاردة يا راشيل ؟

- ليه ؟!

- أنا أصلي من ساعة ما شفتك ، وأنا حاسس إني ح أعمل جناية هنا في فشكول .

ضحكت راشيل ، وهي تشير إلى نضال ، وقالت :

- ما أنا شايفة إنك مش لوحدك !!

- اللي قاعدة في العربية دي .. يا ساتر .. دي راجل .. دي كرهتني في جنس الحريم .. أنا أصلي صاحب مزاج .. زيحي دي .. وإنتي ح تبأي آخر فُل .

وأخرج زجاجة كونياك وأعطاها لها ، وزجاجة لنفسه بدأ يشربها هو .. كانت راشيل تشرب .. وقد بدأت في التمايل ، ثم سقطت ، فحملها إبراهيم وجرها إلى السيارة .. ونضال تساعده ، وهو يقول لها :

- استلمي يا نضال .. حطيلي دي ورا .. أدي أول أسيرة أهي .

في المطعم ، كان ناجي عطا الله وعوفاديا يتفاوضان حول الصفقة ، التي يعرضها ناجي عليه .. وهرش عوفاديا في رأسه ، وسأل ناجي عطا الله :

- أسرى فين ؟!

- وهي ح تفرق يا عوفاديا .. أنا ح أفهمك الموضوع .. بتوع المقاومة اللبنانية .. أعلنوا أنهم أسروا سبع عساكر إسرائيليين .. مش شفت ده في التليفزيون !!

- أيوه .

- وإسرائيل ردت قالت إيه ؟قالت عاوزاهم .. صح ولا مش صح ؟!

Ahmed Madv

- مظبوط ناجي بك .

- الليلة دي ح تخلص على إيه ؟!

- إمبارح وزير الدفاع الإسرائيلي قال إنه ح يعلن الحرب .

- ولا ح تحاربوا ولا ح تنيلوا ..اسمع اللي بقولك عليه .. وزيرة الخارجية الأمريكية جايالكوا بعد يومين .. ح تقعد وتتكلم وناس ببدل وكرافتات ح تروح وتيجي قدام الكاميرات ، وفي الآخر ح يحصل تبادل للأسرى .. وخالتي وخالتك واتفرقوا الخالات .

- وإنت عاوز السبعة دول تعمل بيهم إيه ؟!

- شوف يا عوفاديا .. لا دول أسروا حد ولا دول اتأسر منهم حد .. والاتنين بيلعبوا على بعض وعلينا .. أقوم أنا أطلع لي بقرشين ، وأخويا عوفاديا يقفش له مليون دولار مقفولين ، والعيال اللي ح نجيبها تتروق برضه ، وكله يتعشى .

ثم عاد ناجي يناور .. وقال :

- أنا كان ممكن اشتغلها قطاعي .. وكل واحد اتفق معاه لوحده ، وأطلع أنا بالغلة كلها .. إنما أنا قلت أديهالك مقاولة .. إنت تجيب الناس وتتفق معاهم وتخلص .. وربنا يباركلك في المليون دولار .. قلت إيه ؟!

- دي لعبة كبيرة يا ناجي بك !!

- لو مش قد الحكاية .. ولا كأني قلت لك حاجة .

وأغلق ناجي الحقيبة منهيًا المفاوضات ..

أمام المطعم في فشكول ، كانت نضال وإبراهيم في السيارة ، وراشيل مكممة وملقاة في السيارة ، ومغطاة بملاءة ، وقد غابت عن الوعي .. نظرت نضال نحوها ، وقالت لإبراهيم باسمة :

- ده إنت سرك باتع ..

- محترف .. ناجي بيه راجل عارف بيعمل إيه ؟ بيدي العيش لخبازه .

Ahmed Madv

- ناجي بيه اتأخر جوه قوي ..

- ما براحته .. هوه إنتي زهقانة مني ولا حاجة .. أدينا قاعدين بنطق حنك .

- لا .. مش مسألة زهق !!

- تاكلي حاجة !!

- متشكرة .

- يبأة أجيب لك آيس كريم .

نزل إبراهيم ، وذهب إلى بائع الآيس كريم .. على بعد 50 مترًا من أمام مقهى فشكول ، وبعد أن مضى .. وقفت سيارة ، ونزل منها يوسي كرمي ضابط الشاباك .. ما أن رأى نضال أمامه ، حتى أخرج مسدسه ووضعه في رأسها على الفور ، وصرخ فيها :

- هوني ألدن .. انزلي من العربية .. انزلي وارفعي إيدك لفوق .

نزلت هوني من السيارة رافعة ذراعيها ، وقد امتلك يوسي الموقف تمامًا .. بينما كان إبراهيم آتيًا من الخلف ، وفي يده الآيس كريم .. وحينما رأى الموقف جرى مسرعًا ، وانهال على رأس يوسي كرمي فسقط على الأرض ، وقام إبراهيم بتوثيقه وتكميمه ، وألقى به في السيارة ، وهو يقول :

- هي متسهلة .. وسالكة .. شوفي.. أدينا جيبنا اتنين .. ربك لما يريد .. أبعت ياللي بتبعت .. استعنّا ع الشقا بالله .. محدش بياكلها بالساهل !!

كانت المفاوضات مستمرة في مطعم فشكول ، بين ناجي عطا الله وعوفاديا .. فمن الصعب انتهاء المفاوضات مع اليهود بالطبع ، وعاد عوفاديا يتساءل :

- والناس اللي ح أجيبها دي .. أقولهم إيه ؟!

- ولا تقول لهم ولا تعيد لهم .. إنت تسلمهملي ع الحدود ، وأنا ح أروقهم !!

- طيب ما تهز المبلغ شوية يا ناجي بيه .. أنا حآخد في الراس 200 ألف دولار .. يعني كله مليون وربعمية .

Ahmed Madv

- عليا النعمة تخسر معايا يا عوفاديا .. وبلاش منها خالص الشغلانة دي .. أنـا عـاوزك تربي زبون .. ماتقفلنيش من أولها .. أنا رايح جاي ع الخط .. إحنا لو عملنا ميتين تلتميت أسير في السنة .. بارك الله فيما رزق وتبأة اتعشت .

ودخل إبراهيم ، إلى المقهى ، وقد شعر بالقلق على ناجي بيه ، الذي تأخر كثيرًا وهتف به :

- إيه يا باشا .. إتأخرت علينا !!

- تعالى يا إبراهيم .. سلم على عمك عوفاديا .. أقعد .. إنت إيه اللي جابك ؟!

- خليهم خمسة بس يا باشا .. فيه اتنين اتكلمنا معاهم بره .. واتفقوا وخلصنا على ألفين دولار .

نظر ناجي نحو عوفاديا معاتبًا ، وقال :

- شفت يا عوفاديا الطمع ح يطير منك الشغلانة كلها .

- لا لا .. أنا ح أجيب لك السبعة دلوقت حالًا وبالتليفون !!

- والاتنين اللي إحنا اتفقنا معاهم يا باشا ؟!

- مش ح يخسروا .. يا عوفاديا، إحنا ما بنغيرش كلمتنا.. كنا طالبين سبعة وبأوا خمسة.. مش مشكلة ..حسابنا زي ما هوا .. بس اسمع .. أهم حاجة تجيبلي لبس عساكر إسرائيليين للسبعة .. يعني تعمل الشغلانة بما يرضي الله .. آه .

- بس إحنا ما اتفقناش على الملابس يا ناجي بيه .. إنت عارف سبعة أفرولات بسبع جزم .. يعملوا كام ؟

- عندي دول يا عوفاديا .. خلص بأة .. بس بأة عاوزك تنقِّيلي شوية عيال .. شكلهم أسرى .. نبص عليهم كده ، نقول دول أسرى .

عند البوابة في مزارع شبعا ، عادت السيارة ، وكان الأسرى بها موثقين ومكممين .. كما كان ناجي عطا الله جالسًا بجوار إبراهيم ونضال ليمروا على نفس

Ahmed Madv

الحارس ، الذي أخذ المبلغ في الدخول، فأعطاهم التحية مرة أخرى .. ومد يده ليعطيه ناجي رزمة دولارات ، أخذها الحارس وحياه التحية العسكرية باحترام شديد .. قال ناجي معلقًا :

- الكارتة هنا حرّاقة قوي يا إبراهيم !!

- بيقولوا ح ينقلوها !!

ومضت السيارة نحو ثكنات حزب الله .. وفي الطريق .. نظر ناجي نحو يوسي كرمي ، الذي بدا مصابًا في خلف رأسه ، وقد بدأ في الإفاقة .. فوجد نفسه مقيدًا مأسورًا ، فهتف بالعبرية ، وهو يتأوه من فرط الألم :

- إيه ده ؟ أنا فين ؟! إنتوا مين ؟!

- أهلًا .. يوسي كرمي .. والله ياد يا إبراهيم لأحليلك بُقك !!

قال يوسي مندهشًا ، وهو ينظر إلى وجه ناجي :

- ناجي عطا الله !!

- شفت الدنيا صغيرة إزاي ؟ ده أنا أخر مرة شفتك فيها شفتك على سي دي .. بس إيه يا يوسي الحماس اللي كنت فيه ده ؟ ده إنت حيوان مش بني آدم .. ليلة سودة عليك وعلى دماغك يا يوسي يا كرمي !!

قال يوسي مرعوبًا :

- اللي إنت بتعمله ده .. إنت مش قده .. إنت بتخطف ظابط من الشاباك الإسرائيلي .

- عارف أنا واخدك فين يا يوسي .. لحبايبك في حزب الله .. ح أوصيهم عليك .. ح اخليهم يعملولك شريط زي اللي رافي كان عملهولك .

قال إبراهيم :

- باين عليك شايل منه قوي يا باشا !!

- إلا شايل منه ..

* * *

Ahmed Madv

في فناء إحدى ثكنات حزب الله العسكرية ، كان الأسرى الإسرائيليون رافعي الأيدي ، ويمضون إلى سجون حزب الله .. والجنود يحرسونهم .. اقترب أبو حسين من ناجي عطا الله .. وشد على يده ، وقال :

- تسلموا يا أبطال .. والله المصريين يظهر معدنهم الأصيل في وقت الشدائد .. دي معجزة بكل المقاييس .. والله القيادة بالحزب بتعرض تفضلوا معانا وما تفارقونا ، حتى نخلص الأمة العربية من ها العدو الصهيوني .

- لا .. معلش خليها مرة تانية يابو حسين .. إنت عارف قدامنا طريق طويل ، والفلوس اللي معانا لازم نوديها مصر علطول .. والأسرى دول ح تعملوا معاهم إيه يابو حسين ؟!

- إسرائيل طالبة البدل ، وإحنا ما عندنا مانع .. يتبدلوا بخمسميت واحد من المعتقلين بسجون إسرائيل ..

- يااااه .. السبعة دول بخمسمية !!

- عرفت قيمة العمل اللي إنت عملته يا ناجي بيه .. شوف بِدَّك تفرَّح كام أسرة فلسطينية ؟!

- طيب أنا ليا طلب عندك يا أبو حسين .. فيه أسير بقاله 16 سنة معتقل في سجون إسرائيل .. وده بالذات نفسي يطلع المرة دي .

- لو كان لسه عايش !!

- إن شاء الله لسه عايش .

- وشو اسمه !!

- اسمه طارق .. طارق زياد من غزة .. بقاله 16 سنة معتقل .

- إن شاء الله يُفْرَج عنه يا أخ ناجي .

- طيب إحنا بأة ح نرجع مصر إزاي يابو حسين ؟!

Ahmed Madv

- كل شيء مترتب بالنسبة لكم .. إنت ح تطلعوا من هون على الشام .. وبالشام راح يجيكون أخ من رجالنا .. اسمه أبو القاسم .. بياخدكم وبيوصلكم لمصر سالمين غانمين .

- وليه ما نروحش عن طريق لبنان يابو حسين !!

- بدكم تروحوا لبنان بكل ها المصاري .. والله مابتطلعوا بدولار واحد .. عملاء إسرائيل منتشرين بالوطن العربي .. وإنتم صرتم معروفين لإسرائيل .. وعشان يجيبوكم ، ماعندهم مانع يدفعوا أكتر من اللي أخدتوه منهم !

* * *

في الليلة الأخيرة لناجي وفرقته عند حزب الله ، كان الجميع جالسين على الأرض ، يتناولون طعام السحور ، فقال أبو حسين :

- والله ح توحشونا يا رجال .. أخدنا عليكم وعلى وجودكم هنا .

فرد ناجي :

- وإحنا كمان والله يابو حسين .. إحنا كُنا فاكرينكوا غير كده خالص .

- الإعلام ما بيظهر صورة المقاومة .. إلا ناس واقفين بالسلاح .. وحاطين على وجوههم أقنعة سوداء ، وشكلهم زي رجال العصابات .. إنما المقاوم ما هو بالنهاية إنسان .. بيحب ويضحك وينكت وإلا مايقدر يكمل ها الحياة .

وتساءل ناجي :

- إنتوا بتنكتوا هنا يا أبو حسين .. والنبي تسمعنا حاجة .

ابتسم أبو حسين ، وبدأ يلقي نكتة :

- عندنا بلبنان شخصية .. اسمها أبو العبد .. زي جحا عندكوا بمصر .. أبو العبد كان مسافر هوه ومرته وأولاده .. وطول الطريق عمال يقول يا ريتني جبت التليفزيون معي .. يا ريتني جبت التليفزيون .. ولما وصلوا المطار ، مرته قالت له صرعتنا بها التليفزيون إيش بدك منه .. قال نسيت جوازات السفر عليه .

Ahmed Madv

وانفجروا ضاحكين ، وقال ناجي معلقًا :

- أبو العبد ده أكيد له عرق صعيدي .. اللهم اجعله خير !!

وظلت الضحكة تعلو بين الجميع .. وتعلو .. واستمرت عدواها بينهم .. فكان مشهدًا فريدًا في تلك الثكنة العسكرية المخيفة حيث الحراسة المشددة ، وبينما كان الجنود واقفين أمامها بالأسلحة والرشاشات والبنادق .. كانت الضحكة تزداد وتزداد .. كأنها أقوى من كل ذلك .

* * *

الطريق إلى سوريا من جنوب لبنان تحفة .. طريق زراعي موحش ، ولكنه جميل في نفس الوقت .. يبدو الطريق خاليًا باستثناء السيارة التي تقل أبطالنا .. وبعض السيارات العسكرية التي تحمل الأسلحة ، متجهة إلى جنوب لبنان .. وداخل السيارة .. كانوا جميعًا صامتين .. حينما لا يكون أمامك سوى طريق وحيد ، يجب أن تصمت .. لم يخطط ناجي عطا الله لذلك .. ولكن هذا قضاء الله .. الذي لا راد لقضائه .. وقطع إبراهيم كالعادة شرود ناجي عطا الله ، وهتف به قائلا :

- إلا قوللي يا ناجي باشا .. هوه إحنا ماروحناش مصر عن طريق لبنان ليه ؟ إيه اللي يودينا سوريا ؟!

- الأحوال في لبنان ماتطمنش يا إبراهيم .

فسأله حسام ببراءة :

- ليه يا باشا .. ما لبنان زي الفُل ؟!

- هوه إنتوا ما تعرفوش حاجة عن البلاد اللي جنبكوا دي خالص .. ميح .. مش عايشين في الدنيا .. ماتعرفوش إيه اللي بيحصل في لبنان !

قال إبراهيم بثقة :

- أنا عارف إن فيه مشاكل في لبنان يا باشا .. أنا مش منفصل عن مشاكل المجتمع اللي أنا عايش فيه .

Ahmed Madv

- مشاكل إيه بأة يا أخويا اللي إنت عارفها .. سمَّعني !!

- هيفاء وهبي ورولا سعد رافعين قضايا على بعض ، ومقطعين بعض في المحاكم .. أصل مدير أعمال هيفاء سابها ، وراح اشتغل مع رولا سعد .

- هى دي مشاكل لبنان يا حيوان .. إنتوا إيه ؟ بلاطة .. المشكلة في لبنان إن فيها كذا طايفة .

وببلاهة سأل عبد الجليل :

- طايفة إزاي يا باشا لا مؤاخذة ؟!

تمالك ناجي أعصابه ، وحاول أن يفهمهم بهدوء ، قائلا :

- المشكلة في لبنان إن دول مش طايقين دول ودول واقعين مع دول .. جم دول حبوا يخلعوا دول ويركبوا على دول .. راحوا دول ضاربين دول .. دول بأة أتحالفوا مع دول عشان يخوفوا دول .. دول يسكتوا !!

فقال عبد الجليل :

- يا سلاااام يا جدعان .. أتابي السياسة دي بحر .. تصدق أول مرة أفهم يا باشا .. ده أنا كنت بأقعد قدام التليفزيون زي طور الله في برسيمه .. طب سؤال كده ولا مؤاخذة يا باشا .. ليه كل دول ما يتحدوش مع دول ، ويقفوا لا مؤاخذة وقفة راجل واحد قصاد دول ؟!

- والله العظيم الواد عبد الجليل ده طلع بيفهم ، وإنتوا كلكوا طلعتوا بقر ..

- سيبك من دول أنا معاك يا باشا .. اتفضل سعادتك !!

- ما هو أمريكا وإسرائيل عاوزين يوقعوا دول .. يقوموا من تحت لتحت كده يقووا دول ؛ عشان يعلُّوا دول على دول .

Ahmed Madv

وعلق الشيخ حسن قائلا :

- ما هو التحزب والفرقة يا ناجي بيه .. هي آفة الأمة العربية والإسلامية دلوقت .. لازم كلنا كعرب ومسلمين نقف ورا دول .. ساعتها دول ح يعملولنا ألف حساب .

وتساءل زاهر :

- هي سوريا يا باشا فيها دول ولا فيها دول ؟!

- سوريا بأة مافيهاش غير دول ..

وعادت المصفحات وسيارات الجيش التي تحمل الأسلحة تمر ، فالتفتوا جميعًا نحوها ، وقال إبراهيم معلقًا :

- ممكن أسأل سؤال يا باشا .. مين دول ؟!

- دول جايبين سلاح من دول موديينه لدول عشان يضـربوا دول .. لأن دول لو ماوقفوش جنب دول .. دول مش ح يرحموا دول .

وأخذ إبراهيم يربت على حقائب الدولارات التي بجوارهم ، وقال :

- يا باشا إحنا مالناش دعوة بدول ولا دول .. إحنا كل اللي يهمنا دول .

ومضت السيارة بين الجبال حتى غابت عن الأنظار في هذا الطريق الوعر .. كانت كل ثانية تمر كأنها دهر ، فقال ناجي محاولا طمأنتهم :

- في نهاية الطريق ح نلاقي نقطة تفتيش لبنانية .. فيه ناس مستنيينا هناك ح ياخدونا ، ويعدونا من نقطة التفتيش التانية في سوريا بعد 2 كيلو .

في القاهرة .. في ماسبيرو .. أعلن المذيع في نشرة الأخبار :

صرح مسئولون من المقاومة اللبنانية أن حزب الله على استعداد أن يسلم الأسرى الإسرائيليين السبعة ، الذين تطالب بهم إسرائيل ، على أن تقوم إسرائيل بدورها بتسليم خمسمائة أسير لبناني وفلسطيني معتقلين بالسجون الإسرائيلية ..

Ahmed Madv

وتشير التكهنات إلى أن إسرائيل ستوافق بشروط حزب الله .. والدبلوماسية المصرية تسعى لنزع فتيل الحرب ، وإنهاء الأزمة بشكل سلمي .

ثم قلب الورق الذي أمامه .. ثم بجدية شديدة قال :

- أصيب سيد معوض بشد في السمانة والعضلة الخلفية ، مما سيحول دون اشتراكه في مباراة الغد مع الصفاقسي التونسي .. والآن إليكم درجات الحرارة المتوقعة غدًا .. ويسود البلاد طقس ربيعي معتدل ، على كافة الأنحاء .. وتسطع الشمس مع نسمة رقيقة في جو لطيف صحو ...

* * *

أمطار غزيرة .. أقرب إلى السيول ، كانت تنهال فوق السيارة في الطريق إلى سوريا ، والمسّاحات تروح وتجيء على زجاج السيارة .. والشيخ حسن يستعيذ بالله :

- أعوذ بالله .. هوه الجو قلب فجأة كده ليه ؟!

- كل فصول السنة شفناها في النص ساعة اللي فاتت دي .. الجو هنا عامل زي البني آدمين .. كل شوية بحال .

قال إبراهيم :

- باشا .. هوه أنا ممكن آخد نصيبي في سوريا ؟!

- محدش ح ياخد دولار إلا لما نرجع مصر يا إبراهيم .. وإنت عاوز تاخد نصيبك في سوريا ليه إن شاء الله ؟!

- أنا بقول يعني أقعد لي كام يوم استجمام .. عشان أنسى العذاب ، اللي شفناه في الرحلة اللي طلع عنينا فيها دي ؟!

- إنت فاكر الموضوع خلص يابني إنت .. طول ما إنت بره مصر .. لازم تعرف إنك مُهدد في كل لحظة .. مفيش أمان غير في مصر !!

Ahmed Madv

وقال عبد الجليل :

- يا سلام .. عمار يا مصر يا أم الدنيا .. بلد الأمن والأمان .

وإذا صوت فرقعة شديدة صرخ معها الجميع ، وقال الشيخ حسن :

- يا ساتر يارب !!

وقفت السيارة ، ونزل إبراهيم ، فنظر إلى الإطارات ، وقال :

- العجلة الورانية اتخرمت يا باشا .. انزل يا تُهامي .. انزل يا عبد الجليل .. حد ييجي يساعدني عشان نركب الإستبن .

وقفوا جميعًا في المطر الغزير ، وهم يركبون الإستبن .. وإذا بإبراهيم يقول :

- الإستبن مخروم .. لازم يتلحم يا باشا .

قال زاهر مرعوبًا :

- وح نعمل إيه دلوقت يا باشا ؟!

ووقف أبطالنا يحيطون بالسيارة بين الجبال والأحراش .. وهم في حيرة إلى أن توقف المطر قليلا .. وجلس أبطالنا على الصخور بجوار السيارة .. وقد لف الموقف حالة من الصمت الرهيب والقلق : وفجأة سمعوا صوت سيارة آتية من بعيد فوقفوا جميعًا .. وأشاروا لها .. وقفت السيارة ونزل منها اثنان يرتديان ملابس عربية.. كل منهما يحمل بندقية ، وقال العربي :

- مين أنتم .. وإيش بتسووا هون ؟!

رد ناجي :

- لا .. إحنا كُنا طالعين على سوريا .. والعجلة فرقعت !!

- ومن وين جايين ؟!

- من .. من الجنوب .. إحنا تبع أبو حسين !!

Ahmed Madv

- مين أبو حسين ؟!

- إحنا تبع المقاومة .

وتحرك الرجل الآخر ليفتش السيارة ، ويفتح إحدى الحقائب .. فوجد بها رزم الدولارات .. فأشهر سلاحه نحو الجميع ، وقال :

- ارفع إيدك إنت وهو .. وتعالوا أقفوا هون .. اتحركوا !!

- إنت عارف إنت بتعمل إيه ؟ بقولك إحنا تبع أبو حسين ؟!

وصرخ العربي فيه :

- ما تنطق ولد !!

وجرى تهامي بكل شجاعة وانهال على أحدهم .. كان الآخر يضـرب طلقات نارية .. وانبطح الجميع على الأرض ، وصرخ زاهر :

- سيبوهم ياخدوا الفلوس .. أنا مش عاوز فلوس .. أنا عاوز أعيش .. عاوز أعيش .

أفاق زاهر من كابوسه الكئيب .. وهو يصرخ ويرتعش :

- خدوا الفلوس .. بس سيبوني أعيش .. أنا عاوز أعيش !!

والتفتوا إليه ، وهم جالسون على الصخور في الصحراء ، وقال ناجي :

- زاهر .. زاهر .. فوق يابني .. أهدا الله يخرب بيتك .. روَشْتنا !!

- كابوس فظيع .. فظيع .. أنا يظهر نمت وأنا قاعد .. أنا آسف يا باشا .

صار الوقت غروبًا والشمس تكاد تختفي تمامًا من المشهد .. نظر الشيخ حسن إلى السماء ، وقال :

- الشمس راحت .. والمغرب وجب .. ربنا قاسم لنا نفطر هنا .. ياللا يا إخواننا .. أنا عامل حسابي ، وجايب معايا كام وجبة كده .. قلت يمكن نفطر في الطريق .

- نبرت فيها يا شيخ حسن .. شكلنا كده ح نتسحر في الطريق كمان .

Ahmed Madv

وأخرجوا الطعام من السيارة .. بعض البلح .. وبعض الساندوتشات وكولمان ماء .. وفردوا ملاءة ، وجلسوا وبدأوا في الأكل معًا .. في المساء كان ناجي والمجموعة قد أشعلوا نارًا وجلسوا حولها ، وحسام يتبادل نظرة حانية مع نضال ، وتهامي يبتسم في عذوبة .. وناجي يروح ويجيء في قلق مراقبًا الطريق .. أما عبد الجليل فكان نائمًا ويشخر .. والشيخ حسن يصلي التراويح وإبراهيم يكسر أعواد الشجر ، ويلقي بها في النار .. فيتصاعد الدخان .. قال زاهر :

- كفاية يا إبراهيم .. الدخان ح يعمينا !!

- لازم النار تفضل عالية يا زاهر .. عشان الديابة بتخاف تقرب منها .

قال زاهر مرعوبًا :

- ديابة .. هوه فيه ديابة هنا !!

- كل ما الليل يخش ، ح تبتدي تسمع صوتهم .

وجرى زاهر وذهب إلى السيارة ، وركب فيها وأغلق الباب ، وظل إبراهيم يضحك حتى كاد أن يستلقي على قفاه .. ثم نظر لحسام وقال :

- إيه يا قيس .. وأنت مش خايف من الديابة إنت كمان !!

قال حسام برزالة :

- لأ .. مش خايف من الديابة .. وما بخافش من حاجة أبدًا .

- يامه .. ده إحنا معانا وحوش ، وإحنا مش عارفين !!

وعلا صوت الذئاب وعواؤها ، والشيخ حسن يسمعه ، وهو يصلي ، فختم الصلاة بسرعة :

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. السلام عليكم ورحمة الله .

وقام جاريًا إلى السيارة ، وأيقظوا عبد الجليل النائم ، والذي كان يشخر .

Ahmed Madv

قام عبد الجليل متضايقًا ، وقال :

- فيه إيه ؟!

- فيه ديابة جاية على هنا !!

- يا عم بتصحيني من أحلاها نومة عشان شوية ديابة !!

قال ناجي آمرًا :

- كله يخش ع العربية .

ودخلوا العربة جميعًا ، وقال عبد الجليل :

- الديابة ما تعملش حاجة إلا لو حست إنك خايف منها .. أنا ماسك أربع سلعوات في الجبل ، ورا الحارة عندنا .

واقتربت سيارة من بعيد متجهة نحوهم في الظلام الدامس ، وقد أضاءت أنوارها في وجوههم.

ونزل ناجي ومجموعته ووقفوا أمام السيارة يشيرون لها .. فتوقفت السيارة، ونزل منها رجل سمين بشارب كثيف ، في نهاية الخمسينيات ، وصرخ فيهم معترضًا :

- لشو بتوقفني .. فيه إيه ؟!

- والنبي يا أسطى .. العجلتين ضربوا ، وعاوزين نركب معاك لأقرب بتاع كاوتش .

- عاوزين تركبوا كلكوا هيك !!

- لا يا باشا .. أنا حاجي معاك ومعايا واحد بس .

- ما عندي مكان إلا لواحد فقط .. هون جنبي .. لو بتريد ..

ونظر ناجي داخل السيارة ، ليرى تابوتًا ورجلين جالسين بجواره في أسى .. فقال متأسفًا :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. البقية في حياتكوا يا رجالة .. شدوا حيلكوا !!

Ahmed Madv

ورد الرجلان بحزن شديد :

- حياتك الباقية يا أخ .

- معلش عطلناكوا .. بس اكسبوا ثواب فينا .. والله الحسنة دي ح تنكتب له .. طيب أنا واصل مع الراجل الطيب ده لغاية نقطة التفتيش ، وإنتوا محدش ينزل من ع العربية ، ولا يروح هنا ولا هنا لحد ما آجي .

وحمل تهامي العجلتين ووضعهما فوق السيارة ، وجلس ناجي بجوار السائق ، ومضت السيارة في اتجاه الشام في الطريق إلى نقطة التفتيش اللبنانية .. كان الظلام دامسًا ، وحالة من الصمت الرهيب تطبق على كل من بالسيارة ، وحاول ناجي أن يكسر حالة الصمت ، فقال :

- معلش يا إخواننا .. كان نفسي نتعرف في ظروف أحسن من كده .. أنا أخوكم ناجي عطا الله .. من مصر .. دبلوماسي سابق .

- دبلوماسي .. وشو بيعمل الدبلوماسي في ها المنطقة .. الدبلوماسيين مكانهم المكاتب المكيفة والعربيات المرسيدس .

- مش كلهم والله يا ... اسم الكريم إيه ؟!

- محسوبك بسام الزيتوني .. من الشام والإخوة ناصر وسلمان أولاد المرحوم .

- الله يرحمه ويحسن إليه .. ما تعملش في نفسك كده يا ناصر .. اجمد يا سلمان .. المرحوم راح عند اللي أحسن مني ومنك ، وإنتوا من الشام برضه !!

- أيوه يا أستاذ ناجي .

- أحسن ناس .. وهي مصر والشام إيه ؟ ما واحد ..

- مصر أم الدنيا كلها .. وشو بتسوي هون يا أخ ناجي .؟!

- كنا في جنوب لبنان .. عند ناس حبايبنا وراجعين على مصر .

- فرصة سعيدة إننا شفناك يا أخ ناجي .

Ahmed Madv

وأشار ناجي نحو الرجلين والتابوت بجوارهما ، وقال :

- والراجل الطيب ده ميت في أيام مفترجة في العشرة الأواخر .. أنا مش عاوزكوا تزعلوا .. المفروض تفرحوله .. ربنا يجعل ختامنا زي ختامه .

أخرج السائق بسام سيجارة ملفوفة ، وسحب نفسًا عميقًا .. ثم ضغط زر التشغيل للكاسيت ليصدح صوت فيروز «بحبك يا لبنان .. يا وطني بحبك» .. ثم أعطى السيجارة لناجي ، الذي أخذ منها نفسًا عميقًا ، وقال :

- الله .. إيه ده ؟ إيه الحلاوة دي ؟!

- أبتعجبك !!

- عظمة ..

فأخرج بسام سيجارة أخرى ، وأعطاها له بكرم الشوام ، وقال :

- خد هادي إلَك !!

- ربنا ما يحرمنا منك يا بسام .. أنا مش بقولكوا من الصبح .. الراجل ده ليلته حلوة .

- ما تشيلوا هم يا شباب .. بيكوا (أبوكوا) كان رجل طيب كتير .. أتمنوله الرحمة .. وإن شاء الله ربنا ح يرحمه .

ثم أعطى كلا منهما سيجارة ، فأشعلوها حتى امتلأت السيارة بالدخان الأزرق ، فقال ناجي :

- الراجل عاش حياته وأدَّى رسالته .. هوه كان متجوز !!

- شو متجوز .. بقولك دول أولاده !!

- آه صحيح شوف مخ الواحد ..

هنا قال أحد الرجلين :

- بيبي اتجوز 19 مرة ، وعنده 35 ولد وبنت !! وكان يمد إيده في الحيط يفلقه ..

- بسم الله ما شاء الله .. طيب كتر خيره قوي على كده !! والنبي ما تقر عليه ليصحى تاني !!

Ahmed Madv

وضحك بسام .. وأخذ يضحك ويضحك من أثر المخدر ، وناجي أيضًا كان يضحك .. حتى الرجلين كانا يضحكان ، وقال ناجي :

- ليلته زي الفُل .. معاك واحدة تانية يا بسام (يقصد سيجارة) !!

- عيوني !!

وأعطاه سيجارة أخرى .. فأخذ ناجي نفسًا عميقًا منها ، وقال ، وقد بدا أن مفعول المخدر قد تمكن من رأسه تمامًا :

- هوه أنا إيه اللي جابني معاكوا الليلادي ؟!

- كيف أستاذ ناجي .. نسيت .. جاي عشان تصلح العجلات !!

- آه .. العجلات .. عجلات إيه ؟!

- السيارة المتعطلة بالطريق .

- أيواااااه .. الله ينور عليك ، والنبي كل شوية تبأة تفكرني يا بسام .. إيه الجمال ده .. عليلنا الكاسيت شوية .

كانت فيروز تغني .. «بحبك يا لبنان» .. وناجي في قمة النشوة والسلطنة .. فقال لمن معه :

- باموت فيها .. صوتها بيعمل لي دماغ لوحده كده .. دماغ رباني .

- كل الدنيا بتحب الشحرورة .

- شحرورة مين ؟ دي فيروز .. إنت اتسطلت يا بسام ولا إيه ؟!

- يا حبيبتي يا فيروز .. اسمها راح عن بالي .. أنا كمان أحب صباح كتير .

قال ناجي لأحد الرجلين أبناء المتوفي :

- انت قلت لي المرحوم اتجوز 19 مرة .

- أيوه يا أستاذ ناجي .

- أوعى يكون اتجوز صباح ؟!

Ahmed Madv

وانفجروا جميعًا ضاحكين ، وقد سرى أثر الحشيش بينهم ، وقد نسوا تمامًا أن بجوارهم تابوتًا .. به جثة لرجل توفي منذ ساعات قليلة .. فقال بسام :

- الله على خفة دماتكم يا مصريين .. كلنا نعشق أفلامكم .. أنا عندي تلات أطفال ولدين وبنت .. يموتوا في إسماعيل ياسين .

- ما مزراحي كان بيموت فيه برضه !!

قال بسام مندهشًا ، حينما سمع الاسم اليهودي :

- مزراحي .. شو مين مزراحي .. هادا العمى على مزراحي !!

أدرك ناجي أنه أخطأ بذكر اسم يهودي هنا .. فقال مستدركًا :

- مزراحي مين ؟ أنا قلت مزراحي ؟ السيجارة الأخرانية دي كانت مضروبة.. أنا مابأيتش عارف بقول إيه ؟

وأخذ بسام يقلب في مؤشر المذياع .. ليجد نشرة الأخبار ، والمذيع يعلن :

- الأعزاء المستمعين في كل مكان إليكم نشرة الأخبار من إذاعة جنوب لبنان .. غدًا في الثامنة صباحًا ، يتم تسليم الأسرى الإسرائيليين السبعة إلى القوات الإسرائيلية .. كما يتم استقبال الخمسمائة أسير ، الذين كانوا معتقلين بالسجون الإسرائيلية .. وتتم عملية الاستبدال تحت إشراف قوات الطوارئ الدولية وبإشراف ألماني ..

* * *

في الطريق ، كانت المجموعة في السيارة ، يستمعون إلى نشـرة الأخبار ، في انتظار أن يأتي ناجي بالإطارات ، حتى يتحركوا ، وكان المذيع يقول :

- إن دار الإفتاء بالمملكة العربية السعودية أعلنت أن اليوم هو المتمم لشهر رمضان المبارك .. وأن غدًا هو أول أيام عيد الفطر المبارك .. أعاده الله على الأمة الإسلامية بالخير واليمن والبركات .

Ahmed Madv

قال عبد الجليل للجميع :

- كل سنة وانتم طيبين .

وهمس حسام لنضال بكل رقة :

- عيد سعيد عليكي يا نضال .. كل سنة وإنتي طيبة !!

- وإنت طيب يا حسام .. وإنتوا كلكم طيبين .

قال زاهر متحسرًا :

- كان نفسي أقضي أول يوم العيد مع ماما !!

وقال تهامي :

- ما هي مصر لسه صايمة !! ح تعيِّد بعد بكرة !!

لم يعلق الشيخ حسن على مجيء عيد الفطر ، فسأله إبراهيم :

- إيه يا شيخ حسن .. إنت مش فرحان إن العيد بكرة ولا إيه ؟!

- أنهو عيد ؟! ليبيا فطرت النهاردة لوحدها .. وبكرة السعودية ولبنان والخليج ح يفطر .. ومصر ح تعيد بعد بكرة .. ده اسمه كلام يا ناس !!

كان لسان حال الشيخ حسن يقول : هل القومية العربية .. ووحدة الصف العربي .. وكل هذه الشعارات .. محض أكاذيب .. هل القبلات الكثيرة .. والأحضان الدافئة .. بين كل الرؤساء والملوك العرب هي مجرد تمثيليات .. حتى هلال العيد .. لا نستطيع أن نتفق عليه يا مؤمنين ؟!

فقال إبراهيم معترضًا :

- بقولك إيه يا شيخ حسن .. إحنا فين يا عم الحاج .. إحنا في لبنان .. والعيد حل علينا في لبنان .. ح تصوِّمنا في العيد كمان ولاّ إيه ؟!

- لا .. وانت ما بتفوِّتش يوم .. صايم الشهر كله !!

- خلاص بأة يا شيخ حسن .. فُكها بأة .. ده العيد في سوريا ح يبأة تحفة ..

* * *

Ahmed Madv

صارت العلاقة بين بسام السائق ، وناصر وسلمان ودية تمامًا .. وأتى خبر العيد .. فأشاع حالة من البهجة ، وقال ناجي :

- كل سنة وإنتم طيبين يا بسام .. يا ناصر .. يا سلمان .. كل سنة وإنتوا طيبين .. مش بقولكوا ده راجل مبروك .. ح يعيِّد في أحلى حتة !!

- الله يخليك يا أستاذ ناجي .. إحنا قلبنا اتفتح لك من ساعة ما شوفناك.. وقاعد قد إيه بالشام إن شاء الله علشان نشوفك هناك .. لازم ندوَّقك أكل الشام .

- لا .. دي هي الليلادي .. وبكره الصبح ح ارجع على مصر .

- والله ما يصير .. تيجي للشام وما نعرف نستقبلك يا عيب الشوم .

- إنتوا طول عمركوا أهل الكرم يا بسام .

- ونازلين وين بالشام .

- أوتيل ع الجبل .. اسمه مال الشام .. أهي ليلة وخلاص.. ما تتعبش نفسك .

- أتعب نفسي .. معقول تيجي ع الشام وما نعمل معك واجب .. خلاص خليني أبعت لك علبة حلويات شامية ؛ عشان تفتكر بيها بسام .

- تعيش يا بسام .. فاضل كتير ع النقطة ؟!

- لا .. مفيش شي .. عشر دقايق ونوصل .

وأخرج بسام زجاجة عَرَق من تحت الكرسي وفتحها ، وقال لناجي :

- بعد إذنك .. خلاص العيد بكرة .. شوية عرق أحسن أنا بقالي 29 يوم ما دوقت منه رشفة .. تشرب عرق !!

- لا .. ماليش فيه .. اشرب .. وانبسط إنت يا عم .

ومضت السيارة .. وهم في قمة النشوة والانبساط ، وأشعل له بسام سيجارة أخرى ، وقدمها له .. وقال ناجي :

- ما هي معايا أهه يا عم بسام .. إنت عاوز تعميني ولّا إيه ؟!

Ahmed Madv

- اشرب يا ناجي بيك .. اشرب .. والله ما هي مستاهلة .

- ح اشرب سيجارتين !!

- واحد محشش بيدخن لقوه بيشرب سيجارتين مع بعض .. سألوه ليش .. قال واحدة لي .. وواحدة لصديقي المسجون .. بعد فترة .. صار يدخن سيجارة واحدة .. قالوله أكيد صاحبك طلع من السجن .. قال لأ .. أنا بطلت .

- يخرب بيتك يا بسام .. ده إنت مسخرة .

- يا سلاااام حلوة الدنيا ما يعكر صفوها إلا النسوان !!

- ده إنت باين عليك شايل منهم جامد قوي .. شكلك كده واخد بومبة !

- ها الدنيا من غير نسوان .. اتخيل شو بتبأة الأسواق هادية .. شوارع فاضية .. ما حدا يتكلم في التليفونات .. شركات الاتصالات قافلة .. ما فيه صيدليات تبيع دوا ضغط ولا سكر .. وكل الرجالة بالآخر يدخلوا الجنة .. اسمع هادي .. محشش طلب إيد بنت للزواج ، قال له أبوها مهرها 500 ألف ليرة .. رد المحشش قال له بقديش حسبت لي الليلة ؟!

وانفجروا ضاحكين ، وملأت الدموع أعينهم من فرط الضحك .. إلى أن دخلت السيارة على نقطة التفتيش اللبنانية .. حاول ناجي ، ومن معه ، أن يتماسكوا قليلا أمام النقطة حتى لا تحدث مشاكل .. ووقف الظابط النوباتشي .. ونظر نحو السيارة فقال بسام هامسًا لناجي :

- يااه .. ها للظابط الرزيل ح يوقفنا شي ساعة .

اقترب الظابط منهم ، وقال بلهجة آمرة :

- هوياتكم !! ومن وين جايين ؟!

ابتسم بسام وأخرج الهويات ، وقال له بود مفتعل :

- اتفضل .. عمي !! إحنا جايين من الجنوب .. من الصالحية .

Ahmed Madv

وأشار الظابط نحو ناجي عطا الله ، وقال :

- والأستاذ معكم .

- أنا .. معاهم .. آه .

تأمل ضابط الحراسة الهويات في بطء ممل خانق ، ونظر إليهم بضيق .. فقال بسام :

- أعمل معروف عمو .. أبوس يدك معنا جثة .. وطالعين ع المقابر !!

لف الظابط حول العربة ، ثم فتح الباب ليجد ناصر وسلمان .. والنعش ، فقال :

- وين تصريح الدفن ؟!

قدم ناصر تصريح الدفن للظابط بكل أدب :

- البقية بحياتكم ..

- حياتك الباقية ..

نظر الظابط نحو النعش مرتابًا ، وقال :

- افتح النعش .. بدي أترحم ع المرحوم .

انفعل ناصر ، وثار قائلا :

- كيف نفتح النعش .. الأموات ليهم حُرمة .. ما يصير يا عمي !!

- بقولك اسمع الكلام .. هادي إجراءات أمنية .

وتدخل ناجي قائلا :

- افتح يا ناصر .. وخلصنا من الليلة اللي مش عاوزة تعدي دي !!

قال سلمان باكيًا :

- والله ما يصير .. هادا بيبي (والدي) ما نبهدله في مماته ، ولا حدًا يبص عليه ، وهو مرمي في نعشه .

Ahmed Madv

فوجه الظابط سلاحه نحوهم ، وصرخ فيهم :

- افتح يا ولد !!

وأتى جنديان .. ليفتحا النعش .. وبدا أن اشتباكًا سيحدث بين ناصر وسلمان والجنود ، الذين يحاولون أن يفتحوا النعش.. وفتح الجنود النعش ، فإذا به مليء بالمخدرات ، فصرخ الظابط فيهم جميعًا ، موجهًا سلاحه نحوهم :

- كله يرفع يده لفوق !!

قال ناجي الذي فوجئ بما حدث :

- الله يخرب بيوتكوا .. حشيش يا بسام ! أنا ماليش دعوة يا حضرة الظابط .. أنا شاورتلهم ، وركبت معاهم منزع الطريق .. أنا عربيتي عطلانة .

فزجره الظابط قائلا :

- اكتم فمك ولد .. وامشوا قدامي .

ورفع ناجي والثلاثة أيديهم .. وناجي يحاول أن يبرر موقفه قائلا :

- أنا بره الموضوع خالص .. أنا تبع أبو حسين .. كلموه ييجي يشوفلو صرفة في الوقعة السودة دي .

- اخرس ولد .. ما اسمع صوتك .

ودخلوا جميعًا إلى نقطة التفتيش .. وناجي يكاد يجن ، والكلابشات في أيديهم .. والسائق بسام يحاول أن يجد له مخرجًا ، ويقول للظابط :

- مالي علاقة بكل هادا .. أنا سواق سيارة موتى .. مش من حقي أفتش في النعوش .

وأضاف ناصر :

- إحنا كُنا طالعين ومعنا جثة الوالد الله يرحمه .. أكيد غيروها بالطريق .

وقال سلمان :

- إحنا وقفنا بنص الطريق .. علشان ناخد ها الزلمة معنا ، وكان معه مجموعة من الشباب .. ماشفنا إيش سووا بالضلمة !!

Ahmed Madv

وهكذا بدا أنهم جميعًا يتنصلون من التهمة ، فصرخ ناجي فيهم :

- إنتواح تلبسوهالي لأ .. ده أنا أوديكوا في ستين داهية .. أنا دبلوماسي سابق .

نظر الظابط نحوه بشك ، وقال :

- وإنت كنت شغال دبلوماسي .. وين حضرتك ؟!

قال ناجي مرتبكا :

- في .. في .. في تل أبيب .

ما أن لفظ ناجي بالكلمة الأخيرة .. حتى صرخ الجميع في هلع ..حتى الظابط .. الذي قال له متوعدًا :

- في إسرائيل !! ليلتك ما هي فايتة.. لازم تدفع تمن العمالة والخيانة !!

وقال بسام قائلا :

- والله ما نعرف هيك يا حضرة الظابط .. وإلا ما كنا خلیناه يحط رجله بالسيارة .. يا خاين يا عميل يا عديم الوطنية .

وأضاف ناصر معقبًا :

- يا حضرة الظابط .. القضية ما صارت قضية حشيش .. القضية صارت أكبر بكتير .. هادي جاسوسية .. اختراق من العدو للأمة العربية عن طريق ها الأشكال ، اللي بيلعبوا أقذر دور بالصراع العربي الإسرائيلي .

كان التليفزيون في مكتب الظابط يذيع نشرة الأخبار من قناة الجزيرة .. وقد بدا أن بسام وناصر وسلمان .. وحتى الظابط قد تأثروا باللهجة الحماسية ، وتحولوا فجأة إلى ثوار حقيقيين .

وسأله الظابط :

- لكن كيف مريت بالطريق .. مين أعوانك ؟!

Ahmed Madv

ولم يعطه سلمان فرصة لأن يرد ، وتبرع هو بالرد قائلا :

- يا حضرة الظابط ها الزلمة ما هو وحده .. معاه شبكة .. تشكيل عصابي .. شفتهم بعويناتي .

وصرخ ناجي فيهم جميعًا :

- قلبتوها قناة الجزيرة يا بتوع الحشيش .. يا عم أنا عاوز أكلم أبو حسين .. ما تقول كلمة عِدْلة يا بسام .. ما احنا كُنا زي السمن ع العسل!!

نظر بسام نحوه باحتقار ، وقال :

- اسمع يا خاين للوطن .. لساني ما يخاطب لسانك .. والله لولاش الحديد بيدي كنت نسفتك نسف .. فاهم .. نسف !!

وعلا صوت مذيع الجزيرة ، وهو يقول :

- إن خمسمائة أسرة عربية ستحتفل غدًا بعيدين .. عيد الفطر المبارك وعيد عودة المعتقلين الذين كانوا محتجزين بالسجون الإسرائيلية ، بعد أن أسرَ حزب الله سبعة جنود إسرائيليين ، وسيتم الاستبدال في صباح الغد .

وظهرت على الشاشة صورة للأسرى السبعة ، بينهم ناجي عطا الله ، وأشار بسام نحوهم منفعلا وقد لمح ناجي عطا الله ، وصرخ للظابط :

- هما .. وحياة الله .. هما .. وها الزلمة اللي واقف قدامك يا حضرة الظابط .

قال الظابط :

- هما مين ؟!

قال بسام :

- هما اللي أسرهم حزب الله .. لازم هربوا .. ها الزلمة ظابط إسرائيلي .

Ahmed Madv

نظر الظابط إلى ناجي عطا الله ، وإلى الصورة في التليفزيون ، وقد أدرك أنه هو .. وقال ناجي :

- الله ينور عليك يا بسام .. أنا بأة عاوزكوا تودوني لأبو حسين .. أنا خاين وعميل وابن ستين كلب .. بس الحشيش ده مش بتاعي برضه !!

وأخيرًا جاء أبو حسين إلى نقطة التفتيش ، كأنه طوق النجاة لناجي عطا الله .. وقد بدا أثر وقوة أبو حسين .. ما أن رآه الظابط حتى تهلل ، وهو يستقبله بكل احترام وتقدير .. وطلب أبو حسين من الظابط أن يخرج كل من في المكتب إلا ناجي عطا الله ..

في الخارج ، كان بسام وناصر وسلمان واقفين ، والكلابشات في أيديهم ، والحراسة واقفة بجوارهم .. وهمس ناصر لبسام :

- شو بيجري يا بسام .. طلعونا نحنا من الغرفة ، وتركوا ها الزلمة ناجي عطا الله وحده معهم .

قال بسام متشفيًا :

- زمانهم معلقينه من رجليه .. وبيدولوه فين يوجعك .

وتساءل سلمان :

- وإحنا إيه نظامنا يا بسام .. ح يعملوا فينا إيه ؟

قال بسام :

- ما تحمل هم يا سلمان .. الدولة تغفر أي شي إلا الخيانة .. وها الصهيوني العميل اللي وقع في إيديهم صيد ثمين .. دول مش بعيد يعطونا مكافأة .. نحنا اللي أسرناه .. ونحنا اللي جيبناه لحد هون ، وسلمناهولهم .

وبينما الثلاثة يتهامسون ، دخل أحد الجنود بصينية عليها أكواب الشاي والكعك ، فنظر بسام نحوه وسأله :

- لو سمحت يا خيو .. ها الشاي داخل لمين ؟

- لحضرة الظابط واللي معه .

Ahmed Madv

نظر بسام لمن بجواره .. مستغربًا ، وقال :

- يجوز الزلمة اللي دخل طلب اتنين شاي لنفسه .. مو معقول يعزموا على ها الخاين الصهيوني ، ويشرب شاي معهم !!

ولم يكد بسام ينتهي من جملته ، حتى وجد جنديًّا آخر يحمل أطباقًا عليها الكعك والبسكويت .. وداخلا إلى حجرة الظابط .. فهتف به في فضول :

- إذا سمحت يا خيو .. ها الكحك داخل لمين ؟

- لحضرة الظابط واللي معه .

- للتلاتة !!

- أيوة .. للتلاتة .

- الزلمة اللي كان معنا بالسيارة .. وقبضوا عليه ولبسوه الكلابشات .. شو عملوا معه ؟

- ما هو ده اللي طالبينله الشاي والكحك .

- يا الله !!

ودخل الجندي إلى حجرة الظابط ، وبسام يضرب كفًّا بكف ، ويكاد يفقد عقله .. وكلما تناهى إلى سمعه أصوات ضحك صاخبة تنبعث من حجرة الظابط ، ازداد غيظًا واندهاشًا ، وقد بدا أن الجو بين الظابط وناجي عطا الله قد صار وديًّا تمامًا .. فقال بسام في غيظ :

- سامع .. دول عم يضحكوا معه .. عرفت ليه ضاعت القضية .. هما بيعرفوا كيف يخترقونا .. كيف ياكلونا بالكلام .. وإحنا مانتشطر غير على بعضنا .. فهمت .. أنا من وقت ما قال لي مزراحي ، وأنا شاكك فيه ؟

كان أبو عبد الله قد ساعد فرقة ناجي عطا الله على تصليح الإطارات المثقوبة ، وجاءت السيارة معه إلى نقطة التفتيش اللبنانية .. حيث صعد إليها ناجي عطا الله ، ومضت السيارة بالجميع إلى نقطة التفتيش السورية بمساعدة أبو حسين ، وخرجت من نقطة التفتيش متجهة نحو الشام .

Ahmed Madv

الفصل السابع

أمام فندق مال الشام الـمُطل على جبل قيسون بدمشق ، وقفت السيارة ونزل منها ناجي عطا الله وفرقته ، وحملوا الحقائب التي بها ملايين الدولارات وطلعوا إلى المبنى .. ما أن دخلوا إلى اللوبي ، حتى وجدوا من يقف خلفهم ، فاتحًا ذراعيه هاشًا باشًا بلهجة أهل الشام الحلوة :

- يا ميت أهلا وسهلا .. يا مرحب يا أستاذ ناجي .. اتفضلوا يا شباب محسوبكم ، ريمون مدير الأوتيل ..

ثم نظر للجرسونات ، وقال غاضبًا بافتعال :

- فين الويلكوم درينك .. ما قدمتم شي للأستاذ ناجي والشباب .. اتفضلوا .. اتفضلوا .. عندي بالمكتب .. أهلًا وسهلًا ناجي بك .

ودخل ناجي وريمون معه مستمر في أسطواناته وترحيبه .. وقال :

- أبو القاسم موصي عليكم كتير .. كان قال ح تيجوا إمبارح .. إيش أخركم ؟!

- ظروف بأة يا ريمون .. كل تأخيرة وفيها خيرة ..

- يا مرحب بأهل مصر وناسها الحلوة .. ببلدكم التاني الشام .. أو سوريا زي ما بتسموها .

- وهي مصر وسوريا إيه .. ما واحد ؟!

Ahmed Madv

- إيه والله .. واحد .. عمار يا مصر .. بلد الفن والجمال والناس الحلوة .. تعرف يا أستاذ ناجي .. أنا ما بعرف أنام كل ليلة إلا إذا شفت فيلم لإسماعيل ياسين .

- هوه إسماعيل ياسين ده طالع لي في كل حتة !!

- باعشقه .. باعبده .. كيف ما يعمل هيك بتمه .. ما أقدر أمسك نفسي من الضحك .. وإن شاء الله قاعدين ليلة واحدة برضه ؟!

- إن شاء الله .. بيني وبينك إحنا عاوزين ننام .. بقالنا فترة ما نمناش .

- أستاذ ناجي .. السويت تبعك جاهز .. وغرف الشباب كلها جاهزة .

- طيب مش ح تشوفوا الباسبورات .. نملا أبليكيشن .

- والله عيب اللي بتقوله هادا يا أستاذ ناجي .. إنتم جايين من طرف أبو القاسم .. يعني ها الأوتيل بتاعكم ، وإحنا اللي ضيوف عندكم ..

قال ناجي لنفسه :

- ده أبو القاسم ده باين عليه جامد قوي هنا .

- شو بتقول أستاذ ناجي ؟!

- لا .. بقول كتر خيره أبو القاسم .. عاوز أدفع الليلة دي مقدم لو سمحت يا ريمون .

- والله عيب اللي بتقوله هادا يا أستاذ ناجي .

- بس ما يصحش يعني يا ريمون .

- مصاري .. جاي تكلمني أنا في مصاري .. إنت لسه ما بتعرفني مليح ولا بتعرف نظام ها الأوتيل .. إحنا ما يهمنا المصاري .. ياما ييجي هون زباين بمصاريهم ومليارديراية .. وما ندخلهم .. ما يعجبونا .. إحنا هون بنختار الرجال اللي يقعدوا معنا .. كيف ما بتقولوا يا مصريين .. أبنشتري راجل .

- والله ده نظام حلو قوي يا ريمون .

Ahmed Madv

- أمال .. إنت مش بتقول قاعد ليلة واحدة . وأنا بأراهنك على اللي بدَّك إياه .. بكرة الصبح ح تجيني وتقوللي ح نمد الإقامة يا ريمون .

- لأ .. أصل إحنا مرتبطين بأشغال في مصر .. ح نيجي مرة تانية إن شاء الله .

وضغط ريمون على الجرس ، ليدخل البولمان (جورج) ، وقال له ريمون :

- يا جورج .. طلعوا الشناطي تبع ناجي بيك والشباب على الغرف .

- لأ .. الشناطي ح نطلعها إحنا .. ما تتعبش نفسك يا ريمون !!

داخل الأسانسير ، وقف ريمون يعرض خدماته ، فهمس لناجي :

- عندنا بالطابق الأول أحلى صالون تجميل بالشام .. اللي بيحب يساوي مساج يعمل أضافير رجليه .. ساونا .. بخار .. إنكيس .. إندلك .

- هوه أبو القاسم قالك تكيسنا برضه .. عمومًا إحنا متكيسين جاهزين ..

ابتسم الشباب في خبث ، وأضاف ريمون :

- وعندنا بالطابق الأخير المطعم الدوار ..

ورد عبد الجليل :

- أهو ده الكلام .. إحنا واقعين من الجوع يا ناجي باشا .

وشعر ريمون أنه وجد صيدًا ثمينًا ، فقال :

- كل أكلات الشام الحلوة عندنا إياها .. شو بدك .. بدل سجقات فتات .. نخاعات .. بيضات غنم .

- هوه الغنم بيبيض هنا يا ريمون ؟!

- لا .. يا ناجي بك .

ثم همس في أذنه :

- وعندنا ديسكو تيك تحت بكل الشام ما فيه أخوه !!

Ahmed Madv

قال إبراهيم فرحًا :

- أهو ده الكلام ..

- وإذا حبيت يا أستاذ كل مرة تحت بتفك مشنوقة .. عندنا الروسيات والأوكرانيات والبِيلاروسيات .

- هوه أبو القاسم قالك إيه بالظبط عني .. ده هي ليلة وراجع على مصر !!

- فهمت .. حضرتك قومي عروبي .. لا تؤاخذني .. كيف راحت عن بالي .. شيلك من الديسكو .. عندنا هون مطعم شرقي عربي أصيل .. اسمه «ألف ليلة وليلة» .. كل رقّاصة يا أستاذ عم بترقص بتفك مشنوق .

- اسمع يا ريمون .. فُكك إنت من المواضيع دي .. إحنا لا ح نروح هنا ولا هنا .. إحنا قاعدين في أوضنا لحد ما ييجي أبو القاسم .. إحنا لا بتوع ديسكوهات ولا رقّاصات .. إحنا ممكن نجرب بيضات الغنم يعني !!

- على راحتك يا ناجي بيك .. هادا السويت بتاعك ودول الغرف .. الدور من بابه .. ما فيه حد غريب .. اتفضل شوف .

ودخلوا جميعًا إلى السويت خلف ناجي وريمون ، الذي لم يتوقف ثانية واحدة عن الكلام .. ووضعوا الحقائب الكثيرة في غرفة الاجتماعات بالسويت .. وأزاحوا الكراسي والترابيزات .. ورصوها متجاورة فوق بعضها البعض .. نظر ريمون مندهشًا لما يحدث ، وقال :

- إنما ليش تعذب نفسك هيك مستر ناجي .. لو بدك الشناطي أحطهم لك بالمخزن .. أنا ما عندي مانع .

- وبعدين بأة يا ريمون .. إنت ناوي تبات معانا في السويت ولا حاجة !!

- أنا آسف .. إنما أي شيء بدك إياه، بس رنة صغيرة على الريسبشن ، ح تلاقيني قدامك .. بخاطركم .

Ahmed Madv

وخرج ريمون وأغلق الباب خلفه ..

وقف الجميع أمام ناجي ، وهو يصدر إليهم تعليماته قائلا :

- شوف بأة ياد إنت وهوه .. إحنا قاعدين هنا ليلة واحدة ، وراجعين بكرة على مصر.. مش عاوز مشاكل ..

* * *

في سوق الصالحية بسوريا ، انطلق الشباب في حالة من السعادة الغامرة .. لقد نجحت العملية ، وصاروا مليونيرات بالفعل .. الدولارات في جيوبهم تدفئها .. والبضائع في سوق الصالحية كثيرة ومتنوعة .. بالإضافة إلى طريقة أهل الشام الرائعة في جلب الزبائن .. كانوا يشترون ملابس .. حلويات .. أي شيء .. وذهبت نضال إلى أغلى محل كوافير بالشام ؛ لتعمل شعرها .. كانت لأول مرة تريد أن يراها حسام .. كأنثى .

في سويت ناجي ، كان ناجي جالسًا ومعه تهامي .. وحقائب الدولارات ملقاة بجوارهما .. وبعد أن أعد تهامي كوبين من الشاي .. وقدم أحدهما لناجي ، سأله بحب طفولي :

- ناجي بيه .. إحنا بعد ما نرجع مصر ، ح تسيبنا تاني ؟!

- السؤال ده ليه يا تهامي .. إنت راجع مصر مليونير .. عاوزني في إيه تاني ؟!

- أنا كنت ضايع ، ومعنديش أمل في أي حاجة .. من ساعة ما لقيتك ، حاسس إني أقدر أعمل معجزات .. خللي فلوسي معاك .. وشغلني .. معاك .

ربت ناجي عليه بحب دافق .. كان يشعر بأبوة حقيقية تجاه تهامي بالذات .. وفجأة سمعا طرقًا على الباب .. ففزع ناجي واقترب من الباب وهتف :

- نعم !!

- افتح يا ناجي بيه .. أنا ريمون .

Ahmed Madv

فتح ناجي الباب ، فدخل ريمون يتلصص بعينيه نحو حقائب الفلوس ، وقال متلعثمًا :

- أنا آسف .. ما بحب أزعجك .. إنما أبو القاسم أتصل وهوه بده يشوفك .. ح يبعت لك السواق بعد شي ربع ساعة .. بس بتكون جاهز باللوبي .

- حاضر .. حاضر يا ريمون .. إنت بتبص على إيه يا ريمون ؟!

قال ريمون ، وهو يعدل نظره عن الحقائب ، مرتبكًا :

- لا .. ما فيني بأبص على شيء !!

- بص يا ريمون .. إحنا عندنا الشنط في مصـر حُرمة .. زي الست بالظبط .. اللي يبص على شنطة غيره زي اللي يعاكس مِرات غيره .

* * *

بوابة فاطمة التي يتم عندها تبادل الأسرى بين إسرائيل وحزب الله .. بوابة ضخمة وأسلاك شائكة وأسوار عالية حديدية .. أمامها طريق صغير ، يفصل بين البوابة ومنطقة صحراوية .. وأمام البوابة القوات الإسرائيلية ، والقوات الدولية واليونيفيل أيضًا .. وعلى الجانبين عدد كبير من الأهالي في انتظار الأسرى ، الذين تم تسليمهم لكل طرف .. غالبًا ما يتم هذا بإشراف ألماني ، وعدد من السيارات السياحية واقفة بالمكان في انتظار حمل الأسرى إلى ذويهم .. على أحد الجانبين، كان أبو حسين ورجاله المسلحون ، ومعهم الأسرى الإسرائيليون، ومن بينهم يوسي كرمي الذي كان وجهه ممتلئًا بالشعور بالإهانة .. وهنا وهناك كان بعض الرجال يحملون برادات الشاي والقهوة ويوزعون على الجمهور.. ويقبضون ثمن الشاي والقهوة بالطبع .. فمكان تسليم الأسرى بحكم الواقع .. مكان أكل عيش وسبوبة حلوة للبعض .. وكلما خرج أحد الأسرى الفلسطينيين.. يجد أهله أمامه فيجري نحوهم بكل حب .. وشوق .. وينفجر الجميع في البكاء.. خرج شاب وسيم .. في نحو الثانية والثلاثين .. كان يبتسم في سعادة ، وعيناه

Ahmed Madv

تدمعان .. كأنه لا يصدق أنه خرج .. لا أحد ينتظره .. ولا ينتظر هو أحدًا .. بينما كان عم زياد .. وولداه (حامد ونجيب) يرقبون الموقف .. والأب ينظر في شوق جارف ، ويسأل أولاده :

- وينه طارق .. مش شايفه ؟!

قال حامد :

- لازم نسأل يا حاج .. أكيد خرج !!

قال زياد بأسى :

- نسأل مين يا حامد .. مين اللي يقول لأب .. هادا ابنك !!

اقترب الشاب الوسيم منهم ونظر نحوهم .. تعلقت عينا زياد بعيني الشاب .. كانت تلك أول مرة يرى فيها الأب ابنه بعد 16 سنة .. الملامح تغيرت بالطبع .. الذي لم يتغير هو مشاعر الأب تجاهه .. فدمعت عينا زياد .. وفتح طارق ذراعيه وجرى ، وألقى بنفسه في أحضان أبيه .. وانفجر الجميع في البكاء ..

* * *

في مكتب واسع جدًّا .. وأنيق .. ومخيف في نفس الوقت .. كان أبو القاسم جالسًا على مكتبه .. رجل في نحو الخامسة والأربعين .. حاد الملامح .. ثاقب النظرة .. استقبل ناجي بجدية ، وليس بترحاب مبالغ فيه .. وقال دون أن ينظر إليه :

- عجبتكم الشام ؟!

- والله إحنا ما لحقناش نشوفها .. أصلنا لسه واصلين حالا .

قال أبو القاسم ، وهو ينظر على شاشة اللاب توب الموضوع أمامه :

- عندكوا وقت تشوفوها .. أنتوا ح تعيِّدوا معانا بالشام !!

- لأ .. نعيد إيه يا أبو القاسم .. إحنا ورانا عيديَّات لازم ندفعها في مصر .. ده إحنا لو نقدر نمشي دلوقت يبأة أحسن !

Ahmed Madv

- كل الطيارات كومبليت في العيد .. ح تستنوا يومين تلاتة بالكتير .. عشان تمشي إنت والشباب والأشياء اللي معاكوا ، لازم ترتب حالك مع ناس كتير .. ده لو معك شنط حلويات شامية ، ما تقدر تطلع بها الكمية كلها .

- يعني إيه ؟ ح نفضل قاعدين في سوريا ؟!

- بعد العيد .. ح نرتِّب كل شيء .. الشام حلوة .. ح تنبسطوا كتير هون ..

* * *

في صالون التجميل ، كان الأولاد يعملون أظافرهم ووجوههم ، ويدلكون أجسادهم التي أنهكها التعب والرحلة ، وكان الشيخ حسن قد حلق ذقنه بطريقة أنيقة وعطَّرها .. وعبد الجليل يعمل أظافره باديكير ، وإبراهيم يقص شعره بطريقة عصرية .. والتفت إبراهيم إلى الشيخ حسن ، وقال :

- يااااه .. الدنيا أحلوت فجأة يا جدعان .. أنا حاسس إني بأحلم .

- إن بعد العُسر يسرا .

نظر إبراهيم ساخرًا نحو عبد الجليل ، وقال :

- بقالهم تلات ساعات في ضوافر عبد الجليل ، عليها جلخ ، بقاله تلاتين سنة !!

فانفجروا جميعًا ضاحكين ، وقال عبد الجليل :

- خليك في حالك يا إبراهيم .. إنت ح تشتغلني !!

وأضاف حسام :

- أنا صعبان عليّا ناجي باشا .. قافل على نفسه الأوضة ، وحارم نفسه من مُتع الدنيا .

قال إبراهيم :

- خليه قاعد في الأوضة جنب الفلوس .. ربنا يهديه وماينزلش .

* * *

Ahmed Madv

في غرفة المساج بالأوتيل ، كان ناجي راقدًا على بطنه ، وقد أخفى وجهه .. وعدد من الفتيات يدلكن جسمه ويكيسنه .. وفتاة روسية رائعة الجمال هي التي تقوم بذلك ، فنظر نحوها ناجي بإعجاب ، وسألها :

- Where you from?

- Russia

- روسيا .. أحسن ناس .

ضحكت الفتاة حيث لم تفهم ما يقوله ، فقال ناجي مفسرًا :

- يعني You are the best people in the world.

- Where you from?

- Egypt

- I love Egypt

- وهي إيجيبت وروسيا إيه ؟ ما واحد .

لقد أصابتهم جميعًا لوثة الاستمتاع بالحياة .. فانطبق عليهم المثل المصري الشهير (كان في جره وطلع لبره) .. وبعد أن رأوا الموت بأعينهم أكثر من مرة .. كان عندهم شبق ورغبة عارمة في الحياة .

* * *

لوثة أخرى أصابت آخرين في نفس الوقت على بُعد عدة كيلومترات قليلة من هنا .. في مكتب الموساد ، كان مناحم جدعون ينتظر على أحر من الجمر الأسرى السبعة ، الذين أفرج عنهم أخيرًا ، ودخل شاؤول قائلا :

- الأسرى وصلوا يا سيد مناحم في مكتب سيادتك دلوقتي .

- حمد الله ع السلامة .. أنا مستنيهم من الصبح .

- إنما مش كتير 500 أسير نفرج عنهم عشان السبعة دول ؟!

Ahmed Madv

- لأ .. مش كتير يا شاؤول .. دول يساووا وزنهم دهب .. دول ح يجاوبولنا على أسئلة كتير .. كانت ح تفضل من غير إجابة للأبد .

ومضى مناحم إلى أحد المكاتب ووراءه شاؤول .. ودخل ليجد الأسرى السبعة واقفين ، ورجال الأمن يحيطون بهم ، ومن بينهم يوسي كرمي .. اندهش مناحم ، حينما رآهم وتساءل في ضيق :

- مين دول يا شاؤول ؟!

- دول الأسرى يا مستر مناحم !!

- لأ .. دول مش الأسرى !!

- إزاي يا مستر مناحم ؟! هما دول اللي بدِّلناهم مع حزب الله النهاردة الصبح .

خبط مناحم بيده على المكتب في ضيق وغضب ، وقال :

- مش دول .. قلت مش دول !!

حالة من الذعر انتابت الجميع .. الأسرى والحرس .. قال يوسي كرمي :

- أنا عاوز أتكلم يا مستر مناحم ..

فتمالك مناحم أعصابه ، وقال :

- ح تتكلم يا يوسي كرمي .. كلكوا ح تتكلموا .. هوه إحنا قاعدين هنا عشان إيه ؟ غير عشان نتكلم .. أنا ح أقعد مع كل واحد فيكوا لوحده .

* * *

كان ناجي جالسًا في اللوبي بأوتيل مال الشام .. حينما دخل أسعد سعادة ، وهو رجل في نحـــو الخامسة والخمسين من العمر .. يبدو عليه الطيبة .. يرتدي ملابس السكيوريتي الخاص بالأوتيل .. تغيرت ملامح ريمون حينما رآه ، وكأنه قد ضبط لصًّا ووضع يده على كتفه بقوة ، وقال :

- أهلًا أسعد بيك .. لا تواخذنا ما حطينا لك مراسم ولا فرشنا رمل !

Ahmed Madv

- يا أستاذ ريمون مرتي تعبت ، وما قدرت أسيبها إلا لما خليت حد من الجيران يقعد معها .. الطريق زحمة .. كله طالع الجبل عشان العيد .

- مالي أنا بمرتك وبالزحمة .. إنت زلمة ما بتقدر المسئولية .. روح أخلع تياب الشغل وماتفرجيني وجهك .

- أرجوك يا أستاذ ريمون .. أرجوك .. أنا باشتغل هون من شان أكل عيش .

- ليش ما فتحناها جمعية خيرية !!

وتقدم ناجي نحو ريمون ، محاولا تهدئة الجو ، وقال :

- فيه إيه يا ريمون .. بطل افترا بأة .. الراجل بيقولك ظروف اللي أخرته .

- عفوًا ياناجي بيك .. إنت ما بتعرف ها الأشكال ..

- سيبه ياكل عيش يا ريمون .. الراجل باين عليه محتاج فعلًا .

- اللي بدك إياه يا ناجي بيك .

ثم التفت لأسعد ، وقال :

- والله لولا ناجي بيه إتدخل ، ما كنت رحمتك !!

ومضى ريمون تاركًا ناجي مع أسعد ، الذي وقف يمسح دمعة نزلت من عينيه ، أزالها بشموخ وكبرياء .. فربت ناجي على كتفه وقال :

- ما تزعل يا أخ ....

- أنا باتشكر لك يا ناجي بيك .

- اسم الكريم إيه ؟!

- أسعد .. أسعد سعادة .

- عندك أولاد يا أستاذ أسعد ؟!

- اتنين .. سعيد وسعاد .

- ده إيه السعادة اللي إنت عايش فيها دي كلها ؟!

Ahmed Madv

- اسمي أسعد .. وعمري ما دوقت طعم السعادة في حياتي .

- لا حول الله يارب .

- أنا باشتغل بالنهار موظف حكومة بمصلحة الكهربا لحد الساعة تلاتة .. وباجي هون أشتغل في الأوتيل لحد الساعة 11 بالليل .

- ربنا يديلك الصحة .. أظن ما بتروح البيت مقتول طبعًا .

- البيت .. وينه البيت يا ناجي بيه .. أنا بعد ما أخلص شغلي هون .. باطلع على نايت كلوب بالشام .. بأشتغل جرسون لحد الصبح .

- أمال جيبت سعيد وسعاد إزاي ؟!

- ده كان أيام زمان .. إنما الحين .. داير في دوامة .. من هون لهون .

- وشغال إيه هنا يا أسعد ؟!

- بالأمن .. وعمري ما دوقت طعم الأمن والأمان في حياتي .. لولا .. زعيلة مرتي شايلة البيت والأولاد ، كنت انتهيت من زمان !!

- زعيلة .. إنت مراتك اسمها زعيلة ؟!

- إيه ؟ زعيلة ..

- ما يمكن دي اللي جايبالك الفقر .. حد يتجوز واحدة اسمها زعيلة !

وضحك أسعد لأول مرة ، وقال ناجي :

- أيوه كده فرفش .. ولا يهمك يا أبو سعيد .

ثم أخرج ناجي ورقة مالية ، ودسها في يده ، فاعترض أسعد في البداية .. ثم قبلها ، وقال :

- الله يخليلي إياك يا ناجي بيك .

ودخل تحسين بيك جواهرجي الأوتيل ، وهو رجل في نحو الخمسين .. تبدو عليه أمارات الخبث والبُخل .. وما أن وجد أسعد .. حتى صرخ فيه :

- يا أسعد .. خبِّر ابنك يبعد عن بنتي .. أحسن وحياة الله أنسفه نَسِف .

Ahmed Madv

- شو حصل يا تحسين بيك ؟!

- إذا كُنا وافقنا ع الخطوبة .. ما توصل لهيك .. شو إلُه عندها ، واقفة مع رفيقها بالجامعة حتى يبهدلها قدام الكل .. أنا ما بدي ها الجوازة ..

وتدخل ناجي قائلاً :

- الله .. ما هو الواد لازم يتدخل طبعًا .. دمه حُر .. شايفها واقفة مع رفيقها .. وعاوزه يسكت !!

نظر تحسين نحو ناجي مستاءً ، وقال :

- مين ها الزلمة .. وإيه اللي يدخله في الكلام ؟!

قال ناجي :

- هي بنتك كانت واقفة مع مين ؟!

- مع رفيقها .. رفيقها !!

- وإنت كمان موافق .. لا .. أسمح لي .

- أسعد .. أنا حذرتك .. وهادا آخر كلام بيني وبينك .

وتركه تحسين ومضى ، ونظر ناجي نحوه ، وقال :

- مين ده يا أسعد ؟!

- تحسين بيك الجواهرجي .. عنده محل دهب بالأوتيل ، وابني سعيد بيحب بنته .. وكُنا قاريين فاتحة .. إنما يظهر إنها مش ح تتم .

- ليه بس يا أسعد ؟!

- ها الزلمة طالب شروط تعجيزية .. قال لي الشبكة عشرين ألف دولار .. المهر مليون ليرة متقدم ومليون ليرة متأخر .. البيت أقله تلات غرف وصوفا .. بحي المزة .. ما تقل عن ميت ألف دولار .

Ahmed Madv

- دي طلبات صعبة قوي .. ما فكرتش تستعين بصديق ليه ؟

- وينه ها الصديق في ها الزمن الصعب يا ناجي بيك .. بعد إذنك .

ومضى أسعد حزينًا ، وهو يكلم نفسه .. ويضرب كفًّا بكف .

* * *

في مكتب الموساد ، كان مناحم جالسًا مع واحد من الأسرى ، الـمُفرج عنهم في مكتب مستقل .. وحدهما .. وهو يلعب بفتاحة ورق .. وينظر إلى الناحية الأخرى .. كأنه لا يكلمه .. ويردد :

- لأ .. القصة مـش عجبـاني يا ديڤيد .. قصة ركيكة قوي .. شوف يا ديڤيد ياحبيبي .. إحنا خلاص بطلنا نشتغل بجهاز كشف الكذب .. عارف ليه ؟ عشان أنا شخصيًّا جوايا جهاز كشف الكذب .. إنت رايح مزارع شبعا عشان تجمع الزيتون .. وقال إيه ؟ لقيت خبطة على دماغك .. ما دريتش بروحك إلا وأنت في الأسر .. خفيفة قوي يا ديـڤيد !!

- ده اللي حصل يا مستر مناحم ..

- يعني معندكش قصة تانية تحكيهالي يا ديڤيد ؟!

- أنا مش عارف سيادتك تقصد إيه ؟ أنا كنت مأسور وأعصابي تعبانة .. حضرتك بتكلمني كأني مذنب !!

- أنا آسف يا ديـڤـيد إني تعبت أعصابك .. إحنا كمان أعصابنا محروقة هنا .. استحملني شوية أصل أنا عندي قصة تانية .. ممكن أحكيهالك .

نظر ديڤيد للناحية الأخرى في ضيق ، وتنهد معترضًا ، فقال مناحم :

- ما تتخنقش بسرعة كده يا ديڤيد .. إحنا عشان نفك أسركوا دفعنا كتير .. كتير قوي .. مستخسر فينا الكام دقيقة اللي أنا قاعد فيهم معاك دول !!

- اتفضل يا سيد مناحم ..

Ahmed Madv

- يعني لو أنا الدنيا مقفلة في وشي ، وجالي واحد قاللي إيه رأيك تشتغل أسير لمدة كام يوم ، وتاخد مليون دولار .. يا ترى كنت ح أعمل إيه ؟

- دي نكتة يا سيد مناحم .. ومحدش في الدنيا يتخيل اللي سيادتك بتقوله ؟!

- أمال أنا ليه باتخيل يا ديڤيد ؟!

- مين اللي يرمي نفسه في النار عشان الفلوس ؟!

- كويس .. أهو شوف بدأت تشتغل معايا .. بس السؤال الأهم .. مين اللي عمل الصفقة دي ، وعرض عليك تمثل دور أسير لمدة أسبوع ؟!

- إنت بتتكلم كأن ده اللي حصل.. وده محصلش .. اللي حصل قلتهولك !!

وقف مناحم مقلدًا ديڤيد ،وقال :

- واقف بتجمع الزتون وخبطة على دماغك .. لقيت نفسك في الأسر .. مش عارف ليه يا ديڤيد مش قادر أبلعها .. الله يكون في عون اللي بيكتبوا الأفلام .. لازم يطلع عينيهم عشان الناس تصدق .

* * *

من المطعم الدوار بالأوتيل ، كانت جبال الشام مضاءة بالليل في منظر ساحر للغاية .. الأرض هنا غالية جدًّا .. ولهذا فهم يتمسكون بها حتى آخر قطرة دم .. دخل ناجي ، وقد ارتدى بدلة أنيقة للغاية وكرافاتة ومنديل وساعة ماسية ، كانت تبرق في يده ، ونظر بسعادة إلى المكان وخلفه مدير المطعم ، يخرج له الكرسي ويجلسه على الترابيزة .. وفجأة ظهر ريمون واقفًا وراءه ، كعفريت المصباح ، وقال :

- تحت أمرك ناجي بيك !!

- الله .. إنت هنا برضه .. إنت ورايا ورايا يا ريمون !!

- على راسي .. تقبرني .

- مش عندكوا بيضات غنم برضه !

Ahmed Madv

- أحلى بيضات بالشام كلها .. خليني أسويهم لك عاكيفي .

جلس ناجي يتأمل المنظر بسعادة .. كان صوت فيروز ينبعث من سماعات القاعة .. وأغنية (شايف البحر شو كبير .. كبر البحر بحبك) .. نظر إلى نهاية القاعة ، حيث وجد كاميرا ومصورًا ومخرجًا ، وطاقم التصوير .. ثم على تراس المطعم.. وقفت امرأة مكتملة الأنوثة شديدة الجاذبية .. كان ناجي يتأملها بإعجاب .. كانت تمسك بسيجار .. وضع الجرسون الأطباق على الترابيزة أمام ناجي ، وريمون واقف بجواره .. فسأله ناجي :

- إلا قوللي يا ريمون .. هما بيصوروا إيه هنا ؟!

- برنامج للتليفزيون السوري .

أشار ناجي نحو كاميليا ، وقال :

- ودي ممثلة ؟!

- لا .. هادي مدام كاميليا صبحي .. مصرية .. شخصية مهمة كتير .. تبع الأمم المتحدة ، وناشطة من ناشطات السلام .

نظر ناجي نحوها بإعجاب ، وقال :

- دي ناشطة قوي يا ريمون !

بدأ تصوير البرنامج ، وبدأ المذيع حوار مع كاميليا :

- الدكتورة كاميليا صبحي .. أهلًا بيكي ببلدك التاني سوريا .

- أهلًا وسهلًا .

- كيف ترى الدكتورة كاميليا المشهد السياسي بالمنطقة ؟

- قبل ما نتكلم عن الصراع العربي الإسرائيلي ، يجب أن نتكلم عن الانقسام والتشتت العربي في المنطقة .. المشكلة ببساطة إن دول واقعين مع دول .. عاوزين يخلصوا على دول .. ييجوا دول يدعموا دول مش حبًّا في دول .. إنما عشان يوقعوا دول .

Ahmed Madv

واندهش ناجي .. كاميليا تقول الكلام الذي يردده دائمًا .. شيء رائع أن يردد الناس أفكارك .. والأكثر روعة أن ترددها امرأة صارخة الأنوثة ، مثل كاميليا .. ذهب ناجي نحوها ، وهو يصفق محييًا إياها ويقول :

- أحسنتِ يا دكتورة .. اسمحيلي أعبر عن إعجابي بكل كلمة قولتيها .. إنتي لخصتي القضية وبالذات في الشوية الأخرانيين دول .

- متشكرة قوي .. إنت مصري ؟

- أنا ناجي عطا الله .. رجل أعمال مصري .

- فرصة سعيدة قوي .

- تسمحيلي أعزمك ع العشا .

- مرسيه قوي .. أنا ما باتعشاش .

- دي بيضات غنم حاجة خفيفة قوي .. ح تسيبيني آكل لوحدي برضه !

- أمال الفرقة اللي معاك راحت فين ؟!

- فرقة إيه ؟!

- ما أنا شايفاكوا وإنتوا داخلين الأوتيل مع بعض .. دول أولادك .

- لأ .. أولاد مين ؟.. أنا مش متجوز .. دول .. دول فرقة التايكندو ، وأنا جايبهم عشان أعمل لهم معسكر تدريب .

- إنت مدرب تايكندو ؟!

- لأ .. أنا الراعي الرسمي .. ما هو لازم نعمل حاجة لمصر برضه !

- جميل إن الواحد يبأة عنده اهتمامات عامة في زمن محدش بيفكر فيه .. غير في نفسه .

- ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط .. هوه جوز حضرتك نازل معاكي في الأوتيل .

- لأ .

Ahmed Madv

- طيب كويس .. قصدي ما جاش معاكي ليه ؟

- أنا منفصلة عن جوزي من أكتر من عشر سنين .

- ده حمار !!

- إيه ؟!

- قصدي إزاي حد يبأة معاه جوهرة زي حضرتك ، ويفرط فيها .. لا.. عليًا الطلاق لنتعشى مع بعض .. أقعدي بأة .. ح تطلعي الأوضة تعملي إيه ؟!

- يا ناجي بيه .. أصل ...

- بلا بيه .. بلا تيه .. إنتي تقوليلي يا ناجي علطول .. اقعدي يا كيمو بأة .

جلست كاميليا مبتسمة صاغرة .. لا تعلم لماذا .. شيء ما ربطها بهذا الرجل الذي اقتحمها ، وكأنه يعرفها منذ عشرين عامًا .. لا أحد يعرف لماذا تقبل امرأة دعوة رجل تراه لأول مرة .. المرأة لا تفصح عن سر ذلك .. ولكنها تستطيع أن تقيم الموقف بإحساسها .. ونادرًا ما تخطئ في التقدير ..

* * *

في الديسكوتيك كان إبراهيم يراقص عددًا من الفتيات الأجنبيات ، في مرح ونشوة وانطلاق ، وكان عبد الجليل يرقص أيضًا بطريقة مضحكة مع امرأة أجنبية .. وقد جلس حسام ونضال يبتسمان .. وقد تسلل الحب إلى قلبيهما .. ما أروع هذه الحياة .. الكل في ابتسامات ورقص وحب وغناء .. وبالأمس القريب .. كان الموت وطلقات الرصاص .. والمطاردة الرهيبة .

في الديسكوتيك .. عاد عبد الجليل إلى الترابيزة .. وهو يجر المرأة الأجنبية .. وأزاح كأسًا بالكامل في فمه ، ونظر حوله .. وسألهم :

- أمال الشيخ حسن راح فين ؟!

قال حسام :

- بيلحق الفجر في السيدة زينب .

Ahmed Madv

- هو روَّح مصر !!

- لأ .. ما هو هنا فيه السيدة زينب برضه .

قال إبراهيم مندهشًا :

- إنت بتتكلم جد !

قالت نضال باسمة :

- والحسين كمان !!

- طيب ما تخلينا هنا بأة .. نرجع مصر نعمل إيه؟ هي مصر وسوريا إيه ؟!

قال الجميع ضاحكين :

- ما واحد !!

وفي المطعم الدوار ، كان ناجي وكاميليا يتناولان العشاء معًا ، وقد بدا أن العلاقة بينهما قد بدأت تتوطد ، فسألته كاميليا :

- إنما ما قولتليش .. إيه نوع البزنس اللي إنت بتشتغل فيه ؟!

- أنا شغلي كله بره مصر .. وفلوسي كلها بره مصر .. إنما أنا ناوي أرجع مصـر إن شاء الله .. بلدي أولى بيّا .

- أنا كل لحظة باتكلم معاك فيها ، بيزيد احترامي ليك .

كان ريمون قد غير الموسيقى في المطعم إلى أغنية (وابتديت دلوقتي بس أحب عمري .. وابتديت دلوقتي أخاف للعمر يجري) فقال ناجي في نشوة :

- الله يا ست .

ونظر نحو كاميليا بحب .. أما كاميليا فابتسمت في ثقة وأنوثة .

* * *

Ahmed Madv

في مكتب مناحم ، كان مناحم يحقق مع يوسي كرمي .. كواحد من الأسرى السبعة ، الذين تم استبدالهم مع حزب الله .. قال مناحم في ضيق :

- وبرضه خبطة على دماغك ما دريتش بروحك .. ولقيت نفسك في الأسر .. القصة دي بأت مملة قوي .

- أنا ما كملتش القصة يا سيد مناحم .. ادِيني فرصة أكمل .

- كُلي آذان صاغية يا يوسي .. اتفضل .

- اللي أسرنا .. مش جنود حزب الله .. اللي أسرنا ناجي عطا الله واللي معاه ..

- إنت شفتهم ؟!

- هما اللي خطفوا الأسرى السبعة ، وسلموهم لحزب الله .. أنا شفتهم بعيني .

- بس .. كده المسألة وضحت تمامًا .. ناجي عطا الله عمل بدل مع حزب الله يجيبلهم سبعة من عندنا عشان يفرجوا عنهم .. إنما إزاي ده حصل ؟ معقول ناجي واللي معاه يخشوا إسرائيل ، ويخطفوا سبعة ويخرجوا من غير ما حد يقاوم حتى .. كله يتخبط على دماغه ، ويتشال مفيش خبطة من دول تجلي .. طيب .. المهم دلوقت فين ناجي عطا الله واللي معاه .. راحوا فين ؟!

آه لو علم مناحم أين ناجي عطا الله وفرقته .. لانفجر من الغيظ حتمًا ..

* * *

كان إبراهيم وعبد الجليل يراقصان الفتيات في الديسكو تيك ، وكان حسام ونضال جالسين في شاعرية ، ودخل تهامي ، وقال في ضيق :

- أنا زهقت .. قاعد طول اليوم في السويت .. من حقي أنا كمان أسهر زيكوا ..

قال عبد الجليل :

- وناجي بيه عارف إن إحنا سهرانين هنا ؟!

- ناجي بيه كمان ما جاش .

Ahmed Madv

نظر حسام إلى تهامي ، وقال :

- ما جاش .. يعني إنت سايب الفلوس في الأوضة ، ونازل يا تهامي .

- يعني أنا أتحبس جنبها ، وإنتوا تقعدوا تهيصوا هنا .

- ناجي بيه لو طلع الأوضة مالقاش حد جنب الفلوس ، ح يطين عيشتنا .

قال إبراهيم :

- وهو راح فين لحد دلوقت .. ده بينام من المغرب !

كان ناجي لا يزال بالمطعم .. هو وكاميليا .. لم يعد بالمطعم غيرهما .. كانت الكراسي مقلوبة فوق المناضد ، وشمعة بينهما وموسيقى أجنبية .. وهما يرقصان معًا .. ثم يعودان إلى الترابيزة .. نظرت نحوه كاميليا وقالت :

- إنت إنسان عجيب جدًّا .

- إيه العجيب فيّا ؟!

- حاسّة كأني أعرفك من زمان ، مع إن إحنا ما اتقابلناش غير من تلات ساعات بس .. تعرف .. أنا قعدت متجوزة الراجل اللي كنت متجوزاه ده 15 سنة ، وطول السنين دي ، وأنا حاسة إنه راجل غريب عني .

- إنتوا سبتوا بعض ليه ؟!

- مفيش داعي تفكرني .

- ظبطتيه مع واحدة ؟!

- هو مفيش غير الجنس والخيانة ، اللي تخلي الراجل يسقط في عين الست !

- أمال إيه ؟!

- طلع حرامي .. سرق عشرين مليون جنيه ، وهرب بيهم بره مصر .

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. وده يتعاش معاه إزاي ده ؟! بس يمكن كان عنده ظروف لـ ..

Ahmed Madv

- مفيش أي مبرر للسرقة .. وعلى فكرة أنا لما عرفت أنا اللي بلغت عنه .

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. وقبضوا عليه ؟!

- هما الحرامية بيتقبض عليهم في الأيام دي ؟!

- ربنا يسمع منك يا شيخة ؟ إنتي ست محصلتيش .. وأنا سعيد جدًّا إني قابلتك !

- وأنا سعيدة أكتر إني قابلت راجل أعمال شريف زيك .

ورن تليفون كاميليا فرفعت السماعة .. وقالت مذعورة :

- أيوه .. معقولة .. إمتى حصل ده ؟

ثم نادت المتر ، وقالت بلهفة :

- هات الجزيرة بسرعة .

قال ناجي ملهوفًا :

- إيه .. حصل إيه ؟!

- سرقوا بنك بارليـف في إسرائيل ، والدنيا مقلوبة ..

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

على شاشة الجزيرة كان المذيع يعلن أن إسرائيل لم توجه بعد أصابع الاتهام نـحو من قاموا بعملية سرقة البنك ، وإن كانت تلوح بأن حماس وحزب الله لهما دور في العملية .. وعلى صعيد آخر ، صرح عضو في الكونجرس الأمريكي بأن أمريكا ستساند حليفها الإسرائيلي بضخ أموال لتعويض ما نهب من البنك ، والذى يقدر بحوالي عشرين مليارًا من الدولارات .

أغلق مناحم التليفزيون في غضب وشاط الأرض بقدميه .. ثم أخذ يفرك عينيه من الإجهاد ، وقال لشاؤول الجالس أمامه في ضيق :

- أعلنوا سرقة البنك في كل المحطات .. سُمعتنا بأت في الحضيض .. عملوا كل حاجة .. سرقوا البنك .. وطلعوا الأسرى بتوعهم .. ومرمطوا بينا الأرض ..

Ahmed Madv

وكل ده اللي عمله واحد اسمه ناجي عطا الله .. تخيل يا شاؤول .. رواية كوميدي فَارْس مَسْخرة .. عارفين الجريمة ، وعارفين المجرم ، ومش قادرين نتحرك خطوة .. مش قادرين حتى نتهمه .

- لا يمكن ناجي عطا الله يعمل كده لوحده .. لازم يكون له أعوان !!

- الكام عيل اللي واقفين جنبه في الصورة دول بتسميهم أعوان !

- لأ يا سيد مناحم .. أعوان هنا .. في تل أبيب !

- رافي إداله السي دي .. وعرفناها .. هوه اللي إداله الأسرى كمان !!

- أنا ما قصدتش ده يا سيد مناحم ..

- أنا عارف يا شاؤول .. أنا بحب أسأل أسئلة غبية ، بصوت عالي .. مين بأة اللي ممكن يساعده .. روني ميتال السمسار .. مزراحي صاحب القهوة .. عوفاديا السماك .. ولا مين ولا مين ؟ دي تل أبيب كلها حبايبه .. زمان ناجي عطا الله دلوقت قاعد يتمتع بفلوس الشعب الإسرائيلي ، وأنا وأنت قاعدين هنا حاطِّين إيدينا على خدنا .

* * *

في المطعم الدوار ، كانت كاميليا تتكلم بكل حماس عن وجهة نظرها فيما يحدث في المشهد العربي .. وناجي يحدق في شفتيها وعينيها .. وشعرها :

- أنا متفقة معاك يا ناجي .. اللي بيتقال ده كله مجرد تحرش بحماس وحزب الله .. وأنا لا أستبعد أن المخابرات الأمريكية تكون لاعبة دور مع الموساد ؛ لإيجاد باعث لضرب كل حركات المقاومة والثورة في العالم العربي .

كانت تتكلم كأنها تخطب في مظاهرة ، وناجي ينظر نحوها معجبًا بها .. ثم فجأة قطع حديثها اللاهث وسألها مباغتًا :

- تتجوزيني يا كاميليا ؟!

Ahmed Madv

- نعم !!

- تتجوزيني ؟!

- إنت بتقول إيه ؟ إنت مجنون .. إحنا لسه متقابلين دلوقت .

- أنا أبأة مجنون لو سبتك تروحي من إيدي .. إنتي الست اللي أنا بأدور عليها طول عمري .. إحنا نلبس دبل هنا في سوريا .. وأما نروح مصر نبأة نتجوز .

- ناجي .. إنت أكيد اتجننت !

لم تصدق كاميليا ما تسمعه بأذنيها .. ولكنها أحبت أن تصدق .. هكذا .. رجل تلقاه .. وبعد أقل من ساعتين يعرض عليها الزواج .. لابد وأنه مختل عقليًا والنساء يحبون الرجال المختلين عقليًا .

في المطعم ، كان ناجي يتناول الإفطار مع كاميليا .. فهمس لها بحب :

- إيه بروجرامك النهاردة ؟!

- وبتسأل ليه ؟

- يعني .. لو ما يضايقكيش تفرجيني على الشام .. أصل دي أول مرة آجي سوريا وواضح إنك خبيرة هنا .

- فعلًا .. أنا باعتبر سوريا بلدي التاني .. أصل أنا نصي سوري ونصي مصري .

- خلاص .. يبأة نتغدا مع بعض في أي حتة .

- للأسف مش ح أقدر .. أنا عندي ندوة شعرية في المركز الثقافي السوري .

- ده أنا بحب الشعر قوي .. آجي معاكي والغدا نخليه عشا .

- أنا معزومة على العشا النهاردة .. ولا يمكن أعتذر عنه أبدًا .

- مع مين ؟!

- راجل طيب جدًّا بيشتغل هنا في السيكوريتي اسمه أسعد .. أنا أصلي بحبه هو وعيلته جدًّا .. ولا يمكن آجي سوريا وما أزورهمش .

- أسعد بتاع السكيوريتي .. ده حبيبي .. مش مراته اسمها زعيلة !

Ahmed Madv

قالت كاميليا مندهشة :

- لحقت تعرف ده كله إمتى ؟!

قال ناجي ، وهو ينظر لها مغازلا :

- أنا أصلي بحب الناس قوي .. وحنين .. ودمعتي قريبة كمان .

ابتسمت كاميليا ، وأدارت وجهها بحياء أنثوي جميل .

* * *

كان عدد كبير من المثقفين في ندوة المركز الثقافي الروسي .. وكاميليا وناجي في الصف الأول وأحد الشعراء يلقي قصيدة بكل حماس :

سرقوا أحلامنا ..

سرقوا أيامنا ..

سرقوا أطفالنا ..

سرقونا وسرقوا أعمارنا ..

يا أيها القاضي

ما الحكم في لص جريء ..

وغد .. بذيء

ما الحكم فيمن يسرق الضحكة

من طفل بريء

قال ناجي بصوت مسموع ، كأنه يحادث نفسه :

- هما سرقوا الضحكة وإحنا سرقنا البنك .. نبأة خالصين !!

فتساءلت كاميليا :

- بتقول حاجة يا ناجي ؟

- لأ .. أنا قصدي يعني ح نقعد نعدد كده؟ ما نعمل أي حاجة ؟ هو لسه قدامه كتير .. أَصْلي شايف رزمة ورق قدامه .. هوه ح يقرا ده كله !!

Ahmed Madv

- مش بتقول إنك بتحب الشعر ؟!

- هوه اللي كان بيقوله ده شعر .. أنا فاكره لسه مابدأش .. يعني بيتكلم معانا عادي .

- ده شعر حديث .. شعر منثور .

- آه .. منثور .. مش تقوليلي !! أنا جاي على أنه شعر ، ألاقيه منثور !!

وعلا صوت الشاعر :

الديكتاتور الذي يحكم الدنيا هو الدولار ..

يتحول قنبلة تلقى على أفغانستان ..

وأجهزة إعلام تهدد إيران ..

وأساطيل حرب تنتشر كالأفعوان ..

في كل بلد من بلادنا وفي كل مكان ..

هو الدولار يتنقل من الأمريكان ..

إلى يد العدو الإسرائيلي الجبان ..

وضجت القاعة بتصفيق حار ، وقال ناجي معلقًا :

- وبعد كده بناخده إحنا .

قالت كاميليا مندهشة :

- مين اللي بياخده ؟

قال ناجي مستدركًا :

- أنا بسأل يعني الدولار يعمل له كام ليرة سوري !!

- 45 ليرة سوري .. بس هنا التعامل باليورو !!

- واخدين موقف من الدولار هنا ؟!

Ahmed Madv

- طبعًا .

- إحنا عندنا في مصر واخدين موقف من الجنيه .. مش عارف ليه ؟!

* * *

كان أسعد واقفًا في اللوبي .. وبجواره إبراهيم وعبد الجليل ، وقد بدا أنهم صاروا أصدقاء .. وقال إبراهيم :

- يعني إنت بتطلع من هنا ع النايت كلوب يا عم أسعد !!

وقال عبد الجليل متعاطفًا :

- راجل شقيان بياكل عيشه من عرق جبينه .. ربنا يبارك له .. أصل المكافح يحس بالمكافح اللي زيه بالظبط .

قال إبراهيم :

- طيب ما إحنا عاوزين نروح النايت ده يا عم أسعد !!

- على راسي .. وأنا خارج من هون باخدكم معي ع النايت .

- أنا سامع إن فيه أوكرانيات وروسيات .. تحف .. يفكوا مشنوق .

- إيه ؟ فيه .. إنما أنا مالي فيه ..

قال عبد الجليل :

- مفيش حريم عرب في النايت يا عم أسعد .. حد نعرف ناخد وندي معاه في الكلام .

- إيه موجود عرب .. بس قليل .. عراقيات .. مغربيات .

ودخل الشيخ حسن عليهم ، فأشاروا لأسعد أن يسكت ولا يتكلم أمامه ، فقال الشيخ حسن :

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

- وعليكم السلام .

Ahmed Madv

ثم سأل الشيخ حسن أسعد قائلًا :

- قوللي يا راجل يا طيب .. إزاي أروح المسجد الأموي ؟!

- هادا جار البيت عندي .. بيني وبينه تلات دقايق ركض !!

- خلاص يبأة لما تخلص شغلك .. نروح مع بعض تكسب فيّا ثواب.

هنا قال إبراهيم :

- لأ .. عم أسعد واخدنا مشوار يا شيخ حسن .

- سبحان الله يا أخي .. يوصلكم وبعدين يوصلني .

قال عبد الجليل :

- ما تاخد تاكسي يا شيخ حسن ، وتحل عننا !

ودخل ناجي إلى اللوبي ، وما أن رأى أسعد حتى هتف به بحب :

- عم أسعد يا جميل .. واحشني والله .. أنا عازم نفسي عندك ع العشا النهاردة .

- يا سلام .. والله نتشرف يا ناجي بيك .

- بس ما تجيبش سيرة لكاميليا إن أنا جاي .. عاوزها تبأة مفاجأة !

* * *

في مكتب ريمون بالأوتيل ، كان ناجي جالسًا أمامه ، ولا يعلم ما هو ذلك الموضوع الخطير الذي يريد ريمون أن يكلمه فيه على انفراد .. أغلق ريمون الباب ، وقال :

- عندي إلك مشروع يا ناجي بيه .. راح تشكرني عليه طول العمر .. مطعم مرتب بالشام القديمة .. عند باب توما .. وأنا أديرهولك .. والله باضمن لك ربح يومي عشر تلاف دولارع الأقل .

Ahmed Madv

- اسمع يا ريمون .. أنا مش جاي لك عشان تقعد تعرض عليا مشاريع كل ما تشوفني .. إديني فرصة أقولك أنا عاوزك في إيه ؟! أنا عاوز طقم ألماظ .. كولييه وأسورة وحلق .. بس عاوز حاجة بأة يا ريمون محصلتش .. تعرف لي جواهرجي كويس ؟!

- والله عيب ها السؤال يا ناجي بيك .. لما تطلب منى شي وما أعرف أنفذه .. يبأة هاد آخر يوم بعمري .. بالأوتيل جواهرجي اسمه تحسين بيك عنده أحلى وأحدث الموديلات .. كل العالم بالشام بتيجي من شان تشتري منه .. وبضاعته مكفولة .. الألماس تبعه نضيف .. ما تدور وراه .

- والأسعار إيه بأة ؟!

- هاد أرخص واحد .. ما بياخد مصنعية .. صاحب ذمة بيخاف الله .

ثم أشار ريمون إلى خاتم بأصبعه ، وقربه من عيني ناجي ، وقال :

- شايف ها الخاتم .. بالسوق حقه 25 ألف ليرة .. واخده منه بخمستاشر ألف ليرة وبالتقسيط .. ما كان عاوز ياخد ربحه .. الله يوفقه لتحسين بيك .

- طيب ما ياللا نروح له .. إحنا واقفين ليه ؟!

- اتفضل شرف !!

دخل ناجي وريمون إلى محل الجواهرجي بالفندق .. وهتف به ريمون :

- مِسَاك فُل يا تحسين بيك .

- أهلًا وسهلًا .

أشار ريمون إلى ناجي ، وقال :

- ناجي بك .. أحسن زبون عندي بالأوتيل .. وبده شَغْلة من عندك .. بس حاجة نضيفة .. وعاوزينك تكرمنا .

- طقم ألماظ ..

Ahmed Madv

نظر تحسين نحوه مندهشًا ، وريمون يبتسم في سعادة ، وقال تحسين :

- شو طقم .. طقم كامل ؟!

- أيوه طقم كامل ...

- شو المناسبة .. عرس .. ولا خطوبة ولا ..

- إنت مالك بأة يا عم تحسين .. وريني حاجة تعجبني ، وخد اللي إنت عاوزه .

قال ريمون :

- خلص يا تحسين .. شوح تحقق معانا .. شو عندك فرِّجينا .

وأخرج تحسين بعض علب المجوهرات ، وأخذ يعرضها عليه ، ولكن ناجي لم يعجبه أي منها .. وقال لتحسين :

- لا .. أنا عاوز حاجة تخبل .. تلعلط كده أول ما تفتح العلبة .

- طلبك موجود .. لكن ما هو .. هون .. ها الأشياء الثمينة ما بنحطها بالمحل .. عندي طقم ألماظ كامل حُر .. فيه 12 قيراط .

- أهو هو ده اللي أنا عاوزه !

- حقه 100 ألف دولار .. إذا بدك .

- أنا عاوزه الليلادي بس قبل الساعة سبعة !! .. وفلوسي جاهزة ..

قال ريمون :

- اعتبره موجود ناجي بيك .

خرج ناجي من محل الجواهرجي تحسين ليلحق بكاميليا ، وترك ريمون واقفًا بجواره مبتسمًا .. قال ريمون لتحسين :

- مبروك البيعة أبو نور .. وجهي حلو عليك .. موهيك .. ما تنكر !

- الله يبارك فيك .. الرزاق ربك .

Ahmed Madv

- الله بيعلم يا أبو النور شو حكيت بقفاك (من وراك) لناجي بك .. كان رايح عند مجوهرات الحلاق .. والله جيبته من على الباب .. قلت لأ .. تحسين بيك عنده أحسن شغلات بالشام ، وأرخص واحد بالبلد كلها .

- ريمون .. عطيني من الآخر .. شو بدك ؟!

- كلك مفهومية أبو نور .. (يضحك) .. وين حصتي ؟!

- نعم .. شو فـاتح تكية هون أنا ؟! قوم .. قوم عمي .. الزبون اللي نازل بالأوتيل إجه لحد عندي .. هوه إنتوا بتاخدوا مني بالسنة خمس آلاف ليرة ليش ؟ عشان تيجي تطلب مني كومسيون !!

- لا يا أبو نور .. والله فاجئتني .. مو معقول الحكي اللي عم تحكيه .. إنت أكيد عم بتمزح .. (يضحك) .. بتمزح ها .. ها .. ها .. يخرب بيت مزحك .

- أنا بالمصاري ما حد يقرب ناحيتي يا ريمون .. أتوكل على الله .

- ماشي .. ماشي يا أبو نور !!

وخرج ، وهو في قمة الغيظ ، وهو يصب لعناته على تحسين بك .

* * *

كان حسام يتكلم في حجرته ، في التليفون ، وهو في قمة الهلع :

- ساب دار الـمُسنين إمتى ؟ ومشي إزاي ؟ مين خرج معاه .. ده راجل قاعد على كرسي .. إزاي تسيبوه يخرج .. طيب .. طيب .

جلس حسام ، وقد ملأه الرعب على أبيه ، ثم انفجر في البكاء ، وقد شعر أن مكروهًا قد أصاب أباه الغالي .

في سويت ناجي بالأوتيل ، وضع ناجي عشر رزم من فئة مائة دولار في كيس ، واستعد للخروج .. فإذا بطرق على الباب .. فأغلق الحقيبة مسـرعًا ، وفتح الباب ليجد ريمون مبتسمًا كعادته ، ويقول :

- ناجي بيك .. بدي بس دقيقة واحدة معك .. فيه شغلة مهمة كتير !!

Ahmed Madv

- عاوز إيه يا ريمون .. أنا محبش حد ينط لي كده كل شوية !

- أصل الموضوع اللي عاوز أحاكيك إياه .. سر .

- خير يا ريمون ؟!

- خير بالتأكيد .

نظر ريمون نحو الحقائب .. وقد لمحت عينه الحقيبة ، وقد فتح جزء منها ، وبرزت رزم الدولارات منها .. وقال :

- ده إنت أبو الخير كله .. ربنا يخليلنا إياك .

- ريمون خش في الموضوع عشان أنا خُلقي ضيق !!

- أنا عندي إلك مشروع رَبْحان .. الشيطان نفسه ما يخطر على باله بالشام .. ما بأة عندهم خُلق .. مامته مرة تقعد تغسل .. لازم تجيبها الغسالة الكهربائية .. ولا تكنس .. لازم تجيب المكنسة الكهربائية .. هون بالشام سوق اسمه سوق التنابل .. تاخد الخضار والفاكهة جاهزة ع الأكل .. فهمت عليا !!

- أنا مش فاهم منك أي حاجة !!

- ما دام الناس عاوزين كل شيء ع الجاهز .. إحنا نضرب ضربتنا .

أخرج ريمون كتالوجات ، وأخذ يعرضها على ناجي :

- هادي مفرمة بقدونس .. وحفارة كوسة وبتنجان .. وقطاعة بطاطا .. وقشارة لب .. صناعة ألماني .. وأنا باضمنلك ، إذا أخدت التوكيل تبع ها الشركة ، أرباح مالها مثيل .

- ريمون .. لو عاوز تخدمني صحيح .. أنا عاوزك تجيب لي شريط لاصق !!

- شريط لاصق .. إيش بدك تعمل بيه ؟!

- أقفل بُقك ده .. لأني بصراحة مابأيتش طايقك .. خد الباب وراك !!

Ahmed-Madv

قال ريمون في أدب مفتعل :

- على راسي .. لا تواخذني .

وأغلق الباب وخرج .. بينما جلس ناجي في غيظ ، وإذا بطرق ثانٍ على الباب .. قام ناجي غاضبًا ، وقال :

- الله يخرب بيتك يا ريمون .. ده معندوش دم !

وفتح الباب في غيظ .. ليجد أمامه حسام ، وقد بدا باكيًا .. اندهش ناجي وسأله :

- حسام .. إيه مالك .. فيه إيه ؟!

- أنا لازم أنزل مصر دلوقت حالًا يا ناجي بيه .. بأي طريقة .

- تنزل مصر إزاي ؟ هوه بمزاجك كده !

- أنا مش عاوز فلوس يا ناجي بيه .. أنا مستغني عن نصيبي .. أنا لازم أرجع .. طيران .. بري .. بمركب .. أي حاجة .

- إيه اللي حصل ؟!

- بابا ساب دار المسنين .. وما راحش البيت كمان .. ماكانش لازم أسيبه أبدًا .. أبدًا . أرجوك يا ناجي بيه .. أرجوك .. بابا لو جراله حاجة ، أنا ح أعيش مكتئب طول عمري .. ده أنا ماليش غيره ، وهوه كمان مالوش غيري .

ومسح حسام دموعه التي انهمرت ساخنة على خده .. ابتسم ناجي ابتسامة واسعة ، وقال :

- الكابتن حمدي في ألمانيا .. وعمل العملية خلاص .. ح تشوف أبوك لما ترجع إن شاء الله ماشي على رجليه .. إيه رأيك ؟!

لم يصدق حسام أذنيه وجري ، وعانق ناجي عطا الله بحب جارف .. ودموعه تنهمر من عينيه .

Ahmed Madv

في مدخل الأوتيل .. كان أسعد واقفًا .. وناجي نازلا ، وفى يده الكيس المليء بالدولارات ..

أخرج أسعد لفافة ، كان يخفيها خلف الباب ، وقدمها لناجي في خجل واستحياء ، وقال :

- هاد شيء مو قد المقام باعتهوولك المدام .. حلويات شامية لكن بيتي .. معمول بالعجوة .

أمسك ناجي بقطعة حلوى .. وأكلها باستمتاع ، وقال :

- ربنا يخليهالك .. الله .. حلو قوي .. تسلم إيديها .

وبينما هما واقفان ، أتى ريمون ، وقال لأسعد بغلظة :

- إيش بتسوي هون يا أسعد .. قلت لك مليون مرة ما تسيب مكانك .

- حاضر .. حاضر يا مستر ريمون .

وتحرك ليقف بعيدًا ، فهمس ناجي لريمون :

- إيه بس يا ريمون .. ما تخف ع الراجل شوية .. إنت حاطُّه في دماغك ليه ؟!

- والله .. لولا ها الطريقة ما بعرف أشغله يا ناجي بيك .. اسمع .. أنا مسويلك أكلة خصوصي .. شوف إمتى بدك أبعتهالك ع الغرفة .

- أكلة إيه يا ريمون ؟! أنا مش قادر !

- بس جرب و ح تدعيلي .. ست زبيئة وزنود الست .. والحلو أصابع الست .

- إيه الأكلة اللي كلها ستات دي .. ده كده بوليس الآداب يطب علينا وإحنا بناكل .

- ست زبيئة هادي بطاطا مع طماطم وبيفي .. وزنود الست.. شرائح لحم طيبة كتير .

قال ناجي مغيرًا الموضوع :

- هوه تحسين بيه لسه ما جاش ؟!

Ahmed Madv

- دلوقت تلاقيه جاي .. بس اسمع يا ناجي بيك .. إنت تعرف قد إيه غلاوتك عندي .. ما تتمم ها البيعة معه ، إلا بعد ما تتأكد .. ما حدًا يضمن أخوه في ها الأيام .

اندهش ناجي من تعليق ريمون ، وسأله :

- إنت قلبت عليه فجأة كده ليه ؟!

- لا .. مو قلبت .. إنما المثل بيقول حرص من صاحبك ولا تخوِّنه .

وفجأة إذا بصوت أجراس إنذار قوية ، وعمال الأوتيل يجرون ويهرولون ، وصرخ ناجي :

- فيه إيه ؟!

قال ريمون ، وهو يسأل أحد العمال :

- ما بعرف .. ربنا يستر .. شو حصل يا زلمة ؟!

- الظاهر فيه حريقة بالدور الثاني .. النار ماسكة بالستاير .

قال ناجي مذعورًا :

- حريقة !!

وجرى ناجي مسرعًا وخلفه ريمون ، والشيخ حسن ، وبعض عمال الأوتيل .. وانطلقت المجموعة في قمة التوتر والخوف ، يصعدون سلالم الأوتيل قفزًا .. وناجي معهم ، وحالة من الرعب والهلع تسيطر على الموقف ، حتى وصلوا إلى السويت الذي به حقائب الدولارات .. وكانت النار قد بدأت تتسلل نحو الغرفة ، وقاربت الوصول إلى باب حجرته .. وفتح ناجي الباب ودخل مسرعًا ، وقلبه يكاد يتوقف خوفًا على الحقائب .. وبدأوا في الإطفاء بطفايات الحريق .. والشيخ حسن خلفهم يرتعد ويدعو قائلا :

- اللهم اجعلها بردًا وسلامًا .

Ahmed Madv

أمام الأوتيل ، كان رجال المطافئ يبذلون أقصى جهدهم للسيطرة على الحريق .. إلى أن خمدت النيران تمامًا .. وفي المساء كان ناجي مجتمعًا بفرقته في السويت ، وآثار الحريق بادية في جانب من الغرفة ، والمجموعة كلها واقفة أمامه في إحساس بالذنب ، وهو ينهرهم بعنف :

- كل اللي عملناه كان ح يضيع في ثانية .. إنتوا فاكرينها رحلة .. كل واحد رايح يتسرمح على كيفه .. العملية لسه ما خلصتش .. الفلوس دي لو ماوصلتش مصـر نبأة ماعملناش أي حاجة .. إنتوا فاهمين ولا لأ ؟!

وإذا بطرق على الباب ليدخل ريمون كعادته مبتسمًا ، ونظرته المتشككة الباحثة ، وقال :

- والله قدر ولطف يا ناجي بيك .. نحمد الله .

- متشكر يا ريمون .. فيه حاجة ؟!

- تحسين بيك .. إجه ومستنيك تحت .. وجاب الحاجة معاه .

خبط ناجي على رأسه .. وقد تذكر الكيس ، الذي كان معه قبل الحريق ، وبه المائة ألف دولار التي سيدفعها لتحسين.. وقال في حسرة :

- آه .. الكيس اللي كان معايا راح فين ؟!

- شو .. كيس !!

- اللي فيه الفلوس .. فيه ميت ألف دولار .

ورد ريمون :

- والله ما نعرف عنه شيء يا ناجي بيك .. يمكن حطيته هون بمكان ونسيته .

أخذ ناجي يفتش حوله .. بلا جدوى .. وقال في النهاية :

- يبأة أنا نسيته تحت في اللوبي لما حصلت الحريقة !!

Ahmed Madv

قال ريمون لنفسه : يبأة معاه كام عشان ينسى 100 ألف دولار باللوبي !!

- انزل يا ريمون أسأل لي اللي شغالين تحت ، يمكن يكون حد لقاه .

قال ريمون ، وهو يمضي مسرعًا :

- ادعي إن ما فيه حد يلاقيه .. حد بيلاقي كيس فيه 100 ألف دولار ويرجعه .

دخل أسعد حاملا الكيس ، الذي به الدولارات كما هو ، وقال :

- الفلوس موجودة يا ناجي بيك .

اندهش ناجي ، وقال :

- الله .. إنت لقيتهم يا أسعد !!

- أمال .. فلوسك حلال ، ومتعوب عليها .

- آه والله .. المال الحلال ما بيروحش .. ما دام لقيتهم يبآلك فيهم 10٪ .

قال أسعد مستنكرًا :

- شو بتقول يا أستاذ ناجي .. بتعطيني ثمن أمانتي .. أنا ما بقبل على نفسي مليم ما هو حقي .. اتفضل .. عد مصرياتك .

* * *

بالقرب من المسجد الأموي ، وفي حارة عربية من تلك الحارات ، التي تسكن بها الطبقة المتوسطة في سوريا .. كان أسعد وأسرته يعيشون في حي من تلك الأحياء القديمة ، التي تعطي انطباعًا بأنها احتفظت - إلى جانب مبانيها العريقة وبيوتها الرائعة - بكثير من القيم والمثل العليا ، التي ضاعت في المدن الحديثة ..

دخل ناجي والشيخ حسن إلى الحارة .. وأسعد بجواره يرحب بهما بكرم دافق ..

وقبل أن يصلوا إلى البيت .. قال أسعد لناجي على انفرادٍ :

- أستاذ ناجي .. بس ليا طلب عندك ؟!

- أؤمر يا أسعد .

Ahmed Madv

- أنا ما قايل لمرتي ولبنتي إني .. شغال بالليل في كباريه .. ماحابب إن صورتي تتهز في عيونهم !!

ابتسم ناجي ، وقبله من رأسه ، وقال :

- إنت راجل عظيم يا أسعد .. وصورتك عمرها ما تتهز أبدًا .. كفاية إنك شقيان ليل نهار .. علشان تصرف عليهم .

- أنا ما باصرف عليهم من فلوس الكباريه . هادي فلوس حرام .

- طب وهوه مرتب الحكومة يكفيهم .

- أنا ما بصرف عليهم من مرتب الحكومة .

- ليه ؟!

فرد أسعد هامسًا :

- ما هي فلوس الحكومة برضه حرام .. عرفت ليه أنا مُتمسك بالشغل في الأوتيل !!

* * *

بيت أسعد بيت عربي شرقي جميل .. به الآرائك العربية والصواني النحاسية .. والقناديل .. والصور القديمة .. كانت كاميليا تزور الست زعيلة زوجة أسعد ، وهي امرأة شامية سمينة وطيبة للغاية .. وكانت ابنتها سعاد جالسة .. وهي فتاة رائعة الجمال ، ومتدينة ، ومعها صديقتها ماري المسيحية ، ابنة جارتهم تريز ..وكانت زعيلة تخيط ذيل فستان ماري ، التي تستعد لزفافها غدًا بالكنيسة المجاورة للمسجد الأموي .. ابتسمت كاميليا لماري ، التي كانت تبدو كأنها فرد من أفراد الأسرة ، وقالت :

- ألف ألف مبروك يا ماري .

- الله يبارك فيكي يا مدام كاميليا .

Ahmed Madv

نظرت كاميليا إلى سعاد ، وقالت :

- عقبالك يا سعاد .

- أما أخلص الكلية الأول يا مدام كاميليا .. دي أهم حاجة .

قالت زعيلة بأمومة وبساطة :

- بس نجوز سعيد الأول .. وبعد كده سعاد ح يجيلها صاحب النصيب .

وإذا بطرق على الباب ، وصوت أسعد من الخارج يهتف :

- افتحي يا أم سعيد .

وجرت سعاد مسرعة ، وفتحت الباب ليدخل أسعد وناجي والشيخ حسن ، الذي ما أن وقعت عيناه على سعاد ، حتى دق قلبه دقًّا عنيفًا .. وجرت سعاد إلى الداخل مسرعة لتلبس الحجاب ، وقال أسعد :

- معلش .. ما فيه حد غريب .. ده الأستاذ ناجي والشيخ حسن ..

فوجئت كاميليا بناجي ، وقالت :

- ناجي !! إنت إيه اللي جابك هنا ؟!

- أنا جاي معزوم زيك بالظبط !!

وقف أسعد يقدم الحاضرين إلى ناجي :

- أم سعيد .. زوجتي .. ودي ماري بنت الجيران .. مِثْلها مِثْل سعاد .. أنا اللي مربيها .. فرحها بكرة .

ابتسم ناجي محييًا ، وقال :

- فرصة سعيدة قوي .. ألف مبروك ..

وأتت سعاد ، وقد ارتدت الحجاب وبدا وجهها مثل القمر .. وتسمَّر الشيخ حسن تمامًا أمامها .. معجبًا مفتونًا .. وقال أسعد :

- تعالي يا سعاد .. دي بأة سعاد بنتي .. في أخر سنة في كلية الشريعة .

Ahmed Madv

قال الشيخ حسن :

- أهلًا وسهلًا يا آنسة سعاد .. ربنا ينجحك ، ويفتحها عليكي إن شاء الله .

ومدت سعاد يدها الصغيرة الناعمة .. وسلمت على الشيخ حسن .. الذي شعر فجأة بارتعاشة غريبة ولذيذة تسري في أوصاله .. وأحس بقلبه يدق بعنف.. وجلست سعاد في حياء أنثوي جميل ، بينما حاول الشيخ حسن بصعوبة أن يلملم نفسه ، وقد انهمر العرق الغزير على وجهه .. تلك أول مرة تنتابه هذه المشاعر.. فلم تكن المرأة تشغل أي مساحة في عقل وقلب وحياة الشيخ حسن.. عاش حياته كلها واحدًا من السلفيين المجاهدين من أجل الدعوة .. وكان دائمًا يغض البصر .. وظل كذلك حتى اختفت المرأة تمامًا من حياته .. وها هي تحضر فجأة.. ذلك الحضور الآخاذ .. الغريب هذه المرة ، أنه لم يشعر بالإثم الذي كان يشعر به ، حينما كانت تقع عيناه بطريق الخطأ على امرأة .. فكان يستغفر الله كثيرًا .. ولكنه الآن يحمد الله ويشكره كثيرًا ..

انتهت زعيلة من خياطة فستان ماري ، وقطعت الخيط الأخير بأسنانها ، ثم أعطته لماري ، وقالت لها:

- خدي يا ماري .. قيسيه ولو فيه حاجة عاوزة تتظبط .. هاتيهولي تاني ..

ثم سألت ضيوفها، بابتسامة تعلو وجهها، عما يرغبون في شربه قبل الأكل .

قال أسعد :

- ناخد قهوة .. ياللا ..

خرجت ماري والفستان في يدها ، وذهبت زعيلة إلى المطبخ لتعد القهوة للضيوف .. نظر ناجي إلى بيت أسعد .. وقال بإعجاب :

- بيتك جميل يا أسعد .. فيه راحة نفسية كده .. حسيتها أول ما دخلت .

- والله الراحة والسعادة جت أول ما شرفتونا يا ناجي بيك .

Ahmed Madv

نظر ناجي إلى الجدار ، فوجد صورة الزعيم جمال عبد الناصر معلقة على الجدار .. ابتسم ناجي ، وقال وهو ينظر لعبد الناصر :

- الله .. إنت لسه هنا يا ريس !!

- صورة الزعيم عبد الناصر ما بتتشال أبدًا .. موجودة علطول بقلوبنا .

ونظر ناجي إلى الجدار الآخر ، فوجد صورة للرئيس حافظ الأسد ، فقال :

- الله .. وصورة الرئيس حافظ الأسد كمان أهوه !!

- دول رموز القومية العربية .

- دول في قلوبنا دايمًـا .. إنما أنا شايف يعني إن علاقتكوا بجيرانكوا المسيحيين علاقة حلوة قوي .

- إحنا عايشين مع بعض ببيت واحد .. ما عندنا هون بالشام فرق بين دول ودول .. طول عمرنا بيت واحد .. ماري أنا اللي ربيتها بعد ما اتوفى أبوها .. متلها متل سعاد بالظبط .. إنما ليش بتسأل ها السؤال يا ناجي بيك !!

- أصل عندنا في مصر شوية ناس من دول .. وشوية من دول بيحاولوا يبوظوا العلاقة بين دول ودول .. فيه متطرفين في دول ومتعصبين من دول .. وناس في أمريكا من دول .. بيسخنوا دول على دول .

- إيه ؟ فهمت .. فهمت !

قالت كاميليا :

- كل أشكال الفرقة والطائفية والتشتت في العالم العربي بتمولها الدول الاستعمارية .

- هوه إحنا كل ما تجينا بلوة نجيبها في دول .. أنا نظرية المؤامرة دي بصراحة مابتدخلش دماغي .. ولا إيه يا شيخ حسن ؟! إنت معانا !

كان الشيخ حسن ينظر بهيام وحب نحو سعاد ، وقد غاب عن كل ما يُقال من حوله .. فانتبه لسؤال ناجي ، وقال مرتبكًا :

- آه طبعًا .. أنا معاك يا ناجي بيه .. معاك بكل جوارحي !!

Ahmed Madv

وقاموا جميعًا وذهبوا إلى السفرة حيث كان عليها أكل بسيط ، ولكن جميل ورائحته رائعة .. الطعام السوري لا مثيل له في العالم .. وجلسوا جميعًا وبدأوا في تناول الطعام .. فقال ناجي :

- أمال فين سعيد ابنك يا عم أسعد ؟!

- والله مزاجه متعكر .. تحسين بيك مديله مُهلة لأخر الشهر .. إما ينفذ شروطه أو يفك الخطوبة .

قالت كاميليا :

- سعيد بيحبها يا عم أسعد .. وصعب ياخد قرار زي ده .. لازم تعذره !

- هو هيك .. الحمصي لما يركب راسه على شيء ما يغيره لو بالطبل البلدي .

- زي الصعايدة عندنا !!

- وعم نقول عنهم نفس النكات بسوريا مع إني حمصي .. بس باتعالج .

- والنبي تقول لنا واحدة .

ابتسم أسعد ، وبدأ في إلقاء النكتة :

- بنت حمصية من حمص .. بس دلوعة كتيييير .. أبوها بيشتغل لحام .

فقال ناجي :

- لحام أوكسجين !!

قالت كاميليا موضحة لناجي :

- يعني جزار ...

- سألوها الناس بابا شو بيشتغل يا حلوة ؟ قالت بابي بيقشر غنم .

وانفجروا جميعًا ضاحكين ، وقال ناجي :

- حلوة .. حلوة يا أسعد .

Ahmed Madv

وتشجع أسعد .. وبدأ يلقي النكتة الثانية :

- حمصي .. عينوه مدير مدرسة للأيتام .. أول يوم طلب اجتماع لأولياء الأمور .

وعلا الضحك أكثر وأكثر .. وقال ناجي معلقًا :

- أسعد .. هما الحماصنة دول قرايب الصعايدة ؟

* * *

في كباريه من تلك الكباريهات المنتشرة بالشام .. بنات من جنسيات مختلفة جالسات على الموائد ويرقصن ويشـربن .. روسيات وأوكرانيات وعراقيات ومغربيات وسوريات أيضًا .. لكل واحدة قصة تصلح لأن تكون موضوعًا لرواية .. إنما المشكلة الدرامية في كل هذه القصص .. أن سببها واحد .. إما الحرب أو الفقر أو الظلم .. كان عبد الجليل جالسًا مع (جليلة) فتاة عراقية ، ترتدي ملابس مثيرة ، وتبكي .. وهو يربت عليها قائلا :

- بس .. بس .. ما تعمليش في نفسك كده .. ح تقهري روحك على إيه ؟ الله جاب .. الله خد .. الله عليه العوض !

وعندما لاحظ مدير الصالة أن جليلة تبكي ، والبكاء ممنوع هنا .. وجه نحوها قلمًا به أشعة الليزر ونظر لها شذرًا .. فانتبهت الفتاة ومسحت دموعها لتمثل أنها سعيدة ، كما هو مطلوب منها أن تفعل ، وقالت بلكنة عراقية لعبد الجليل :

- أنا آسفة .. مدير الكباريه بينبهني .. أصل إحنا هنا ممنوع نبكي .

- وهو ماله تبكي ولا ما تبكيش .. إنتي معايا ، مالوش كلام عليكي !

- مالَك صالح بيه خلينا نشرب وننبسط !!

- إنما لا مؤاخذة يعني في السؤال .. إيه اللي رماكي ع الـمُر ده .. ما دام كده كده خربانة ما اشتغلتيش في بلدك ليه ؟ أنا ليا واحد حبيبي راح العراق ، وقال لي إن الشغل عندكوا كان مية .. مية !!

Ahmed Madv

- الملاهي والكباريهات بالعراق ضربتها السلطة .. وخلاص ما بأة فيه أمان .. ولا فيه فلوس .. ح أقعد أعمل إيه ؟!

- تصدقي إنتي قطعتي قلبي بالكلام ده !

في ترابيزة أخرى في الكباريه ، كان إبراهيم ممسكًا بيد فتاة روسية (ماشا) رائعة الجمال .. ويقبل يدها بحب ونهم ، وهو يقول :

- خلاص بأة يا ماشا .. بقالك ساعة تحكيلي على انهيار الاتحاد السوفيتي وجورباتشوف وبوتين .. إحنا عاوزين ننبسط .. نشرب .. نرقص ..

- أوكيه إبراهيم ..

وأخذها إبراهيم من يدها ليرقص معها ، وقد احتضنها بكل استمتاع ، وأثناء الرقص همس لها :

- إلا بأقولك إيه يا ماشا .. إنتي بعد الكباريه إيه نظامك !! يعني كنت عاوز أخدك كده ، ونطلع على أي حتة عشان نبأة لوحدنا .

- لا .. مش ممكن إبراهيم .. ممنوع !

- ممنوع .. مين اللي منعه ؟!

- فيه هنا قانون إبراهيم .. أنا بعد ما بخلص الكباريه ، بروح على أوتيل في الباص .. وممنوع يخرج قبل الساعة تلاتة العصر .. بس من تلاتة لستة !

- ده إيه النظام ده .. أول مرة أسمع عنه .. ما تاخدي بكرة أجازة .. ونقضيه مع بعض .. واللي إنتي عاوزاه .

- أنا مش يقدر ياخد أجازة يا إبراهيم !

- هوه إنتوا نازلين في أوتيل إيه ؟!

* * *

Ahmed Madv

في تراس بيت أسعد ، كانت كاميليا وناجي جالسين في التراس ، حينما فتح ناجي العلبة القطيفة .. ليظهر الكوليه الألماظ .. وقال لها :

- أنا راجل عايش في الدنيا لوحدي .. معنديش حد أهاديه .. تصوري الحكاية دي طلعت مهمة قوي .. إن الواحد يكون له حد يهاديه .

- دي هدية أنا مقدرش أردها .. يبأة مقدرش أقبلها !!

- وحد قالك رديها .. دي حاجة بسيطة ، باعبر لك بيها عن إعجابي بيكي .

- دي حاجة بسيطة !! إنت بتشتغل إيه بالظبط يا ناجي !!

- ما قلت لك .. راجل أعمال .

- وإيه الأعمال دي اللي تخليك تجيب طقم ألماظ يساوي ثروة .. لواحدة ما تعرفهاش إلا من يومين بس !

- ما هو أنا زي ما بافهم في الألماظ والجواهر .. بافهم كمان في البني آدمين .. وربنا أراد إن إحنا نلاقي بعض صدفة هنا في سوريا .. إنتي نهيتي قلبك في السياسة ، وأنا وجعت قلبي في شغلي .. والنهاية إيه ؟ ولا حاجة !! ما تيجي نقضي الكام سنة ، اللي باقيين في عمرنا مانعملش أي حاجة .. ناخد ڤيلا حلوة ع النيل .. ونعيش .. وكل واحد فينا يحاول يسعد التاني .

- ده قرار مش سهل يا ناجي .. عمره ما يتاخد في 48 ساعة .. لما نرجع مصر إن شاء الله أكيد ح نشوف بعض .. وح نتكلم .

- بس تقبلي مني الهدية دي .. أرجوكي .

فأخذتها كاميليا بنعومة وابتسمت ، وقبل ناجي يدها بكل حب ، بينما كان الشيخ حسن جالسًا ، وسعاد تعرض عليه بعض الكتب التي تدرسها بكلية الشـريعة .. وهو سعيد بها ، ويقول :

Ahmed Madv

- اللهم صلي ع النبى .. وابن القيم الجوزي كمان .. دي حاجات عظيمة .. ربنا يفتح عليكي يا أخت سعاد .. أنا بأة إنشاء الله ح أجيبلك كتاب السيرة المحمدية ست أجزاء .. حاجة تفرح وتبهج القلب والروح .

- الله يخليك يا شيخ حسن .

- وهوه إنتي بعون الله كده تخلصي السنة النهائية على إمتى إن شاء الله ؟

- على أخر السنة أكون خلصت .

- وناوية يا ترى تكملي دراستك إن شاء الله ؟

- يا ريت .. بس إنت عارف الظروف .. لازم أشتغل عشان أساعد بابا .. بيتعب كتير .. وأنا نفسي أريحه .

- ح يرتاح .. بعون الله ح يرتاح .. سيبيها على الله وعليّا .

- الله يخليك ويوفقك يا شيخ حسن !!

* * *

في مطعم الإفطار بالأوتيل ، كانت كاميليا وناجي يفطران معًا .. وعلى مقربة منهما ، كان حسام ونضال يفطران معًا أيضًا .. قالت كاميليا لناجي :

- تعرف يا ناجي .. أسعد ده صعبان عليّا قوي .. بيفكرني بأسطورة سيزيف .

- بمين .. مين سيزيف ده ؟!

- سيزيف .. اللي بيقعد يطلع الجبل ، وبعد ما يوصل لأخره يقع ، ويقوم عشان يطلع تاني من جديد .. إنت ماقريتش رواية ألبير كامي ؟!

- إزاي ؟ أنا قريت له كل حاجة إلا سيزيف دي .

- داير ليل ونهار في ساقية .. من غير ما يحقق أي حاجة .. زي دون كيشوت !!

- مين .. مين كيشوت ده ؟!

- اللي كتبها سيرفانتس .. إنت ما تعرفوش !!

- لا .. إزاي أنا قريت له كل حاجة إلا كيشوت دي .

Ahmed Madv

- تعرف أنا ليه قررت إني أخد منك الهدية اللي إنت جيبتهالي .

- ليه ؟!

- علشان تمن الهدية دي يحل كل مشاكل واحد زي أسعد ده .

- فهمت .. إنتي إنسانة راقية قوي يا كاميليا .. ودي أكتر حاجة شدتني ليكي .. بتفكريني ببيت شعر قريته زمان .. بيقول :

مفلجة الأنياب لو أن ريقها

يداوى به الموتى لقاموا من القبر

- مين اللي قال الكلام ده ؟!

- ده أبو الليف !!

* * *

في مكتب ريمون بالأوتيل ، دخل ناجي على ريمون ، وهتف به :

- هو تحسين بيك الجواهرجي لسه ما فتحش ؟!

- العمى .. لسه ما فتح .. بيفتح بعد الضهر ، وليش عاوزه يا أستاذ ناجي ؟

- لا .. أصل شغله عجبني .. عاوز آخد منه حاجة تانية !!

- هادا ابن حرام .. ما حدا بيشتري من عنده .. أسعاره غالية .. بالسوق القرش نص .. وبيدفع إيجار محل ، وكل هادا بيحمله ع الزبون .. إوعى !!

- إيه اللي حصل ؟ إنتوا وقعتوا في بعض .. ما إنت كنت طالع بيه السما .. إنت مش كنت عمال تقول ده بيخاف الله وصاحب ذمة .

- ده لا بيخاف الله .. ولا صاحب ذمة .. ذمته واسعة .. وبيدين بالفايدة .

ثم أشار إلى الخاتم ، وقال هامسًا :

- شايف هادا .. أخدته منه بخمستاشر ألف ليرة .. حقه بره سبعتلاف .. الله لا يوفقه ولا يباركله في كل قرش أخده مني .. أنا أسويلك شغلة نضيفة من بره الأوتيل .

Ahmed Madv

- معلش أصل دي بالذات بأة لازم تحسين بيه .. ماينفعش غيره .. طيب .. بقولك إيه يا ريمون .. القاعة اللي جنب اللوبي دي فاضية ؟!

- ولو مش فاضية ، نفضيها لجل عيونك ناجي بيك.

- إيجارها كام في الليلة ؟

- والله عيب ها السؤال يا ناجي بيك .. عيب .. ده أبو القاسم .

- لا .. الشغلانة مالهاش دعوة بأبو القاسم .. أنا أصلي عاوز أعمل فرح فيها !!

- فرح .. بتتجوز هون يا ناجي بيك .. يادي الهنا .. يادي السعادة !!

- لأ .. مش أنا اللي ح أتجوز .. جماعة حبايبي .. بس عاوز أعمل لهم فرح ما اتعملش في الشام كلها قبل كده .

- سيب ها الموضوع عليّا .. واعتبر إنك ح تعمل ليلة من ألف ليلة وليلة .. أنا بارتب لك كل شيء .

- ودول بأة خمس تلاف دولار تحت الحساب .

- الله يخليلي إياك يا ناجي بيك .

* * *

كان تحسين بك الجواهرجي يفتح المحل ويدخل .. وخلفه ناجي عطا الله ، وبيده حقيبة .. وقال ناجي عطا الله :

- إيه يا تحسين بيك .. حد يفتح الساعة 4 .. ده حتى ساعة الصبحية اللي بييجي فيها الرزق .. ده أنا مستنيك من الصبح .

- إلا عند الجواهرجية يا ناجي بيك .. ما بيبدأ الشغل إلا بالمسا .

- طيب أنا عاوزك بأة تجيب لي شبكة في حدود عشر تلاف دولار .. بس حاجة بأة على مزاجك إنت يا تحسين بك .

- موجودة يا ناجي بيه .. لحضرتك ؟

Ahmed Madv

- لأ .. لحضرتك ..

- كيف يا ناجي بيه ؟!

- شوف بأة .. أنا جاي أخلص في جوازة نور بنتك على سعيد ابن أسعد .

- لا يا ناجي بيه .. ما أقدر أرمي بنتي مع ولد فاشل زي سعيد .. إنسى ها الموضوع !!

- اسمعني بس .. بين الشاري والبايع يفتح الله .

- وين ح يعيشوا .. ما هو عارف يجيب لها شقة يعيشوا فيها ، وجاي يتجوز !!

- عداك العيب .. نقول ميت ألف دولار للشقة حلوين .

- والمهر.. أنا بنتي ، يا ناجي بيه ، ما هي بايرة ولا عازبة .. ألف واحد بالشام يتمناها .

- والمهر كمان مجهزهولك .

وفتح ناجي الحقيبة ، ونظر تحسين في شراهة إلى ما بها ، ثم قال مترددًا :

- إنما .. أنا لازم أعرف .. ليش بتعمل كل هادا يا ناجي بيك ؟!

- سؤال عظيم .. أنا نفسي مش عارف إجابته .. ولو قعدت تاخد وتدي معايا كتير كده في الكلام ، ح أرجع في كلامي .

وأغلق ناجي الحقيبة ، فأمسك تحسين بها قبل أن تُغلق ، وقال :

- وأنا موافق .

- بس أنا ليا شرط .. كتب الكتاب والفرح يبأة الليلادي .

- كيف يا ناجي بيه ؟!

- أصل أنا مسافر بكرة .. يرضيك برضه أسافر ، وما أشوفش بعينيا نتيجة اللي صرفته ده كله يا تحسين بيه !!

* * *

Ahmed Madv

فى اللوبي بفندق مال الشام ، كان أسعد واقفًا في اللوبي .. وكان ريمون يمر فرآه .. فهتف به :

- يا أسعد .. تعالى !!

- أؤمرني يا سيد ريمون .

- النهاردة القاعة الشرقية فيه فرح .. عرس مهم كتير بتاع ناس قوادم .. إنت فاهمني .. تفتح عينك .. وتساعد الرجال اللي بيجهزوا القاعة .

- على راسي يا ريمون بيك .

- ومش ح تمشي من الأوتيل قبل الفرح ما يشطب .. مفهوم !

- لكن كيف يا سيد ريمون .. أنا عندي شغل بالليل ، ولازم أستلم الساعة حداشر !

- اسمع يا أسعد .. أنا روحي في مناخيري .. وما أحب حدًا يناقشني .. هاد أمر يتنفذ حرفيًّا ، وإلا تسيب الأوتيل خالص .. مفهوم !!

- مفهوم .. مفهوم يا سيد ريمون !!

وتحرك أسعد إلى القاعة ، والعمال يجهزونها للفرح ، ويصفّون الكراسي والترابيزات ويعدون الكوشة ، وبدأ أسعد يساعدهم .. بينما خرج ناجي ، ومعه حقيبة بها الشبكة من عند تحسين الجواهرجي ، فقال له ريمون :

- العمال شغالين يا ناجي بيه بالقاعة .. والله لأسويلك فرح ما اتعمل أخوه بكل الشام .

- الله يخليك يا ريمون .. أمال فين أسعد بتاع السيكيوريتي ؟

- شغال جوه مع العمال .. كل موظفين الأوتيل أنا مفرغهم لها الفرح .

- لأ .. ده بالذات أنا عاوزه معايا النهاردة .

- معك وخدامك يا ناجي بيه .

- أنا ح أخرج اجيب طلبات .. وعاوزه معايا مايفارقنيش !!

Ahmed Madv

- ولو .. اللي تشوفه يا ناجي بيك ..

واتجه ناجي نحو قاعة الفرح .. كان أسعد يحمل الكوشة مع أحد العمال ويضعها في مكانها .. ثم يلمعها بفوطة .. اقترب ناجي منه بحب ، وقال :

- إيه يا أسعد .. إنت بتعمل إيه هنا ؟ أنا بأدور عليك !!

- ناجي بيك .. أهلًا وسهلًا .. أصل النهاردة فيه فرح بالأوتيل .. والمسيو ريمون قال لي آخد بالي ..

- لا .. أنا أخدت لك إذن منه .. إنت معايا ؟!

- معك كيف ؟!

- معايا يا عم أسعد بأة .. إنت غاوي شقا !! عاوز أروح السوق .

- والمسيو ريمون وافق ؟!

- آه .. وافق غصب عن اللي خلفوه .. تعالى بأة .

وأخذه وخرجا من القاعة ..

* * *

كانت السيارة تنطلق بأسعد ، وناجي جالسًا بجواره يتأمل جبال الشام البديعة .. يتذكر كالحالم يوم أن أعلنت الوحدة بين مصر وسوريا ، وكيف شعر الشعبان وقتها أنهما شعب واحد على قلب واحد .. ثم الأسى الذي ملأ وجه عبد الناصر ، حينما أعلن الانفصال .. ابتسم ناجي بمرارة .. وقال لأسعد :

- هوه الواد سعيد فين دلوقت ؟!

- ح يكون فين ؟ بالبيت .. زهقان ومش طايق روحه !!

- موضوع الجوازة برضه !!

- بيحبها .. بيحبها من قلبه .. الله يجازيك يا تحسين بك !

- هوه معاه تليفون ؟!

Ahmed Madv

- أيوه .

- كلمه .. خليه يجيلنا .. أنا عاوزه .. عاوز أتكلم معاه ؟!

- يجيلنا على فين ؟!

- ع السوق .. مش فيه قهوة قريبة من السوق ؟!

- أيوه .. الروضة .

في قهوة الروضة ، كان ناجي جالسًا يشرب الشيشة ومعه أسعد .. وكانت الأغاني الشامية الحماسية تنطلق من الإذاعة والتليفزيون .. والوجوه الشامية البشوشة المرحبة تومئ بالسلام على من يعرفونه ومن لا يعرفونه .. دخل سعيد وهو شاب وسيم جدًّا .. يبدو طيبًا للغاية وسلم على أبيه .. وعلى ناجي ، وجلس في أدب .. وابتسم ناجي.. ثم نظر بحب لسعيد ، وقال :

- مبروك يا سعيد ؟!

- على إيه يا ناجي بيك ؟!

فتح ناجي علبة الشبكة ، وأظهرها له ، وقال :

- أنا دفعت المهر وتمن الشقة لتحسين بيك .. وآدي شبكتك أهية .. النهاردة فرحك يا سعيد في الأوتيل .. ونور دلوقتي بتلبس فستان الفرح .

قال أسعد مندهشًا :

- كيف اللي بتقوله هادا يا ناجي بيه ؟!

ونظر الأب نحو ابنه وكأنهما في حلم ، قطعه عليهما ناجي ، وقال :

- زي ما بقولكوا .. والفرح اللي إنت كنت شغال فيه في الأوتيل يا أسعد فرح ابنك.. والكوشة اللي إنت كنت بتلمعها هي اللي ح يقعد عليها سعيد .. ونور .

قال سعيد ، وقد تحجرت الدموع في عينيه :

- مش ممكن .. أنا مش قادر أصدق .. أنا أكيد بأحلم !!

Ahmed Madv

- ياللا نلحق نشترى البدل ، عشان شكلنا في الفرح يبأة يشرف برضه .

انفجر أسعد في البكاء .. وسعيد أيضًا ، وقام أسعد يحتضن ناجي ، ويحاول أن يقبل يديه .. فأبعد ناجي يديه ، وقال حاسمًا للجرسون :

- الحساب يابني .

في محل ملابس بالسوق ، كان ناجي يساعد أسعد في ارتداء الجاكت الأسود للبذلة الجديدة التي سيحضر بها فرح ابنه سعيد .. قال ناجي ، وهو يمسك الجاكت ليضع أسعد ذراعه فيه :

- والله عندكوا لبس حلو قوي هنا .. إلبس بأة .. دخَّل إيدك في الكم .

- العفو يا ناجي بيه .. والله أنا ما دريان بروحي .. حاسس إني بحلم !

- إلبس يا أسعد .. إنت ابن حلال وتستاهل كل خير .. مظبوطة عليك باللي .. عشرة على عشرة !!

- قال أسعد ، وهو ينظر للبنطلون الطويل ، الذي ينسدل على الأرض :

- بس البنطلون بده يتني !!

أشار ناجي للترزي ، الذي جاء نحوهم مسرعًا فقال له ناجي :

- يا أخ .. عاوزين ، دلوقت حالًا ، نتني البنطلون ده لو سمحت .. وظبط بدلة العريس .. بالقميص بالبابيون بالجزمة بالشراب بالغيارات الداخلية .. أنا عاوزه يخرج من عندك على ليلة الدخلة علطول .. ياللا يا أسعد .

وضحكوا جميعًا ، وخرج أسعد متأبطًا ذراع ناجي.

* * *

داخل قاعة الفرح بالأوتيل ، كان ريمون يتابع تجهيزات القاعات ، بكل اهتمام ، فسألته الفتاة التي تعمل بالريسبشن :

- لكن يا أستاذ ريمون ، ناجي بيك ما قال لك مين العريس .. يعني شو بيشتغل ؟

Ahmed Madv

- لأ .. إنما الظاهر كده إنه شخصية مهمة كتير .. لدرجة إنه ما رضي يقول لي .. أكيد حد من السياسيين الكبار .. ناجي بيك هادا مو سهل .

- ما طلب فقرة معينة بالبروجرام ؟!

- هوه ما طلب .. إنما نحنا كلنا نظر .. أنا اتفقت له مع العرّاضة السورية علشان تعمل له عرس شامي ما فيه أخوه .. يا ولد .. اعدل ها الستارة .. ولمع القزاز منيح .

* * *

على مقهى بدمشق القديمة ، كان ناجي وأسعد جالسين بجوار المدفأة ، وناجي يرتعد من قسوة البرد ، ويفرك يديه قائلا :

- يااااه .. هيه مالها برَّدت كده يا ساتر يارب .. ده البرد عندكوا سِم !!

- هو ده حال الشام .. الحر حر .. والبرد برد .. ما فيه وسط .

أمسك ناجي بإحدى الجرائد الموضوعة على المائدة مكتوبًا عليها (النحلة) .. ثم قال مندهشًا ، وهو يتأمل اسم الجريدة :

- إيه ده ؟ إيه الجرنال ده .. النحلة !!

- أيوه .. هادي جريدة ساخرة انتقادية بتنقد الحكومة .

- طب والله كويس .. ما فيه حرية عندكوا أهوه !!

- لا .. الأمور اتغيرت كتير يا ناجي بيك .. صار فيه نقد وهجوم ومعارضة .. زمان كان فيه جريدة اسمها الدومري .. هي اللي بدأت مشوار الديمقراطية .

- الدومري .. يعني إيه الدومري ؟!

- الدومري هوه حامل الشعلة .. اللي بيضيء الطريق في الظلام .

- وراحت فين الدومري ده ؟

- قفلوها .

Ahmed Madv

- آه .. لا .. الأمور اتغيرت كتير عن زمان .

- والله مظبوط .

- والنحلة ما قفلوها ليه ؟!

- النحلة لما بلشت .. كانت بتنقد من بعيد لبعيد على خفيف !!

- طيب كويس .. مش وحش .. أحسن من مفيش !!

- خافوا يقفلوهالهم .. بدأو يتراجعوا .. يخافوا ينتقدوا !!

- ليهم حق .. وعملوا إيه ؟!

- صاروا يخافوا ينتقدوا .. يخافوا ينتقدوا لما سابوا الحكومة .. صاروا ينتقدوا الشعب ما (شاءالله) بس نقد جريء .

أمسك ناجي بالجريدة ، وقرأ المانشيت : «كيف سيتدفأ السوريون في شتاء هذا العام القارس» ثم قال مستفسرًا :

- بس .. هما هنا لا بينتقدوا الشعب .. ولا الحكومة ؟! أمال بينتقدوا مين ؟!

- بينتقدوا الشتاء .. شفت لما قال قارس ؟!

- هو شتا ابن كلب ظالم صحيح .. ده أنا صوابعي اتجمدت !

- أصل الحكومة كانت بتصرف كوبونات المازوت للشعب .. عشان ما يموت من البرد .. الآن صار غالي .. وصعب الحصول عليه .

- ما بتدفوا بالبنزين ؟!

- غالي .. مين يقدر على البنزين .. إحنا بالشام مش بالخليج !

- مفيش دفايات كهرباء ؟! أو خشب حتى ؟!

- يووووه .. الكهربا غالية كتير .. والخشب ما هو متوفر .. وشغلة متعبة علشان تقطّع وتحط بالدفاية !

Ahmed Madv

- أمال الفقير بيتدفى بإيه ؟!

- بالجرايد !

أمسك ناجي بجريدة النحلة ، وألقى بها في نار المدفأة فاشتعلت ، وقال :

- تصور أول مرة أعرف قيمة الجرايد في العالم العربي .. إحنا نتدفا بالنحلة .. تعرف يا أسعد .. أنا ما قعدتش في الشام غير تلات تيام ، إنما أنا حبيتكم قوي .. حاسس بجد إني وسط أهلي .. ما حسيتش لحظة بالغربة معاكم !!

- والله ده نفس شعورنا يا ناجي بيه ..

- إنما .. اللي لفت نظري إن الأسعار غالية قوي هنا بالنسبة للمرتبات ، والشقق أسعارها فلكية .

- بسوريا يا ناجي بيك أكتر من 2 مليون عراقي .. جم للشام بعد الحرب .. وإحنا طبعًا كلنا إخوة .. ولازم كنا نفتح لهم دراعاتنا !!

- طبعًا .. هي سوريا والعراق إيه ؟ ما واحد .

* * *

في لوبي الأوتيل ، دخل أسعد مع ناجي عطا الله ، مرتديًا البذلة الفاخرة التي سيحضر بها فرح ابنه .. كان مرتبكًا شاردًا ، فقال له ناجي :

- مالك ماشي مكسور كده ليه ؟ ده فرح الواد !

- والله ساعات من كتر الفرحة ، الواحد يحس إنه مخنوق !!

- لا .. أنا عاوزك تتآلط .. تتقنزح .. تتفشخر !!

- كيف يا ناجي بيه .. شو بتقصد ؟

- أقولهالُه إزاي ده ؟ تتنفخ كده وتمشي زي الطاووس .. وتهزأ في خلق الله ؛ وخصوصًا ريمون .

Ahmed Madv

- قصدك تقول ورِيني أكابِريتَك !

- أيواااه .. ورِيني أكابِريتَك !!

ومشى أسعد منتفخًا متطاوسًا ، وأخرج ناجي سيجارًا وأعطاه له ، فجلس واضعًا قدمًا على قدم كأنه أحد الباشوات القدامى .. نظر ناجي نحوه بإعجاب ، وقال :

- أيوه كده .. ولما ييجي تحسين بيك عاوزك تحط صباعك في عينيه.. مالوش عندنا حاجة .. لاسع له مبلغ محترم .. ماكانش يحلم بيه !!

قال أسعد ، وهو يقبض راحته كملاكم :

- تحسين بيك .. هادا بطل سوريا بالملاكمة .

- ده .. مش باين عليه يعني ؟!

- لا .. هادا تعبير سوري يعني .. إنه ماسِك يده .. بخيل .. ما يفتحها أبدًا .

- أنت ح تقوللي .. ده أخد مني تمن الفستان اللي بنته ح تلبسه في الفرح !

- والله عذبناك معنا يا ناجي بيك .

- يا عم .. ما تقولش كده الناس لبعضيها .. إيه حسبة ميتين تلتميت ألف دولار .. على جزمتك .

دخل ريمون ، فوجد أسعد جالسًا بهذا الوضع .. بجوار ناجي الذي كان يدخن السيجار ، ويشرب القهوة بتلذذ ، فزجره بعنف قائلا :

- شو قاعد بتسوي هون إنت .. وحاطط رجل على رجل كمان .. قوم روح شوف شغلك يا زلمة .. وإلا والله .. ح يكون حسابي معك عسير !!

وهم أسعد بالقيام ، فأمسك ناجي به ، وقال :

- اقعد يا أسعد .. ده كلام يا ريمون !! فيه حد يكلم الزباين بالطريقة دي .. إنت كده بتسوأ سمعة الأوتيل ، والسياحة في سوريا !!

Ahmed Madv

قال ريمون ، وهو يشير نحو أسعد :

- العفو يا ناجي بيه .. أنا ما أقصد .. أنا بكلم ها الزلمة !!

- ما هو الزلمة ده .. هوه الزبون ..

قال ريمون مندهشًا :

- زبون كيف ؟!

- ما هو اللي مأجَّر القاعة منك ، ودافع لك ومقدم النهاردة .. فرح سعيد ابن عم أسعد .. عقبال أولادك يا ريمون .

قال ريمون مصدومًا ، وهو يبلع ريقه :

- سعيد ! يعني ها القاعة المتأجرة عشان أسعد وابنه ؟!

- أيواااه .. عشان أسعد وابنه .. يعني معقولة الراجل يبأة بينفع الأوتيل ، وبيدخل له إيراد ، ويتعامل المعاملة دي برضه !!

فقال أسعد :

- لا يا ناجي بيك .. إحنا نغير الأوتيل .. الشيراتون حاطينلي عرض أحسن .

- استنى بس .. ما تتعصبش يا أبو سعيد !!

ثم همس لريمون :

- عاجبك كده .. أهوا اتنرفز ، وح ياخد ابنه ويمشي ، ويعملوا الفرح في الشيراتون .. راضيه بكلمتين بأة ؟!

قال ريمون ، وهو يكز على أسنانه في غيظ :

- حاضر .. مبروك يا أسعد !!

- الله يبارك فيك يا ريمون !!

قال ناجي مضيفًا :

- ريمون .. أهل الحارة بتاعة أسعد جايين كمان شوية .. أما ييجوا يخشولنا ع القاعة جوة وتستقبلوهم أحسن استقبال .

Ahmed Madv

ومضى ناجي وأسعد إلى القاعة بألاطة شديدة ، وريمون ينظر نحوهما غيرمصدق .. بدأ المعازيم في القدوم ، وكان ريمون شاردًا واضعًا قدمه أمام ماسح الأحذية بالفندق .. همس ريمون لنفسه :

- جه اليوم اللي تعمل فيه فرح ابنك يا أسعد هون بالأوتيل .. ومين اللي يخدم عليك إنت وأهلك والحارة التعبانة اللي جاي منها .. أنا .. مسيو ريمون .. الله يلعن أبو الأيام الغبرة .

دق ماسح الأحذية على الصندوق .. فتنبه ريمون ووضع قدمه الأخرى ، ثم نظر إلى ماسح الأحذية ، وقال له بمرارة :

- شو رأيك يا أبو محجوب.. مش عاوز تعمل فرح ابنك ولا بنتك في الأوتيل .. نحنا نتشرف .. خلاص صارت ميغة .. سبحان الله .. انقلبت الآية !!

ضحك أبو محجوب ضحكة بلهاء .. بينما دخل مجموعة من أهل الحارة بالأوتيل ، وكانت مناظرهم وملابسهم وأصواتهم عالية لا تليق بمستوى الأوتيل مطلقًا .. ونادى ريمون أحد رجال أمن الأوتيل بعنف :

- يا زلمة .. إنت يا زلمة !!

أتى رجل الأمن مسرعًا ، فسأله ريمون مندهشًا :

- مين دول اللي داخلين الأوتيل ؟!

- دول معازيم الفرح يا مسيو ريمون .. حبايب عم أسعد وجيرانه .

- الله يخرب بيت أسعد على جيرانه .. أسمع يا زلمة إلك عينين .. ولّا ما إلك !! إيش هادا اللي فوق الريسبشن خمس نجوم .. صح .. ولا مو صح ؟!

- إيه ؟ خمس نجوم !!

- تروح وتشيل تلاتة .. صرنا نجمتين بفضل أسعد ، واللي جاب أسعد !

* * *

Ahmed Madv

أمام الأوتيل ، وقفت سيارة مزينة بالأشرطة الملونة والورود ، ونزل منها سعيد مرتديًا السموكنج ، ونور مرتدية فستان الزفاف وبانتظارهما تحسين بيك .. وزعيلة وأسعد وناجي وكاميليا ينظرون نحوهما بحب شديد .. دمعة تنزل من عيني أسعد .. وزعيلة تزغرد ، والشيخ حسن بجوار سعاد يبتسم لها بحب ، وهي تنظر له ، وقد تورد وجهها خجلا .. نظرت كاميليا لناجي بحب ، وقالت له هامسة :

- إنت رائع يا ناجي .. ساحر .. عمري ما تصورت إن حد في الدنيا جواه المشاعر الرقيقة دي .. تدفع ده كله علشان تسعد الاتنين دول ؟!

- الفلوس دي شيء عظيم يا كاميليا .. فيه ناس بتجيب بيها سلاح وتقتل وتدمر .. وناس بتعمل بيها اللي إنتي شايفاه ده !!

وهمس الشيخ حسن في أذن سعاد :

- عقبالك يا آنسة سعاد ؟! والله أنا فيه أشياء بداخلي أود أن أعبر عنها .. إنما .. للأسف .. إحنا خلاص مسافرين مصر بكرة إن شاء الله !!

- ومش ح تيجوا تاني !!

- أنا حاجي .. والله العظيم حاجي .. مقدرش استغنى عن ... (يتدارك نفسه) إني أشوفكم .. بس إحنا جينا مع بعض ، ولازم نرجع مع بعض !

قالت سعاد بحياء ، وبكبت للشوق الذي بداخلها :

- تروحوا وتيجوا بالسلامة ياشيخ حسن .

كانت نضال وحسام أيضًا واقفين متجاورين يصفقان بسعادة .. ونظر نحوها حسام بحب جارف .. ثم همس لها في أذنها :

- أنا بحبك !!

Ahmed Madv

نظرت نضال نحوه باندهاش .. فأدار حسام وجهه إلى الناحية الأخرى ، كأنه لم يقل شيئًا .. فأحست نضال كأنها لم تسمعه جيدًا .. فسألته ببراءة ، كأنها تستوثق مما قال :

- إنت قلت حاجة ؟!

- أنا .. لا .. أبدًا .

قالت نضال محبطة :

- أصلي إتهيألي إني سمعت حاجة كده !!

وعلا صوت والغناء والرقص .. فهمس حسام مرة أخرى :

- بحبك قوي !!

أدار حسام وجهه بسرعة ، فسألته نضال :

- إنت قلت حاجة ؟!

- أنا .. لا أبدًا .. الصوت عالي قوي هنا .. زفتهم حلوة قوي !!

وصفق حسام بسعادة ، وكأنه لم يقل شيئًا مندمجًا في الزفة ، وأدركت نضال لعبته .. فهي التي همست له هذه المرة :

- بحبك !!

قال حسام :

- إنتي قلتي إيه ؟!

قالت نضال باستعباط :

- فيه حاجة ؟! أنا ما قلتش حاجة !!

وابتسما وأخذا يصفقان بسعادة مع الزفة ، وقد أدرك كل منهما ما بداخل الآخر .. وعند بوابة الأوتيل انطلق إبراهيم وتهامي وعبد الجليل ، وهم يجرون مسرعين بسعادة ولهفة من باب الأوتيل ، وقال إبراهيم :

- هيييه .. هيييه .. ألف مبروك يا عريس .. مبروك يا عم أسعد .

Ahmed Madv

وقال عبد الجليل :

- عليّا الطلاق لا أنا راقص لك في فرحك يا سعيد .. رقّصني .

وأخذ عبد الجليل يرقص «رقص بلدي» .. وإبراهيم يراقص إحدى فتيات الزفة ، وحتى زاهر .. كان يرقص سعيدًا وتهامي أيضًا ، وكأنهم كانوا جوعى للرقص والبهجة.

كانت فرقة العراضة السورية تقوم بالزفة السوري ، وهي من أجمل فرق الأفراح في الوطن العربي .. والعراضة الشامية .. هي مجموعة من الأهازيج المستمدة من التراث الشامي ، يؤديها أبناء الحارات الشعبية في الأفراح .. وكلمة العراضة يدعي البعض أنها مشتقة من كلمة العرض (show) .. وفي العراضة الشامية ، تجد الطبول والمزاهر والمزمار النحاسي ، فتبدو الزفة كأنها إعلان حرب .. وترى بها القبضايات أو الفتوات والخيالة .. وقائد العراضة الذي يسمونه العقيد .. ثم يوقعون رسالة العهد .. وتتضمن الرسالة الآتي :

«... من فارس الفرسان إلى أمير الشجعان .. نهنئك بالعرس الرنان ، ونلبسك لباس العرسان على سنة النبي العدنان...»

والعراضة الشامية مثلها مثل كثير من فرق الأفراح العربية .. تحاول دائمًا أن توحي بالقوة وبالجلبة والصوت الضخم وألعاب الفروسية .. ربما لأن شعوبنا العربية عاشت كثيرًا تحت نير الاحتلال والقهر والظلم .. ولم يتبق سوى الأفراح .. فلتكن هي الفرصة الوحيدة المتاحة لكي يجد المواطن العربي المقهور .. متنفسًا .

وشارك الكل في الزفة ، إلى أن دخلوا إلى قاعة الفرح ؛ حيث كانت مطربة سورية على المسرح تغني الأغاني المعتادة في الأفراح السورية مثلا (لمجوز الله يعينه ويبعت له اللي بيريده ، واللي بده يتجوز يوقف ويرفع إيده) .. وقام ناجي ورفع يده .. ممسكًا بيد كاميليا التي أخذت تضحك في خجل .. وحسام ونضال أيضًا فعلا ذلك ، والشيخ حسن مد يده نحو يد سعاد ثم سحبها

Ahmed Madv

بسـرعة ، وابتسمت سعاد في خجل .. وصعد أسعد إلى المسـرح ، وكل المعازيم يصفقون له ، وأمسك بالميكروفون ، وقال :

- يعني أنا بأتشكر ليكم كلكم إنكم شرفتوني في جواز ابني سعيد .. صحيح أنا خبرتكم اليوم فقط .. إنما هي الظروف جات كده .. إنما فيه شيء لازم أقوله .. كل ها السعادة اللي أنا ما قادر أتحملها .. الحلم اللي أنا عايش فيه.. يرجع الفضل فيه لإنسان .. إنسان بمعنى الكلمة .. صديقي لو ما كنت متجاوز .. وأخي .. اللي وقف جنبي .. الأستاذ ناجي عطا الله !!

انتبه ناجي لأسعد ، وهو يذكر اسمه .. فقال مداعبًا :

- إيه يا عم أسعد .. إيه ؟ إنت ح تفضحني .. أنا عملت إيه ؟!

- إذا سمحت يا ناجي بيك .. بدي تيجي تشرف هون ع المسرح .

- آجي أعمل إيه بس يا عم أسعد ؟!

وقام ناجي ومشي محرجًا بين المعازيم .. لا يعرف ماذا يقول .. ثم ذهب إليه وعانقه أمام المعازيم ، وقال :

- مبروك يا أبو سعيد .. ألف مبروك .

قال أسعد للعريس :

- يا سعيد .. تعالى هون .

فترك سعيد الكوشة ، وذهب إلى أسعد وناجي ووقف بجوارهما ، وعانق أسعد ابنه ، وقال له :

- أنا يا سعيد ما قدرت أعمل لك اللي كنت بدي أعمله .. اللي عمل لك كل هادا .. عمك ناجي .. بيك (أبوك) اللي لازم تبوس يده .

Ahmed Madv

وهم سعيد بتقبيل يد ناجي ، الذي أبعدها بسرعة .. وقال :

- لا .. يبوس مين ؟ النهاردة سعيد ممنوع يبوس أي حد غير العروسة .. أجري ياله يا سعيد روح بوس عروستك !!

هنا تقدمت المطربة ، وقالت لناجي :

- شو بتحب تسمع يا ناجي بيك أغنية مخصوص ليك ؟!

- خلاص .. يبأة سمَّعيني «آخر ليلة» لشادية ..

ثم قال ناجي ، وهو ينظر نحو كاميليا :

- أصل دي آخر ليلة ليا في الشام .. وأنا أصلي بحب شادية قوي .. آخر ليلة .. هه .. آخر ليلة .

ابتسمت كاميليا .. ثم بدأت الفرقة الموسيقية في العزف ، وجلس ناجي بجوار كاميليا ، والمطربة تغني أغنية (آخر ليلة) .

- آخر ليلة .. آخر ليلة وسهرنا سهرنا .. سهرنا .. لحد الفجر .

وكأن شادية كانت تغني هذه الأغنية لهذا اليوم ولهؤلاء فقط .. لكل هؤلاء العشاق الذين وقعوا في الحب .. وهم يسرقون أكبر بنك في إسرائيل .

Ahmed Madv

الفصل الثامن

في المركز الثقافي الروسي بسوريا ، كان ناجي وكاميليا في معرض الفن التجريدي .. يتأملان الصور واللوحات والكتب الروسية في معرض الكتاب .. في النهاية جلسا في قاعة صغيرة ، وكان ثلاثة يجلسون على المنصة في ندوة ثقافية يتكلمون بالروسية .. وناجي يومئ برأسه كأنه يفهم ما يقال .

وفي المركز الثقافي التركي ، كان أحدهم يخطب باللغة التركية .. وناجي يومئ برأسه .. ثم همس لكاميليا التي بجواره :

- على فكرة ، الأتراك دول ناس طيبين وبيحبونا .. والإنجليز والفرنساويين لما احتلونا ، هما اللي كرَّهونا فيهم .

وفي جمعية الصداقة السورية الإيرانية ، كان على المنصة رجل يخطب باللغة الإيرانية ، وأعطت كاميليا لناجي سماعتين ليضعهما في أذنه ، فقال ناجي :

- ما أنا فاهم بيقول إيه ؟!

- إنت تعرف إيراني كمان !!

- أنا لا أعرف روسي ولا تركي ولا إيراني .. إنما عارف ح يقولوا إيه !!

وخرجا من الجمعية .. وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر .. وكأن كاميليا أدخلت ناجي عالمًا جديدًا .. لم يكن يعرف عنه شيئًا .. كانت تتكلم في الأدب والفن والسياسة ببساطة وعمق شديدين ، وشعر ناجي أنه لا يريد أن يفترق

Ahmed Madv

عنها لحظة واحدة .. وحينما طلبت منه أن يحضِّر الكلمة التي ستلقيها في حفل السفارة الأمريكية .. رحب بشدة ، وأعطاها كافة بياناته حتى يعملون له تصريحًا بالدخول إلى السفارة وحضور الحفل .

* * *

لم يكن ناجي يعلم ، وهو يعطي بياناته لكاميليا .. أنه يكتب نهايته .. هو ومن معه بيده.. ففي نفس اللحظة التي وصلت فيها بيانات ناجي عطا الله إلى السفارة الأمريكية بدمشق .. كانت على جهاز اللاب توب الخاص بمستر مناحم في الموساد الإسرائيلي .. الذي خرج من مكتبه سعيدًا منشرحًا .. فوجد أمامه مساعده شاؤول .. الذي هتف به قائلًا :

- واضح إن عندك أخبار سارَّة يا سيد مناحم !!

ودخلا إلى غرفة الاجتماعات ، حيث كان بانتظارهما ضباط الموساد في اجتماع عاجل ، نادى به السيد مناحم ، الذي دخل إلى الغرفة مبتسمًا بشوشا ، وقال :

- لقينا ناجي عطا الله .. وعرفنا مكانه .. ومكان الفلوس كمان !!

ضغط مناحم بيده على زر ، فظهرت خريطة على شاشة العرض ، فأشار مناحم بعصاته نحوها ، وقال :

- فوق هناع الجبل .. أوتيل صغير .. اسمه مال الشام .. نازل فيه واحد حبيبنا اسمه ناجي عطا الله ومعاه فرقته ، بقية العصابة .. هما واخدين الدور التالت كله .. تصور يا إسحق ، في سويت ناجي عطا الله خمسمائة مليون دولار متعبين في شنط .. بتوع الشعب الإسرائيلي اتنشلوا مننا في الزحمة .. رجعنا خمسمائة أسير عربي عشان نرجعهم ، وبرضه مارجعوش .. كل حاجة بترجع إلا الفلوس .. الليلادي بأة إحنا لازم نرجع الفلوس .. ونرجع الأخ ناجي عطا الله وفرقته على مصر ، جثث في صناديق !!

Ahmed Madv

ثم نظر مناحم نحو الجالسين ، وقال بنعومته المعتادة :

- فيه جروب سياحي ح يطلع رحلة ترفيهية من شركتك يا إسحق .. إنت مش عندك فرع في لبنان وفرع في الأردن وفرع في القاهرة !!

- بس إحنا ممنوع ندخل سوريا يا سيد مناحم !!

- ومين قال إن إحنا ح ندخل .. اللي ح يدخلوا الشام أيرلنديين .. قبارصة .. يونانيين .. إسبان .. طلاينة .. إنت فاهم يا إسحق !!

وأومأ إسحق برأسه فاهمًا وموافقًا .. وعاد مناحم يقول :

- لو عرفت تجيب لي ناجي عطا الله .. ح أبأة مبسوط منك قوي يا إسحق .

* * *

كان ريمون جالسًا مع تحسين بيك ، والفضول يكاد يقتله ، بعد أن رأى الحقائب في حجرة ناجي بالأوتيل ، مليئة بالدولارات ، وقال لتحسين بك :

- العمى بقلبه .. جايب كل ها المصاري من الشارع .. محوشها من ع الشجر .. إيه سارق بنك .. ليكون تاجر مخدرات وإحنا مانّا عارفانين !!

- أنا مالي .. أنا بدي المصاري .. والله والنبي مع دواليبه !!

- ليكون أسعد عم يروج له .. المخدرات والهيروين بالكباريه !!

- كل شي وارد .. أنا اللي يهمني المصاري .

- عم باروح وباجي معه .. ما عطاني ليرة .. آه يا تحسين بيك .. نفسي أعرف كم بها الشناطي .. والله بتهيألي إن السويت صار مغارة علي بابا !!

كان أسعد واقفًا يسمع ذلك خارج الغرفة ، وقد فوجئ بما يقوله ريمون ، وعاد تحسين يسأل ريمون :

- معك الماستر كي .. خش شوف !

Ahmed Madv

- كيف والغرفة ما بتنساب ثانية .. ده مانع الروم سيرڤس من الدخول !

- ليش ما تعرض عليه مشروع تشاركه فيه يا ريمون ؟!

قال ريمون :

- عرضت .. عرضت ميت مشروع ، وهو ولا كأنه سامعني !!

* * *

ذهب ناجي إلى عامل القهوة الجالس بالطربوش والملابس الفلكلورية الذي قدم له فنجانًا من البراد .. أخذ ناجي يشرب بتلذذ .. بينما اقترب منه أسعد ، وقد تغيرت ملامحه ، وقال بضيق :

- مساء الخير يا ناجي بيك .

- إزيك يا أسعد .. الواد سعيد عمل إيه طمني .. مش شرفنا برضه !!

- نحمد الله .. سافر هو وزوجته على اللاذقية لجل يقضوا شهر العسل .

- ربنا يسعدهم .. إيه مالك يا أسعد .. عمال تقدم رجل وتأخر رجل كده .. زي مايكون جواك حاجة .. فيه إيه يا أسعد ؟!

- الشيخ حسن كان فاتحني إنه عاوز يتقدم لبنتي سعاد .

- والله .. وماله .. حسن واد ابن حلال وطيب .. وأنا ضامنه .

- ما هو أنا لما قلت له إن الظروف صعبة ، وإني يعني لسه ما جهزت البنت للجواز قال لي إنه ما عنده مشكلة .. وإنه غني كتير وعنده ملايين .

- صحيح على قلبه قد كده .. من نصيب سعاد عشان هي بنت حلال .

مرت لحظة صمت ، ونظر أسعد إليه نظرة شك ، فسأله ناجي :

- إنت إيه حكايتك .. بتبص لي كده ليه ؟!

- أنا آسف يا ناجي بيه .. بس .. من وين كل ها المصاري .. إيه مصدرها ؟!

- وإنت مالك بمصدرها بأة يا عم أسعد ؟!

Ahmed Madv

- كيف أنا مالي .. يعني أنا جوزت ابني بفلوس حرام !!

- مين قالك إنها فلوس حرام !!

- كل الأوتيل بيتكلم.. بيقولوا إني باشتغل معك بالهيروين .. يا ناجي بيك أنا رجَّال صفحتي بيضا طاهرة .. وعمري ما مديت يدي للحرام .

- اسمع يا أسعد .. ما تشغلش بالك بالموضوع ده .. إذا مشينا ورا كلام الناس مش ح نوصل لحاجة .. إنما اطمِّن .. الفلوس حلال .

- عمري ما شفت فلوس حلال بكل ها الكمية يا ناجي بيه ؟!

نزلت كاميليا ، وهي مبتهجة للغاية ، وقد ارتدت فستانًا رائعًا ، وهتفت قائلة لناجي :

- أنا آسفة يا ناجي .. اتأخرت عليك ؟!

قال ناجي لأسعد مغيرًا الموضوع :

- روَّق يا أسعد .. وشيل الأفكار دي من دماغك .. ياللا يا كيمو ..

* * *

وخرجا من اللوبي ، وما زال أسعد ينظر نحو ناجي متشككًا من أمره ..

في حفل السفارة الأمريكية بدمشق .. كان ناجي واقفًا هو وكاميليا والضيوف يروحون ويجيئون في جو دبلوماسي أنيق .. وفجأة ، رأى ناجي أحدهم مرتديًا بدلة أنيقة .. وما أن رآه حتى تهلل لرؤيته :

- لا .. مش ممكن .. مستر مايكل .. هنا في سوريا !!

- أوه .. مستر ناجي .. إنت بتعمل إيه هنا ؟

- إنت اللي بتعمل إيه هنا ؟!

- أنا في سفارتي .. أنا الملحق الثقافي هنا .

- دي فرصة سعيدة والله .. أنا جاي هنا ضيف .. أعرفك مدام كاميليا .

Ahmed Madv

- كل السفارة هنا تعرف مدام كاميليا .

- مستر مايكل ده بأة كان الملحق الثقافي للسفارة الأمريكية في تل أبيب .. قضينا أيام مع بعض يا كاميليا .. ما تتنسيش .. فاكر يا مستر مايكل ؟!

- إنت مش ممكن حد ينسى أيامك يا مستر ناجي ..

- لأ .. سيبك من الوجاهة والبدلة دي .. هوه مش مستشار ثقافي .. إنما ميح .. بلاطة .. أنا أصلي هرشته وإحنا في تل أبيب .

- عيب مستر ناجي .. إنت ح تفضل طول عمرك لسانك طويل كده !!

- ماقصدش .. ده إنت حبيبي .. هي أمريكا ومصر إيه ؟ ما واحد .. الأمريكان عامة ماهمش تُقل على الثقافة .. ما يحبوش يوجعوا دماغهم .

وضحك مايكل وكاميليا أيضًا ، وعاد مايكل يسأل ناجي :

- وإنت فين دلوقت مستر ناجي .. لسه في تل أبيب ؟!

- لأ .. سيبتهم خلاص .. زهقت يا عم .. ولعنت أبوهم ومشيت .

- ليه ؟ دول كانوا يحبوك كتير !!

- دول ما بيحبوش حد .. إنت أصلك مخدوع فيهم !!

- وشغال فين دلوقتي مستر ناجي ؟!

- حُر مع نفسي .. فراشة طايرة في الهوا .

- طول عمرك فاهم الدنيا صح مستر ناجي .. مراتي زهقت من حياتي كلها .. حفلات .. اجتماعات .. بروتوكولات .. أخر مرة قالت لي أنا مش يقدر يكمل الحياة بالطريقة دي .

- لأ .. خللي بالك أحسن الستات لما بتتخنق بتغدر .. أنا بقولك أهوه .. أنا بأة اخترتها دبلوماسية عشان أنا اللي اتخنق منها .. مش هي .

- مدام كاميليا .. أوه .. مبروك دي ست هايلة كتير .. طول عمرك محظوظ !!

- يادي النبر الأمريكاني ، اللي مش ح نخلص منه.

Ahmed Madv

كان هناك بودي جاردز ضخام الجثة ، يقفون في القاعة والسماعات في آذانهم ، وقد بدا الجو مكهربًا .. وعاد الرجل الذي يقدم المتكلمين يهتف :

– Now with Mrs. Kamilia Sobhy .

وقفت كاميليا على البوديوم ، وكان ناجي يصفق لها بكل حرارة ، وبدأت بإلقاء التحية .

بدأ الحضور يضعون السماعات على آذانهم .. وكاميليا تقول بحماس :

– يظل السؤال الذي ردده أحد الكتاب الأمريكيين بعد 9/11 هو أهم سؤال ، ألقي في أمريكا ، والذى لو عرف الساسة الأمريكيون إجابته ، لما عانت أمريكا كل هذه المعاناة في المنطقة .. السؤال هو .. لماذا يكرهوننا ؟! واسمحوا لي أن أجيب عن السؤال .. لماذا يكرهونكم ؟!

* * *

أمام أوتيل مال الشام ، كانت سيارة بها خمسة رجال أجانب وقائدهم.. ملامحهم غريبة .. يتميزون بالشراسة والعنف .. وقوة البدن كقوات كوماندوز .. نزل أربعة منهم .. وظل الخامس واقفًا بسيارته ينظر حوله في ترقب .. ثم دخل الأربعة إلى الأوتيل .. كانت نضال نائمة في حجرتها .. فسمعت حركة غريبة في الشرفة ، ولمحت خيالًا يقفز من خلف الشيش .. فتحت الزجاج .. فوجدت أمامها حسام .. وهتفت به مستغربة :

– حسام .. إنت بتعمل إيه ؟ إيه اللي جابك من هنا ؟!

– أنا بحبك ..

– تقوم تنط في البلكونة ياحسام !!

– وأنط من عاشر دور كمان .. أنا جيت الرحلة دي كلها عشان الفلوس .. إنما من ساعة ما شفتك .. ما بآش عندي غير هدف واحد .. إنتي !

– حسام .. كِدا غلط !!.. ولو حد جه لقاك هنا ، مش ح يحصل كويس !!

Ahmed Madv

وإذا بطرق خافت على الباب ؛ مما جعل نضال ترتبك .. فدفعت حسام برفق ، وقالت :

- امشي .. امشي .. دلوقت وبكرة نتكلم .. ادخل البلكونة .. ادخل !

دخل حسام إلى الشرفة مختبئًا .. وفتحت نضال الباب ؛ لتجد أمامها إبراهيم ، فقالت مندهشة :

- إبراهيم !!

- أعمل إيه بأة ؟! ما إنتي تقلانة عليّا لا بتردي على تليفون ولا معبراني .. أوعي يكون الواد حسام ده واكل عقلك .. ده واد فاشل . مالوش لازمة ..

- لو سمحت يا إبراهيم .. اتفضل دلوقت .. إنت مش في وعيك !

- أنا باموت فيكي .. إنت واخدة الموقف ده مني ليه ؟!

حاول إبراهيم أن يعانقها عنوة ، فدفعته وخرج حسام من الشـرفة مندفعًا كالقنبلة ، وصرخ في إبراهيم قائلا :

- إنت جاي تعمل إيه يا واطي يا حقير ؟!

قال إبراهيم بندالة :

- الله .. ده بايت عندك بأة .. وعاملالي فيها محترمة !

قال حسام :

- احترم نفسك يا إبراهيم .. ولم لسانك ده !

انهال حسام على إبراهيم بقبضة يده في وجهه ، فرد إبراهيم له اللكمة ، وبدأت معركة ضارية بينهما ، ونضال تصرخ محاولة أن تفرق بينهما .. في نفس الوقت ، كان زاهر جالسًا في السويت والحقائب متراصة بجواره .. وكان يكلم الشيخ حسن في حجرته :

- إنتواح تقعدوا لاطعيني في الأوضة كده يا شيخ حسن !! .. ده ما يرضيش ربنا .. الدور على حسام .. لا أنا لاقي حسام ولا أي حد .. تهامي نزل معرفش راح

Ahmed Madv

فين ؟ قال خمس دقايق وبقاله نص ساعة !! أي حد ييجي .. عاوز أنزل أشم نفسي شوية .. حرام عليكم !

وضع زاهر السماعة في ضيق .. ثم سمع طرقات على الباب ، فقام وهو يهتف ، وقد ظن أن القادم حسام أو إبراهيم وفتح الباب ، وهو يقول باستياء :

- لسه جاي يا خويا .. ما بدري !!

فإذا بلكمة قوية تطرحه على الأرض ، فصرخ بكل قوته :

- يا حسام .. يا عبد الجليل .. الحقوني .

فعالجه أحد الرجال بحقنة مخدرة سقط بعدها مباشرة مغشيًّا عليه .. وبدأوا في لم الحقائب ليحملوها معهم خارجين ..

في حجرة نضال ، كان حسام وإبراهيم لا يزالان متشابكين .. ونضال تحاول بلا جدوى أن توقف هذه المهزلة .. ثم صرخت :

- ده صوت زاهر ؟ زاهر بيصرخ !

قال حسام :

- زاهر ؟!

انطلق حسام وإبراهيم يجريان خارج الغرفة ومعهما نضال .. في الكوريدور كان سويت ناجي مفتوحًا ، وبعض الرجال خارجين منه حاملين الحقائب .. ما أن وقعت عليهم عينا إبراهيم وحسام ، حتى بدأت معركة شرسة بينهما وبين الرجال .. وأتى عبد الجليل والشيخ حسن من الناحية الأخرى .. لينضما إلى المعركة بسرعة .. كان رجال الموساد في قمة الشراسة والاحتراف ، فانهالوا عليهم ضربًا حتى ظهر تهامي بجسمه الضخم ، وألقى بنفسه عليهم كالبلدوزر يضربهم بلا هوادة .. فمالت المعركة لكفة أبطالنا قليلًا .. واستمر الصراع الدموي في الكوريدور ، وفي الغرف .. كان الزجاج يتكسر ، واللوحات تقع ، والفازات تتحطم .. وبدا أنها معركة حياة أو موت .

* * *

Ahmed Madv

في قاعة الحفل بالسفارة الأمريكية ، كانت كاميليا قد انتهت من كلمتها وتصفيق حاد من جميع من في القاعة ، ونزلت وهي تحيي الجميع ، فأخذها ناجي من يدها سعيدًا فخورًا ، وقال :

- إيه ده ؟ إيه الكلام الكبير ده .. والله العظيم أنا حضرت ندوات وحفلات من دي أكتر من شعر راسي .. عمري ما شفت سبيكر بالحلاوة دي !

- إنت بتجاملني بس عشان بتحبني .

- إحنا مش نخلع بأة من هنا !!

- مش علطول كده .. هوه أنا جاية أقول الكلمة ، وأمشـي .. لازم نسمع بقية السبيكرز .

- إنتي خلصتي الليلة .. هوه فيه حد بيغني بعد الست !!

وضحكت كاميليا بعذوبة ورقة .. ولم يكن ناجي عطا الله يتصور في تلك اللحظة.. أن أولاده في الأوتيل ، منخرطون في معركة طاحنة شرسة مع رجال الموساد.. وقد فتحت بعض الحقائب .. وتناثرت الدولارات على الأرض .. وفي الكوريدور ، وبدأ رجال الموساد يخرجون الأسلحة البيضاء .. والكهربائية ..

في قاعة الحفل بالسفارة الأمريكية .. نظر ناجي نحو كاميليا بحب جارف ، وهما يتناولان مشروبًا مع موسيقى هادئة ، وقال :

- عارفة بأة إحنا نطلع من هنا نروح مكان هادي ..

- أهدا من كده !!

- هاااادي .. مفيهوش صريخ بن يومين .. نقعد بس كده قُصاد بعض .. وإحنا كمان مانتكلمش .. نستمتع بالهدوء .. ونبص لبعض .

- للدرجة دي بتحب الهدوء يا ناجي ؟!

- باموت في الهدوء ، بالذات بأة لما يكون معايا حد بحبه .

Ahmed Madv

وفجأة انطلق صوت انفجار هائل ، ارتجت له القاعة بكاملها .. وعلا صراخ الموجودين وسادت حالة من الذعر في السفارة .. كان يبدو أن الانفجار قريب جدًّا من السفارة ، وأمسك ناجي بكاميليا وحملها .. وتواريا خلف أحد الجدران.. وشبت النيران بمدخل السفارة في حريق هائل .. وكان الجميع يتدافعون إلى خارج السفارة وسيارات الشرطة تحاصر المبنى .. ويأخذون الخارجين بعيدًا .. ومنهم ناجي وكاميليا وقد تمزقت ملابسهما .. وقد ركبا سيارة الشرطة.. دون أن يعرفا ماذا حدث بالظبط .. ومن الذي فعل ذلك .. وإلى أين هما ذاهبان .

* * *

في مكتب التحقيقات السورية ، كان ناجي وكاميليا جالسين ، وضابط يسألهما ، وكأنهما متهمان يتم استجوابهما ، فقال ناجي :

- يا حضرة الضابط .. أنا ناجي عطا الله دبلوماسي سابق .. ودي الدكتورة كاميليا خطيبتي .. من الأمم المتحدة .. إنتوا كده بتضيعوا وقتكوا ووقتنا !

وقالت كاميليا في عصبية :

- إحنا ناس لينا وضعنا .. إنتوا بتحققوا معانا ليه ؟ إحنا ضحايا !

قال الظابط السوري بهدوء :

- هادي إجراءات سيادتك بتعرفها كويس .. طيب الدكتورة كاميليا جت الشام من شان تحضر الندوة بالسفارة .. وحضرتك .. شو عم بتسوي هون في سوريا ؟!

قال ناجي مرتبكًا :

- أنا .. أنا معايا فريق التايكندو بتاع مصر .. وجايبهم هنا معسكر .

قال الظابط :

- أستاذ ناجي عفوًا .. ما هو موجود بالسجلات عندي دخولك ع الشام ، ولا دخول ها الفريق .. كيف دخلتوا لهون ؟!

- إحنا .. كُنا في لبنان .. وجينا من الطريق البري .

Ahmed Madv

ثم صرخ ناجي ، في ضيق ، وقد فقد أعصابه :

- شوفولنا أبو القاسم .. أبو حسين .. أبو أي حد إنشالله أبو مازن .

* * *

في أوتيل مال الشام ، كانت المعركة تزداد ضراوة بين فرقة ناجي عطا الله ورجال الموساد .. بدأ صوتها يصل إلى اللوبي ، حيث كان ريمون خارجًا من مكتبه مذعورًا ، يسأل عاملة الريسبشن :

- شو سمعتي .. هاد طلق نار ؟!

- فيه أصوات كده من الصبح .. مش عارفة جاية منين ؟!

- معقول يكون هون بالأوتيل !!

وفجأة سقط أحدهم متدحرجًا على السلم متشقلبًا ، كأنه كرة ألقيت .. حتى سقط في أخر السلم جثة هامدة .. نظر نحوه ريمون ،وقال مندهشًا :

- شو هادا ؟!

ثم سقط الآخر هو أيضًا حتى وصل إلى نهاية السلم ساقطًا فوق الأول ، وصرخ ريمون :

- يا الله !!!

ثم نزل تهامي وعبد الجليل ، وحسام وإبراهيم ، وهما يمسكان بالاثنين الآخرين، وألقيا بهما على الأرض ، ثم نفضوا ثيابهم ببساطة كأن شيئًا لم يحدث .. ثم علا صوت صراخ زاهر ، وهو يقول :

- أنا بانزف .. أنا بانزف .. دم .. دم !!

وسقط مغشيًا عليه هو الآخر .. فنظر إبراهيم إلى ريمون ، وقال :

- أستاذ ريمون .. يا ترى نلاقي عندكم ميكركروم ؟!

Ahmed Madv

قال ريمون مندهشًا :

- أوامركم .. شو حصل ؟!

- مفيش .. أصل إحنا كُنا بننفض الأوض .. إيه كمية الفيران اللي عندكم دي يا ريمون .. الأوتيل ده لازم يترش !!

* * *

في مكتب التحقيقات السورية ، كان ناجي في ورطة حقيقية .. فهو لا يستطيع أن يبرر وجوده في سوريا .. ولم ينقذه سوى دخول أبو القاسم في اللحظة الأخيرة ، بكل ثقة وابتسامة في وجهه .

قال ناجي ، وهو يتنفس الصعداء :

- أبو القاسم .. إنت فين يا راجل ؟ دوختنا وراك .. إنت لسه جاي !!

قال أبو القاسم ، موجهًا كلامه للظابط :

- شو الموضوع يا أبو علاء !!

- سيد أبو القاسم .. إحنا ما نتهمه بشيء .. بالعكس دول ضيوف عندنا .. بس نعرف شو الموضوع ؛ لأنهم كانوا بالسفارة وقت الهجوم عليها !

- هادا الأستاذ ناجي عطا الله ، من أهم رجال الأعمال بالوطن العربي .

ثم همس للضابط قائلًا :

- من المقاومة .

فأومأ الظابط برأسه مصدقًا ما يقوله أبو القاسم ، وقال :

- اتفضل يا ناجي بك .. اتفضل .. هادي فرصة سعيدة إن إحنا شفناك .

* * *

كان الأوتيل قد صار أطلالًا ، وسيارة أبو القاسم تقف أمامه ، وبها ناجي وكاميليا .. نظر ناجي نحو الخراب والأطلال ، وقال :

- إنت جايبنا فين يابو القاسم .. إحنا نازلين في فندق مال الشام !!

Ahmed Madv

- هادا فندق مال الشام ...

- هوه إيه اللي حصل للفندق هوه كمان !!

قالت كاميليا :

- مش ممكن .. أنا كل ورقي فوق !

قال ناجي صارخًا في هلع :

- ورقك إيه ؟ ده أنا سايب بلاوي زَرْقا فوق .. نزلني يا أبو القاسم !!

ودخلا مسرعين إلى الأوتيل ، وأبو القاسم يركن السيارة بهدوء ..

كان الأوتيل قد صار خرابًا من الداخل أيضًا ، وأبطالنا الستة جالسين ، والحقائب بجوارهم ، وزاهر نائمًا مخدرًا ونضال تغير له على الجرح .. والبوليس قد انتشر في المكان .. والأربعة الأجانب موثقين ومستلقين على الأرض بلا حراك في أماكن مختلفة .. قال ناجي لحسام بلهفة :

- إيه اللي حصل ؟!

- لا شوية عيال كده جُم حبوا يلعبوا معانا ، بس إحنا ربِّيناهم .

وقال عبد الجليل هامسًا :

- ما تخافش .. كل حاجة في الأمان يا باشا .

كان ريمون جالسًا يبكي على الأرض ، ويندب حاله لناجي قائلًا :

- الله يخرب بيتك إنت وياه .. خربتوا بيتي .. وين الديسكو .. وين صالون التجميل .. وين مطعم ألف ليلة وليلة .. الله يلعن الساعة اللي شفت وشك إنت وياه فيها .. العمى بعيونكن ..

- خلاص بأة يا ريمون ..كله ح يتصلح ، ويرجع أحسن من الأول كمان !!

- كيف يتصلح .. ولا مليون دولار عشان ها المبنى يقوم تاني !

- والله ما حرجع لك كلمة .. تعالى يا ريمون .

Ahmed Madv

وأخذ ناجي حقيبة من الحقائب .. كانت المجموعة تنظر نحوه في ضيق ، وهو يمضي داخل الريسبشن ، مع ريمون متأبطًا ذراعه في حنان .

في غرفة الريسبشن ، جلس ريمون يمسح دموعه ، وأخرج ناجي رزم الفلوس ووضعها أمام ريمون وقال :

- امسك يا ريمون .. إنت راجل طيب وابن حلال .. عد معايا .. آدى ميّة ألف دولار .. تلتمية .. خمسمية .. كده معاك مليون دولار .

لم يستطع ريمون أن ينطق .. كان ينظر نحو الدولارات ، وقد فتح فمه ببلاهة ، ثم قال ، وهو يبكي من فرط التأثر .. ويجمع الدولارات :

- هات إيدك لأبوسها .. هارجليك عاراسي .

دخل أبو القاسم عليهما ، وقال :

- ناجي بيك .. ياللا ح نروح عامصر دلوقت حالًا .. ح تسافروا مصر هَلّا .. لازم تسيبوا الشام دلوقتي .. خللي الولاد يطلعوا الشناطي في السيارة .

- وكاميليا ؟!

- لو بدها ترجع معاكوا .. فيه مكان ؟!

- بدها طبعًا .. هوه إحنا ح نمشي ونسيبها .. عاوز مني حاجة يا ريمون ؟

- الله يخليلي إياك يا أستاذ ناجي .. الله ما يحرمني منك .. والله أنا زعلان إنك مغادر الأوتيل .. ما تخليك كمان معنا كام يوم .

- ده بأه خرابة .. ياللا يابو القاسم .. ياللا يا ولاد .. ياللا يا كاميليا .

قالت كاميليا :

- ياللا فين ؟!

- إنتي مش مسافرة مصر .. ما إحنا رايحين مصر !!

- أنا طيارتي بكرة !

- تعالي بس .. أبو القاسم ح يتصرف .. ح تباتي هنا فين ؟ أديكي شايفة !

Ahmed Madv

وتحرك الجميع ، وفجأة ظهر ريمون من خلفهم ، وقال بابتسامة زائغة :

-ناجي بك .. أنا آسف لإزعاجك .. بس فيه فاتورة باتنين شاي بالنعناع ما اندفعت !!

- ده إنت نتن نتانة يا ريمون .. معاك فكة يابو القاسم ؟!

أومأ أبو القاسم لريمون بما يعني أن الحساب يخصه ، فلزم الأخير الصمت .. وخرجوا جميعًا ، والابتسامة تعلو وجوههم ، وركبوا سيارة ميكروباص من أمام الأوتيل .. في الأمام ، كانت كاميليا تجلس بجوار ناجي ، وأبو القاسم الذي كان يقود السيارة ، وجلست نضال وبجوارها حسام ، بينما جلست بقية المجموعة في المقاعد الخلفية .. كان أسعد واقفًا بالباب يشير لهم ، وهو يمسح دموعه لفراقهم .. وعن بُعد كان الرجل الخامس ، الذي كان مع الأربعة الكوماندوز .. يقود سيارته ويتابعهم من بعيد .

* * *

كان الميكروباص يقطع الطريق الصحراوي ، وخلفه السيارة الأخرى ، دون أن يشعر أحد .. وداخل الميكروباص كان صوت شخير الجالسين في الخلف عاليًا جدًّا .. قال أبو القاسم لناجي :

- الشباب ناموا .. باين عليهم هلكانين !!

- هوه فيه أحلى من النوم يابو القاسم !

- لو بدك تنام .. نام .. ما تعمل لي حساب .. ريَّح راسك وخد لك غفوة .

وأدار أبو القاسم مفتاح الراديو على نشرة الأخبار ، حيث كان الخبر الرئيسي هو محاولة تفجير السفارة الأمريكية بدمشق ، بينما وضعت كاميليا رأسها على كتف ناجي ، وهمست له برقة :

- تعرف يا ناجي .. أنا بحمد ربنا إنه بعتك ليّا في الوقت المناسب .

Ahmed Madv

- متهيألي فترة الخطوبة طولت قوي ! إحنا نتجوز أول ما نوصل مصر .. ح أجيب لك أجمل ڤيلا في مصر .. عشان نعيش فيها ..

- أي مكان ح نكون فيه مع بعض ، ح يبأة أجمل مكان في الدنيا .

وعلا صوت المذيع في النشرة ، ذاكرًا إعلان جماعة جند الشام مسئوليتها عن انفجار القنبلة أمام السفارة الأمريكية .. صرخ أبو القاسم فرحًا :

- عفارم عليكم .. الله يوفقكم يا جند الشام ..

وبدأ مذيع النشرة يعلن عن أسباب محاولة جند الشام لتدمير السفارة .. ومضت السيارة بالجميع .. وقد ذهبوا جميعًا في سبات عميق .. ما أجمل النهايات السعيدة .. بعد ساعة أو أقل سيكونون بالقاهرة .. هكذا هتف عبد الجليل لنفسه ، وهو يتخيل أمه ، وهي تعانقه بحرارة .. حينما تلقاه .. وابتسم .. واستسلم للإغفاءة التي انتابته ..

أشرقت الشمس في الصباح الباكر .. وقد ظهرت الكثبان الرملية والأشجار على جانبي الطريق ، وكان كل من في السيارة قد نام نومًا عميقًا .. فتح ناجي عينيه في ضوء الشمس الساطع ، وقال :

- هي الساعة كام دلوقت يا أبو القاسم ؟!

- الساعة تمانية .. نمت لك شي ساعتين حلوين ..

قالت كاميليا :

- إحنا فين ؟! هوه الطريق طوِّل كده ليه ؟

بدأ الأولاد يستيقظون ، حينما قال أبو القاسم :

- خلاص ربع ساعة .. ونوصل على بغداد ..

وصرخ ناجي في دهشة :

- بغداد !! بغداد إيه يابو القاسم .. إحنا مش رايحين على مصر ؟

Ahmed Madv

- باعرف يا ناجي بك .. ما إحنا رايحين على مصر ، إنما عن طريق بغداد .

- وإيه اللي ح يودينا بغداد !!

- بعد اللي صار بالسفارة الأمريكية وبالفندق .. مستحيل تمروا من المطار بدمشق .. ما فيه طريق غير بغداد .

قالت كاميليا :

- وإحنا إيه اللي يودينا العراق .. إحنا هربانين من حاجة .. هوه إحنا عاملين جريمة .. ما كُنا فضلنا في سوريا ؟!

قال أبو القاسم ، محاولا إنقاذ الموقف :

- أنا مطلعكم من السين والجيم والأخذ والعطا بالتحريات.. وليش نوجع راسنا .. نروح على بغداد .. ناخد طيارة ، ونتكل على الله على مصر .

* * *

كانت لافتة (**بغداد ترحب بكم**) ظاهرة بوضوح على الطريق ، وكان اللاجئون القادمون من العراق يحملون أمتعتهم في اتجاه الشام .. أسوأ أمراض الأمة العربية الآن هي الفرار من الوطن .. على الحدود العراقية السورية ، كانت هناك باصات كبيرة ، من التي تحمل 45 شخصًا ، ويأتي فيها الفقراء .. وعربات چيمس أمريكية تسمى (البهبهان) تحمل (8) أفراد ، وهي لميسوري الحال .. حتى في الفرار طبقية !!

ومضت السيارة في الطريق إلى بغداد ، وقال عبد الجليل لناجي مستفهمًا :

- إلا قوللي يا باشا .. هي العراق برضه فيها دول واقعين مع دول !!

- لا .. العراق فيها غير دول ودول ، فيها دولام ودوكهما كمان .. دول واقعين مع دولم .. ودولم مش طايقين دوكهما .. ديكهم طبعًا مش ح يسكتوا .. وكله جاي ياكل عيش هنا .

- ياااه .. كل دول جايين على سوريا !!

Ahmed Madv

قال أبو القاسم :

- سوريا صار بيها 2 مليون عراقي ع الأقل .
- والله كتر خيركوا يابو القاسم .
- هادا واجب يا ناجي بيه .. يبأة إيه معنى العروبة لو ما تبان بوقت الشدة .. تعرف بالألفين وستة .. إجم لسوريا فوق مليون لبناني .. والله بدون توجيه سياسي .. كل بيوت الشاميين اتفتحت لجل تستقبلهم .
- والعراق لسه فيها مصريين !!
- مصريين كتير بالعراق عندهم عقارات .. ومصاري وعلاقات إنسانية واجتماعية .. فيه منطقة اسمها المربعة .. فيها فوق الخمسين ألف مصري عبارة عن حارة مصرية .. العراقي يدخلها كأنه سائح .. لكن بعد الألفين وتلاتة .. بأة كله يشك في أي عربي أو مصري بالعراق !
- ليه ؟!
- لانحيازهم لنظام صدام .. صاروا يتهموا أي عربي ببغداد !
- إنما أنا شايف الطريق هادي يعني !
- ها الطريق صار هادي .. كان كله خطف وسرقة وقتل ، إنما مجلس إنقاذ الأنبار اللي اسمهم رجال الصحوة .. هما اللي خلصوا الموضوع .. الشيخ أبو ريشة قعد مع يونس .. ويونس أغراه بالمال .. راح جاب العشاير وسلَّحهم ، وصار الطريق أمان دلوقتي .
- والله كتر خير أبو ريشة .. وهوه لسه موجود !!
- اتقتل لأنه صار جزءًا من المشروع الأمريكي .. وقطاع الطريق والهجامين قتلوه لأنهم رجال وطنيين .. وعروبيين ..

قال ناجي مترحمًا في سخرية :

- الله يرحمك يا أبو ريشة !!

Ahmed Mady

أمام نقطة التفتيش في مدخل بغداد ، وقفت سيارة أبو القاسم وبها ناجي عطا الله والشباب ، واقترب منهم أحد الجنود الواقفين بالتفتيش .. كانت النقطة تبدو مثل كل نقاط التفتيش على كل الحدود .. جنود وأسلحة ومزلقان .. قال الجندي، وهو ينظر إليهم في شك :

- هوياتكم !!

ثم أخذ الباسبورات منهم ، وبدأ يفحصها ، فقال أبو القاسم :

- أنا أبو القاسم .. رايح جاي على الطريق ، وينه النقيب عدنان ؟!

قال الجندي ، وهو ينظر نحوه :

- أجازة .. لوين رايحين بالعراق ؟! وإيش الغرض من الدخول ؟!

- على الأعظمية .. الأستاذ ناجي عطا الله رجل أعمال من مصر وجاي عا بغداد؛ عشان بده يسوي مشروعات اقتصادية ويستثمر هون .. ودول الموظفين والكوادر تبعه بالشركة .

ورن تليفون أبو القاسم ، فرفعه إلى أذنه ، وقال :

- يا سيادة النقيب جينا وما لقيناك .. أجازة سعيدة .. خد الجندي معاك .

وأعطى التليفون للجندي ، قائلًا له :

- النقيب عدنان .

حادث الجندي النقيب عدنان ، على التليفون ، ثم أعطاهم الباسبورات ، وقال لهم :

- اتفضلوا بالسلامة .

ومضت السيارة من نقطة التفتيش .. قال ناجي ضاحكًا :

- والله العظيم الحدود دي شغلانة .. لازم تعمل تليفون ، ويبأة لك واسطة عشان تعدي .

Ahmed Madv

- ع الحدود العربية بالذات .. لو ما بتعرف حدًا ما حدًا بيعرفك .

- ده فكرني بفيلم إسماعيل ياسين بتاع فتشني فتش !!

قال أبو القاسم ضاحكًا :

- شفته .. أنا باموت في إسماعيل ياسين هادا .

- أهو ده الحاجة الوحيدة اللي العرب اتفقوا عليها .. حتى الصهاينة بيحبوه !

- الصهاينة ما بيحبوا حدًا يا ناجي بيه !

- على رأيك .. إنت ح تقوللي !!

ظهرت من بعيد بلدة على جانب الطريق .. تبدو فقيرة .. بعضها مهدّم من آثار الحرب ، ولافتة مكتوبًا عليها (الرطبة) .. قال أبو القاسم :

- هادي الرطبة أول بلد نقابلها في العراق .. 60 كيلو من سوريا .. فيه استراحة لو بتحبوا تغسلوا .. تشربوا شي .. ترتاحوا .. استراحة منيحة كتير .

قال عبد الجليل :

- فيه دورة مية هنا يا باشا ؟!

قال ناجي :

- والله كانت على لساني .. عارف معلش يا أبو القاسم .. نركن خمس دقايق بس !!

وقفت السيارة أمام استراحة (الرطبة) لينزلوا جميعًا .. ولم يتبق إلا زاهر ، الذي كان يغط في نوم عميق .. فأخذ ناجي يهزه برفق ليوقظه قائلا :

- زاهر .. زاهر .. إصحى يا زاهر .. انزل أشرب لك كوباية شاي .. واغسل وشك .. ياللا يا زاهر !!

فتح زاهر عينيه بصعوبة .. ثم تأمل المكان من حوله ، وقال :

- إحنا فين يا باشا ؟!

- إحنا في العراق ..

Ahmed Madv

قال زاهر ، وهو يرتعد صارخًا :

- عراق إيه ؟ إيه اللي جابنا العراق .. إحنا ماروحناش مصر !!

- يا بني امسك نفسك شوية مش كده ؟ انزل بس ، وأنا ح أفهمك .

قال أبو القاسم :

- ماله الزلمة ؟!

قال ناجي :

- قلبه خفيف شوية !!

- يا زلمة ، ما تصدق الإعلام .. هون أمان مش زي ما الناس بتتصور !

وانفجرت سيارة مفخخة بالقرب منهم ، محدثة دويًّا رهيبًا ، فانتفض زاهر صارخًا ، ودخل الجميع جريًا إلى الاستراحة ، وهم في قمة الفزع .

Ahmed Madv

الفصل التاسع

استراحة الرطبة هي استراحة عادية مثل استراحات الطرق الصحراوية ، في الطريق من الشام إلى بغداد ، ولكنها بالطبع فقيرة .. بها عدد قليل من الناس .. كان القهوجي يروح ويجيء .. شاب في نحو الثلاثين من عمره .. سريع الحركة .. يسعد جدًّا حينما يرى زبائن ؛ لأنه يعاني من قلة الزبائن .. أمسك بالماشة الكبيرة ومصفاة الفحم ، وأخذ يحركها يمينًا ويسارًا .. قال أبو القاسم :

- شاي للكل ، وهات لي أنا قهوة سادة ، ولناجي بيه قهوة مظبوط ..

قال عبد الجليل :

- أنا يا ريت شاي بحليب ، ولو أي حاجة يا باشا أفتها فيها .. بقسماط .. إنشالله رغيف فينو !

اقترب القهوجي منهم ، وقال :

- حد عاوز شيش !!

قال إبراهيم :

- ادِيني تفاحة ..

قال عبد الجليل :

- عندكوا قَصْ !!

Ahmed Madv

قال ناجي :

- هيه فسحة يا ولاد اللذينة .. ح نرحرح هنا .. تفاحة .. وقص !!

ثم نظر نحو القهوجي ، وقال :

- ألاقي عندك سلّوم !!

فانفجروا ضاحكين ، وقال القهوجي بفرحة عارمة :

- عليّا النعمة أنا قلبي حاسس .. من ساعة ما دخلتوا يا باشا ، وأنا زي ما تقول قلبي دق .. مصريين يا باشا ؟!

- آه .. إنت ح تعيط !!

- يااااه .. ألف حمد الله ع السلامة يا باشا .. ربنا ما يحرمني من مصـر ويخليهالنا .. القلوب بتحن يا باشا .. الشِّيَش دي عندي يا رجالة .

- تعالى ياد .. إنت اسمك إيه ؟!

- خدامك عبد التواب ، بس بيقولولي يا توبة .. من ميت كرفس ..

- دي في مصر ؟!

- أيوه يا باشا .. بلد صغيرة في الأرياف .. محدش يسمع عنها !

- وجاي هنا من إمتى ؟!

- أنا جيت هنا قبل الأمريكان ما يخشوها بأربعة وعشرين ساعة .

- يعني جيت خربتها وقعدت على تلها .

- أخدنا الضرب كله على دماغنا .. شعرنا شاب هنا يا باشا !

أخرج ناجي من جيبه رزمة دولارات ، وأخرج ميتين دولار ، وقدمهم لتوبة ، وقال :

- امسك دول يا توبة ..

- لا يا باشا .. ما يصحش .. إنتوا ضيوفنا !

- امسك بأة وروح هات الشيش..ده استفتاحك النهاردة .

Ahmed Madv

وتحرك توبة مبتعدًا بعد أن قبل الفلوس ، ووضعها في جيبه بتأثر .. كان أبو القاسم يتكلم في التليفون المحمول مع أحد عملائه في العراق .. ويقول :

- آلو .. يا ماجد .. تطلع ع المطار .. عندي ضيوف من مصر بدهم يسافروا اليوم .. جهز لي الوضع كامل بأول طيارة .. وتقول لجعفر يخلص الموضوع بنفسه .. أصحابنا بالمطار يديروا بالهم منيح .. سلام .

وبعد أن انتهوا من المشاريب واغتسلوا .. وشعروا ببعض النشاط ، بدأ يستعدون للقيام ، ودفع ناجي الحساب .. ثم قال لتوبة القهوجي :

- سلام يا توبة ..

- باشا .. لو سمحت يا باشا .. ممكن أخد صورة معاكوا يا باشا ؟!

- تعالى يا توبة ..

جرى توبة ، وأعطى الموبايل للجرسون لكي يأخذ صورة معهم في سعادة .. ثم نظر لناجي عطا الله ، وقال :

- والله دخلت قلبي يا باشا ، من أول ما خطيت برجلك المكان .

- إنت ابن حلال ياله يا توبة .

وبكى توبة وارتمى في حضن ناجي ، الذي قال ، وهو يربت على كتفه :

- ما تعملش كده يا توبة .. اجمد .. أمال كنت بتعمل إيه أيام الحرب ؟!

- تعبنا قوي ياباشا .. هلكنا .. يا يوم من أيام ميت كرفس .

- ح تتعدِّل إن شاء الله ..

وخرجوا من استراحة الرطبة ليركبوا الباص .. وكان توبة يقف أمام الاستراحة ، يشير لهم بحب .. ويشيرون له .. ومضت السيارة في الطريق إلى مطار بغداد .. قال ناجي :

- والله صعب عليّا الواد توبة .. واد شقيان !!

Ahmed Madv

- مصريين كتير هون يشتغلون يا ناجي بيك .. هادي بلدهم التاني .

- صحيح .. هي مصر والعراق إيه ؟ ما واحد .

تحسس ناجي جيبه ، وقال :

- إيه ده ؟! أنا كان معايا فلوس في جيبي .. حوالي عشر تلاف دولار .. راحوا فين ؟ ليكونوا وقعوا مني في الاستراحة !!

قال أبو القاسم :

- نرجع الاستراحة .. أكيد هناك !

- لسه ح نرجع !!

- شي خمس دقايق من هون .

دخل ناجي وأبو القاسم الاستراحة ، واستقبلهما الجرسون مندهشًا من عودتهما ، فقال أبو القاسم :

- ناجي بيك .. وقع منه فلوس هون ..

- والله ما شفناها يا بيك .. وإلا كنا احتفظنا بيها ..

- أمال فين توبة .. يمكن لقاهم وشايلهم لي !!

- توبة .. زعق فيّا لسه توه .. ورمى الشيشة وخلع تياب الشغل وترك العمل بالاستراحة .

قال ناجي :

- يابن اللعيبة يا توبة .. طبعًا لازم يسيب الاستراحة .. اللي معاه ح يعمل بيه استراحة لوحده !

وعاد ناجي إلى السيارة ، وانفجروا جميعًا في الضحك .. قال ناجي :

- قال أنا .. اللي أقلِّب اليهود .. توبة يقلِّبني .. شفتوا الحلاوة !!

Ahmed Madv

قال عبد الجليل :

- على فكرة أنا هارشه من الأول يا باشا .. صوابعه خفيفة .. إنت تبص على صوابع البني آدم من دول ، تعرف ده نشال ولا لأ ؟

- آه طبعًا ما إنت نشال قديم .. ولعلمكوا الواد ده مش من ميت كرفس .. لا يمكن يكون من ميت كرفس .. ده واد كداب ؛ عشان مفيش بلد اسمها ميت كرفس أساسًا !

وضحكوا جميعًا وغمز إبراهيم لمن معه ، وهمس لهم بشيء .. ثم رفع يديه كمايسترو ، وهم يرددون وراءه ويغنون :

- توبة .. توبة .. توبة إن كنت أحبك تاني توبة ..

وانفجروا في الضحك ، وانطلقت السيارة في الطريق الصحراوي إلى بغداد .. ومرت السيارة على بلدة في الطريق ، أشار أبو القاسم نحوها ، وقال :

- هيك دخلنا ع الخط الساخن .. البلدة اللي مرينا عليها هادي اسمها (الرمادي) محافظة الأنبار أكبر محافظة بالعراق .. وبعدين ح ندخل ع الفالوجة .

قالت كاميليا :

- الفالوجة دي أصغر بلد في العالم ، تعقد اتفاقية سياسية مع أكبر بلد في العالم .. مع أمريكا .. الجيش الأمريكي جه لحد الفالوجة ، ومقدرش يدخلها .. فقعدوا مع القيادات فيها ، واتفقوا إن الفالوجة بس يحكمها أفراد الجيش العراقي اللي فيها .. ومع ذلك ، الفالوجة فيها أعلى نسبة تشوهات ولادة في العالم ؛ بسبب اليورانيوم اللي استخدموه الأمريكان .

وقال أبو القاسم معقبًا :

- الرمادي .. الفالوجة .. الأنبار .. بلدان صغيرة .. نائية في أطراف العراق .. ولكنها صارت شهيرة .. بارزة .. يعرف العالم كله أسماءها ومواقعها .. والفضل يرجع للحرب .. وللدمار والتمزق اللي انتهى إليه العراق .. الأمريكان قالوا ..

Ahmed Madv

لما جم هنا بآلاتهم الحربية .. اطمئنوا .. العراق ستصبح جنة الشرق الأوسط .. ستحسدها الشعوب العربية وتصرخ متوسلة لأمريكا .. علشان تيجي تحتلها مثلما فعلت في العراق .. وتحولها إلى جنان ..

ومرت لحظة صمت تغلفها الكآبة ورائحة الموت .. فقال ناجي :

- أمال إحنا ح نوصل بغداد إمتى يا أبو القاسم؟!

- بعد الفالوجة .. أبو غُرَيب ..وبعدين بغداد .

- مش دي اللي فيها المعتقل ؟!

- أيوه ..

- عدِّيها بسرعة والنبي يا أبو القاسم ، أحسن الواحد قلبه بيتقبض .

* * *

كان مناحم في مكتبه يتكلم في التليفون .. وقد بدت معنوياته مرتفعة :

- دخلوا بغداد ! هايل .. كده وقعوا في الفخ برجليهم .. خليك وراهم .. أنا عاوز الفلوس ، وعاوزهم يرجعوا متقطعين .. اللي ناقص إيد واللي ناقص رجل .. اللي عينيه طايرة .. عشان يبأوا عبرة لغيرهم .. وعمرهم ماينسوا اللي عملوه أبدًا .. مفهوم .. أظن بأة الملعب هنا مفتوح قدامكم .

كان مناحم يعرف أن له أذرعًا طويلة في بغداد .. وأن حركته هناك ستكون أيسر بكثير من حركته بالشام .. وأن ناجي وفرقته صاروا الآن بالفعل .. في قبضة أيديهم .

* * *

في بغداد ، داخل مكتب أبو القاسم ، كانت المجموعة كلها جالسة ، يأكلون الفول والطعمية والباذنجان المقلي .. وبجوارهم الحقائب المليئة بالدولارات .. ورن تليفون أبو القاسم ، فردَّ على المتكلم قائلا :

- آلو .. أيوه يا ماجد .. شو عملت .. إديني جعفر أكلمه .. كيفك يا جعفر .. الله يخليك .. أول طيارة طالعة على مصر الساعة خمسة .

Ahmed Madv

ونظر لناجي ، فأشار ناجي له موافقًا ، فعاد يقول لماجد :

- طيب .. احجز لنا الله يخليك المحلات ، اللي قُلنالك عليها .. ع ها الطيارة ناس مهمين كتير .. جعفر .. بدنا نطلع الطيارة بالأخر يعني أخر ركاب .. تبعت لنا مندوب من عندك ياخد التذاكر والباسبورات والشناطي ، وياخد الشباب على الطيارة .. سلام .

- ربنا يخليك يابو القاسم .. بس جعفر والناس اللي معاهم دول مضمونين ؟!

- دول رجالي بالعراق .. ما تفكر .. بس كنت عاوزك بكلمة على انفراد !

وأخذ أبو القاسم ناجي ، ودخل إلى الغرفة الداخلية حيث حقائب الفلوس تملأ الغرفة والسلاح أيضًا .. قال ناجي :

- معلش يابو القاسم كركبنالكوا الدنيا وقلبنا دماغكوا !!

- يا ناجي بيك .. إنت أخو عزيز .. فيه شغلتين لازم أتكلم وياك فيهم .

- أؤمرني يا أبو القاسم .. فيه إيه ؟! قلقتني !

- أنا عارف إيه اللي موجود بها الشناطي ، وعارف الحكاية من البداية للنهاية .. أبو حسين خبرني عن كل شيء .

وارتبك ناجي عطا الله متلعثمًا ، وقال وهو يبلع ريقه :

- وهو إنت وأبو حسين إيه ؟ ما واحد .. ده إنت في نفس غلاوة أبو حسين عندي ، ويمكن أكتر كمان !

- ها المصاري عشان تمرأ من الجهاز اللي بالمطار ، سواء هون ببغداد أو بالقاهرة .. لازم تترش بمادة معينة .. حتى لا يكشفها الجهاز .

- تصدق إن إنت ابن حلال .. والمادة دي نجيبها منين ؟!

أشار أبو القاسم إلى زجاجات الإسبراي التي على رف الحجرة ، وقال :

- كل شيء جاهز .. الزجاجات هادي .. سبراي مخصوص لها الشغلة .

Ahmed Madv

- ربنا يخليك يابو القاسم ، وما يحرمني منك أبدًا ..

- فيه مشكلة تانية .. الناس اللي بدهم يساعدوكم بالمطار ، و اللي مرَّأونا بالطريق لازم نراضيهم بأي إشي .

- قوي .. قوي .. نراضيهم أخر مراضية .. إنماح ندفع لدول ولا لدول ؟!

- ح ندفع شوية لدول وشوية لدول .

- لا .. أنا تحت أمرك يا أبو القاسم .

- أوعى تفكر إن فيه شيء لي أنا .. أو إني حاخد تمن وقوفي جنبك ، وجنب الشباب .. وحياة الله ما هو ليّا .

- عيب يا أبو القاسم .. ربنا يزيدك .. ده إنت على قلبك قد كده !

في الصالة الخارجية لمكتب أبو القاسم ، كانت كاميليا تتكلم في التليفون بالإنجليزية :

- Yes. I'm in Baghdad, I left Damascus. I'm leaving to Cairo at 5 O'clock.

خرج ناجي ، ومعه أبو القاسم وقال لكاميليا :

- مين ؟ بتكلمي مين ؟!

- مكتب الأمم المتحدة .. فيه ورق ح اعدي أخده منهم .. مكتبهم جنب المطار .

- أبعت حد من الشباب يوصلك ؟!

- تبعت مين ؟ ده أنا أتوِّهك في بغداد .. أنا جيت هنا أكتر من 15 مرة مع اليونايتد ناشينز .. ح أروح المكتب ، واستناكوا في المطار .. أوكيه .

- خلِّي بالك من نفسك يا كيمو .

- ما تخافش .. أنا كنت هنا قبل ما أروح سوريا ، قعدت في العراق شهر ونص .. خللوا بالكوا إنتوا من نفسكوا .. أنا عارفة الطريق كويس .

Ahmed Mady

وخرجت كاميليا من المكتب ، وجلس ناجي ، وقال للأولاد :

- هاتوا الشنط هنا .. وافتحوها شنطة شنطة .

وتحركت المجموعة لتحضر الحقائب ، وبدأوا في فتحها تمهيدًا لرشها بالإسبراي ، وقال ناجي هامسًا لأبو القاسم :

- كويس اللي كاميليا نزلت .. أصلها ماتعرفش حاجة يابو القاسم .. أنا كنت ناوي أقول لها في مصر !

- برضه أحسن .. يا شباب .. هاتوا الإسبراي هادا .. وح نرش الشناطي من الداخل ومن الخارج كمان .

- ياللا يا إخواننا أعملولكوا همة .

وبدأوا في فتح الحقائب ، ورش الفلوس بالسبراي ، فقال عبد الجليل :

- إلا يا باشا الفلوس دي قيمتها ما تقلش بعد كده !!

- ليه يا عبد الجليل ؟

- مرشوشة دواخل !!

وضحكوا وعلا الضحك بينهم ، وقال ناجي ، وهو يضحك :

- الله يخرب عقلك يا عبد الجليل .. دواخل .. ده إنت مسخرة !

أمام مكتب أبو القاسم ، وقفت سيارة ونزل منها خمسة رجال ملثمون ، يحملون السلاح واقتحموا المكتب ، فاعترضهم رجال أبو القاسم .. فأطلق أحد الملثمين النار على رجال أبو القاسم ، فسقط أحدهم مضرجًا في دمائه .. فأسرع بقيتهم ليتخذوا أماكن للدفاع ، وبادلوهم إطلاق النار .

في مكتب أبو القاسم ، بينما كان ناجي وفرقته يضحكون .. قال زاهر فجأة :

- ده ضرب نار قريب من هنا ؟!

Ahmed Madv

قال أبو القاسم :

- ما تخاف يا أخ زاهر .. ماله الزلمة ؟!

- بترعش ليه يا ابني .. ده إحنا في العراق .. أما ماتسمعش ضرب نار هنا ح تسمعه فين ؟ ده إحنا لما كُنا قاعدين هادين كده ولا فيه قنابل ولا ضرب نار .. والله الفار لعب في عبي .. قلت أحسن يكون فيه حاجة ..

وبدأ تبادل إطلاق نار رهيب .. كان أحدهم يطرق باب الشقة بعنف .. تناول أبو القاسم مدفعه الرشاش ، واستعد رجاله بالسلاح .. قال ناجي صارخًا :

- فيه إيه يا أبو القاسم ؟!

وصرخ زاهر في هلع :

- آه .. آه .. ح نموت .

وسرت حالة من الهلع والارتباك .. كان بعضهم يغلق الشنط بسرعة .. ونضال تطلق دفعات نيران خارج الشقة .. وفجأة فتح الباب باقتحام مفاجئ .. ليظهر الملثمون يحملون المدافع الرشاشة ، ويطلقون النيران .. وانبطح ناجي ومن معه أرضًا .. وسحب أبو القاسم مدفعه بمهارة شديدة ، وانهال به على أولهم فأرداه قتيلا .. وتراجع المهاجمون .. وبدأ ناجي والباقون يتبادلون إطلاق النار مع المهاجمين .. كان بعضهم يحاول الدخول من التراس .. والشيخ حسن وزاهر يغلقان الحقائب بسرعة ، ويسحبونها إلى الداخل ، فصرخ أبو القاسم فيهم :

- انزلوا إنتواع السيارة ..

ونزلوا جميعًا من سلم خلفي ، فتحه لهم أبو القاسم ، وهم يحملون الحقائب والأسلحة ليركبوا السيارة .. وخلفهم عدد من السيارات التابعة للموساد .. وبعد مطاردة عنيفة في شوارع بغداد .. استطاع أبو القاسم ورجاله أن يفجروا إحدى السيارات المطارِدة .. فتراجعت السيارات الأخرى ، وانطلق ناجي ومجموعته مبتعدين عن هذا الجحيم المفاجئ ، الذي وجدوا أنفسهم في أتونه الملتهب .

* * *

Ahmed Madv

لم يكن مناحم يتصور أبدًا أن هذه ستكون نتيجة عملية بغداد .. كان واثقًا من الانتصار .. لم يستطع مناحم هذه المرة أن يخفي ما به من ضيق وغيظ ، فوضع السماعة في ضيق ، وقال هو يزفر من الأسى والحسرة :

- العملية فشلت يا شاؤول .. لتاني مرة .. تصور الرجالة اللي بعتناهم اتقتل منهم خمسة .. خمسة .. وناجي عطا الله وفرقته هربوا .. وأخدوا الفلوس وطلعوا على المطار .

- الله يلعن ناجي عطا الله .. أنا بقيت أكره أسمع اسمه يا سيد مناحم !!

قام مناحم من على مكتبه ، وذهب نحو الشباك ممسكًا بورقة في يده ، أخذها من على المكتب ، كان يخطط فيها أثناء حواره السابق ، وقال لشاؤول :

- كلفنا كتير قوي ناجي عطا الله يا شاؤول .. فاتورته كبرت قوي .. سرق ملايين من بنك بارليـف .. ودمر مبنى المخابرات اللي كُنا بنصلحه .. وخلانا أفرجنا عن 500 أسير .. وآدي خمسة ماتوا في بغداد .. غير الأربعة اللي ادغدغوا في سوريا .. ويا ريته وطني .. ولا من المقاومة .. ولا من الفدائيين .. ولا حتى المخابرات المصرية باعتاه .. ده شغال فَرَداني .. معقولة يا شاؤول .. حب البني آدم للفلوس يوصله للعبقرية دي !!

- يعني إيه ؟ العملية خلصت على كده خلاص يا سيد مناحم ؟!

- اليهودي يا شاؤول لا يمكن يسيب حقه مهما غاب .. هما إخوانّا الأمريكان والعملاء بتوعنا بيعملوا إيه في مطار بغداد ؟!

* * *

في صالة السفر بمطار بغداد ، كانت الحقائب موضوعة على عربات جر الحقائب الموجودة بالمطار .. وناجي وفرقته جالسين بجوارها .. وكان ناجي واقفًا في حيرة يشعل سيجارة .. متوترًا .. والجميع في نفس الحالة .. قال ناجي :

- مش عارف إيه اللي أخرها بس .. ماكانش لازم أسيبها تنزل لوحدها أبدًا !

Ahmed Madv

قال إبراهيم :

- وإحنا ليه نسيب باسبوراتنا مع واحدة ما عرفنهاش غير من يومين !

- تقصد إيه يا إبراهيم !! عيب.. احترم نفسك واتكلم كويس .

- هوه إيه اللي عيب .. أنا مش عارف سيادتك مديها الأمان قوي كده ليه ؟ اقطع دراعي من هنا هوه .. إن ما كانت عميلة ليهم وداسينها علينا !!

قال ناجي صارخًا :

- اسكت يا إبراهيم ؟!

- مدام كاميليا خلاص عملت اللي عليها .. أخدت الباسبورات في شنطتها ، وراحت بلغت عن مكاننا وقبضت التمن !!

قال ناجي ، وقد صار أكثر هياجًا :

- بقولك اسكت ؟!

- إحنا مستنيين مين ؟! مش ح تيجي .. تقدر تقوللي إزاي عرفوا مكاننا في أوتيل مال الشام .. عرفوا منين مكان مكتب أبو القاسم .. ده إحنا نفسنا ماكناش عارفين إننا ح نيجي هنا .. الهانم خرجت من هنا .. وهما جم من هنا .. دي جاسوسة .. وأنا شاكك فيها من أول ما شفتها !

فصرخ فيه ناجي متوعدًا :

- اسكت يا إبراهيم بقولك !!

- إنت انضحك عليك يا باشا .. وإحنا نستاهل اللي مشينا وراك .. العملية خلصت .. إحنا كُنا طالعين في مهمة يا باشا .. مش طالعين نحب !!

لم يطق ناجي ما يسمعه .. ولم يحب أن يسمعه من إبراهيم ، فصفعه صفعة مدوية على وجهه :

- إنت بتضربني .. بتضربني يا باشا .. وإنت نفسك شاكك وقلقان ، ومخك عمال يودي ويجيب من الصبح .

Ahmed Madv

قال عبد الجليل ، وهو يخبط على رأسه :

- يا بنت الجنية .. عشان كده مارضيتش حد يوصلها .. ما هي عارفة كويس هي رايحة فين ؟ عليّا النعمة أنا قلقان منها من ساعة ما شفتها !

فجأة .. ظهرت كاميليا في الصالة ، مهرولة ، وهي تناديهم :

- ناجي .. ناجي .

- كنتي فين يا كاميليا ؟!

- أنا آسفة .. أنا عارفة إني سببت لكم قلق .. بس والله ما ذنبي !!

ثم أشارت نحو إبراهيم :

- الأخ باسبوره كان منتهي .. وماكانش ح يسافر معانا .. طلعت على السفارة المصرية ، وطلعت له وثيقة سفر جديدة ..

وأعطت الباسبور لإبراهيم :

- ولولا علاقتي الشخصية بالسفير ، كان لا يمكن ح يطلعوها .. امسك .. كل واحد ياخد باسبوره يخليه معاه .

أخذ إبراهيم باسبوره ، وقد شعر بالخجل .. وظلوا جميعًا ينظرون لبعضهم البعض في إحساس بالذنب .. قالت كاميليا ببراءة :

- إيه مالكوا ؟! إيه يا ناجي العيال دول متنحين كده ليه ؟!

وأتى أبو القاسم ، ومعه ماجد ، وقد بدا وجهه متغيرًا ، وقال :

- أنا آسف يا أستاذ ناجي .. ما ح تقدروا تسافروا اليوم !

- ليه يا أبو القاسم ؟!

- بس دقيقة واحدة أستاذ ناجي !!

ثم اختلى بناجي جانبًا ، وقال هامسًا :

- الوضع صعب بالمطار كتير !!

Ahmed Madv

- صعب إزاي يعني ؟ باسبوراتنا معانا .. وقاطعين التذاكر .. إيه اللي يقعدنا !!

- أصل فيه كلام إن وزيرة الخارجية الأمريكية بتنزل بمطار بغداد ، والقوات الأمريكية حاطة يدها على المطار .

ثم همس له قائلا :

- ما حتقدروا تخرجوا بها الشناطي اللي معكم .. جماعتنا هون بالمطار بيقولوا الأفضل نأجل يومين تلاتة !!

- يومين تلاتة .. هنا في بغداد !!

- شو بدنا نسوي يا أستاذ ناجي .. معلش .. الله كاتب عليكم العذاب ، ح تشرفونا هون كام يوم .. وح أفرجيكم ع بغداد .

- وح نبات فين يابو القاسم .. إحنا كلنا كده بالشنط اللي معانا دي كلها ؟!

- ما تحمل هم .. بنتصرف .

- طيب مفيش أوتيل نقعد فيه ؟!

- ما بانصحك بالنومة بالأوتيل ، الوضع هون غير الشام .. إنما عندي مكان مناسب ليكم .. اتفضلوا معي !!

اقتربت كاميليا من ناجي ، وقالت :

- فيه إيه يا ناجي ؟ فيه حاجة ؟!

- لا .. بس أصل أبو القاسم معرفش يلاقيلنا أماكن ع الطيارة .. إحنا ح نقعد هنا يومين بالظبط .. يكون أبو القاسم لقالنا أماكن إن شاء الله .

وعادت السيارة بناجي ، وفرقته إلى بغداد ، وقال أبو القاسم :

- ح نروح عند الأستاذ سعد العبد لله بالأعظمية .. رَجَّال .. من القوادم المحترمين كتير هون ببغداد .. مدرس تاريخ .. كان عندنا بالشام من شي كام سنة .. عايش هو وزوجته فقط .. ببيت كبير وعنده كذا غرفة خالية بالبيت .. ح يفرح كتير بيكم .. أنا كلمته وهوه بانتظاركم .

Ahmed Madv

طوال الطريق إلى الأعظمية ، كان ناجي يسأل نفسه .. هل هذه هي بغداد حقًّا ؟! عطية الإله .. كما كانوا يسمونها قديمًا .. هل هذه هي بغداد عاصمة الدولة العباسية ، التي توافد إليها كل الناس ، وابتنوا القصور والأسواق والحمامات والمساجد ، فكانت درة المدن وجوهرة البلدان .. هل هذه هي بغداد التي غرَّدت لها أم كلثوم في فيلم «دنانير» :

بغداد يا ذات القصور السامية

دامت لك النعمى وغنَّاك الزمان

بغداد يا ذات القصور العالية

يا جنَّة الدنيا .. ويا ظلَّ الزَّمان

هل هذه هي بغداد .. وابتسم ناجي ، وهو يتذكر أن العامة في مصر ، إذا أرادوا أن يعبروا عن الرفاهية والعز ، فيصفون الشخص المرفه بأنه .. مِتْبَغْدِدْ !!! فهل يعني اليوم أنه .. مقطَّع الأوصال .. ممزَّق .. محتل !!

* * *

وقفت السيارة أمام بيت سعد بالأعظمية .. وهي مدينة تقع في الجانب الشرقي من نهر دجلة .. نسبة إلى الإمام الأعظم أبي حنيفة ؛ حيث مرقده وجامعه .. وبيت سعد مشيد على النمط العراقي القديم .. أشبه بدوار العمدة في ريف مصر .. له بوابة حديدية وباحة تؤدي إليه .. كان سعد بانتظارهم .. رجل في نهاية الخمسينات ، تبدو عليه الطيبة والثقافة .. قال مرحبًا :

- أهلًا وسهلًا يابو القاسم .. مرحبتين !!

قال أبو القاسم ، وهو يقدم ناجي :

- الأستاذ ناجي عطا الله .. صديقنا من مصر .. اللي حكيتلك عنه بالتليفون .

- اتفضلوا .. اتفضلوا ..

Ahmed Madv

بيت سعد يتكون من أربع غرف غير الصالة .. غرفتان بالدور العلوي وغرفتان بالدور السفلي .. جلسوا في الصالة .. وخرجت زوجة سعد ، وهي تقدم لهم المشروبات وهي امرأة محجبة .. قال أبو القاسم :

- الأستاذ ناجي عطا الله .. رمز من رموز المقاومة ، ومن أشد المناصرين للقومية العربية وهادي زوجته مدام كاميليا .

فوجئت كاميليا بما قاله أبو القاسم .. أما ناجي ، فقد ابتسم في سعادة ، حينما سمع كلمة «زوجته» .. وقال سعد لناجي :

- وها دول أولادكم أستاذ ناجي ؟!

- يسمع من بُقك ربنا يا عم سعد .. ياريت .. دول زي ولادنا بالظبط .

قال أبو القاسم :

- أستاذ سعد .. الله يرضى عليك .. الجماعة ضيوفنا ، ويهمني أمرهون .. وما بدي مخلوق يعرف إنهم هون عندك .

- ما توصيني يابو القاسم .. اتفضلوا يا شباب .. خدوا راحتكم .. إنتم ببيتكم .. اطلعوا على فوق .. حطوا الشناطي بالغرف ، وغيروا أتيابكم .

وحمل الأولاد الحقائب ، وطلعوا إلى الدور الثاني ، وقال ناجي :

- معلش يا أستاذ سعد .. جينا عملنالك قلق !!

- ما تقول ها الكلام يا أستاذ ناجي .. بالعكس .. أنا وزوجتي بها البيت الطويل العريض وحدنا .. ده إنتواح تسلونا .. وح تملوا علينا البيت والله .

نظر أبو القاسم من البلكونة إلى الشارع ، حيث عمارة فاخرة ، وأمامها شاحنة أمريكية ضخمة ، وقال لسعد :

- أستاذ سعد .. هادا الزلمة المجرف (ستوري) بعـــده هون .. بعده ساكن جنبك .. ولا غار في داهية !!

- آه يابو القاسم .. كوم حجار ولا ها الجار .

Ahmed Madv

قال ناجي :

- مين ستوري ده ؟!

- جار للأستاذ سعد .. رجال ما بيخاف الله .. إله ألف وجه ووجه .. يوم مع الأمريكان .. ويوم مع القاعدة .. يوم مع الحكومة .. ويوم ضد الحكومة .. يوم مع الجيران .. ويوم ضد الجيران .. هادا بيبيع أبوه عشان دينار ..

- واسمه ستوري .. أنا افتكرته أمريكاني .

- لا .. هوه اسمه عبد الستار .. إنما ها الفصيلة من البشر حتى اسمه يحب يستورده .

- شغال إيه ستوري ده ؟!

- كان عنده سيارة شحن كبيرة .. ما بنعرف شو بيستورد وشو بيصدر .. تعرف يا أستاذ ناجي كل سيارات الشحن بالمنطقة اتفجرت إلا سيارته .. هون القنابل بتعرف طريقها منيح .. حتى القنابل بترتشي !

نظر ناجي إلى مكتبة سعد المليئة بالكتب.. وذهب إليها ، وأخرج كتابًا ، ثم قال :

- الله .. ده إنت عندك كتب حلوة قوي يا أستاذ سعد .. ده إنت غاوي بأة .. إيه ده ؟ دي كلها تاريخ !!

- لما يكون الحاضر بها السوء .. والمستقبل مجهول .. ما فيه حل قدامك إلا إنك تهرب للماضي .. يمكن تلاقي شي يستاهل تكمل في ها الحياة .

قال أبو القاسم :

- أنا لازم أمشي .. ما تشيل هم يا أستاذ ناجي .. أنا ما باترك بغداد ، إلا لما أتطمن إنكم وصلتم مصر بإذن الله .. السلام عليكم .

* * *

هكذا هو البيت العربي .. النساء يجتمعن معًا في ثانية ، والرجال يجلسون في الصالة .. إن فكرة الحرملك موجودة بداخل العقلية العربية مهما

Ahmed Madv

تطورت .. في المطبخ ، كانت كاميليا ونضال وفاطمة زوجة سعد يعدون الغذاء للمجموعة ، ويتعاونون معًا .. هذه تقشر بطاطس .. وهذه تعصر الطماطم .. وهذه تقطع الخضار للسلطة ..

وفي الصالة ، كان سعد وناجي جالسين ، يتجاذبان أطراف الحديث .. قال ناجي :

- طيب كويس .. يعني المدرسة جنب البيت .. ويا ترى بأة عندك شغل طول الأسبوع ولّا أيام معينة في الأسبوع ؟!

- ولا عندي شغل ولا يوم بالأسبوع !!

- إزاي ؟!

- أهو ده الحال بالعراق .. فيه مدارس وفيه مدرسين ، ويقبضون رواتب ما كانوا يحلموا بيها قبل الاحتلال .. إنما ما فيه تعليم .. ما فيه دراسة .

- أمال بتقبضوا رواتب على إيه ؟!

- على السكوت .. كتير مبسوطين بها الشغلة .. قاعد في بيته ومرتبه بييجي لحد عنده من غير مجهود .. أنا مثلًا راتبي ٥٠٠ دولار بالشهر .

- ومين اللي بيدفع المرتبات دي ؟!

- اللي بييجي من النفط بيتوزع جزء منه رواتب .. ما فيه خدمات حقيقية .. يصرفون 70 مليار دولار بالسنة ولا ينتجون .. ما في علاقة بين الفرد ، ومؤسسة الدولة .. في اقتصاد مستهلك ، يسمونه الاقتصاد اليتيم .

- ويتيم ليه ؟!

- الشعب العراقي ، كأنه يتيم ، والسلطة والأمريكان يعطونه كل شهر حسنة .. صدقة من شان يعيش !

- والفلوس دي بيرموها ع الفاضي كده يا أستاذ سعد !!

Ahmed Madv

- المصاري لو ما بتعمل شي ليه قيمة ، تبأة مالها قيمة .. والإنسان نفسه ماله قيمة .. هون يا أستاذ ناجي مشاكل ما فيه إلها مثيل.. عمرك تشوف أستاذ مدرس بيقبض راتبه ، وما هو لاقي طلبة يدرس لهم ولا مناهج !

- طيب والأهالي هنا مش عاوزين يعلموا أولادهم .. ما دام فيه مدارس وفيه مدرسين .. الأولاد ما بييجوش ليه ؟!

- العراق ما صار فيها أمان .. انفجارات .. وخطف وعصابات .. ابنك كيف تآمن إنه يروح ع المدرسة ، وإنت مو ضامن إنه يرجع ؟!

- إنتوا كده بترجَّعوا العراق ألف سنة لورا يا أستاذ سعد .. إيه قيمة أي بلد من غير التعليم .. من غير العلم .. الأجيال اللي جاية دي ح تعمل إيه ؟!

- إذا كان بيصفُّوا كل العلماء العراقيين وأساتذة الجامعة .. أخرهم عام 2004 يبأة ليش يتعلم أولادنا ، إذا كانت هادي نهاية كل عالم يا أستاذ ناجي !!

ودخلت فاطمة ، وقالت :

- ياللا يا سعد .. العشا جاهز .. نادي ع الجماعة .

وبدأوا في وضع الطعام على الترابيزة ، واجتمع الأولاد حول الطعام .. وقال تهامي :

- الأكل ريحته حلوة قوي .

قال سعد :

- هادا (تشريب) زي الفتة في مصر .. لكن هادي بدون أرز .. هادا كباب .

أخذ عبد الجليل واحدة وأكلها .. ثم قال :

- كباب إيه ؟ دي كفتة !!

قال ناجي :

- هما بيقولوا هناع الكفتة كباب .. إنت ح تتشرط .. ما تطفح وأنت ساكت !!

Ahmed Madv

وضحكوا جميعًا ، وقالت كاميليا :

- إنما إنت يا أستاذ سعد .. شايف المشكلة إيه بالظبط دلوقتي في العراق ؟!

- المشكلة في العراق هي نفس المشكلة بكل البلاد العربية .. الطائفة صارت بديلة للوطن .. خلاص ما بآش فيه وطن .. كل المشاريع انهزمت .. أنا مثلًا من عشيرة جبوري سني عراقي .. ومرتي من عشيرة ساعدي شيعية عراقية .. المفروض أنا بالأول عراقي وبعدين تيجي الديانة .

- الله ينور عليك يا أستاذ سعد .. ما هو طول ما دول واقعين مع دول .. وعمالين يضربوا دول ويتحالفوا مع دول عشان يخلصوا على دول .. في الأخر لا ح نلاقي دول ولا ح تقوم قومة لدول .. ولا أنا باتكلم غلط !!

- يعني .. لا تؤاخذني .. إنما شكلك متحيز لدول أكتر من دول !

- بالعكس .. ده دول حبايبي .. إنما برضه لازم يخفوا على دول .. مش عشان استقووا بدول ، يقوموا يخلصوا على دول .

وإذا بطرق على الباب ، فقال سعد :

- لازم أبو القاسم .. حماته بتحبه .

وجرى عبد الجليل ، وفتح الباب ليجد أمامه رجلًا طويلًا بشارب كثيف .. وعينين مخيفتين .. واقفًا ينظر بفضول وخسة إلى الداخل ، وقال :

- السلام عليكم ..

قال عبد الجليل :

- وعليكم السلام ..

كان الرجل ينظر إلى الداخل باحثًا عن سعد ، ويقول :

- بدي .. وينُه الأستاذ سعد ؟

Ahmed Madv

ارتبك سعد حينما رآه ، وذهب نحوه متلعثمًا ، وقال :

- أهلًا يا ستوري .. اتفضل .. كُل لقمة معنا .

- لا .. أسيبك مع ضيوفك يا أستاذ سعد .. مرحبًا بالشباب .

- خير يا ستوري .. فيه شي .

- لا .. بس كنت عاوزك شي خمس دقايق ، تشرب معي القهوة بالبيت .. بدي آخد رأيك بموضوع كده .

- حاضر .. حاضر يا ستوري .. أخلص العشا مع الضيوف وأجيلك .

نظر ستوري نحوهم وحياهم ، وقال :

- أهلًا وسهلًا .. لازم نضيفهم عندي .. أنا والأستاذ سعد إخوة شقايق .. بيتي هو بيته .. بعد إذنكم .. أنا بانتظارك يا أستاذ سعد !!

وأغلق سعد الباب وراءه ، وقد بدا متضايقًا ، فرفع يده عن الطعام .. فقال له ناجي :

- هو ده ستوري !!

- إيه هوه !!

- ده شفط الأوكسجين من المكان أول ما دخل .. هوه عاوزك في إيه ؟!

- ح يكون عاوزني في إيه ؟ ما بييجي من وراه غير الشر .. الله يستر !

كان سعد يبدو قلقًا للغاية ، ويتبادل النظرات مع فاطمة ، التي لم تكن تقل عنه قلقًا هي الأخرى .

* * *

في بيت ستوري ، كان سعد جالسًا معه .. وقد بدا بيت ستوري فاخرًا مليئًا بالتحف ، ومخلفات الحرب .. كان ستوري يشرب القهوة بتلذذ ، وبطريقة ثعبانية ، قال لسعد :

Ahmed Madv

- إنما ما قلت لي يا أستاذ سعد .. مين هادول اللي عندك بالبيت .. شكلهم مو غريب .. من مصر .. أكيد !!

- أيوه من مصر يا ستوري .

- وإيش بيسووا هون ؟

- ها الزلمة الختيار اسمه ناجي عطا الله .. أخوه كان مدرسًا معي بالمدرسة سبع سنين.. ومفقود ، وجاي يسأل عنه .

- من إمتى انفقد .. أخوه هادا ؟!

- من 2003 .

- انفقد 2003 ولسه بيسألوا عنه .. ما حدًا بيسأل عن حدًا في ها الأيام !! وها الشباب إيه وضعهم ؟

- أولاد لناجي عطا الله .. وأولاد أخوه .

- يا سلاااام .. والله .. العيلة كلها مسافرة عشان تدور على واحد مفقود .. عاطفيين كتير المصريين يا أستاذ سعد .

بدأ سعد ينزعج من كثرة الأسئلة ، فقال في زهق :

- ستوري .. إنت إيش بتريد .. مو عاجباني لهجتك .. شو أنا بأكذب عليك .. هادي الحقيقة بدك تصدقها تصدقها .. ما بدك .. إنت حُر !!

قال ستوري :

- لا .. يا أستاذ سعد .. أنا بدي أساعدهم .. ممكن أعرف لهم شو مصير أخوهم هادا .. إن كان مات أو عايش أو بالمعتقل .

- متشكرين يا ستوري .. هما بيعرفوا يصرفوا حالهم بمعرفتهم .

- بأعرف .. ما هما كانوا الصبح مع أبو القاسم ، وحصلت مجزرة بالمكتب تبعه .. بس هما كانوا أولاد عشرة على عشرة .. كوِّموهم .

Ahmed Madv

- ما إنت عارف الأخبار كلها أهيه .. أمال بتسألني عنهم ليه لما إنت عارف ؟!

- لا أبدًا .. إنت تعرف ما فيه شي صار بيستخبى ببغداد .

* * *

في بيت سعد ، كان الجميع جالسين حينما طرق الباب .. قامت فاطمة لتفتح الباب .. ليجري أربعة أطفال إلى الداخل في أعمار متقاربة .. ثم دخلت زينب، وهي أخت سعد وأصغر من فاطمة قليلا .. محجبة وبريئة للغاية .. وزوجها رجل ملتحي .. عبد الرحمن .. قالت فاطمة مرحبة .. فاتحة ذراعيها :

- زينب .. أهلًا وسهلًا .. تعالي يا زينب .. إزيك يا عبد الرحمن .. اتفضلوا .

مسحت زينب دموعها وجلست ، وكان زوجها عبد الرحمن مستاءً للغاية ، فقالت فاطمة:

- إيه ؟ فيه إيه ؟ مالك يا زينب ؟!

قال عبد الرحمن :

- خير .. قدر الله وماشاء فعل .. مين الإخوة .. أهلًا وسهلًا ..

- الإخوة .. ضيوف سعد من مصر .

قال ناجي ، وهو يمد يده لمصافحة عبد الرحمن :

- ناجي عطا الله دبلوماسي سابق ، ودول تقريبًا أولادي ، ودي مدام كاميليا .. المدام بتاعتي .

نظرت كاميليا نحوه معترضة ، وأشار لها ناجي أن تعدي الجملة .. لأن عبد الرحمن شكله متدين ، ولن يقبل أن يتواجدا معًا دون رباط رسمي..

- أهلًا وسهلًا يا أستاذ ناجي .. أنا عبد الرحمن زوج زينب ، أخت الأستاذ سعد الصغيرة .

- دي فرصة سعيدة يا شيخ عبد الرحمن .. مالها الست زينب بتعيط ليه ؟

Ahmed Madv

- هادا صار العادي .. اتعودنا على مثل ها الأشياء !! جالنا الورقة إياها !!

- ورقة إيه ؟!

- أنا شيعي وزينب سنية .. عايشين بمنطقة اسمها الدّورة .. منطقة سنية .

- وهي المقاطعة عندكم ، كمان اتقسمت سنية وشيعية !!

- أمال .. الانتماءات الدينية هي اللي ترسم الخريطة .. وجالنا النهاردة ها الجواب بداخله رصاصة .. وفيه جملة واحدة .. تغادروا الدورة في 24 ساعة !

- كدهوه .. من غير أي مقدمات !!

- العراق ما فيها مقدمات لأي شيء يا أستاذ ناجي .. إذا انطردت أو اتهجرت من بيتك .. أول شيء بتخاف عليه أطفالك .. إزاي تاخدهم لمكان آمن .

- والدّورة دي بعيدة !!

- عشر دقايق من هون .. تصور !!

- بأة تهاجروا من حي لحي تاني .. ده إيه الافترا ده ؟!

كان الأطفال يجرون ويلعبون ببراءة .. فاصطدم أحدهم بناجي .. قال عبد الرحمن :

- ولد .. عيب يا ولد ؟!

قال ناجي :

- لا .. سيبه أنا بحب الأطفال قوي .. اسمك إيه يا حبيبي ؟!

- اسمي صدام .

- عاشت الأسامي .. تعرف مين صدام ؟!

- كان يحكم العراق .

- بتحب اسم صدام ؟!

- فيه ناس بتحب الاسم وناس ما تحبه .. عاوزيني أغيره !!

Ahmed Madv

- إنت عاوز تغيره !!

- هادا اسمي .. أنا أحبه .. واتعودت عليه .. ما أبغي أغيره .

وجرى الطفل ليلعب مع الأطفال .. قال ناجي لعبد الرحمن :

- إنت لسه مرتاح لاسمه يا عبد الرحمن ؟!

- أنا لما سميته ، كنت مقتنع بيه .. كان وقتها هوه الرمز .. زي أيام الثورة بمصر ، سموا جمال هنا بالعراق .. وسموا في ثورة 58 عبد الكريم على عبد الكريم قاسم .. وسموا عبد السلام على عبد السلام عارف .. حتى جيفارا فيه ناس يسمون أولادهم عليه .أمال وينُه سعد ؟!

قالت فاطمة :

- راح مشوار عند ستوري .. كان باعت عاوزه !

قال عبد الرحمن في استياء :

- ستوري !! وعاوزه في إيش هو كمان ؟!

* * *

كان سعد لا يزال في بيت ستوري ، وكأنه في مكتب تحقيقات .. ستوري يسأل ، وسعد مضطر لأن يجيب ليتقي شره .. ثم فاض به الكيل ، وقال :

- اسمع يا ستوري .. إحنا بقالنا شي ساعتين ، وإنت عم بتلف وتدور .. إيش بدك .. فهمني !!

- بدي تعرفني بالأستاذ ناجي .. بدي يبأة صديقي .. إيه الغلط في هادا ؟

- الصداقة ما بتتفرض فرض يا ستوري !

- ومين قال تنفرض .. أنا بس حابب أتكلم معه .. يمكن بدي أسوي مشروعات بمصر يساعدني فيها .. بتقول إنه دبلوماسي .. يعني شخص مهم .

Ahmed Madv

- ماله في البزنس يا ستوري .. ناجي عطا الله ماله في البزنس .. ما يحب الفلوس .. ما يطيقها !

- ما فيه حدًا غيرك بها الكون ماله بالبزنس .. إنت حالة خاصة .

- حاضر يا ستوري .. أكلمه .. وأشوف شو رأيه ؟

- هو قاعد عندك أديش يا أستاذ سعد ؟!

- قاعد .. شي أسبوع .. مش أكتر .

- خلاص .. يبأة بكرة أشوفه بالغدا .

- حاضر يا ستوري .. اسمح لي .. ما يصح أسيب البيت ، وأنا عندي ضيوف !

- استنى .. إنت ما شربتش القهوة .. زي ما هيّة !

- شكرًا .. أصلي ما بحبها باردة .. سلام .

* * *

في بيت سعد ، كان عبد الجليل وإبراهيم وحسام وتهامي يحملون المراتب .. لينام وا في الصالة ، بعد مجيء الضيوف الـجُدد زينب وعبد الرحمن ، وأولادهم الأربعة .. قال عبد الرحمن في خجل :

- والله ما يصح يا شباب .. إنتم تناموا زي ما كنتم .. إحنا أصحاب بيت .. ننام في الصالة أنا والأولاد .. والستات ح يناموا مع بعضهن بالغرفة .

- ما تقولش كده يا عوبد .. هوه إحنا غُرب .. ده بيتنا .. افرش يا بني إنت وهوه المراتب .. هوه فيه أحلى من نومة الأرض !

- والله أنا خجلان منكم كتير يا أستاذ ناجي .

- خجلان إيه بس .. ده أنا اللي خجلان والله .

Ahmed Madv

خرج سعد من إحدى الغرف يحمل المخدات والملاءات ، وقال ببشاشة :

- لقمة هنية تكفي مية .. المتر يساع ألف من الحبايب .. ده إنتوا نورتونا .

قال عبد الرحمن :

- شوف يا سعد .. الأستاذ ناجي .. مُصر إنه ينام هوه والشباب هون ، ويتركوا غرفهم ..

- شو هادا اللي بتقوله يا ناجي بيك .. والله ما يحصل أبدًا خللي الشباب يطلعوا ع غرفهم .

- عليّا الطلاق بالتلاتة ما هم نايمين غير في الصالة !!

- ليش بتسوي هيك !!

- هوه إحنا فيه بينا وبين بعض تكليف يا أستاذ سعد !!

- والله البيت نور بوجودكم .. وشكم حلو كتير علينا .. تعرف إن أنا ليّا أكتر من شهرين ما شفت زينب أختي !!

- لو عاوزين تنقلوا الشنط في السرداب .. أنام أنا في السرداب معاهم .

- كيف والله ما يصح .. خليك بغرفتك مع الشناطي .

وإذا بطرق على الباب .. فوقف كل منهم ينظر للآخر ، وسعد ينظر نحو ساعته في دهشة :

- من الآتي في هذا الوقت المتأخر ؟!

اتخذ الأولاد مواقعهم للدفاع عن أنفسهم ، وذهب سعد ليفتح الباب ، فوجد أخوه كمال وزوجته وأولاده يجرون إلى الداخل .. قال سعد :

- كمال .. شو حصل .. طمني .. تعالى اتفضل !

كمال أخو سعد .. سني ومتزوج من شيعية هو الآخر .. في نحو الأربعين من العمر .. ملتح .. قال كمال في ضيق :

Ahmed Madv

- الجواب إياه وصل يا سعد .. هجرونا ! ميليشيات شيعية إجات ع البيت .. بورقة فيها رصاصة .. مكتوب عليها تخرج خلال أربعة وعشرين ساعة من المنطقة .

تساءل ناجي مندهشًا :

- منطقة إيه يا أستاذ سعد ؟!

- أصل كمال أخويا ساكن بمنطقة الحرية ، وهادي منطقة شيعية .. وإذا غضبوا على حدًا بيهجروه في أربعة وعشرين ساعة .

- هما دول بيهجروا دول .. ودول بيطردوا دول .. ودي تبأة عيشة دي ؟!

قال سعد موضحًا الأمر :

- الحقيقة يا أستاذ ناجي إن ديانة أهل بغداد منذ الفتح العربي اتخذت من البداية شكلًا جغرافيًّا .. في عهد المنصور ، شاع المذهب المالكي ، ثم تضاءل أيام الرشيد لأخذه بالمذهب الحنفي ، وبعدين ظهر المذهب الحنبلي في أواسط القرن الثالث الهجري .. وفي أواخر القرن الخامس الهجري .. مالوا إلى المذهب الشافعي .. الأيامُ دُوَل .. والمذاهب في العراق دول أيضًا .. وكان من طبيعة السكن الاجتماعية .. أن يتجمهر أهل كل مذهب في محلة أو منطقة معينة معلومة .. ويبدو أن التاريخ يأبى إلا أن يكرر نفسه !!

قال كمال :

- مين الأستاذ الربكة يا سعد ؟ ما عرفتنى بيه ؟

- آسف .. من ما فُقت أعرفكم ببعض .. الأستاذ ناجي عطا الله أخي وصديقي هوه والشباب ، ضيوف عندي ، من طرف عمك أبو القاسم .

قال كمال :

- أهلًا وسهلًا .

Ahmed Madv

قال سعد :

- كمال أخويا الصغير .. هادا اللي بيني وبين زينب !!
- أهلًا وسهلًا يا كمال ..

كان الأطفال أولاد زينب وعبد الرحمن يجرون في البيت .. ويستقبلون أطفال كمال بفرحة .. ويلعبون ويتضاحكون ، وارتطم (صدام) الطفل الصغير بناجي مرة أخرى ، فقال ناجي مداعبًا :

- ربنا يخللي يارب .. معلش .. عملنالكوا ربكة كده من ساعة ما جينا !

فقال سعد :

- ربكة .. إحنا عايشين بها الربكة !

ثم قال لكمال :

- أصل زينب وجوزها هون هما كمان .. السنية هجروهم من الدّورة .

قال ناجي :

- يا أستاذ سعد .. مش قلت لي السرداب فاضي !! ماله السرداب .. إنت عارف إن أنا غاوي أنام في السرداب طول عمري .. نزلوا الشنط من فوق يا شباب .. إنت ليك قرايب تانيين في بغداد يا عم سعد ؟!

* * *

في سوق الأعظمية ، كانت كاميليا وزينب وفاطمة زوجة كمال ، يمشون في سوق (السفينة) ، يتفرجون على الفتارين .. ثم يدخلون إلى محل ملابس نسائية عراقية (عباءات وجلاليب) ، وقالت فاطمة لكاميليا بود :

- اسمعي يا عيوني .. راح أخدك على محل أبو العبي .. يسوي عبايات أحسن واحد ببغداد كلها !

وأضافت زينب :

- حتى لو طويلة أو واسعة ، هو يظبطهالك .

Ahmed Mady

قالت كاميليا :

- أنا تعباكوا معايا !

قالت فاطمة :

- تعبك راحة عيوني .

* * *

في بيت سعد ، كان ناجي جالسًا مرتديًا عباءة عراقية مع سعد وكمال وعبد الرحمن ، الذين يرتدون العباءات أيضًا ، في تراس البيت .. والأطفال يلعبون .. كان ناجي ، ومن معه يشربون القهوة ، وهم يشاهدون في التليفزيون أوبريت «وطني حبيبي الوطن الأكبر» لعبد الوهاب .. وعندما غنى «يوم ورا يوم أمجاده بتكبر وانتصاراته مالية حياته» .. قال سعد بمرارة :

- تفتكر إيه يكون شعور عبد الوهاب لو كان عايش اليوم يا أستاذ ناجي .. تفتكر كان يقدر يغني ها الكلام !! كُنا بنحلم بالوطن العربي الأكبر .. ده الحين ما قادرين نحلم نوحد الوطن الأصغر .. كل بلد مقسوم ميت شقفة .

- أنا عندي سؤال يا أستاذ سعد .. عاوز أسألهولك ومتردد .. بصراحة كده الوضع قبل الاحتلال كان أحسن ، ولا دلوقت أحسن ؟!

ابتسم سعد في مرارة ، ونظر لكمال وعبد الرحمن ، وقال :

- كل سؤال في الدنيا دي إله جواب .. إلا ها السؤال إله إجابتين : الجواب الأول .. قبل الاحتلال .. كُنا عايشين بأمان والخدمات كلها متوفرة .. كُنا دولة .. كان فيه حياة وبشر ومستقبل .. إنما كان ممنوع تتدخل في السياسة .. ممنوع نفتح فمنا .. ممنوع ننطق .. ما فيه حرية !!

- لأ .. أهم حاجة الحرية .. هي الحياة يبألها قيمة من غير حرية !!

Ahmed Madv

- الجواب التاني .. بعد الاحتلال .. ما فيه أمان ولا خدمات ولا دولة .. وكله عم بيقطَّع في كله .. بس فيه سياسة .. وفينا نقول لأ .. نرفض .. عندنا مساحة كبيرة من الحرية .

- لأ .. تغور الحرية ، والبلد واقفة الوقفة دي .

- عرفت إن سؤالك إله إجابتين مو إجابة واحدة .. إنت إيه رأيك ؟ شوف بتختار .. الإجابة الأولى .. ولا الإجابة التانية !!

- لأ .. إحنا عاوزين حرية ، وعاوزين خدمات .

وتدخل عبد الرحمن منفعلا :

- اسمع يا سعد .. الوضع ما كان ح يتغير إلا بالأمريكان ؟! دي الحقيقة اللي لازم نعترف بيها كلنا !!

ثار كمال ، وقال :

- كل الأوضاع سيئة .. الأمور من سيئ لأسوأ !

وردَّ سعد بحماس :

- اسمع يا كمال .. ما فيه أسوأ من ها الوضع اللي إحنا فيه ؟!

- يا سعد كنت بتقول ها الجملة ، وما كانوا الأمريكان دخلوا العراق .

قال كمال ، وقد اشتعل غضبه :

- اسمعوا إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. المشكلة فينا إحنا !

- لأ .. ما تبرأ المذنب يا كمال .. الشعب ما إله حول ولا قوة .

- ليه يا سعد !! إحنا مو مواطنين بشر .. إلنا حق نعترض ونقول لأ !

قال عبد الرحمن :

- ما كنت تقدر تقول ها الكلام قبل الاحتلال يا كمال .

Ahmed Madv

- لأ .. كنت أقدر !

وعلت ثورتهم وهياجهم .. وناجي يحاول أن يهدئهم قائلا :

- صلواع النبي يا جماعة .. دي قعدة حلوة .. إحنا جايين نهدي النفوس .. ده هو سؤال اللي سألته .. وأنا ندمان إني سألته .

قال عبد الرحمن :

- اللي يدري يدري .. واللي ما يدري قبضة عدس !!

قال ناجي .

- أهو ده الكلام .. على رأيك !! يعني إيه اللي قاله ده يا سعد ؟!

قال سعد :

- يعني على رأيكوا يا مصريين .. اللي مايعرفش يقول عدس !

* * *

في مطعم بالأعظمية ، كان عبد الجليل يشـرب من السلطانية شوربة عدس مصرية باستمتاع شديد ، وقال :

- شوية عدس أصفر .. إنما إيه حكاية ؟! عليّا النعمة ما تعرف تلاقي دول في مصر !

كان إبراهيم جالسًا معه وتهامي والشيخ حسن .. نظر إبراهيم نحو عبد الجليل ، وهو يشرب شوربة العدس ، وقال :

- حد يصدق إن اللي عمال يزيح سلطانية العدس على بقه بالطريقة اللا آدمية دي ح يبأة مليونير ، لما ح يرجع مصر .. ومحدش ح يعرف يكلمه .. نفسي أصوّره وهو كده ؛ عشان أبأة أهدده بالصورة دي !

- لعلمك يا هيما أنا عمر الفلوس ما ح تغيرني .. أنا لو كنت عاوز أعمل فلوس في مصر كنت عملت .. مفيش فلوس في الدنيا دي كلها قد اللي في مصر ..

Ahmed Madv

إنما أنا ما أمدش إيدي على مال حرام ولا أوكِّل أمي منه .. ما أنا كان ممكن أبيع مخدرات ولا أشتغل بلطجي بالفلوس !

قال الشيخ حسن :

- الله يبارك فيك .. عشان كده ربنا كرمك ومن نياتكم إيه ؟ ترزقون ...

قال إبراهيم :

- اللي يسمع كده يقـول الفلوس اللي معانا من مشـروع خيري يا شيخ حسن .. ما إحنا سارقينها مش كده ولا إيه ؟! مش حرام برضه !!

- اخرس .. اوعى تقول الكلمة دي مرة تانية.. أنا لو عندي شك إن الفلوس دي حرام .. عمري ما كنت ح اشترك معاكم في العملية .. دول ناس كفرة .. وإذا ماكُناش ناخد حقنا منهم ، نبأة ما نستحقش نكون مسلمين .. والمؤمن القوي خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف .

- طيب الفلوس دي نسميها إيه يا شيخ حسن ؟ أجر عن عمل .. منحة !!

- الفلوس اللي معانا دي .. غنيمة .

قال عبد الجليل :

- ربنا يفتحها في وشك يا شيخ حسن .

قال تهامى :

- تصدق ! إنت كده طمنتني !!

* * *

في التراس ببيت سعد ، كان ناجي جالسًا مع سعد وكمال وعبد الرحمن ، وقد احتدم النقاش بينهم .. كان سعد يصرخ قائلا :

Ahmed Madv

- يا أستاذ ناجي .. سرقوا القصور والمتاحف والمكتبات .. كل تماثيل ولوحات وكتب العراق نادرة الثمينة بتتباع في أسواق أوروبا وأمريكا .

قال كمال :

- والبنوك كمان اتسرقت يا سعد !!

قال ناجي باستعباط :

- يا رااااجل !!

- زي ما بقول لحضرتك .. البنوك اتسرقت .. ملايين الدولارات طلعت من هون ، واتحطت في شناطي ، وخرجت برة العراق !

أضاف سعد قائلًا :

- حتى سنة 2009 السنة الماضية ، والسرقة ما توقفت .. حراس نائب رئيس الجمهورية ، عادل عبد المهدي ، اقتحموا البنك وسرقوا 8 ملايين دولار ..

- بس المبلغ ما يستاهلش يعني الغلب ده كله .. مالوش حق عادل عبد المهدي !

- كانت مهزلة .. ناس فجرت الخزاين .. وناس اتقفلت عليها الخزاين ، وهما عم بيعبُّوا في الفلوس ، وما عرفوا يطلعوا .. وناس اختلفوا بعد السرقة .

- وعملوا إيه بالفلوس دي كلها ، بعد ما طلعوها بره ؟!

- اشتروا بيها عقارات بالأردن وسوريا ومصر .. عشان هيك إحنا نسميهم الحواسم ؛ لأن صدام قال قبل الحرب إن هذه الحرب حاسمة .. فاللي سرقوا العراق ، سميناهم الحواسم .. لإن هما اللي استفادوا من الحرب .

- ربنا يجعلنا من الحواسم يارب !

وانفجروا جميعًا ضاحكين .. وإذا بزاهر قادمًا من البدروم إليهم .. وما أن رآه ناجي ، حتى هتف به قائلا :

- إيه اللي جابك يا زاهر ؟!

Ahmed Madv

- لا .. بس قلت أطلع أشم نفسي شوية .. البدروم أصله مكتوم قوي !

قال سعد :

- ليش يقعد بالسرداب .. تعالى أقعد معنا يا زاهر .. اشرب شاي .

- لا .. أصل هوه عامل زيي .. مزاج عنده ينام جنب الشنط .

- ما تخاف يا أستاذ ناجي .. البيت أمان .

- عيب يا عم سعد .. دي كلمة تقولها برضه .. أنا واثق فيك ثقة عمياء .. أصل الشنط فيها أوراق مهمة .. وخايف ورقة تقع كده ولا كده !!

وإذا بصوت انفجار مهول على مقربة منهم .. والأطفال يجرون ويضحكون ، كأن شيئًا لم يحدث .. بينما صرخ زاهر وسقط على الأرض مرتعدًا .. قال ناجي :

- هوه فيه إيه يا سعد ؟ إيه ده !؟

- لازم سيارة مفخخة هون .. ولا هونيك .. ما عادت مفاجأة .. صار شي عادي .. كل يوم عم بنسمع ها الانفجارات .

- بس دي شكلها قريب قوي من هنا يا عم سعد .. ده أنا حسيت إنها فرقعت تحت مني .. أنا قلت الكرسي ح يطير ، وألاقي نفسي متشعلق في النجفة .

وإذا بانفجار آخر أكبر من الأول ، وزاهر يصرخ ويقفز لأعلى ممسكًا بالنجفة .. بعد أن اهتز البيت كله وارتج من جراء القنبلة .. ولا يزال الأطفال يلعبون ويجرون ويضحكون ، كأن شيئًا لم يحدث .. ثم أتى الطفل صدام ، ومعه طفل آخر من أولاد كمال إلى سعد ، وقال :

- عم سعد .. هادي سيارة مفخخة .. مظبوط !!

قال الطفل الآخر :

- لا .. هادي عبوة ناسفة ؟!

- لا .. هادي عبوة لاصقة .. فجروها من بعيد بالريموت كنترول !

Ahmed Madv

- العبوة اللاصقة ما بتعمل هيك !!

- لا .. هادا مثل الانفجار اللي حصل بساحة عنتر بالظبط .. نفس الصوت .. مش كان عبوة لاصقة !!

قال سعد :

- اجروا العبوا يا ولاد .

كان زاهر لا يزال معلقًا بالنجفة ، وناجي ينظر نحوه .. ثم قال :

- بسم الله ما شاء الله .. الأطفال بأوا خبراء مفرقعات .. ده إيه الحلاوة دي .. انزل يا زاهر .. سامع صدام بسم الله ما شاء الله بيقول إيه ؟ واد يِفْرح !

* * *

في مطعم ببغداد ، كان حسام ونضال جالسين في جلسة شاعرية ..

قال لها حسام ، وهو يبتسم :

- أنا بحبك يا نضال .

ضحكت نضال في أنوثة ، ولم ترد .. فقال لها حسام :

- بتضحكي على إيه ؟!

- أصل أنا بأيت باتشاءم لما بتقول لي بحبك .. إنت ناسي أنك لما جيت قولتهالي في الأوضة ، ودخل إبراهيم علينا ، ولقينا فرقة كوماندوز داخلة وراه .. وبأت معركة !!

- ما كانتش أول مرة .. قلتهالك وإحنا واقفين في زفِّة ابن عم أسعد .

- والله .. أمال لما قلت لك بتقول إيه .. استعبطت ليه ؟!

- قلت أتقل عليكي شوية .. ما أنا بصراحة شكلي مدلوق عليكي .

- لعلمك أنا بحب المدلوقين أكتر من التُّقال !

- خلاص .. خدي عندك بأة .. أنا بحبك يا نضال .. أنا باموت فيكي .

Ahmed Madv

في تلك اللحظة ، دوت أصوات انفجارات قريبة من المطعم .. وأصوات عربات إسعاف .. وشرطة وحالة من الهرج والمرج ، ونزل حسام ونضال تحت الترابيزة ، فقالت له مبتسمة :

- ما قلت لك ما تقولهاش !!

قال لها حسام ، وهو تحت الترابيزة :

- تتجوزيني يا نضال .. تتجوزيني !!

- حد يسأل سؤال زي ده في الظروف دي .. القرار ده مش قراري لوحدي .. لازم تسأل ولي أمري الأول !

- أسأل مين ؟ ده إنتي لا ليكي أب ولا أم !

- وناجي عطا الله ، ده يبأة إيه ؟!

- يبأة أبويا !

- خلاص اعتبره أمي .. ولازم تاخد موافقته !

وضحكا .. ضحكة طويلة صافية .. ليدوي انفجار ثانٍ أكبر من الأول .. فقال حسام ، وقد أمسك بيد نضال ، خارجين من المطعم لينفدا بعمرهما :

- ربنا يتمم بخير إن شاء الله .. إن عشنا وكان لينا عمر !

* * *

في التراس بشقة سعد ، كان النقاش لا يزال محتدمًا بين ناجي وسعد وكمال وعبد الرحمن ، قال سعد :

- أكبر نسبة أرامل بالعالم هون بالعراق .. الحرب خلصت على رجال العراق .. علماء .. محاربين .. أساتذة جامعات .. صارت نسبة النساء للرجال كبيرة .. كل أمراض الحروب هون .. السرق .. النهب .. الانتهازية .. الدعارة .

Ahmed Madv

- بتقول نسبة الأرامل هنا كبيرة !!

- ما فيه بيت ما فيه أرملة يا أستاذ ناجي !

- هوه الواد إبراهيم لسه ما جاش يا زاهر .. ربنا يستر !!

قال سعد :

- ما تخاف عليه .. ربنا بيسلم !

قال ناجي لنفسه :

- أنا مش خايف عليه .. أنا خايف على الأرامل !

* * *

Ahmed Madv

الفصل العاشر

في التراس بمنزل سعد ، كانت كاميليا واقفة ، وهي ترتدي العباءة العراقية المزركشة ، تتأمل الشارع ، والسيارات تمر أمامها تحمل أعلام العراق .. والشباب يتصايحون : العراق .. العراق ..

اقترب ناجي من خلفها ، ووضع يده على كتفها ، فانتفضت وقالت :

- ناجي .. إنت بتعمل إيه ؟!

- هوه مش أبو القاسم قال للأستاذ سعد دي كاميليا المدام بتاعته !!

- أيوه .

- طيب إيه ؟!

- إيه هوه اللي إيه ؟! ناجي .. بطّل الطريقة دي .. إحنا مش صغيرين !

- أنا بس متضايق من منظري قدام الجيش اللي معانا.. تقول إيه الست فاطمة ولا الست زينب .. ولا الأستاذ سعد .. سايب مراته كده ما بيسألش فيها !

- ما الستات قاعدين مع بعض .. بلاش حجج فاضية .

- آه .. طيب دول عندهم ظروف ومتهجرين ، وخلافات بين الشيعة والسُّنة .. إحنا شكلنا كده كأننا منفصلين .. زعلانين مع بعض .. وبعدين أنا نايم لوحدي في السرداب .. من حق كل زوج أنه ياخد مراته معاه السرداب .

Ahmed Madv

- كدهوه بالسهولة دي .. إنت بتستعبط والله !

- هوه الجواز إيه ؟ مش إشهار .. أبو القاسم وعم سعد .. أدي اتنين شهود .

قالت كاميليا مبتسمة :

- وربنا إنت مجنون .

كان الأطفال يجرون في التراس بالأعلام ، وهم يهتفون : العراق .. العراق .

أمسك ناجي بالعلم ، وأخذ يهتف معهم ثم تساءل :

- هما بيهتفوا ليه ؟ هما الأمريكان خرجوا ؟!

وعندها دخل سعد وكمال وزينب وفاطمة ، يعدون المائدة للغذاء ، ووضعوا الأطباق على المنضدة ..

فقال سعد لناجي :

- لأ .. أصل اليوم مباراة نهائى آسيا بين العراق وكوريا الجنوبية .

- ربنا ينصركم عليهم يا شيخ ؟!

- إنشاء الله مثل ما عملنا في الألفين وستة .. خرَّجنا كوريا وأخدنا الكاس .

- عقبال ما تخرجوا الأمريكان يا عم سعد .

- آمين يارب .. يسمع من فمك الله .

* * *

في الصالة داخل بيت سعد ، كان الجميع يأكلون معًا .. وهم يشاهدون مباراة كرة القدم بين العراق وكوريا الجنوبية .. وكان تعليق المباراة باللهجة العراقية صعبًا للغاية وغير مفهوم ، فقال ناجي متسائلا :

- هو اللي بيعلق ده كوري !!

- لأ .. ده عراقي !

- طيب ما بيكتبوش ليه ترجمة تحت الكلام ؛ عشان اللي قاعد يفهم يعني ؟!

Ahmed Madv

- ترجمة بإيش .. ما هو بيتكلم عربي ؟!

- أنا قصدي ترجمة بالكوري يعني !

واندمجوا جميعًا تمامًا في المباراة ، وقال المعلق :

- أخدها نشأت أكرم .. وركض .. وركض .

قال ناجي :

- هايل الواد ده .

فقال أسعد مضيفًا :

- نشأت أكرم هادا سني عراقي بيلعب اليوم محترف بألمانيا .

- والواد ده اسمه إيه ؟ ده ابن لذينة .

- كرار .. شيعي عراقي بس لعيب .

وقال كمال :

- لا .. استنى لما هَوّار الكردي ينزل !!

قال ناجي :

- إنتوا كام طايفة هنا يا سعد .. شيعي وسني وكردي !!

- وماتنسى الآشوريين المسيحية والقلدانية ..

قال كمال :

- .. والصابئة المفدائيين !

وقال عبد الرحمن :

- .. واليزيديين اللي يؤمنون بالشيطان استغفر الله ! .. والشبك والأرمن !

قال ناجي :

- كل دول في العراق .. ربنا يكون في عونكوا يا شيخ .. العب يا كرار !

Ahmed Madv

ثم همس قائلًا لكاميليا :

- البدروم فاضي .. مش أكلنا .. واحد ومراته ونازلين يريحوا شوية بعد الغدا .. إيه اللي حصل ؟

ابتسمت كاميليا في أنوثة بتمنع .. وعاد ناجي يقول :

- عشان المأذون والورقة والكلام ده ! .. هوه فيه أكتر من المآذين في العراق ..

كان المعلق يعلن انتهاء الشوط الأول بنتيجة التعادل (صفر/ صفر) ، فقال ناجي ، وهو ينظر لكاميليا بما يحمل معنيين :

- ما تقلقوش .. العراق بتلعب حلو .. ح تجيب أجوال في الشوط التاني .. شكلهم باين .. هما بس الكوريين مقفلين شوية .

فابتسمت كاميليا وأخفت ابتسامتها .. وطرق الباب ، وجرى أحد الأطفال ليفتح الباب .. ليدخل ستوري الذى نظر نحو الجميع ، وقال :

- الله أكبر .. ربنا يزيد ويبارك ..

قال سعد :

- أهلًا يا ستوري .. اتفضل .

- لا .. وين اتفضل .. أنا بس جاي عشان أنا وعدت الأستاذ ناجي بفنجان قهوة عندي بالبيت ، وجاي عشان أخده معي حسب الاتفاق .

- إنت ما بتتفرج على العراق عم يلعب بالنهائي!!

- آه .. الله يوفقهم .. أصل أنا مالي في الكورة .. اتفضل يا أستاذ ناجي .. البيت مو بعيد .. هون في أول الشارع .

وذهب سعد هو وناجي ، واختليا بستوري الذي همس لسعد :

- اسمع أستاذ سعد .. أنا شايف الظروف أديش صعبة ، فإذا إنت بتسمح ولا بيسمح الأستاذ ناجي .. هوه واللي معه ييجوا يقعدوا معي أهلًا وسهلًا فيهم عندي .. الحمد لله الخير كتير والبيت كبير .

Ahmed Madv

- متشكرين يا ستوري .. الأستاذ ناجي ح ييجي معك يشرب قهوة ويرجع تاني .. إنت راجل عزابي وهوه معه زوجته مدام كاميليا .. قاعدة هون مع الحاجة فاطمة ما يصح إنهم يباتوا عندك .. ما هي أصول يا ستوري !!

قال ناجي :

- أنا مش فاهم إنت مُصرع القهوة دي ليه يا ستوري .. أنا عاوز أكمل الماتش .. الشوط التاني ح يبدأ !

- بدنا نتشرف بيك يا ناجي بيك مو أكتر .. والله وبنشوف الشوط التاني مع بعض عندي LCD 60بوصة ، كأنك بالأستاد بالظبط ..

وخرج ناجي مع ستوري ، بينما بدا سعد مستاءً وقلقًا للغاية ..

* * *

وانطلقت السيارة يقودها ستوري ، وبجواره ناجي في شوارع بغداد .. هل هذه هي بغداد ؟! كان ناجي يسأل نفسه ذلك السؤال ، مرة أخرى ، وهو يرى جدرانًا عازلة لتقسيم الأحياء .. جدرانًا عالية من الأسمنت ..

- إيه ده ؟ إيه كل الجدران دي يا ستوري ؟

- هادي عملوها الأمريكان مع السلطة .. لدواعٍ أمنية .. جيت العراق قبل الاحتلال يا ناجي بيك ؟! وشو إحساسك وإنت بتشوفها اليوم ؟!

- أيوه .. جيتها يا ستوري .. عارف إيه إحساسي يا ستوري .. عارف ، البربريز ده .. زمان لما كنت هنا ، كنت حاسس إنه مضلم .. فيميه .. إنما أهوه كُنا ماشيين مش شايفين قوي إنما ماشيين .. دلوقت حاسس كأن فيه سرطان في القزاز .. كل حتة فيه بأت قد كده !!

ونظر ناجي نحو جدار عال ، كانا يمران بجانبه ، وقال :

- إيه ده ؟! ده عامل زي الجدار العازل اللي بنوه الصهاينة في فلسطين .

Ahmed Madv

- والصهاينة بعد هم هون برضه يا أستاذ ناجي ، وموجودين بقوة ، كل التيارات السياسية بتسعى لتمزيق العراق .

- على رأيك ؟ ما دام الأمريكان هنا .. يبأة الإسرائيليين لازم يكونوا هنا !

كان ناجي يرى المليشيات الملثمين والسيارات والجنود الأمريكية ، منتشرين في كل نواصي الشوارع والميادين ..

- مش بس الأمريكان .. والقاعدة هون .. وكل الأحزاب والتوجهات المختلفة .. شفت النمل لما بيتجمع حوالين قطعة حلوى .. ويفتت فيها .. وكل نملة تاخد اللي تقدر تشيله على ضهرها وتمشي .. هادا هو الحال بالعراق .

- تخريب منظم .. فوضى خلاقة ، إنما إحنا كعرب يا ستوري .. موقفنا إيه ؟!

- اسمع يا ناجي بيك لا تؤاخذني .. من سنة 2003 صار العرب أكتر الجنسيات المشكوك في تواطئها .. ما تزعل مني .. مصري .. سوري .. لبناني .. سوداني .. صاروا متهمين .. الفلسطينيين هون تم اعتقال كتير منهم واتنكل بيهم .. كلمة عربي هون بالعراق صارت تعني خاين .

- وليه ده كله ؟!

- عشان العالم كله حس إنهم كانوا منحازين لنظام صدام .. حصل تعاطف مع صدام لما اتعدم !!

- أنا عيَّطت يا ستوري .. والله ما قدرت أمسك نفسي .. أنا ضد صدام .. اللي يخنق شعبه ، ويعرض المنطقة كلها للاحتلال لا يمكن انحاز له أو أتعاطف معاه .. إنما اللي حصل وشفناه بعينينا يوم عيد الأضحى .. كان إهانة لكل عربي .. بأة دي العراق يا ناس .. إيه اللي حصل لنا ؟!

ومضت السيارة في الظلام .. في شوارع بغداد الحزينة .

* * *

Ahmed Madv

دخل ناجي إلى بيت ستوري ، الذي بدا غاية في الروعة والفخامة .. اللوحات البديعة على الجدران ، والقازات الثمينة على الأرض من عصور مختلفة .. كأنك في متحف اللوفر .. قال ناجي معلقًا:

- إيه ده يا عم ستوري .. ده مش بيت .. ده متحف .. بيتك حلو قوي !

- أنا أصلي أحب الفن يا أستاذ ناجي .. كتير كنت باسأل نفسي ليش ما يخترعوش قنابل تقتل البشر ، إنما تسيب اللوحات والتماثيل من غير ما تدمرها .. عندك بمصر مثلًا .. آلاف الأجيال وملايين البشر راحوا وإجه غيرهم .. إنما الأهرامات واقفة بمكانها .

- والنبي ما تنبرش عليها يا ستوري .. أهي الحاجة الوحيدة اللي لسه فاضلة !

- إحنا مرينا هون بالعراق بتجربة مالها مثيل .. الدينار العراقي اللي كان إله شنة ورنة .. فجأة .. في ليلة واحدة .. صار الناس ترميه بالشارع كأنه ورق زبالة .. إيش حال اللي كان عنده دنانير عراقية محوِّشها للزمن ؟!

- إنت ح تقول لي ما هو الجنيه المصري كده برضه .. بس ده بأة قيمته بتقل لوحدها .. من غير حرب ولا غيره .

- ما بأة شيء إله قيمة في ها الزمن ؟ إنما .. إمتى ناويين تروحوا على مصر !

وذهب ستوري ليصب القهوة من الكنكة لناجي ، الذي أجاب :

- والله لسه مش عارف .. أنا ليّا واحد صديقي ، بيحجز لنا التذاكر .. يمكن بعد بكرة !

- أبو القاسم .. أخويا وحبيبي !!

- وهوه بيحبك قوي .. ده قال عليك كلام خلّاني ح أموت وأشوفك .

- اسمع يا أستاذ ناجي .. أيش رأيك نكشف كل أوراقنا .. الكذب حلو .. إنما عمره قصير .. للأسف ، الحقيقة بتنكشف بسرعة في ها الدنيا .

Ahmed Madv

- كذب إيه وورق إيه يا ستوري ؟!

- أبو القاسم ما يحبني ولا يطيقني ، ولو اتكلم عني .. عارف أيش يقول !

- إنت عاوز إيه يا ستوري ؟!

- هادا السؤال المظبوط .. أنا شو بريد منك وإنت شو بتريد مني ؟!

- أنا مش عاوز حاجة .. ولا حتى ح اشرب القهوة بتاعتك دي كمان ؟!

- معقول الملحق الإداري الدبلوماسي السابق بتل أبيب ناجي بك عطا الله .. يبأة نفَسُه قصير هيك بالمفاوضات ؟!

- مفاوضات إيه ؟ آه كنت شغال في تل أبيب .. وفيها إيه يعني ؟ أنا كنت شغال في سفارة بلدي !!

- اسمع يا أستاذ ناجي .. أنا بعرف عنك كل شيء .. وشو كنت بتسوي في إسرائيل .. ومين دول ها الشباب الأبطال اللي معك !

- عاوز إيه يا ستوري .. طلع اللي في بطنك .. ما تقعدش تلف وتدور !

- أي حد في الدنيا يعتقد إني طمعان في اللي معك .. أو إني عاوز أخد نسبة .. وباعتقد إن ده اللي جال براسك .. صحيح ؟!

- أمال عاوز إيه ؟!

- ولا شي .. أنا بدي أديلك أمانة بس توصلهالي عا مصر !!

- أمانة إيه ؟!

- تمثال صغير .. ح تاخده بيدك .. ويطلع معك ع الطيارة .. وأول ما تنزل بمطار القاهرة ح تلاقي واحد مستنيك بس تعطيه إياه ؟

- تمثال إيه ده ؟!

أخرج ستوري التمثال من خزانة بجواره .. تمثال أسود لرجل جالس ، يشبه الكاتب المصري .. قال ستوري :

Ahmed Mady

- هادا تمثال جوديا الملك البابلي موحد العراق .. من العام 2500 قبل الميلاد .

- دي قطعة أصلية ؟!

- أعتقد لو ما كانت قطعة أصلية ، ما كانت تستاهل تعبك معي .

- لا يا ستوري .. أنا ما باشتغلش في الحاجات دي .. أنا مش مهرب آثار .. ولا عمري أقبل إن حضارة بلد تتقطع وتتباع في كل بلد شوية !

- القطعة الأثرية .. بأي مكان في العالم هي قطعة أثرية .. وهما بالخارج بيعرفوا منيح قيمة آثارنا .. يمكن أكتر مننا .

- وإشمعنى يعني أنا اللي اخترتني لحاجة زي دي !!

- إنت دبلوماسي .. وما فيه حدًا يتصور إن اللي في يدك هادي قطعة أصلية .. وبعدين اللي حيقدر يمرر كل ها الشناطي .. يغلب في تمثال صغير متل هذا ، ومعك الشباب برضه .. إذا كل واحد معه تمثال .. خلاص !!

- وإذا رفضت !!

- إذا رفضت .. يبأة تأكد أنك لا يمكن ح تخرج بها الشناطي ، اللي معك من العراق .

- أفهم من كده إن ده تهديد يا ستوري !!

- العفو يا ناجي بيه .. هادي مفاوضات .. مجرد مفاوضات !!

* * *

كان سعد جالسًا مع عبد الرحمن وكمال ، يشاهدان إحدى القنوات العراقية ، وهي تذيع خبرًا .. (إحدى المنظمات المدنية ترفع قضية على الحكومة لاسترداد40 مليون دولار ، تقاضاها نواب مجلس الشعب كرواتب عن حضور جلسة واحدة .. استغرقت عشرين دقيقة) .. قال ساخرًا :

- يعني الدقيقة بـ 2 مليون دولار .. والله صرنا نعيش بمهزلة !!

Ahmed Madv

دخل الطفل صدام ، وقال لعمه :

- عمو سعد .. بريد أقولك شي سر !!

- إيش عاوز تقول لي ؟!

- أنا فتحت الشناطي اللي بالسرداب .. بتاعة الأستاذ ناجي !!

- لا والله عيب اللي عملته هادا .. كيف تمد يدك على شناطي ما هي بتاعتك ؟!

- أنا بس .. شفت شو فيها وسكرتها علطول .. هادي مليانة مصاري عمو .. ما فيهاش غير المصاري .. دولارات .. لازم عمي ناجي غني كتير .. مليونير !!

- ما إلك علاقة بها الأشياء .. ياللا روح نام عشان المدرسة باكر !!

وعاد سعد إلى التراس .. وقد تغير وجهه .. فقال له عبد الرحمن :

- مالك يا سعد .. شو اتغير وجهك .. شو قال لك صدام !!

- لا .. كلام أطفال .. خيالات وأوهام .

- ما هي خيالات ولا أوهام يا سعد .. صدام قال لي .. وصدام ما يكدب !

- شو بتقصد يا أبو صدام ؟!

- ها الزلمة واللي معه .. لازم عاملين عملية كبيرة ، وأكيد إلهم أعداء بيبحثوا عنهم .. وجوده هو واللي معاه هون يعرضك ، ويعرضنا إحنا وأولادنا لأخطار ما لها أخر .. احتمال يكونوا مشبوهين .

- أبو القاسم ما قال لي هيك .. قال لي إنهم من المقاومة !

- يادي المقاومة .. اللي الكل بينسبها لنفسه .. والله صرنا في عصر الأبطال !

- وإنت شو شايفه يا عبد الرحمن ؟!

- المسألة ما هي محتاجة لتفسير .. ها الزلمة وجماعته مصريين .. وها المصاري اللي وياهم مصاري عراقية من البنوك اللي اتنهبت .. ولجل ما تظهر هون .. تسافر معهم لمصر .. يشترون الأراضي والعقارات لحساب ناس .. إفهمت .. يا إما

Ahmed Madv

دول تبع القاعدة .. وإيش بيسوي الأستاذ ناجي عطا الله كل ها الوقت مع ستوري ؟! واضحة متل الشمس يا سعد .. باينة .. المصريين والخونة عم بيتلموا على بَعْضِهُن .. المصالح بتتقابل !!

- إنما أبو القاسم قال لي ..

- أنا لا بصدق أبو القاسم ولا ميت أبو القاسم .. أنا بصدق عقلي .. بصدق أذني .. بصدق عينيا !!

* * *

في بيت ستوري ، كانت خمسة تماثيل واقفة .. متجاورة .. للإله جوديا .. موحد العراق ، وناجي ينظر نحوها ، وستوري بجواره .. فقال ناجي :

- ماشي يا ستوري .. حناخدهم معانا !!

- أنا كنت واثق إنك ما حتردني يا ناجي بيك .

- بس عاوزينك تجيب لنا خمسة هاندباج صغيرة كده على قد التمثال ، ويتلف كويس ويتحط فيها .. ونطلعهم معاناع الطيارة !

- بس إِلي طلب عندك يا ناجي بيك .. حتى أبو القاسم ما بريده ياخد خبر عن ها التماثيل !!

- لأ .. طبعًا .. دي شغلانة تانية .. إحنا عاملينها أنا وأنت مع بعض .. إنما إحنا نظامنا إيه في العملية دي يا ستوري ؟! العيال اللي ح يشيلوا التماثيل .. مش لازم يتروقوا برضه .. هوه فيه حد النهاردة بيشيل حاجة ببلاش يا ستوري ؟

- بعد كل اللي معكم بالشناطي يا ناجي بيك .. ولسه عاوزين مصاري ؟!

- البحر يحب الزيادة يا ستوري .. أهو الكام تمثال دول ممكن يبوظولنا الشغلانة كلها .. قدَّر اتمسكنا بيهم .. ح يخشوا بأة ع الشنط ويفتحوها .. وتبأة ليلة سودة .. الفلوس اللي معانا واخدينها من العدو الصهيوني .. إنما دول .. ح نبأة واخدينهم من العراق .. يعني سرقة وخيانة في نفس الوقت !!

Ahmed Madv

- طلباتك يا ناجي بيك !!

- 50 ألف دولار لكل تمثال .

- والله كتير يا ناجي بيه !!

- يا عم ده تمن الشاي والسجاير .. هي دي بأت فلوس دلوقت ؟!

- ماشي يا ناجي بيه .. أنا موافق .. الرجال اللي ح تسلموه التماثيل ، ح يكون معه شنطة بيها المبلغ .. تسلموه التماثيل ويسلمكم المصاري ..

* * *

كان سعد جالسًا في التراس وحده يدخن في ضيق .. حينما عاد ستوري بسيارته قادمًا ؛ لينزل ناجي من السيارة ، ويسلم عليه بحرارة .. نظر سعد نحوهما بغيظ وغضب ، وألقى بالسيجارة .. ثم فتح الباب ليدخل ناجي ، وهو يقول معتذرًا :

- معلش يا أستاذ سعد .. سهَّرتك .. أصل الجدع اللي اسمه ستوري ده رغَّاي قوي .. قعد يتكلم معايا لما خلالي دماغي بأت قد كده .. أنا آسف ..

- أستاذ ناجي .. أنا عاوزك في كلمتين إذا سمحت !!

وفي التراس .. وقف سعد صامتًا .. وبدا ، وكأنه يغلي ، فقال ناجي :

- إيه ؟ خير ؟ مالك يا أستاذ سعد .. شكلك مش عاجبني .. فيه حاجة ؟!

- شو بتسوي هون بالعراق يا أستاذ ناجي ؟!

- أنا مش فاهم السؤال !! .. عمومًا أنا قلت لك يا أستاذ سعد .. كُنا طالعين على مصر ، مالقيناش تذاكرع الطيارة .

- آسف .. إجابة خاطئة .. صفر .

- فيه إيه يا أستاذ سعد .. إنت بتمتحني ولا إيه ؟!

Ahmed Madv

- اسمع يا ناجي بيك .. أنا راجل بسيط .. عايش بحالي .. ولا عمري ما ادَّعيت بطولة ولا مقاومة .. إنما ده مش معناه إني أنخدع يا ناجي بيك !

- ما عاش اللي يخدعك يا أستاذ سعد !!

- يا ناجي بيك .. فتحت لك بيتي ، واعتبرتك أخوي ، وبتكدب عليا !!

- أنا ما كدبتش عليك في أي حاجة يا أستاذ سعـد !!

- ممكن تقول لي ها الشناطي اللي ما تفارقها لحظة .. وخايف عليها .. وإذا إنت مش موجود ، لازم حدًا من الشباب يحرسها .. شو فيها ؟!

- ما قلت لك يا أستاذ سعد .. أوراق مهمة .. ملفات دبلوماسية سرية !

- أوراق مهمة كتيرة .. تخللي الإنسان يبيع ضميره ، ويخون بلده !!

- إيه الكلام الكبير ده يا عم سعد ؟!

- أول مرة باعرف إن الدولارات أوراق دبلوماسية سرية .

نظر ناجي إلى الأرض .. وقد انكشف أمام سعد ، الذي كان ينهال عليه بالأسئلة :

- من وين جيبت كل ها المصاري يا ناجي بيه .. من هون .. من العراق .. ولوين واخدها .. لمصر ؟!

- اسمع بأة يا عم سعد .. أنا واللي معايا سرقنا بنك بارليف .. والموساد الإسرائيلي بيدور علينا في كل حتة .. عشان كده أبو القاسم بيساعدني .. أنا لسه ستوري عارض عليا 250 ألف دولار ؛ عشان أهرَّب له تمثال جوديا معايا .

- وشو قلت له ؟!

- جاريته طبعًا .. إنما لا يمكن أعمل جريمة زي دي ، مهما كان التمن !

- اسمع يا أستاذ ناجي .. أنا بيكفيني المشاكل اللي عندي .. أنا مالي صالح بستوري ولا غير ستوري .. ولا حتى بالمقاومة ولا بالسلطة .. عشان هيك ..

Ahmed Madv

إذا سمحت من بكرة الصبح ، تاخد الشباب وتغادروا البيت .. بكرة أرجوك تكلم أبو القاسم ، ييجي يشوف له صرفة .

- اللي تشوفه يا أستاذ سعد .. أنا كنت واخد القرار ده لوحدي ، بعد ما قابلت ستوري .. وأنا باكرر أسفي مرة تانية .. تصبح على خير !

وتحرك ناجي نازلا إلى البدروم ، بينما ظل سعد جالسًا يدخن ، وقد طار النوم من عينيه .

* * *

في الصباح الباكر ، كانت المصفحات الأمريكية والجنود الأمريكان يمرون بشوارع بغداد ؛ لتأمين زيارة وزيرة خارجيتهم .

في بيت سعد ، كان الأطفال يستعدون للذهاب إلى المدرسة ويتناولون إفطارهم ، وزينب وفاطمة .. تعطيان الموبايلات للأولاد .. قالت كاميليا :

- معقول .. بتدوا الأطفال موبايلات في السن ده !!

- لازم نعطيهم موبايل .. نطمن عليهم من الانفجارات والمفخخات .. إذا حصل شيء .. يتداروا بأي بيت ، ويخبرونا بمكانهم !

- الله يكون في عونكم .. وفي عون كل أم ابنها رايح المدرسة !

قال صدام :

- ماما .. عاوز كارت !

ومد يده ليأخذ كارت الشحن من على طاولة في الهول .. فقالت زينب :

- رجع الكارت .. تليفونك معبي .. عفريت إنت ؟!

ضحكت كاميليا وقبلته .. وعلى التليفزيون ، كان المذيع يلقي بنشرة الأخبار قائلا :

Ahmed Madv

- «تقرر أن تكون زيارة وزيرة الخارجية الأمريكية إلى بغداد اليوم ؛ لتتفقد الأحوال عن قُرب مؤكدة في مؤتمرٍ صحفي .. أن الحياة الطبيعية عادت إلى البلاد .. وأن كل منشآت الدولة تمارس نشاطها بشكل ملموس» .

قال كمال معلقًا :

- والله يا أخي الأمريكان دول يعشقون الإعلام .. اليوم الأطفال يروحون المدارس .. والموظفين يروحون الدوام ، كأن ما فيه شيء في العراق !

قال عبد الرحمن :

- كل متر ببغداد راح تلاقي بيه حراسة أمريكية وسيارات .. ورشاشات !

- وزي كل مرة .. ممكن ما تيجي الوزيرة بالنهاية ..

- سعد نايم لغاية الحين .. الساعة تمانية .. هو مش رايح المدرسة !

قالت فاطمة :

- سعد ما نام طول الليل .. باين عليه مشغول بشي !!

ودخل ناجي إلى الصالة ، كانت عيناه محمرتين من قلة النوم ، وترك عبد الرحمن الصالة خارجًا في ضيق ، حينما دخل ناجي دون أن يسلم عليه .. فهم ناجي أنه صار غير مرغوب فيه بالمنزل .. قال ناجي لكمال متوددًا :

- صباح الخير يا أستاذ كمال ..

- صباح الخير يا أستاذ ناجي .. اتفضل .. تاخد قهوة معنا !!

- آه والله .. أحسن دماغي مقلوبة !

- ما هي دماغك فقط اللي مقلوبة .. بغداد كلها مقلوبة اليوم !

ورن تليفون سعد .. وكان الطالب أبو القاسم .. أخذ ناجي التليفون .. ومشى جانبًا ، ثم همس لأبو القاسم :

Ahmed Madv

- يابو القاسم .. الحكاية انكشفت كلها .. سعد عرف كل حاجة ، وستوري عرف برضه .. أنا كده موقفي صعب .. لازم تعمل حاجة يابو القاسم .. إنشالله تشوف لنا مكان تاني بعيد عن هنا مؤقتًا .

ورد أبو القاسم عليه قائلا :

- ما تحمل هم يا أستاذ ناجي .. صدقني ما تحمل هم .. حاضر .. بس اليوم إنت عارف الظروف الأمنية .. اليوم ما حدًا يطلع ، وأنا ح أتكلم مع سعد .. وبكرة إن شاء الله أنا مظبطلكم مكان تاني .. قريب من المطار كتير .. بس تغور ها الزيارة ، وبعدها تكونوا بأول طيارة طالعة على مصر .

* * *

في مدرسة الأعظمية ، كان الأطفال ينشدون نشيد الصباح (موطني موطني ...) وصدام يردد النشيد دون أن يعرف تحديدًا .. أي موطن هذا الذي يغني له .. والأجانب يروحون ويجيئون فيه ، كأنه موطنهم .

في بيت سعد ، كان الكل مجتمعين على صينية الشاي .. استكانات الشاي العراقية الصغيرة .. وقد سرت حالة من الألفة والود بينهم .. فقد أدرك سعد أن هذا أخر يوم لناجي وفرقته .. وكان أبو القاسم قد تدخل ، فأصلح بينهما .. وألقى سعد نكتة سياسية عراقية .. انفجر لها الجميع ضاحكين ، وقال ناجي :

- الله يخرب عقلك يا سعد .. أول مرة أسمع نكتة عراقي .. صحيح مش فاهمها ، إنما تموت من الضحك !

قال كمال :

- اتنين جيران واحد عنده ديك ، يقف كل يوم على السور .. يصيح في مواعيد مختلفة ، يزعج الجيران .. واحد من الجيران خبط على صاحب الديك ، وقال له والنبي تسكت الديك بتاعك هادا .. قال له ماشي .. تاني يوم سمع صراخ الديك ، راح قال له أنا قلت لك سكت الديك .. قال له خلاص إنت مدعو

Ahmed Mady

النهاردة على الغدا عندنا .. قام ذبح الديك وقدمهوله على الغدا .. الراجل شكره وتاني يوم الصبح صحي على أصوات خمسين ديك بيصرخوا على السور .. راح ركض على صاحب الديك ، قال له دبحنا ديك جايب لي خمسين ديك .. قال له يا عزيزي أنا ما جيبت .. هم دول أصلًا كانوا موجودين ، بس كانوا يخافوا يصرخوا من الديك اللي أنا دبحته .

فانفجروا جميعًا ضاحكين .. قال سعد :

- لا .. اسمع هادي يا ناجي بيك .. راحوا لمارد طلبوا منه يحل مشكلة الأحزمة الناسفة والمفخخات ، فراح المارد .. وغاب يومين .. ما رجع .. أراد صاحب الفانوس يعرف راح فين .. فرك الفانوس .. طلعت له لافتة سودة مكتوب عليها الشهيد بطل شبيك لبيك ، استشهد في سيارة مفخخة ! وعادوا ينفجرون في ضحكة عالية ..

وقال سعد :

- ضحكة خير .. اللهم اجعله خير !!

قال ناجي :

- أهو إحنا بأة أما نضحك .. لازم نقول كده .. طول عمرنا بنخاف نضحك .. كأن الضحك حرام علينا !!

قال سعد :

- إحنا بنخاف لتكون النكتة مفخخة !!

وعلا صوت ضحك الجميع مرة أخرى .. وفجأة رن تليفون عبد الرحمن ، فقال سعد :

- يا عبد الرحمن .. تعالى رد !! المشاكس صدام .. لازم عمل مصيبة بالمدرسة !

أتى عبد الرحمن ، ومسك التليفون ، وقال :

- آلو .. نعم .. مينو !!

Ahmed Madv

وتغيرت ملامح عبد الرحمن ، وصرخ في هلع :

- شو بتقول إنت ؟!

* * *

في غرفة فقيرة .. مظلمة .. كأنها قبو خالية من الأثاث تمامًا .. نوافذها مغلقة بألواح خشبية .. ورجل كبير السن ، موثق اليدين والعينين ، وشابين معصوبي العينين .. ثم صدام (الطفل) يبكي ، وقد ألقي به في داخل الغرفة مع المعتقلين .. بينما كان رجل ملثم ممسك بسلاح ، هو الذي يتكلم في التليفون :

-اسمع .. ابنك عندنا .. جدامكم مهلة لغاية بكرة .. تحضروا عشرة دفاترأو نرجعلكم راسه !

وسيطرت حالة من الوجوم على الجميع ، وصرخ سعد :

- شو اللي صار يا عبد الرحمن ؟!

قال عبد الرحمن باكيًا :

- خطفوا صدام !

أخذت زينب أم صدام تبكي وتولول حتى سقطت مغشيًّا عليها .. واندلع صراخ النساء .. وبكاؤهن ، فصرخ فيهن سعد :

- اسكتوا خلينا نفهم .. إيش يريدون يا عبد الرحمن ؟

- يريدون فدية عشر دفاتر ..

- عشر دفاتر إيه ؟ ح يعملوا إيه بالدفاتر دي كلها ؟

- عشر دفاتر يعني 100 ألف دولار .. هون هيك بيسموها !

وحملت النسوة زينب إلى الداخل .. أما عبد الرحمن ، فانفجر في بكاء مرير .. وقد توتر الموقف تمامًا .. أخذ ناجي سعد جانبًا ، وهمس له :

Ahmed Madv

- ح تعملوا إيه يا سعد ؟!

- ننتظر المكالمة القادمة .. روحنا بإيديهم لما يتصلوا تاني ، نتفاوضوا على الفدية .. عشر دفاتر .. منين نجيب عشر دفاتر ؟!

- وحكاية الخطف دي منتشرة في العراق من زمان ، ولا حاجة جديدة ؟!

- هادي جابتلنا إياها الديمقراطية الجديدة للعراق الحرة !

ورن التليفون مرة أخرى .. فحمله سعد ورد بلهفة :

- آلو !!

قال ناجي :

- فيه إيه يا سعد ؟!

- يريدون نعبيلهم الرصيد .

- دي عصابة معفنة .. طالبين عشر دفاتر ، وعايزينك تشحنلهم !

قال سعد لزوجته :

- عطيني الكارتات يا فاطمة :

أحضرت فاطمة كارت شحن وأعطته لسعد .. الذي قام بشحن الموبايل ، انتظارًا لمكالمة من العصابة الخاطفة لصدام .. كانت لحظات انتظار المكالمة المرتقبة كأنها انتظار كلمة بالإعدام .. حالة من القلق والتوتر سادت البيت إلى أن رن التليفون أخيرًا .. قال سعد متوسلا :

- آلو .. أيوه .. بس العشر دفاتر نجيبها منين ؟ أنا موظف متقاعد .. وإذا بيعنا البيت ما نجدر نلم لكم الفلوس بها السرعة .. حتى الخمسين .. بس اسمعني .

أشار له ناجي ، وقال :

- وافق !!

Ahmed Madv

نظر سعد نحوه في حيرة ، ولكن ناجي كرَّر بإصرار :

- وافق يا سعد !! الفلوس موجودة ..

قال سعد لمن يتفاوض معه من المختطفين :

- نجيب لكم الفلوس وين .. بس تجيبوا معكم قميصه ؛ حتى أتأكد إن صدام عندكم ..

* * *

على طريق التاجي ، كان سعد راكبًا سيارة متواضعة الحال .. واقفًا بها في ركن من الطريق .. الذي كان خاليًا من المارة .. والنخيل تحيط به على الجانبين إلى أن أتى أحدهم على موتوسيكل ، ملثمًا .. ثم اقترب من السيارة ، وخبط على مقدمتها بيده .. وقال بصرامة :

- لا تلتفت .. وين الفلوس ؟!

أعطاه سعد الدولارات المطلوبة .. أخذها الرجل الملثم بسرعة ، ثم ألقى بالقميص في وجه سعد ، ومضى .. أمسك سعد بقميص صدام وأخذ يقبله .. ودموعه تنهمر من عينيه .

في البيت ، تلقفت زينب قميص صدام ، وأخذت في تقبيله ، وهي منهارة تمامًا .. والجميع في حالة يرثى لها .. من الترقب والخوف .. كان سعد جالسًا .. يدخن في حيرة .. فسأله ناجي :

- هما مش خدوا الفلوس ! ممكن يطلعوا أندال ، ومايبعتوش الواد ؟!

قال سعد هامسًا بخوف :

- ممكن يقتلوه !

خرج ناجي إلى التراس .. بين نهنهة النساء وحالة الحزن العارمة ، التي ملأت البيت ، بعد أن كان غاصًّا بالضحك .. ثم ابتسم ناجي فجأة ، وقال لزينب :

- افتحي الباب يا زينب .. صدام رجع !!

Ahmed Madv

لم تصدق زينب نفسها ، وهي ترى ابنها صدام داخلا عليها جاريًا ، فأخذته في أحضانها .. وأطلقت فاطمة زغرودة عالية ، وقال ناجي :

- إهدا شوية يا صدام .. طلعت عين أبونا .. كل شوية تعمل لنا مصيبة .

وضحك الجميع لأول مرة .. الضحك بعد البكاء له مذاق خاص .. ما أروع الفرج بعد الشدة وانتحى عبد الرحمن بناجي جانبًا ، وقال له :

- أستاذ ناجي .. جميلك هذا يظل فوق راسي طول عمري .. أنا باتشكر لك كتير على اللي عملته معي .

- ما تقولش كده يا عبد الرحمن .. ده ابني زي ما هو ابنك . إحنا إخوات يا عوبد .. واللي إنتوا عملتوه معانا .. أنا مقدرش أنساه ..

حانت ساعة الرحيل .. الفترة الوجيزة التي قضوها ربطت بينهم بأواصر قوية .. وشعر الجميع أنهم عائلة واحدة .. كان الأولاد يحضرون الحقائب ، وقد ارتدوا ملابسهم استعدادًا لمغادرة البيت .. وسعد جالسًا في ضيق لمفارقتهم .. ثم انتحى بناجي جانبًا ، وقال له :

- أنا خجلان منك يا أستاذ ناجي .

- يا سعد .. إنت استقبلتنا أحسن استقبال .. ده أنا حسيت إني وسط أهلي والله .

- لا .. اللي عملته شيء كبير يا أستاذ ناجي .. أنقذت حياة ابننا من الموت .

- ده ابني .. ولو كنت مطرحي كنت ح تعمل أكتر من كده .. تعرف يا سعد .. وجود ناس زيك هنا .. إداني أمل إن العراق لا يمكن ح تقع أبدًا .. لو فيها كتير منك ..

- موجودين .. بس دول اللي يسموهم الأغلبية الصامتة .. ما لنا حس !

- ح تتكلموا وصوتكوا ح يطلع .. لما العراق يبأة للعراقيين !!

- لكن أرجوك طمني .. اتجاهكم وين ؟!

Ahmed Madv

- والله ما أعرف أبو القاسم ح يودينا فين ؟ إنما بيقولك حياخدنا على مكان قريب من المطار .. فيه ناس طيبين ما يتخيروش عنك .

- والله أنا ما كنت أسيبكم تطلعوا من البيت أبدًا .. لولا خوفي عليكم من ستوري .. ها الزلمة كل شيء يقدر يسويه .. إنما لازم أعرف وين رايحين ، حتى أكون وياكم إلى أن تغادروا العراق بالسلامة .

ورن تليفون سعد ، فرفع التليفون إلى أذنه ، وقال منزعجًا :

- إمتى .. الصبح .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإنا إليه راجعون ..

ثم نظر لناجي ، بحزن ، وهو يتنهد ، وقال :

- البقية بحياتكم .. أبو القاسم تعيشوا إنتوا .. الله يرحمه ويحسن إليه .

قال ناجي بأسى :

- الله يرحمنا ويحسن إلينا إحنا !!

- ماجد يقول أبو القاسم كان يفطر في مطعم بالكرارة الصبح .. ودخل عليهم موتور راكبه واحد كان شايل حزام ناسف .. فجر روحه بنصهم .

أخذ زاهر يلطم خديه ، وهو يندب .. والتفت ناجي إلى سعد ، وقال :

- ياعم سعد .. بما إن أبو القاسم تعيش إنت .. وماكانش لينا غير أبو القاسم .. فأنا بقول نشوف لنا بيت حلو كده وخلينا في العراق .. أنا ح ارشح نفسي في الانتخابات ، وأخش مجلس الشعب عندكوا .. بيقولوا بيقبَّضوا جامد هنا .

دخلت كاميليا ، وهي تقول :

- فيه إيه يا ناجي ؟ أبو القاسم وصل !!

- ما تقول لها يا عم سعد .. أنا ح أقعد أندب لوحدي !!

Ahmed Madv

- خلاص .. خلاص أسمع أستاذ ناجي .. إنت صاحب فضل كبير علينا .. أنا راح أنقذك من هادي الورطة الكبيرة .. أنا ح اوصلك مصر إن شاء الله !

قالت كاميليا :

- ورطة إيه يا ناجي ؟ هوه إحنا مشتبه فينا ولا هربانين من حاجة !!

- ما تلم لسانك يا سعد بأة ؟! هوه الكلام بيطلع من بُقك كده .. مش قادر تمسك لسانك .. بيتكلم على ورطة أبو القاسم ..

- ما نطلع ع المطار ونقطع التذاكر ونمشي .. فيها إيه دي ؟!

قال سعد :

- صعب تطلعوا على المطار هون ببغداد .. أنا باطلعكم عن طريق الشمال .. عندي أقرباء بالموصل .. ومن الموصل أوصلكم للمطار.. مطار أربيل ..

Ahmed Madv

Uploaded By
A.M.
لصالح مواقع
مكتبتنا
واحة الكتب
مدينة الكتب

http://www.kotobdown.com

http://wahetelkotob.com

http://www.maktbtna2211.com

Ahmed Madv

• الفصل الباديء عشر •

وضع ناجي والشباب الحقائب في السيارة .. كانت كاميليا تعانق زينب وفاطمة ، وكمال وعبد الرحمن يساعدونهم ، ويودعون بعضهم بحرارة الأشقاء .. أمسك صدام بعمه سعد ، وقال :

- ما تخليني هون عمي .. بآجي معك !! أنا رجال وأتحمل ..

- إحنا رايحين ع الدكتور .. أحسن يديلك إبرة في يدك !!

- لا ما تضحك عليّا .. إنتوا رايحين أربيل .. أنا سامعكم تتكلمون ..

- عفريت إنت .. وإنت إيش ح تسوي في أربيل معنا .. خدي ابنك يا زينب ..

وأخذت زينب صدام الذي أخذ يبكي ويرفس بقدميه .. وركب الجميع الميكروباص وانطلقوا ، وأسرة سعد كلها تودعهم بكل حب ، وفاطمة وزينب تبكيان .. إلى أن غابت السيارة عن أعينهم .

في شوارع بغداد ، مضت السيارة تحمل ناجي وفرقته .. إلى مطار أربيل ..

قال سعد :

- أستاذ ناجي .. اسمعوني زين .. أول شي لازم نروح سوق المريدي !!

- سوق إيه يا عم سعد !! وده وقته .. بقولك عاوزين نسافر بسرعة !!

Ahmed Madv

- اسمعوني يا عيوني .. إنتم الآن مصريين .. الوثايق اللي عندكم مصرية .. يشتبهوا بيكوا ، ويعطلوكم بالطريق .. وممكن يعتقلونا كلنا .

- أمال إحنا رايحين سوق المريدي نعمل إيه ؟!

- اطلعلكم بيها وثائق عراقية .. وهوية عراقية وأحوال مدنية .. تمشوا على إنكم عراقيين وين ما تريدون في كل العراق .

- ح نمشي بجوازات مزورة يا أستاذ سعد ؟!

- إيه مزورة ، إنما هادي أضبط من الحكومية .. الحكومة تاخد من عندهم وثائق .. لما يصير عندها ازدحام .. يا أستاذ ناجي بلا فخر عندنا بسوق المريدي مؤسسة تزوير ، تعتبر من أعلى المؤسسات العالمية بالتزوير في العالم .

- بسم الله ما شاء الله .. اطلع على سوق المريدي !!

* * *

وقفت السيارة أمام سوق المريدي ببغداد .. وهي منطقة شعبية يكثر فيها البائعون الجائلون الجالسون على الأرض ببضاعتهم .. كان أحد الرجال بانتظارهم .. أشار له سعد ، وفهم الرجل الإشارة .. نزل سعد وناجي ، ودخلا إلى أحد البيوت بالشارع .

جلسا في الصالون ، وكان هناك عدد من الجالسين ، رجالًا ونساء .. كأنهما في عيادة طبيب .. وامرأة بعباءة سوداء كانت جالسة ، تنظر نحوهما بشك وريبة .. قال ناجي لسعد هامسًا :

- كل دول جايين ياخدوا باسبورات وهويات مزورة !!

قال سعد :

- الدكتور إيشلاجة صاحب ها المكتب عبقري .. يزور شو تريد .. ماجستير .. دكتوراه .. وثيقة طلاق .. وثيقة زواج .. شهادة وفاة .. حجة وصاية .. حجة بيت .. شو بتريد بيسويلك .

Ahmed Madv

قال أحد العاملين بالمكتب لسعد :

- اتفضلوا .. الدكتور إيشلاجة بانتظاركوا .

اندهش ناجي حينما سمع لفظ (الدكتور) ، ودخل مع سعد إلى غرفة الدكتور (إيشلاجة) .. وكانت هناك آية قرآنية معلقة خلف مكتب الدكتور ، الذي يرتدي نظارة سميكة (إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا) .. قال ناجي :

- سلامو عليكم .

- هلا عيني .. جول بابا .

قال سعد :

- يا دكتور نريدك تسويلنا أوراق ووثائق مظبطة ..

- اسمع .. اسمع أستاذ .. أنا الوثيقة اللي أسويها تجدر تدخل بيها الأمم المتحدة .. وثيقتي مضمونة .. ما رجعت لي وثيقة بيها خطأ .

قال ناجي :

- اللهم صلي ع النبي .. الراجل ده جامد قوي .

- وشنو الوثائق اللي تبغوها عيوني ؟

- نريد 9 جوازات G عراقية .. و9 هويات أحوال مدنية ، و9 شهادات جنسية .

- شو وقت .. بتريدوهم ؟

- اليوم .. حالًا .

- معكم الصور !!

أخرج ناجي الصور ، وأعطاها له ، فتأملها بنظرة خبير ، ثم قال :

- إذا أردتوا اليوم اليوم .. كل شي بسعره .

- إحنا عينينا الاتنين .. ح ندفع أخضر .. فلوسناع الترابيزة .

Ahmed Madv

- أنا حبيتك أول ما شفتك .. شو اسم الأستاذ ؟

- .. شوف الاسم اللي يعجبك ، واكتبهولي في الجواز !!

نظر إيشلاجة نحوه متأملًا إياه بإعجاب ، وقال :

- والله لأختارلك اسم تتمسك بيه طول حياتك .. شنو رأيك .. محمد سعيد جاسم!!

- حلو قوي .. مقبول منك .

- وباقي الشباب عليا أنا .. يا رائد .. خد هادول وسويلنا جوازات جي ، وأحوال مدنية وهويات موظفين .. وين تود يتوظفوا أستاذ جاسم !!

- آه .. وظفهم زي ما تحب !

- يعني تشكيلة يا رائد .. وزع لي إيّاهم على الوزارات .. واحد بالصناعة ، وواحد زراعة ، واحد صحة ، وواحد تجارة .. وواحد بالنفط .

فقال ناجي ضاحكًا :

- لأ .. والنبي خليلي أنا النفط دي في الباسبور بتاعي !!

- لا .. أنا كنت ح اخليك بالخارجية .

- لا كفاية خارجية .. طول عمري بالخارجية .. أنا باحب النفط .

* * *

أمام سوق المريدي ، كانت السيارة بالخارج .. وبها كاميليا ونضال والشباب .. وقد نزلوا ووقفوا بجوار السيارة .. قالت كاميليا :

- هما بيعملوا إيه ده كله ؟! اتأخروا قوي يا شيخ حسن !!

- الغايب حجته معاه .. دلوقتي ييجوا !!

قال عبد الجليل :

- بس إيه الحكمة يا هيما إنهم يعملولنا باسبورات عراقي .. أنا راجل مصـري وابن بلد وجدع قوي .. ولا مؤاخذة بأة مصر أم الدنيا !

Ahmed Madv

- إنت مش سامع عمك سعد بيقول إيه يا عوبد .. المصريين هنا وجودهم بأة بيعمل مشاكل .. الراجل عاوز يعدينا بسرعة .

- طيب ما يعمل لي باسبور ليبي .. أهو ينفع لو لطَّشت معانا .

* * *

تم كل شيء بسرعة ، وبدقة متناهية .. واستلم ناجي الباسبورات المزورة وأخذ يتأملها بإعجاب .. ثم قدم لإيشلاجة الدولارات ، فأخذها ونظر في واحدة منها ، وتحسسها بأصبعه ؛ ليتأكد من أنها ليست مزورة .. فقال ناجي :

- لا .. ما تراجعش ورايا يا دكتور .. أنا جايبهم من البنك عدل !!

- ما تضمن كتير للبنوك .. حتى البنوك بيها فلوس مزورة !!

- لا .. ما توقعش قلبي .. أنا فلوسي كلها من البنوك !

- أنا كنت باشتغل زمان بالعملات .. إنما .. ما صارت تجيب همها .. صرنا نخسر .. خلينانا في المستندات ..

- تزوير الفلوس بأة بيخسر .. إزاي يا إيشلاجة ؟!

- والله كنت عايش ملك زماني .. ها الميت دولار كُنا نبيعها بعشرة .. إنما أولاد الحرام دخلوا فيها .. كُنا ننافس الدولة .. الدولة عندها مطبعة نقود تطبع المصاري ، وأنا عندي ورشة صغيرة .. كُنا نحنا نكسب والدولة تخسر .. ليش .. لأن الدولة كانت بأول سنة تشغل عشرة أفراد بالمطبعة.. تاني سنة تشغل مية .. بيصيروا ألف .. كل دول عاوزين مرتبات .. إنما أنا ما كان عندي إلا اتنين .. واحد يرسم وواحد يلون .. وأنا أحط الرتوش النهائية .. عشان هيك صار الورق ينزلونه غالي والأحبار غالية .. لما صارت الورقة أم عشرة دولار تكلفني تسعة دولار .. طيب وليش أتعب حالي !

- صحيح بلاها الشغلانة .. عشان كده بأة اشتغلت في المستندات !!

Ahmed Mady

- تعرف مرة جاني وزير بالحكومة .. عنده تلاتة وتسعين سنة عملت له شهادة ميلاد جديدة ، وهوية جديدة .. صار عمره ٥٤ سنة .. جددوله بالوزارة !

- الحمد لله إنك مش شغال في مصر .. كان زمانك بأيت مليونير !

أخذ ناجي يتأمله بإعجاب ، وهو يضع الرتوش الأخيرة على الأوراق ، وينفخ في الحبر ليجف نهائيًا .. ثم قال :

- بقولك إيه يا دكتور .. أنا ليّا عندك طلب .. أنا كنت عاوز قسيمة جواز.

- غالي والطلب رخيص .

وأخرج قسيمة زواج وختم الحكومة ، وسأله :

- اسم المحروسة .. الزوجة ؟

- كاميليا حسين أبو المكارم صبحي ..

- والزوج ؟

- أنا ..

- محمد سعيد جاسم .

- لا .. ناجي .. ناجي عطا الله .

ابتسم إيشلاجة ، ثم نظر إلى مساعده ، وقال :

- سويلنا قسيمة جواز بها الاسمين .

وعاد إيشلاجة يسأل ناجي :

- بتحب من إمتى اتجوزتوا .. يعني تاريخ الزواج ؟

- من 15 يوم .

وأشار إيشلاجة لمساعده بتنفيذ المطلوب ..

وعاد الولد بالقسيمة وأعطاها لناجي .. الذي أمسك بها سعيدًا ، وتأملها وأعطاه الدولارات ..

Ahmed Mady

- إحنا بالخدمة .. بتريد نسويلك شهادة دكتوراه .. ماجستير .. من أي بلد بالعالم .. موجود عندي بس ما عليه طلب .. نص الوزراء .. زباين عندي .. والله أعملك دكتوراه .. فوق البيعة ما باخد منك فلوس .. دكتوراه يا ولد للأستاذ ناجي عطا الله ..

- استنى بس يا دكتور .. دكتوراه .. دكتوراه في إيه بالظبط ؟!

- زي ما بتريد .. طب ، صيدلة ، هندسة ، بيولوجي !!

- أنا عاوز دكتوراه في الفيمتوثانية .

- ما مرت علينا جَبْل الحين ..

- خلاص أعمللي دكتوراه في الجراحة .. أهي تنفع برضه !

- الدكتوراه من أدنبره يا ولد باسم ناجي عطاالله ..

وأتى العامل بالشهادة ، وقدمها لناجي .. قال سعد :

- ياللا بينا يا دكتور ناجي .. بقالنا أكتر من ساعة هون !!

* * *

وركب ناجي السيارة .. مع الفرقة وكاميليا .. وقد حملوا باسبورات تحمل أسماء أخرى .. ووظائف أخرى .. ما أقوى الدولارات في هذا الزمان .. إنها تستطيع أن تغير البشـر .. في الطريق إلى أربيل ، كان ناجي يوزع الباسبورات على الجميع .. فنظر نحو إبراهيم ، وقال :

- عبد الكريم عبود .. أمسك يا عبد الكريم .. أنا عاوز كل واحد فيكوا ينسى اسمه ، ويحفظ الاسم الجديد لغاية ما نوصل أربيل .. تهامي بأة حيدر أحمد خالد .. وحسام .. صبري عبد المنعم الدمامي .. والشيخ حسن .. علي عبد المحسن حامد .. وعبد الجليل بأة زاير حذافة جوري .. واضح !!

كانت السيارة في طريقها إلى أربيل .. وبدت ملامح منطقة شمال العراق ؛ حيث يعيش الأكراد إلى أن وجدوا أمامهم نقطة تفتيش كردية ..

Ahmed Madv

سأل ناجي أسعد قائلًا :

- .. وإيه حكاية الأكراد دول يا سعد ؟!

قال سعد :

- أكراد العراق يا ناجي بك .. هم جزء من الشعب الكردي اللي بيستوطن الحدود الحالية للعراق .. ويتوزع بقية الأكراد بين سوريا وتركيا وإيران ، والأكراد كيف ما وصفهم أحد المؤرخين القدامى .. «المحاربون الأشداء ساكنو المناطق الجبلية» .. وتسود بين الأكراد 18 لهجة كردية مختلفة ، وأشهر رموزهم أبو مسلم الخراساني ، قائد الدولة العباسية الشهير ، والقائد صلاح الدين الأيوبي .. وابن تيمية الفقيه المعروف .. وكردستان العراق ، بيعيش فيها أربعة ملايين كردي أو أكثر ، وهي عبارة عن جبال وهضاب ، ومجموعات بشرية عايش فيها نظام قبلي صارم ، بتنتشر فيه مفاهيم الإباء والشجاعة والفروسية . ويعتمد اقتصاد الأكراد على الرعي والزراعة .. ولكنهم لا يثقون بالآخرين كثيرًا .. وهناك مقولة شهيرة لزعيمهم ، مصطفى بارازاني ، تقول إنه ليس للأكراد أصدقاء حقيقيون .. ودلوقت إحنا داخلين على أربيل بشمال العراق .. الأراضي هادي كلها أراضي كردستان .. بعد أربعين كيلو من أربيل .

قال ناجي :

- محدش يتكلم خالص ولا يفتح بُقه .. إحنا داخلين على نقطة كردية !

فقال سعد :

- لا تخافوا .. صديقي سردار الكردي اللي حكيتلك عنه ينتظرنا هون بالسيارة .. عطوني الهويات يا شباب .

وقفت السيارة أمام نقطة التفتيش الكردية ، ووقف الجنود الأكراد بملابسهم المميزة ، ثم ظهر شابٌّ كرديٌّ مرحبًا بهم ، ويقول بلهجته الكردية المميزة :

- أهلًا كاكا سعد .. أهلًا وسهلًا .. أعطيني هوياتهم !!

Ahmed Madv

أعطاه سعد الباسبورات ، فأعطاها سردار بدوره للظابط .. قال الظابط :

- محمد سعيد جاسم .

أجاب ناجي :

- أهلًا وسهلًا .

كان الظابط الكردي ينظر لهم واحدًا واحدًا من المجموعة ، ويعيد هويته ، بعد أن يتأمل صورته .. إلى أن قال الظابط :

- زاير حذافة جوري .

ولم يرد عبد الجليل .. فلم يتذكر أن هذا هو اسمه الجديد .. وأخذ الظابط يكرر النداء :

- زاير حذافة جوري .. وينه هادا كاكا زاير ؟!

غمز سعد لعبد الجليل ، وعبد الجليل لا يفهم :

- زاير !!

قال عبد الجليل :

- زاير مين يا عم سعد ؟!

فوكزه ناجي في ذراعه ، وقال :

- إنت يا حيوان .. إنت يا طور !!

- أنا زاير .. زاير إيه يا باشا ؟!

قال سعد مبررًا للظابط :

- هادا شوية أذنه .. أطرش !

وقال سردار للظابط :

- كاكا .. أطرش .. أذنه باظت من الانفجارات اللي ببغداد .

Ahmed Madv

فأعطاهم الظابط الهويات ، وصعدوا إلى السيارة .. فقال سردار :

- ياللا ورايا بالسيارة .

تنهد ناجي قائلًا :

- اركبوا .. الله يخرب بيوتكم ح تفضحونا !!

وخرجوا من نقطة التفتيش وسيارة سردار تتقدمهم في سيارة أخرى .. حيث يركب معه سعد .. ولافتة كبيرة في بداية الطريق مكتوب عليها (أربيل .. باللغة الإنجليزية واللغة الكردية) .. فسأل عبد الجليل :

- هوه إحنا طلعنا م العراق كده يا باشا ؟!

- لا يا عبد الجليل .. إحنا لسه في العراق .

- أمال لا مؤاخذة الجماعة هنا بيتكلموا لغة غريبة قوي .. كاكا .. كاكا !!

- دي اللغة الكردية يا عبد الجليل .. اللغة اللي بيتكلم بيها الأكراد .

قال تهامي :

- مين الأكراد دول يا باشا ؟!

- يا توتو هي قصة أبو زيد !! .. ما عمك سعد كان بيقول مين همّا دلوقت !!

* * *

في مقهى على الجبل ، في أربيل ، جلست المجموعة ، حيث كانت الأغاني الكردية تنبعث من الراديو .. والعمال الأكراد بالمقهى يرتدون الملابس الكردية .. قال سعد :

- الأكراد دول قسمين .. الكردي السوراني ودول ع الحدود مع إيران .. وها الجزء اللي بيسيطر عليه جلال طالباني ، والكردي البهدناني ع الحدود التركية .. وده اللي بيسيطر عليه مسعود البارازاني !!

Ahmed Madv

قالت كاميليا :

- الأكراد ليهم حلم قومي .. إنهم يـؤسسوا كردستان الكبرى اللي تضم أكراد سوريا والعراق وإيران وتركيا ...

وأتى سردار بصينية عليها أكواب من اللبن ، وقال :

- ماستاو .. كاكا سعد .. ماستاو عشان ضيوف ..

قال سعد موضحًا لناجي :

- الماستاو ده يا ناجي بك لبن أربيل .. أجمل وأطيب لبن بالعالم كله ..

- باين عليهم ناس طيبين قوي .

- أطيب ناس .. وكُرما ويرحبون بالضيف .. يشيلونه فوق راسهم .. هما بس راسهم ناشفة شوية .. إذا قالوا لأ .. هي لأ .. عندنا مثل عراقي يقول إذا كان شخص عنيد .. مثل الكردي .. نا .. نا .. نا بالكردي يعني لأ !!

- زي الصعايدة عندنا يعني .. أمال إيه حكاية كاكا .. كاكا .. أنا طول ما أنا ماشي عمال أسمع كاكا !

- كاكا يعني .. صديق .. نوع من الاحترام .. إذا بتكلم حدًا بتحترمه .

- ده كان بيقول لعبد الجليل كاكا .. وده مش منظر كاكا خالص .

وشرب تهامي كوب اللبن عن آخره بتلذذ شديد ، وقال :

- الله .. ده حلو قوي .. أحلى لبن شربته في حياتي كلها .

قال إبراهيم :

- بس بيجوَّع يا باشا .. مفيش حاجة ناكلها هنا ؟!

- هون عندهم كباب .. أشهى كباب بالعراق .. هوه كباب أربيل .. ما تشربوا اللبن .. أوصيلك على كباب .. تعالى ابني أبو الشوي .

Ahmed Madv

وأشار للعامل الكردي ، فأتى مسرعًا ، وقبل أن ينطق سعد بكلمة ، رآه سردار الذي انفعل للغاية وصرخ في سعد :

- روح بابا .. روح كاكا .. كاك سعد إنتو شنو جاي يهيني .. إنتو ضيوف عندي كاكا .. إني مسوي جوم كاكا كله يروح البيت .

قال ناجي مستفسرًا :

- هوه بيقول إيه أنا مش فاهم .. هوه زعلان من حاجة !!

قال سعد مخاطبًا سردار :

- الجماعة وراهم سفر ، وما نريدهم يتأخرون يا سردار !!

قال سردار :

- بالحرام .. بالطلاق ما يصير .. إني يزعل كاكا !

- صلي ع النبي يا سردار .. إنت قلت له إيه بس يا سعد .. ده إيه الليلة اللي مش فايتة دي !!

وصرخ فيهم سردار :

- ياللا جومو .. جوموا !!

فقال ناجي لسعد :

- هو بيصرخ ليه ؟!

- أصله عازمنا عنده في البيت .

- عزومة إيه المنيلة دي .. ح يدور الضرب فينا عشان يعزمنا .

- كاكا سردار ضربت بدماغه .. قال ناكل .. ناكل .. ياللا يا شباب .

- يا ساتر يارب .. إنتوا بتوع جلال طالباني عليكم تحكمات !!

قال سردار ، في ضيق ، وقد زاد انفعاله :

- لا بابا .

Ahmed Madv

فقاطعه سعد هامسًا لناجي :

- إنت بأربيل .. خللي بالك دول جماعة مسعود البارازاني .. أصل هنا دول ما ويا ها دول .. وها دول ما ويا ها دول .. لأن ها دول يختلفون عن ها دول .. وها دول ما يحبون رجال دول .

- بس .. بس ما تكملش .. ما هما الشوية دول اللي ماشين بيهم طول الرحلة .. أنا قلت طالباني .. أنا بقول بارازاني .. أنا بحب البارازاني !

قال سردار في سعادة :

- يا هلا ..كاكا .. يا هلا كاكا .. ياللا جوموا .

* * *

وقفت سيارة ستوري أمام بيت سعد ، ونزل منها ستوري وطلع إلى البيت .. بينما كان صدام والأولاد يلعبون أمام البيت .. فأخذ ستوري يداعب صدام قبل دخوله .. وأعطاه قطعة حلوى .. وقبله .. ثم طرق باب سعد .

فتح كمال الباب ، ليجد ستوري أمامه ، فقال :

- ستوري .. أهلًا وسهلًا .

- بدي الأستاذ ناجي عطا الله .. بأريد اتكلم معاه في شغلة .

- الأستاذ ناجي .. ما هو هون ..

- وين راح ؟! ووين سعد ؟!

- ما باعرف .. وسعد كمان راح .. وما قال رايح فين ؟!

قال ستوري صارخا :

- يعني الأستاذ ناجي واللي معه غادروا البيت نهائيًّا .. كيف ؟!

- ما بنعرف يا ستوري .. هوه حر !

تمالك ستوري نفسه واستدرك قائلًا :

- أنا .. كان بدي .. بس .. أودعه قبل ما يرحل .

Ahmed Madv

واستدار ستوري ومضى في غل .. وأغلق كمال الباب وراءه .. وأمام الباب .. وقبل أن يركب سيارته .. نظر إلى صدام الطفل وناداه ، ثم سأله :

- وين راح عمك سعد وعمك ناجي عطا الله والشباب تَبعهُ ؟

- لا .. ما أقدر أقولك يا عمو .. بابا قال لي ما تخبر حدًا !

- لكن أنا مش حدًا يا صدام .. أنا عمو ستوري .. وأنا إذا قلت لي ح أعطيك حلوى تانية .. معي بالسيارة .

- طيب ح أقولك .. إنما لا تخبر حدًا ! فين الحلوى !!

وأخرج ستوري الحلوى من جيبه ، وأعطاها له ، وقال :

- هادي الحلوى إلك كلها .

- بأقولك بأذنك ..

وهمس صدام في أذنه :

- أربيل ؟!

* * *

في مزرعة سردار بقرية شقلاوة .. يبدو بيت سردار المكون من طابقين متسعًا من بعيد .. بناء حجري وباب خشب كبير .. كان بعض الفلاحين ، بجوار البيت، يرتدون ملابس كردية حينما نزل ناجي وفرقته من الباص .. ورحب الفلاحون بهم ، حينما رأوهم مع سردار ، وهتف بهم :

- جيب الضحية .. كاكا .

وجرى الفلاحون ابتهاجًا بمقدم سردار وضيوفه ، ثم ذبحوا الخروف أمام البيت عند دخولهم .. وقال سعد :

- ماكو داعي كاكا سردار لكل هادا !

- إنت نسيبي .

Ahmed Madv

قال ناجي :

- إنتوا نسايب يا سعد ؟

- سردار هو زوج بت عمي .. لـمّـا خطبها ما وافقوا عليه ، وأنا دجّيت رجل إلا خليته يتزوجها .. سردار كان طالبًا بالكلية ببغداد ويا أخويا .

- سردار خريج جامعة .. واخد شهادة من إيشلاجة ، ولا شهادة حقيقي !!

- حقيقي ولا تجيب ذكر مريدي هون .. راح تفضحنا !

ودخلوا إلى بيت سردار .. بيت كردي أصيل ، في بدايته ممر صغير على اليمين وغرفة استقبال الضيوف .. وعلى اليسار صالون البيت .. حيث دخلت نضال وكاميليا لتنضم لحريم البيت .. بينما دخل الرجال يمينًا .. أخذ ناجي يتأمل المكان .. المقاعد عصرية والتحف معظمها عبارة عن حيوانات محنطة .. طائر القبج الكردي .. ونسر .. ورأس ثعلب .. وعلى الجدار جلد ثعلب .. ومر إخوة سردار ، وهم شباب في نحو الثامنة عشرة والرابعة عشرة .. بصوانٍ بها عصير برتقال مُعد بشكل خاص .. ثم فردوا المشمع على الأرض ، وبدأت أطباق الطعام في الدخول ، وجلسوا جميعًا على الأرض ..

قال سردار :

- اتفضلوا .

قال ناجي :

- طيب والستات اللي معانا مش ح ياكلوا !

- بعدين كاكا بعدين .. ياكلوا رجال أول وبعدين حُرمة !!

- يا كاكا سردار ما يصحش .. هوه إنت إيه سي السيد الكردي .. ده إنتوا عندكوا وزيرة كردية في الحكومة .

Ahmed Madv

قال سعد :

- كله ياكل جوه .. ما تقلق يا أستاذ ناجي !

وانهال الجميع على الطعام بشهية شديدة واستمتاع .

* * *

قبل أن يصل ناجي وفرقته إلى أربيل ، كان الخبر قد وصل إلى مكتب مناحم .. قال شاؤول :

- وإيه المشكلة .. عملاؤنا في كل مداخل ومخارج العراق !!

- معقولة يكونوا ناويين يطلعوا من مطار أربيل !!

- لا يمكن يا سيد مناحم .. مفيش طيران مباشر من أربيل للقاهرة .

- أمال رايحين أربيل بالفلوس دي كلها يعملوا إيه ؟! رايحين عند مين ؟

ثم ضغط مناحم على زر بجانبه ، وقال :

- سمعت الكلام اللي بنقوله أنا وشاؤول يا حاييم !!

فأتى صوت حاييم ، وهو يقول :

- سمعته يا مستر مناحم .. وعميلنا في أربيل سمعه هوه كمان .. وبدأ يتصرف فعلًا .

* * *

أمام مزرعة سردار كانت سيارة نصف نقل ، دوبل كابينة ، تمضي ببطء ، وبها اثنان في المقدمة يتلصصان وينظران نحو المزرعة .. فنظر أحد الفلاحين التابعين لسردار نحوهما متشككًا .. ثم ركض إلى البيت .

أثناء تناولهم الطعام .. كان سردار يلقي نكتة باللغة الكردية ، وسعد ينفجر في الضحك .. ولم يفهم أحد كلمة مما قاله سردار ..

Ahmed Madv

ودخل الفلاح الذي شاهد السيارة المارة بجوار المزرعة ، وهمس في أذن سردار بالكردية ، فتغير وجهه ، وقال :

- بعدين كاكا .. بعدين أقفوا يم الباب .

فسأله سعد :

- الجماعة .. مرة تانية !!

أومأ سردار برأسه بلا اكتراث .. فقال ناجي :

- جماعة إيه يا سعد .. هو سردار وشه اتغير كده ليه ؟!

- بعدين أقولك أستاذ ناجي ..

أمام مزرعة سردار ، مرت سيارة أخرى ، وظهر منها وجه لرجل كردي يحمل رشاشًا ، كان يعده للإطلاق ..

في بيت سردار ، كانت أطباق الفاكهة على المنضدة .. وأكواب الشاي على الصواني والقهوة .. فقال ناجي :

- ارحمنا بأة يا سردار .. بطنناح تفرقع !

- بابا .. كُل كاكا .. الإنسان يموت من الجوع .. ما يموت من الأكل .

ودخل الرجل الواقف عند الباب مرة ثانية .. وهمس في أذن سردار ، فتغير وجهه تمامًا ، وخرج معه .. فقال ناجي في قلق :

- فيه إيه يا سعد ؟!

- إنت تعرف إن المنطقة عشائرية .. وسردار عنده خلاف ويا أقاربه على المزارع .. احتمال إكو شيء .

- حتى هنا فيه تار .. دول صعايدة صعايدة !

Ahmed Madv

وجرى الشاب الذي كان يقدم الشاي ، وأمسك برشاش .. فأمسك به سردار بعنف.. فقال الشاب بالكردية :

- لا يصح ما يفعلونه هذا ، ونحن لدينا ضيوف .

فأمر سردار الشاب ، بغلظة أن يتوقف .. وتقدم منهما سعد ، محاولا تهدئة الموقف ، وقام ناجي مفاجَئًا ، هو والمجموعة ، وقال :

- فيه إيه يا سعد قلقتنا .. هوه فيه حاجة برة .. فيه مشكلة ؟!

- الجماعة اللي عندهم مشكلة على الأرض مع سردار محاصرين البيت .. لا حدًا يطلع ولا حدًا يدخل !!

- محاصرين البيت !! يعني إيه ؟! والطيارة يا سعد .. إحنا مش ورانا طيارة !!

أمام بيت سردار ، كان أعداء سردار ، واقفين بأسلحتهم ، أمام البوابة ، وسردار وسعد وناجي يتقدمون نحوهم بكل شجاعة .. فقال ناجي :

- سلامو عليكم .

ردت المجموعة بعنف :

- وعليكم السلام .

قال سردار بالكردية :

- ما تفعلونه عيب .. تحضرون مجموعة مسلحة لاقتحام بيتي أمام ضيوفي .

- هؤلاء مجموعتك جايبهم لنا لكي يهاجمونا .. ونحن علمنا بذلك .

- أنا لا أحتاج إلى مجموعة .. رجالي يكفونني .. هؤلاء ضيوف الأستاذ سعد .. نسيبى !

- هذه ليست أشكال ضيوف !

- احترم نفسك ، وإنت بتتكلم عنهم .

نظر ناجي نحوهم ، دون أن يفهم كلمة ، وقال :

- صلواع النبي يا جماعة .. دي مصارين البطن بتتخانق .. ده إنتوا أهل !

Ahmed Mady

قال الرجل :

- من أين أنتم ؟!

فقال سعد لناجي موضحًا له حديث الرجل :

- بيقولك أنتم من وين ؟!

- من مصر .. وجايين ضيوف عندكم .. ده استقبال تستقبلونا بيه برضه .. ما تـَرجم يا سعد .

كان سعد يترجم ما يقوله ناجي باللهجة العراقية ، ويترجم لناجي ما يقوله سردار باللهجة الكردية .. فصارت المناقشة خليطًا بين لهجات مختلفة ، وأخيرًا شعر الرجال بالذنب بعد هذا العتاب .. وقال ناجي :

- وهي مصر وكردستان إيه ؟ ما واحد .. ما تـَرجم يا عم سعد !

أمسك ناجي بيد سردار ، وبيد الرجل ، وقال :

- ده إنتوا واحد .. أرض واحدة وشعب واحد ولغة واحدة .. اللي بتعملوه ده عيب .. عيب بأة يا سردار .. دول في بيتك !

وبدا أن الصلح بينهم صار وشيكًا .. فأخذوا يقبلون بعضهم بعضًا .. واتجهوا نحو البيت جميعًا .. وقال سردار :

- فارمو كاكا فارمو .. (اتفضلوا) ..

وأطلقوا أعيرة نارية ابتهاجًا بالصلح .. فانبطح الجميع أرضًا .. وصرخ ناجي ، وهويسأل سعد :

- هما بيضربوا نار ليه يا سعد ؟ مش اتصالحوا !!

قال سعد :

- مبسوطين !!

* * *

Ahmed Madv

أمام المقهى ، الذي كان ناجي وفرقته قد جلسوا فيه .. نزل رجل أمريكي الملامح .. من سيارته أمام المقهى ، ودخل مسرعًا كأنه يبحث عن شيء .. كان الوقت متأخرًا جدًّا .. ولا يوجد زبائن .. جلس الأمريكي وطلب فنجانًا من القهوة .. ثم سأل عن ناجي عطا الله ، وعن الذين كانوا معه ، وحين علم أنهم ذهبوا إلى بيت السردار ، ترك فنجان القهوة ، وانطلق خارجًا بأقصى سرعة ..

* * *

في صالة السفر ، بمطار أربيل ، كان ناجي وفرقته يضعون الشنط على السير ، ويختمون الجوازات للمرور .. ونرى سردار وأعوانه والعشائر .. يبكون لفراق ناجي ومجموعته ، كأنهم رفاق العمر .. ويشيرون لهم بحب دافق .. ما أطيب هؤلاء الأكراد .. قال ناجي لسعد :

- إنت ما فهمتنيش كده يا سعد .. إنت مش قايل لي ح نطلع من هنا على طول على مصر .. إحنا إيه اللي يودينا إستنبول ؟!

- ما كو (مفيش) رحلة اليوم لمصر مباشرة .. تشانج أوفر .. بتوصلوا إستنبول بعد ساعة ، بس تباتوا ، والصبح تكونوا بمصر إن شاء الله .

- وح نقضيها فين الليلة دي ؟!

- ابن عم سردار راح ينتظركم بالمطار .. وياخدكم على أوتيل مَرْمَرة ، وهو اللي يوصلكم للمطار بالصبح .. ما تشيل هم هو يتكفل بيكم !

كان سردار يوصي أحد جنود المطار على ناجي والمجموعة ، قائلا :

- كاكا ناجي ومجموعته .. أريدك توصلهم لباب طيارة .. يعني يجعدع الكرسي ياللا يتركه .. فاهم !!

أومأ الجندي برأسه موافقًا .

* * *

Ahmed Madv

كانت سيارة الرجل الأمريكي واقفة أمام بيت سردار .. والرجل الأمريكي يحاول بكل طريقة أن يعرف من الواقف عند البوابة شيئًا بلا جدوى ، إلى أن أشار له الرجل أنهم ذهبوا إلى المطار .. فأخذ الرجل الأمريكي سيارته ، وانطلق بأقصى سرعة نحو المطار ، محاولا اللحاق بهم .

في صالة السفر بمطار أربيل .. نظرت كاميليا نحو لوحة مواعيد الطائرات المسافرة ، فلم تجد طائرة مسافرة إلى القاهرة ، فقالت لناجي ثائرة :

- إحنا رايحين فين ؟!

- إستنبول إن شاء الله .

- إستنبول .. وإيه اللي يودينا إستنبول ؟!

- مفيش مصر دايركت .. ح نطلع إستنبول ونعمل تشانج .. فيها إيه ؟!

- اسمع يا ناجي .. أنا مش فاهمة حاجة .. إحنا متمرمطين من بلد لبلد ، ورايحين من هنا لهنا ليه ؟ إنت هربان من حاجة يا ناجي .. قوللي الحقيقة !!

- يعني ح اكون هربان من إيه بس يا كاميليا .. أنا شايف الجو هنا ملبش ، قلت أهو نطلع على إستنبول ، ومن هناك على مصـر .. حصل إيه يعني ؟! في الطيارة .. ح أقولك على كل حاجة .. ياللا بأة !!

ثم نظر للشباب ، وقال :

- إنتوا واقفين تعملوا إيه ؟ مش طلعتوا الشنط على السير .. ما تطلعوا ع الطيارة .. بالجوازات العراقي اللي معاكم !

ونظر ناجي لسعد .. ثم عانقه بحرارة ، وقال :

- ح توحشني يا سعد !

- أنت أكتر يا ناجي بيك !

- لازم تجيلي مصر إنت وأسرتك .

Ahmed Madv

- إن شاء الله يا أستاذ ناجي .

- ناجي إيه بأة ؟ أنا اسمي محمد سعيد جاسم .

- جيتها مصري .. وخرجت منها عراقي .. شوف كيف إحنا إخوة !

- البركة في الدكتور إيشلاجة .. والنبي تسلم لي عليه !! وقوله يجهز لي باسبور إنجليزي .. جايز أحتاجه ولا حاجة .. سلام .

وضحك سعد ضحكة طويلة .. ومر ناجي من الجوازات ، وهو يلوح بيديه لسعد الذي دمعت عيناه .. وهو يشير له بحب شديد ..

في الطائرة المتجهة إلى إستنبول ، كان ناجي يربط الحزام .. وبجواره كاميليا تبدو في شدة الضيق ، وناجي يبتسم في سعادة قائلا :

- ما تفردي وشك يا كيمو !! إحنا رايحين إستنبول .. هوه فيه أجمل من إستنبول !

- ناجي .. أرجوك فهمني .. فيه إيه ؟!

- والنعمة الشريفة بحبك يا شيخة !!

- ما تغيرش الموضوع يا ناجي .. إنت مين ؟ .. ومين الولاد اللي جارِرْهم وراك ، وبينفذوا أوامرك .. إنتوا عصابة وإنت زعيمها ولا إيه ؟!

- تصدقي جرحتيني بالكلمة دي ؟! أنا محبش الست اللي تناكف في جوزها عمّال على بطّال .. ده اللي أخرني في الجواز لحد دلوقت !

- جوزها .. إنت بتتكلم عن مين ؟! بلاش استعباط !!

- بلاش استعباط إنتي .. أنا جوزك شرعًا .. بتعرفي تِقْري .. اتفضلي .

وأعطاها قسيمة الزواج فنظرت فيها مندهشة ، وقالت :

- إيه ده ؟!

- عرفتي بأة .. لولاش إحنا في الطيارة ، كنت قلت لك تعالي أدعكيلي رجلي بشوية مية وملح .. اطلع يا أسطى !!

Ahmed Madv

وضع ناجي يده على كتفها بكل ثقة ، وهي في قمة الدهشة ، ولم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام .. وهمس إبراهيم لعبد الجليل :

- كان نفسي دايمًا أروح تركيا .. بيقولوا حريمهم حلوين قوي !!

- إنت ح تقول لي .. حريم كده ؟ إلا التراكوة .. زبدة يا بني !!

- وإنت تعرف منين ياله .. إنت ح تصيع !!

- مفيش فيلم تركي ما شُفْتوش .. عندي وصلة ، وشغال ليل نهارع التركي !

- يخرب بيتك .. وأمك قاعدة تتفرج معاك !!

- أمي بتنام على نفسها وهي قاعدة .. بأبقى عينيع الفيلم وعيني على أمي .. فتحت عينيها أغير القناة .. راحت في أبو النوم ، أنا مع نفسي ..

- بس يا خسارة .. هي ليلة واحدة اللي ح نقضيها في إستنبول .. أخ لو كُنا قاعدين فيها كام يوم .. عليّا النعمة كنت دلعتك يا عوبد !

كان الشيخ حسن وتهامي جالسين في مقعدين متجاورين .. كان الشيخ حسن يقرأ القرآن ، ثم ختم الآية ، وقام وخبط إبراهيم على ظهره ، وقال :

- احترم نفسك بأة .. ده إحنا بين إيدين الله سبحانه وتعالى .. ده بدال ما تقرالك حديث ولا آية ، تحفظك وتوصلك بالسلامة !!

- وإنت ضارب ودن معانا ليه يا شيخ حسن ؟!

نظر تهامي نحو زاهر ، الذي كان نائمًا على الكرسي ، وقال :

- زاهر ضرب المنوم وأداها .

- أحسن بدل ما ياخد ذنوب زي اللي قاعدين قدامنا دول ؟!

أما حسام ونضال ، فقد تلاقت أيديهما في حالة من الهيام .. قال حسام :

- مش ح أقدر أستنى لما نرجع مصر .. ح أتجوزك أول ما ننزل إستنبول !!

- ما فرقِتْش يوم يا حسام ؟!

Ahmed Madv

- لأ .. فرقت .. أول ما نوصل إن شاء الله ح نستأذن ناجي بيه .. نص ساعة .. نروح ع السفارة ونتجوز .. أنا مش ح أرجع مصر إلا وإنتي مراتي .

أمسكت كاميليا بقسيمة الزواج ، وقالت :

- القسيمة دي مزورة .

- إمضتك دي ولا مش إمضتك !!

- إمضتي .. بس برضه مزورة .

- يعني إنتي رافضة تتجوزيني !

- شوف يا ناجي .. ما أقدرش أخد قرار زي ده بالسرعة دي ؟!

- سرعة إيه ؟ ده إحنا ليل نهار في وش بعض .. وعمومًا إحنا نجيبها من ورا لقدام .. نتجوز .. وبعدين نعمل خطوبة ، ونحب بعض ، ونتعرف على بعض، ويروح كل واحد لحاله .. ولو القسيمة دي مش عاجباكي ، نستعوض ربنا في اللي أخده إيشلاجة ونكتب ورقة جديدة .

- عُرفي ؟!

- هوه إنتي لا عاجبك رسمي ولا عاجبك عُرفي .. إيه الولية دي ؟!

* * *

في أحد المكاتب الأمنية بمطار أربيل ، كان الظابط الأمريكي جالسًا ، وهم يعرضون عليه صور المسافرين على بروجيكتور بالتتابع .. حتى ظهر وجه ناجي عطا الله .. فقال الظابط الأمريكى :

- One Seconed Please .. ما اسم هذا الرجل ؟!

قال المسئول العراقي :

- محمد سعيد جاسم .. عراقي .

Ahmed Madv

- لأ .. هذا ليس اسمه .. وهذه ليست جنسيته .. هذا الرجل مصري .. واسمه ناجي عطا الله ، ويعتبر من أهم رجال تنظيم القاعدة .

- لقد ذهب إلى إستنبول هو ومجموعته !!

* * *

في صالة الوصول بمطار إستنبول ، كانت المجموعة في انتظار الحقائب ، التي بدأت في الظهور .. ثم تحركوا نحو الجوازات ، وأخذوا الأختام على وثائق السفر المزورة ، وخرجوا من المطار ، وهم ينظرون بحثًا عن قريب سردار الذي سيأخذهم إلى الأوتيل .. كان بين الواقفين شخص قصير (كرار) يحمل لافتة مكتوبًا عليها ناجي عطا الله .. قال له ناجي :

- كرار !!

قال كرار سعيدًا :

- كاكا ناجي .. كاكا ناجي .. أهلًا مرحبًا كاكا .

- ما دام قال كاكا ، يبأة هوه الراجل اللي مستنينا !!

ووضعوا الحقائب في الميكروباص ، الذي مضى بهم خارجًا من المطار .

هذه هي إستنبول .. أكثر مدن العالم سحرًا .. وعلى مياه البسفور المزدحمة بالحياة .. المتلألئة الأضواء البراقة ، تنعكس ظلال المنائر الشاهقة والمآذن البديعة للمساجد ، التي تفوق روعتها الخيال .. تجاورها في وئام ومحبة قباب الكنائس القديمة .. إن تركيا - بمصادفة جغرافية محضة - الجسر الذي يصل بين الشرق والغرب ؛ ولذا فهي دائمًا وأبدًا تتنازعها فكرتان .. أن تلتحم بأوربا .. الحديثة .. الغنية المتطورة ، وأن تنشغل بهموم الشرق والعرب بإحساس غامض بالمسئولية ، أو بالتعاطف مع قضايا تلك الأمم المقهورة ..

Ahmed Madv

شيء ما لا نستطيع أن نحدده .. يربطنا بإستنبول .. هل هو التاريخ .. أم تلك المساجد الفاخرة الرائعة والمآذن العثمانية البديعة .. أم نهر البسفور والميادين الشهيرة .. أم الموسيقى التركية التي بنينا عليها تراثنا الموسيقي كله .. كانت كل هذه الأفكار تدور في رأس ناجي عطا الله .. والسيارة تنطلق بهم في شوارع إستنبول ، والشباب ينظرون بانبهار ولهفة من نوافذ السيارة .. حينما مرت بجوار جامع السلطان أحمد .. فهتف الشيخ حسن قائلا :

- إيه الروعة دي .. اللهم اجعل مساجد المسلمين عامرة في كل مكان.. يا ناجي بيه .. ممكن ننزل نصلي ركعتين في جامع السلطان أحمد !

- ده لا وقت ضهر ولا عصر يا شيخ حسن !!

- لا .. ده وقت الشكر .. إن ربنا سبحانه وتعالى سلم طريقنا ، ووصلنا لحد هنا بفضل الله .. ولا إيه يا إخواننا !

قال حسام :

- أيوه يا باشا .. إحنا ح نروح الأوتيل من دلوقت نعمل إيه يعني ؟!

ونزلوا .. عند جامع السلطان أحمد .

وفي الميدان الكبير الذي يواجه جامع السلطان أحمد .. وقف أبطالنا مأخوذين .. فكل جزء في الميدان كان يحمل تاريخًا ثريًا .. كان ناجي وفرقته مبهورين بالملعب الروماني القديم (الهيبودروم) ، الذي تتوسطه المسلة المصرية، التي جلبها الإمبراطور ثيودوسيوس .. وبجوار المسجد .. بهرهم متحف آيا صوفيا الذي كان آية من آيات الجمال ، والذي كان معبدًا وثنيًّا في البداية .. ثم شيَّد الإمبراطور قسطنطين مكانه تلك الكنيسة .. التي دُمِّرت .. وأعاد الإمبراطور جستينيان بناءها ، وزيَّنها بـ 452 قنطارًا من الذهب ، ونقل إليها أجمل الأعمدة والتحف .. وعندما غزا السلطان محمد الثاني تركيا .. حول الكنيسة إلى مسجد وشيَّد له أربع منائر .. حتى جاء أتاتورك وحوله إلى متحف ..

Ahmed Madv

بهرهم مسجد السلطان أحمد ، الذي كان يقف شامخًا ساحرًا .. وهو المسجد الوحيد ، ذو الست منائر في العالم .. وقد شوهد السلطان أحمد ، وهو يساعد بنفسه في بنائه ، ويستحث العمال ويحمِّسهم .. حتى صار تحفة معمارية خالدة ، وقد سمي بالمسجد الأزرق ؛ بسبب القرميد الأزرق الجميل ، الذي يجمِّله من الداخل ، ويجعل المشهد أكثر فتنة ، حينما ينفذ الضوء داخل المسجد من 260 نافذة موزعة بدقة ..حقًّا .. كان الميدان ، بكل ما فيه ، قطعة تاريخية فنية حضارية فريدة ..

كان الشيخ حسن ، داخل الجامع ، جالسًا في خشوع ، يدعو ، وقلبه يخفق بحب وإيمان ، وهو يتأمل جامع الشيخ أحمد بأعمدته البديعة وفسيفسائه الرائعة .. وكان الشيخ التركي يدعو بكل حماس قائلًا :

- اللهم انصرنا على أعداء الإسلام .. الصهاينة .. المجرمين .. الكافرين .. اللهم ارفع هامة المسلمين .. واخفض الصهاينة.. وأذلهم يارب العالمين .

وقال الشيخ حسن :

- آمين !!

فهمس إبراهيم لناجي :

- هوه بيدعي على حد يا باشا ؟!

- شكله كده بيدعي على الصهاينة .

- هما هنا كمان يا باشا بيكرهوا إسرائيل !!

- ما بيطيقهومش !!

قال زاهر :

- ليه يا باشا ؟!

- أصل دول كان باعتين دعم لدول عشان دول كانوا محاصرين دول .. جم دول راحوا خاطفين مركب دول ، وموتين ناس لدول .. دول يسكتوا ؟!

Ahmed Madv

قال الجميع :

- لأ .. طبعًا ..

- راحوا دول طالعين لاعنين أبو دول .. ومهيجين الدنيا كلها على دول .. دول طبعًا ولا هامهم .. عشان مستقويين بدول .

واختلى حسام بشيخ الجامع التركي .. وهمس له بشيء .. وهو يظهر له باسبوره .. وباسبور نضال ، فأومأ شيخ الجامع برأسه موافقًا ، وربت على كتفه بحنان وطيبة ..

قال ناجي :

- الواد حسام بيقول إيه للشيخ ؟! يا حسام !!

أتى حسام مبتسمًا ، وقال :

- بارك لي يا باشا .. أنا ح أكتب كتابي دلوقت على نضال .. هنا في الجامع .. في جامع السلطان أحمد .. أنا أديتله باسبوري وباسبور نضال .

- مش قادر تصبر لبكرة ياد يا مجنون إنت ؟!

- اللي أقدر أعمله دلوقت يا باشا .. إيه اللي يخليني أأجله لبكرة .. بعد إذنكوا بس اروح اجيب نضال .. إنتوا شهود العقد .

- مادام كده .. قول لطنطك كاميليا تيجي ، وتجيب باسبورها معاها .

وضحك الجميع ، وقال إبراهيم :

- نويت يا باشا .. ألف مبروك !!

بينما قال الشيخ حسن :

- زواج مبارك إن شاء الله .

وخرج الشباب مسرعين في بهجة وفرح ليس لها مثيل .. أمام الجامع ، كان إبراهيم وتهامي وزاهر وكرار الكردي واقفين .. أمام الباص ، وعبد الجليل ينظر بإعجاب إلى المنطقة الرائعة المحيطة بالجامع .. قال كرار :

- كاكا .. إيش سوي في جامع كاكا ناجي ؟!

Ahmed Madv

قال إبراهيم :

- كاكا كله بيتجوز جوه في جامع .. حسام كاكا يتجوز نضال .. وناجي بيه كاكا يتجوز مدام كاميليا .. وأنا كاكا مش لاقي حتى فرخة أعض فيها !

- مبروك كاكا .. مبروك كاكا .. لازم احتفالات كاكا !!

قال عبد الجليل :

- والله العظيم كرار بيتكلم مظبوط .. لازم احتفالات .. أمال إيه ؟ ده جواز يا إخوانّنا .. نعمله كده سُكِّيتي !!

قال زاهر :

- احتفالات إيه يا عبد الجليل .. إنتوا مجانين ؟ إحنا ما صدقنا وصلنا إستنبول .. عاوزين نرجع مصر بأة .. أنا خلاص أعصابي تِلْفت ..

تم كتب الكتاب في جامع السلطان أحمد .. نضال وكاميليا ارتديتا الحجاب .. ليعقد الشيخ قرانهما على حسام وناجي عطا الله .. أمام الجامع خرج حسام متأبطًا ذراع نضال ، وناجي متأبطًا ذراع كاميليا ، وكان الشيخ حسن يقرأ المعوذتين ، وهو يلقي فوق رأسيهما بالملح والزهور .. ثم أخذ يردد :

- اللهم صلي على النبي .. اللهم تمم بخير ..

ووقف إبراهيم ، والمجموعة يهللون ويغنون :

- اتمخطري يا حلوة يا زينة .. يا وردة من جوه جنينة !!

وأخذ عبد الجليل يرقص في الشارع كما في الأفراح الشعبية في مصر ، وتهامي يطبل على السيارة ، وزاهر يصفق بيديه .. ووقف الأجانب ينظرون نحوهم باندهاش وذهول ، ويلتفون حولهم في إعجاب .. فقال ناجي :

- لميتوا علينا تركيا كلها يا ولاد الكلب !!

Ahmed Mady

وركبوا جميعًا السيارة ، وأخذ كرار يطلق الكلاكسات ، معبرًا عن سعادته ، هو الآخر ، في شوارع إستنبول .

* * *

في محل سمك على البسفور ، جلس الجميع يأكلون باستمتاع .. كان حسام يؤكل نضال في فمها بيديه .. وكانت في المطعم فرقة تركية تعزف أغنية تركية جميلة ، فأخذ حسام نضال من يديها وانطلقا يرقصان ، وكاميليا أيضًا كانت ترقص مع ناجي .. في جو شاعري حالم .. فهمس عبد الجليل لإبراهيم :

- هما مش يطلَّعوا الرقاصة !!

- أكيد ح يطلعوها .. ده هنا الرقص اللي على أصوله يا عوبد .. عليّا النعمة أول ما نوصل مصر ، أستف أموري يومين تلاتة .. وارجع على هنا .

عاد ناجي من رقصته ، وقال :

- ياللا .. ياللا بينا .. الساعة بقت سبعة ونص .. يا دوب ع الأوتيل .

قال إبراهيم :

- طيب نقعد خمسة بس يا باشا .. الرقاصة لسه ماطلعتش !!

ابتسم ناجي ثم ألقى بالحساب على الفاتورة ، وقال بجدية :

- ياللا .. عندنا طيارة الصبح بدري !

* * *

في شوارع إستنبول ، كانت هناك مظاهرات حاشدة ضد إسرائيل .. والمتظاهرون يرفعون الإعلام يلعنون إسرائيل .. فسأل ناجي كرار :

- فيه إيه يا كرار ؟!

قال كرار :

- مظاهرات كاكا .. هنا كل شعب تركي كاكا مش يحب إسرائيل .

* * *

Ahmed Madv

في مكتب من مكاتب الموساد الإسرائيلي نظر مناحم نحو شاؤول ، وقال بابتسامة مفتعلة :

- ناجي بيه عطا الله وفرقته في إستنبول.. الظاهر حبوا يغيروا جو هناك .. تلاقيهم دلوقت بياكلوا سمك ع البسفور بفلوسنا .. صاحب مزاج ناجي عطا الله ده يا شاؤول !

- ونازلين فين في إستنبول يا سيد مناحم ؟!

- الراجل بتاعنا لسه بيسأل .. شركة الحجز السياحية اللي حجزت لهم ، كانت قافلة بعد الضهر مستنينهم لما يفتحوا .. وإحنا كمان مستنيين يا شاؤول ..

- وح تعمل إيه يا سيد مناحم ؟!

- أظن الفسحة اللي مفسحهالنا ناجي عطا الله ، دي لازم تنتهي عشان نعرف ناخد الويك إند بتاعنا .. ناجي بيه عطا الله بيتفسح ، وإحنا بايتين هنا في الشغل .. مراتي ابتدت تحس إني غريب عليها يا شاؤول .

* * *

في ريسبشن أوتيل مرمرة ، دخل ناجي وفرقته ، وبعد أن أتم إجراءات السكن لليلة واحدة .. قال ناجي للشباب :

- كل واحد ياخد الشنط بتاعته ، ويطلع على أوضته ، ويقفل بابه عليه ، وما ينزلش لأي سبب .. مفهوم !! فاهم اللي بقوله يا إبراهيم !!

- فاهم يا باشا ..

وحملوا الحقائب ، وطلعوا إلى حجرات الأوتيل حسام ونضال معًا .. وناجي وكاميليا معًا .. أحدث زوجين في تلك الرحلة الشاقة العجيبة.

في حجرة إبراهيم وعبد الجليل ، فتح إبراهيم الحقائب ، وأخرج رزم النقود .. أخذ يقبلها بحب .. فقال له عبد الجليل :

- بتعمل إيه يا هيما ؟!

Ahmed Madv

- مش قادر أصدق يا عوبد .. أنا حاسس إني بحلم !!

- وأنا كمان عليّا النعمة .. خايف أتجنن !!

- أنا بأفكر أفرشهم ع السرير ، وأنام عليهم واتغطى بيهم !!

- أهي دي النومة الدفا صحيح .. يا سلام على دماغك ياد يا هيما !

* * *

وفي حجرة حسن وتهامي وزاهر ، كان الشيخ حسن جالسًا ، والحقائب موجودة أمامهم بالحجرة .. فأخذ يحدثهم بكل حب وصدق قائلا :

- لو نصيب الواحد منكم كذا لازم ندفع 2.5٪ زكاة .. يعني ع المليون 25 ألف جنيه في أي وجه من وجوه الخير .. دار أيتام أو مسنين .. مستشفى .

قال تهامي :

- والله لأعمل كده أول ما أرجع مصر يا شيخ حسن !!

قال زاهر :

- وأنا كمان ، كنت ناوي على كده من الأول .

قال الشيخ حسن :

- بارك الله فيكما .. وفيما أنعم به عليكما ..

* * *

أما في غرفة حسام ونضال .. فكانت نضال تأخذ شاور بالحمام ، وحسام يضع كولونيا استعدادًا لليلة الدخلة .. قال حسام :

- ياللا بأة يا نضال .. ساعة بتاخدي شاور !

وأتى صوت نضال من الحمام قائلة :

- حاضر .. أنا جاية أهوه .

Ahmed Madv

خرجت نضال مرتدية البشكير ، وهي في قمة الأنوثة والجمال ، فنظر نحوها حسام بانبهار ، وقال :

- إيه القمر ده .. يخرب عقلك !!

- أنا مش مصدقة إني أتجوزت .. بصراحة فيه حاجة عاوزة أعملها قبل أي شيء !!

- أؤمري ..

- عاوزة أكلم باباك !!

- حالًا ..

وطلب حسام الرقم من تليفون الغرفة ، وأتى صوت أبيه .. ممتلئًا بالحب .. قال حسام :

- ألو .. يابو الكباتن .. واحشني يا كابتن .. أنا كويس قوي .. أنا أخر مرة قلت لك إني بحب واحدة .. صح .. وقلت لي إيه ؟ اتوكل على الله .. إحنا أتجوزنا في إستنبول .. وهي عاوزة تكلم حضرتك .

أخذت نضال التليفون ، وقالت لوالد حسام :

-آلو .. إزي حضرتك يا عمي .. حاضر .. ح أقولك يا بابا .. زَي حسام ما بيقولك .. ربنا يخليك لينا .. متشكرة قوي .

ووضعت السماعة ، وقالت لحسام :

- أبوك راجل طيب قوي .

- عاوزين بأة نملالُه البيت عيال عشان يسلوه .. يرضيكي الراجل يقعد كده لوحده من غير حفيد يطلع عينه !

وضحكت نضال وانفلتت من بين يديه في دلال .. فجرى وراءها بحب محاولا الإمساك بها .. ثم غابا في قبلة طويلة ..

Ahmed Madv

أما في حجرة كاميليا وناجي ، فكانت كاميليا جالسة بالبشكير .. وناجي يأخذ حمامًا .. فنادت كاميليا عليه :

- ياللا يا ناجي .. بتعمل إيه ده كله .. بقالك ساعة بتاخد شاور !!

- حاضر .. حاضر .. أنا جاي أهوه .. إنتي مسروعة على إيه ؟!

- أنا اتخضيت عليك !!

في الحمام ، كان ناجي يتناول بعض الحبوب المقوية ، ويقرأ الروشيتات إلى أن اطمأن على نفسه فخرج مرتديًا البشكير ، ونظر في ساعته قبل خروجه .. فتحت كاميليا ذراعيها له بحب .. كامرأة ناضجة .. فنظر نحوها مترددًا ، وقال :

- بصي بأة .. أنا إيه ؟ أحب نقعد ناخد وندي مع بعض كده في الكلام ساعة .. نص ساعة .. ساعة إلا ربع لحد ما ..

- لحد ما إيه ؟!

- لحد ما .. ما يحصل .. يعني .. ناخد على بعض كده .. نقرب من بعض أكتر .. ما تحكيلي قصة حياتك لغاية ما اتقابلنا .. مش دي تاخد نص ساعة برضه !!

- ده أنا اللي عاوزاك تحكيلي قصة حياتك .. فيه حاجات كتير قوي عاوزة أعرفها عنك .. وكل ما أسألك تقوللي بعدين ؟

- لا .. سيبك من قصة حياتي دلوقت .. أنا مش مركز في الموضوع ده .. بكرة .. وإحنا رايحين مصر في الطيارة .. ح أحكيلك كل حاجة .. عندنا أربع ساعات من إستنبول لمصر .. ما قدمناش دلوقت غير نص ساعة ..

وفي تلك اللحظة رن جرس التليفون .. قال ناجي في ضيق :

- وبعدين بأة .. وده وقته !!

Ahmed Madv

ورفع السماعة ، وقال :

- آلو .. نعم .. أستاذ سعد .. خير يا أستاذ سعد .. فيه إيه ؟!

- اسمع يا أستاذ ناجي .. أرجوك تسيب الأوتيل حالًا .. الولد صدام غلط قدام ستوري ، وقال إنك رحت أربيل .. وستوري لا يمكن ح يسكت ..

- ما أنا سيبت أربيل .. أنا في إستنبول يا سعد .. أسيب الأوتيل ليه ؟!

- لازم ح يعرفوا خط سيرك إنت والشباب اللي معاك .. احتياطي .. إنت تترك ها الأوتيل الأن .. ما نضمن كيف يسووا !!

قام ناجي مسرعًا ، وارتدى ملابسه ، وقال :

- إلبسي هدومك يا كاميليا .. ح أشرح لك السبب في الطيارة .. وأتصلي بالولاد في الأوض .. ياللا بسرعة !!

كان حسام ونضال بالسرير .. وإذا بطرق شديد على الباب .. فقام حسام مفزوعًا ونضال أيضًا .. وفتح حسام الباب ليجد ناجي أمامه يقول :

- ياللا يا حسام .. ح نمشي دلوقت حالًا .. في ثانية تكونوا باللوبي تحت !!

Ahmed Madv

الفصل الثانيَ عشر

في مطار إستنبول ، كان أبطالنا نائمين على الحقائب والمقاعد .. كانت نضال نائمة في حضن حسام .. كان إبراهيم نائمًا ، كما كان عبد الجليل يشخر بصوت عالٍ .. فيعدلون نومته .. أما زاهر .. فقد تناول دواءً منوِّمًا .. بينما جلس الشيخ حسن يقرأ في المصحف ، قال ناجي لكاميليا :

- عارفة بأة يا كيمو .. أوحش حاجة إن الواحد فينا يجهز نفسه .. إنه ح يقعد مع حد ، وتضطره الظروف إنه ما يقعدش .. والنبي ابعدي شوية عني بس عشان ما اعملش فضيحة في وسط المطار .. أنا في حالة يصعب وصفها .

- قول لنفسك .. نفسي أعرف قالك إيه عم سعد ، خلاك تقوم منطور كده كأن لسعتك عقربة !!

- أنا ح أقولك على كل حاجة لما نطلع الطيارة كده ونطمن ونهدا .

ثم نظر لزاهر ، وقال :

- يا بني كفاية منومات .. ما العيال نايمين لوحدهم من غير أي منومات .

- ده مش منوم يا باشا .. ده مهدئ !

- مهدئ بس .. طيب ما تجيب واحدة .. أصل أنا محتاج مهدئ قوي دلوقتي .

Ahmed Mady

فأعطاه زاهر حباية .. أخذها ناجي ، وألقى بها في فمه ، وهو يتفادى النظر إلى كاميليا التي كانت تبتسم في أنوثة .. كان هناك أمريكيان .. سيدة في نحو السبعين وزوجها جالسين في صالة السفر .. نظر نحوهما ناجي وقال لكاميليا :

- شوفي أهي دي أكتر حاجة بتعجبني في الخواجات .. شوفى الولية والراجل سنهم قد إيه ؟ إنما برضه رايحين يتفسحوا .. هاي .

ابتسمت المرأة لناجي ، وقالت :

- هاي !

-Where you from?

قالت المرأة :

-America..

- أحسن ناس .. هي أمريكا ومصر إيه .. ما واحد .. إنتوا سياحة برضه ؟!

كان عبد الجليل واقفًا مع بعض الصينيين ، يتكلم معهم .. قال ناجي :

- يا إبراهيم .. شوف لي الحيوان ده بيعمل إيه مع الجماعة الصينيين دول .. وقول له ما يرغيش كتير !!

أتى عبد الجليل ، وقال :

- اشتريت منهم حتة تليفون يا باشا .. بكاميرتين ويصور فيديو ، ويشيل تلات تلاف اسم .. وبميت دولار بس .

- اشتريته من مين ؟!

- م الجماعة الصينيين دول .. أصلهم جايين يعملوا شغل في مصر ، وأنا ربَّطت معاهم .. ح ناكل لقمة عيش حلوة مع بعض .

أمسك ناجي بالتليفون وتأمله ، وقال :

- ده بيبوظ بسرعة .. دي عدة ساكّة !!

- إيه يا باشا ؟ أنا رايح لهم .. هوه الصينيين ح يشتغلوني على أخر الزمن !

Ahmed Mady

عاد عبد الجليل إليهم بالموبايل ، محاولا الرجوع في البيعة .. وعن بُعد كانت فتاة فلبينية جالسة وحدها في صمت .. ثم فجأة تقدم رجل أجنبي من ناجي عطا الله ، وخبطه على كتفه قائلا :

- مستر ناجي عطا الله .. إنت مش يفتكرني !!

التفت ناجي إليه مدهوشًا .. وقال :

- لأ .. الحقيقة ..

- أنا فردو نيكولا .. اللي كان يشتغل بالسفارة الفرنسية في تل أبيب .. أنا قابلت إنت في حفلات السفارة .

- فردو .. مالك صغرت كده ليه ؟ ده أنا معرفتكش !!

- عشان خلاص سبتوا السفارة .. وبأيت حُرع المعاش .. أنا وكارولين .. نروح كل شهر بلد .

- وجايين مصر تتفسحوا !!

- أيوه .. لازم نشوفك هناك .

- أمال إيه ؟ أعرفك مدام كاميليا .. مراتي .

- فرصة سعيدة مدام عطا الله .. ودي كارولين مراتي أنا !!

- فرصة سعيدة مدام فردو .

* * *

في شوارع إستنبول ، كان سيارة الظابط الأمريكي ، ومعه مجموعته الكوماندوز ، تقطع الطريق إلى المطار بسرعة جنونية ، بعد أن علم أن ناجي وفرقته غادروا الأوتيل في آخر لحظة .. ليلحقوا بناجي عطا الله وفرقته بأي ثمن .. بينما كان مناحم يتكلم في التليفون مع الظابط الأمريكي .. عضو الموساد ، ويؤكد بانفعال :

Ahmed Madv

- اسمع .. أنا مش عاوزهم يطلعوا الطيارة .. اعملوا أي حاجة .. تخدروهم بأة .. تعملولهم مشكلة في مطار إستنبول .. المهم يفضلوا تحت عينيكم .

وضع مناحم السماعة في ضيق .. ليجد شاؤول نائمًا على الكرسي ، فقال في يأس :

- إنت نمت يا شاؤول !!

* * *

أخيرًا ، جلس ناجي وفرقته في مقاعد الطائرة المتجهة إلى القاهرة .. وربطوا الأحزمة ، وكان الطيار يرحب بالمسافرين ، ويؤكد أن الرحلة ستقلع في ثلاث ساعات ونصف .. قال زاهر لإبراهيم ، وهو يأخذ حباية من المنوم :

- دي تنيمني أربع ساعات ما أحسش بحاجة .. أنا كنت ح أموت وإحنا جايين من أربيل .. قلبي كان ح يقف ! ما تاخد واحدة !

- لا يا عم .. أنا عاوز أفوق .. عندي شغل عاوز أرتبه في دماغي .. أول ما ح أنزل مصر .. ح أروح أشتري أسهم في البورصة .

نظر عبد الجليل نحو السيدة الأمريكية الـمُسنة ، وهي جالسة مرتدية تايير أنيقًا للغاية ، وقال :

- شوف الولية لابسة تايير نضيف إزاي ، وواخدة بالها من نفسها في السن دي؟! عليّا النعمة لأجيب لأمي أخوه ..

قال إبراهيم :

- وإنت ح تجيب أمك للست دي ؟!

- عليّا النعمة أمي ضفرها برقبتها .. دي أم عبد الجليل يا هيما !!

ثم نظر عبد الجليل ، نحو الشيخ حسن ، وقال :

- كان نفسي أخش على أمي بأي حاجة .. ح أخش عليها بإيدي فاضية كده ؟!

Ahmed Mady

- خللي العمرة اللي ناوي تعملهالها حجة .. يبأة ثوابك وثوابها أكبر عند الله .

- عليّا النعمة لأخليها عمرة وحج كمان !!

- ربنا يبارك لك يا عبد الجليل .. أهو رِضا الست دي عنك بالدنيا .

قال تهامي :

- يا عم أشقطلها أي حاجة من السوق الـحُرّة في مصـر.

- صح .. أجيب لها أروستين سجاير أجنبي .

* * *

دخل الظابط الأمريكي إلى الصالة بمطار أستنبول ، وسأل أحد الظباط الأتراك بالإنجليزية عن الطيارة الـمُتجهة إلى القاهرة ، فقال له :

- لقد تحركت الآن ..

وخبط الظابط قدمه في الأرض من شدة الغيظ .. وظل تليفونه يرن .. وهو لا يعرف ماذا يفعل .. وماذا يقول للسيد مناحم الذي ينتظر خبر القبض على ناجي وفرقته .. أو على أقل تقدير .. مذبحة ناجي وفرقته ..

* * *

في الطائرة المتوجهة بأبطالنا إلى القاهرة ، كانت المضيفة تضع الطعام لكاميليا وناجي ، وتبتسم لهما بترحاب .. قالت كاميليا :

- اسمع بأة .. قبل ما أحط لقمة في بُقي .. إيه بأة اللي إنت مِأجِّلُه من يوم ما عرفتك .. وكل ما اسألك عنه تقوللي بس أما نروح مصر .. أدينا خلاص أهوه نازلين مصر .. اتفضل .

- شوفي يا كاميليا .. إنتي ست محترمة وده اللي خلاني أحبك .. وأتمنى أعيش معاكي طول عمري .. أنا كمان راجل محترم .. أنا كنت شغال ملحق إداري

Ahmed Madv

في سفارتنا في تل أبيب .. قعدت أربع سنين هناك ، ومن أول يوم حطيت رجلي في تل أبيب ، وأنا مقرر أعمل اللي أنا عملته ده .

- تعمل إيه ؟!

فجأة قام أربعة رجال سود ملامحهم إفريقية .. وقف أحدهم في نهاية الطائرة .. والآخر فى بدايتها والثالث فى المنتصف .. وجرى الأخير نحو الكابينة حيث كابتن الطائرة .. وأخرجوا أسلحة من صدورهم ووجهوها نحو الركاب .. فسادت حالة من الهلع الشديد والصراخ في الطائرة .. كان زاهر لا يزال نائمًا .. وأخذ الشيخ حسن يقرأ الشهادة ، وكان عبد الجليل في قمة الرعب .. وصرخت نضال ، فأخذها حسام في أحضانه .. قال الرجل الإفريقي :

- الطائرة مخطوفة .. لا أحد يتحرك من مكانه .. إلزموا مقاعدكم !!

رفع إبراهيم يده مسلمًا .. أما ناجي .. فأخذ ينظر ببرود لما يحدث ، وهو لا يصدق عينيه ولا أذنيه ..

* * *

في مطار فرعي بالصومال .. هبطت الطائرة .. وأنزل مختطفوها ركاب الطائرة .. وتوجهوا بهم إلى أتوبيس، كان بانتظار المختطفين ومضوا بهم .. سقطت السيدة الأمريكية مغشيًّا عليها فحملوها إلى الأتوبيس.. أما ناجي وفرقته ، فجلسوا في الباص في صمت .. أما زاهر فكانوا يحملونه حملًا لأنه منوم تمامًا ..

ومضى الباص بالمختطفين في الطريق إلى قرية إفريقية نائية بالصومال ، وقد مالت الشمس للمغيب ، وبدأ المشهد كئيبًا ومأساويًّا .. نظر ناجي من النافذة ، فرأى على الطريق حيوانات نافقة .. وأشجارًا ميتة .. وحالة من الفقر والتعاسة والجوع الشديد .. شاهد أطفالا ورجالا وشيوخًا ونساءً يتحركون نحو الباص .. وهم يمدون أيديهم ويشيرون نحو بطونهم .. ولم يستطع ناجي أن يتحمل ما يشاهده .. فأدار وجهه للناحية الأخرى .. وتنهد في أسى .

* * *

Ahmed Madv

في ديسك النشرة ، في محطة مصرية ، كان المذيع يقرأ النشرة ويعلن :

- أعلنت جماعة الضمير الإنساني الصومالية مسئوليتها عن خطف الطائرة التي كانت متوجهة إلى القاهرة ليلة أمس من إستنبول ، وتطالب قيادة الجماعة الدول التي تريد الإفراج عن رعاياها المحتجزين كرهائن بدفع فدية مليون دولار أمريكي عن كل رهينة .. الجدير بالذكر أن على متن الطائرة عشرين راكبًا أمريكيًّا وأربعة فرنسيين وثلاثة من الصين .. وتسعة ألمان وسبعة إنجليز وثمانية مصريين ، وفلسطينية وفلبينية .. والسلطات المصرية تناشد المختطفين ضبط النفس وحُسن معاملة رعاياها ، ولا تزال المفاوضات جارية للإفراج عن الرهائن .

* * *

في القرية الصومالية النائية .. كانت الحياة بدائية تمامًا .. بيت إفريقي يقف حوله الحراس السود الأفارقة .. يمسكون ببنادق .. وداخل البيت الإفريقي، كان الرهائن جالسين .. في جو مرعب مخيف .. وكان أبطالنا جالسين ، وأمامهم طعام رديء للغاية .. قال ناجي متأففًا :

- إيه الأكل ده ؟ يا ساتر يارب !!

قالت كاميليا :

- بيأكلونا من الأكل اللي بياكلوا منه ؛ عشان اللي يخرج من هنا ، يعلن للعالم كله عن حالة البؤس ، اللي هما عايشين فيها .

أفاق زاهر من نومه ، ثم نظر حوله مذعورًا ، وقال :

- إحنا فين يا باشا ؟!

- في الصومال .

- فين ؟! إحنا في الصومال .. إحنا في الصومال .. إيه اللي جابنا هنا ؟!!.

Ahmed Madv

- ح نكون جايين نعمل سفاري يا حيوان .. ما انتش شايف السلاح حواليك والوشوش البشوشة دي .. إهدا بأة .. ما تفهمه يا شيخ حسن ، ولا تكبر له في ودنه .. إحنا ناقصين !!

* * *

أمام البيت الإفريقي ، وقفت سيارة جيب نزل منها أوشادا ، وهو رجل سمين ضخم الجثة أسود أشيب الشعر .. أعطاه الحراس الواقفون التحية باحترام شديد وخشوع .. كان هو زعيم القبيلة والخاطفين .. وقف الكل وأوقفوا الرهائن .. أخذ أوشادا يتأمل المختطفين .. كان زاهر يرتعد ، وعبد الجليل وقف بخشوع ، وقد رفع يده محييًا إياه ، وقرأ الشيخ حسن المعوذتين في سره .. وقف تهامي في يأس .. لا يعرف ماذا يفعل .. واحتضن حسام نضال وضمها بذراعيه .. أما كاميليا فبدت متنمرة ومنزعجة ، ولكن ناجي أمسك بها مبتسمًا في نفاق زائف إلى أوشادا .. الذي بدأ يتحدث بهدوء ، قائلاً :

- نحن لسنا أشرارًا .. ولسنا عصابة مجرمين أرادت خطفكم لقتلكم أو ما شابه ولسنا لصوصًا أيضًا .. وإنما نحن ضحايا .

قالت كاميليا بانفعال :

- وماذا تسمي ما فعلتم بنا .. من إهانة وعنف !!

- أنتم تعتبرون أنفسكم مخطوفين الآن .. ولكننا هنا في هذه القرية النائية المخطوفون .. ملقى بنا في العراء ؛ لنموت من الجوع والأوبئة ، والعالم لا يشعر بنا .. وأنتم هنا من أجل أن يسمعنا العالم كله .

قال عبد الجليل هامسًا :

- هوه بيقول إيه يا باشا ؟!

- ح يكون بيقول إيه ؟ بيعزمنا على فرح بنته .. ما تخرس بأة !!

Ahmed Madv

واصل أوشادا حديثه قائلًا:

- لقد طلبنا من حكومة كل دولة ، تنتمون إليها ، أن تدفع مليون دولار للإفراج عن كل فرد منكم .. ونحن بانتظار الرد .

وترك أوشادا المجلس ، ومضى وخلفه الحرس .. تاركين الرهائن في ذلك البيت الإفريقي العجيب .. حيث زئير الريح .. وعواء الذئاب من بعيد .. وقد أوقد الحرس الإفريقي نارًا لا يصل دفئها إلى هؤلاء الرهائن ، الذين يرتجفون من الرطوبة ، التي تخرج من الأرض فتدق عظامهم دقًّا .

قال إبراهيم هامسًا :

- إحنا سيبنا الشنط في الطيارة يا باشا !!

- شنط الطيارة كلها دلوقت في الأمانات ومتحفظ عليها .. وإن شاء الله لما نخرج من هنا بالسلامة .. ح نلاقيها زي ما هي .

- وإحنا إيه اللي يقعدنا هنا .. ما ندفع الفدية .. إيه مليون دولار لكل واحد !

- اسكت يا زاهر .. بقولك اسكت !!

- أنا غلطت اللي جيت من الأول .. أنا ما كانش لازم آجي الرحلة دي أبدًا !

كانت كاميليا تتكلم بالإنجليزية مع السيدة الأمريكية في ركن بعيد .. والكل في حالة سيئة للغاية .. قام ناجي وتمشى في الحجرة مفكرًا .. وكان عبد الجليل جالسًا مع الصينيين ، وقد فك الموبايل ، ويناقشهم في سعره .. أما نضال ، فقد نامت على كتف حسام ، الذي أحاطها بذراعه في حنان .. ووقف الشيخ حسن يصلي في جانب من الغرفة .. ونظر ناجي نحو البنت الفلبينية ، الجالسة وحدها في استسلام ، كأن شيئًا لا يحدث إطلاقًا ..

اقترب منها ناجي وسألها :

-What is your name?

Ahmed Madv

- واتي .. أنا .. اسمي واتي .

- إنتي بتعرفي عربي !!

- أيوه مستر .. أنا بعرف عربي .

- وكنتي رايحة مصر تعملي إيه يا واتي ؟!

- أنا بأشتغل عند الحاجة خديجة .

- دي مصرية ؟!

- لا .. سعودية .. وكُنا بأستنبول .

- وإيه سفَّرك مصر لوحدك يا واتي ؟!

- هي رايح مصر بعد يومين في ڤيلا بتاعه هناك .. أنا لازم أروح في الأول عشان أنضَّف الڤيلا .. قبل ما هي ييجي !

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. دلوقت مدام خديجة تروح على مصر ، تلاقي الڤيلا مش نضيفة ح تطين عيشتك !!

- مش ح يصدق إن أنا مخطوف .. هوه دايمًا يقول أنا كذاب .. لازم هنا يقولوا للحاجة خديجة إن أنا ما كانش يقدر يعمل حاجة .. أنا مخطوف .

- لما يفرجوا عننا .. أنا أكلم الزعيم بتاعهم يدوكي ورقة إنك كنت مخطوفة .

* * *

في مجلس زعيم القبيلة ، كان أوشادا جالسًا أمام مجموعة من رجاله .. وبجواره ابنته أجوجا .. سمراء جميلة للغاية .. في نحو الثامنة عشرة من عمرها .. حينما أتى أحد الرجال (أشقر الشعر) في سيارة تابعة لأوشادا .. ومعه بعض الرجال وسلمه حقيبة كبيرة ، وقال الأجنبي :

- Good Morning Sir, here is the money.

فتحها أوشادا ، وتأكد أن بها رزم الدولارات المطلوبة .. ثم أغلقها ، وأومأ

Ahmed Madv

برأسه لرجاله أن يتبعوه .. و نظر أوشادا إلى المختطفين ، وقال :

– Where are the Americans? You can go now.

تهللت السيدة الأمريكية وزوجها ، وعانقت كاميليا ، ثم تبادلا السلام مع الآخرين ..

قال ناجي :

– ياللا كفارة .. عُقبالنا ..

وصرخ الأمريكان بطريقتهم فرحًا ، وخرجوا ، بعد أن صدر الأمر من أوشادا بالإفراج عنهم .. قال ناجي ساخرًا لكاميليا :

– أمريكا بعتت الفدية .. عشان تفرج عن رعاياها .. فلوسهم حاضرة الأمريكان دول .. شوفي الأزمة اللي هما فيها .. إنما والله كتر خيرهم . .

ثم اقترب من أوشادا ، وسأله بحياء :

– مسيو أوشادا .. كلمة إذا سمحت !!

– نعم ؟!

– إنتوا بعتُّوا قولتلهم في مصر إن فيه مصريين مخطوفين معاكوا .. ولا نسيتوا !!

– لقد أخبرناهم بالتأكيد !!

– طيب .. الله يكرمك يا شيخ .. وطالبين مليون دولار ع الواحد مننا برضه ؟!

– بالتأكيد ؟!

– آه .. تلاقيهم في الحكومة عندنا بأة قاعدين يشاوروا نفسهم .. ووزير المالية عمال يحسبها ويعرضها على رئيس الوزرا .. إنما مش ح يسيبونا يعني !

وأتت سيارة أخرى ، ونزلت منها امرأة فرنسية تحمل حقيبة ، ووقفت أمام أوشادا وقالت :

– بونسوار !!

Ahmed Madv

ثم أعطت الحقيبة لأوشادا ، ففتحها وتأكد من الدولارات .. ثم أغلقها وأشار لرجاله أن يتبعوه .. ودخل أوشادا إلى حيث الرهائن .. وقال :

– Where are the French people? You can go now.

وصرخ مسيو فردو وزوجته فرحًا ، وقال :

– مِرْسي بوكو .. أُورُفوار ..

وسلم ناجي عليه بحرارة وعانقه ، وعانق زوجته قائلا :

– ح توحشنا يا مسيو فردو .. نشوفك في ظروف أحسن إن شاء الله .

ثم نظر لكاميليا ، وقال :

– فرنسا بعتت الفدية .. تلاقي البلد كانت مقلوبة على دول .. ده ساركوزي يتشال فيها !

ثم نظر نحو أوشادا ، وقال :

– بقولّك والنبي يا حاج ؟ محدش اتكلم من مصر ؟! ولا أدولك رنة !!

– لأ !

– ح يتكلموا .. هية الشبكة ساعات بتقع عندنا !

أمام مجلس أوشادا ، وقفت سيارة نقل تحمل بضائع صينية ولعب أطفال وموبيليا وموبايلات وفوانيس رمضان .. نزل منها رجلان صينيان ، ووقفا أمام أوشادا .. نظر أوشادا نحو البضائع المتكدسة في السيارة النقل .. ثم أشار لرجاله، وخرج الرهائن الصينيون على الفور من محبسهم ..

* * *

وفي ديسك النشرة بإحدى القنوات المصرية ، قال مذيع النشرة :

– إن الاتحاد الأوروبي قام بدفع الفدية للرعايا الإنجليز والفرنسيين والألمان

Ahmed Madv

المختطفين في الصومال ، وأُفرج عنهم ، ووصلوا إلى ذويهم سالمين .

ثم نظر المذيع إلى الفيديو ؛ حيث يعرض صورًا للرهائن الأجانب ، وهم يعانقون أقرباءهم في المطار في فرح ، ووكالات الأنباء حولهم .. ثم عاد يقول :

- وقد أكد مصدر مسئول أن الصين قد أرسلت من يتفاوض مع الخاطفين لدفع الفدية في صورة بضائع صينية ، ترسلها الصين إلى الصومال ؛ للإفراج عن رعاياها الصينيين المختطفين بالصومال !!

* * *

في محبس الرهائن ، كان أوشادا واقفًا .. وواتي الفلبينية تستعد للرحيل هي الأخرى .. وتلملم أشياءها .. نظرت واتي نحو ناجي وقالت :

- مستر ناجي .. أنا يمشي بأة .. إن شاء الله إنت يخرج بالسلامة ..

- كتر خيرها الحاجة خديجة والله .. أصل محدش لاقي شغالين النهاردة .. هي كانت ح تعمل إيه من غيرك .. وإحنا بعون الله هنمشي .. كل شيء وله أوان ..

وقبل خروج أوشادا ، اقترب ناجي منه ، وقال :

- بقولك إيه يا حاج ؟! محدش اتكلم من مصر ؟! ..

- لأ .

- هما ح يدفعوا بس بالتقسيط .. نظام يعني ..

وتركه أوشادا ومضى خارجًا .. قال إبراهيم ، وهو يتنهد في ضيق :

- أوف ..

فسأله ناجي :

- مالك ياد يا إبراهيم ؟! أول مرة في حياتي أشوفك متضايق !

- أصله أول مرة ييجي ، وما يجيبش معاه أجوجا ..

- أجوجا مين ؟!

Ahmed Madv

- بنته ..

- وإنت عرفت اسمها منين ؟!

- كنت بأدردش مع واحد من الحرس .. أديته سيجارة خر لي بكل حاجة .

- ابعدوا الواد ده من قدامي .. أحسن وديني ح اروح فيه في ستين داهية .. إحنا في إيه وإنت في إيه ؟!

* * *

أمام البيت الإفريقي كانت أجوجا تتمشَّى كالغزال .. ثم تقطف زهرة .. وتشمها وتنظر حيث كان إبراهيم واقفًا خلف القضبان .. يرسل لها بقبلاته .. من شباك الحمام .. فابتسمت في أنوثة .. داخل محبس الرهائن .. الكل أفرج عنه إلا .. المصريين طبعًا .. كان زاهر يروح ويجيء في قلق ، فقال له ناجي :

- خلاص صفصفت علينا إحنا .. كل الدول دفعت الفدية ، وخدوا رعاياهم إلا إحنا .. ما تقعد على جنب يا زاهر !!

- إحنا قاعدين هنا ليه ؟! إحنا ندفع الفدية ونمشي .. إحنا معانا فلوس .. الشنط في الطيارة .. حد منهم ييجي معانا المطار .. نجيب الفلوس ونخلص .

خرج إبراهيم من الحمام مسرعًا ، وقال :

- نعم يا خويا .. إحنا كُنا شوفنا الويل ده كله عشان في الآخر ندفعها لدول !

وانضم عبد الجليل إليهم ، وقال هو الآخر :

- عليّا الطلاق ما حا أطلع مليم إنشاللـه أموت هنا !!

- اصبر يا زاهر .. اصبر .. وهي مصـر يعني ح تسيبنا .. دي الحاجة خديجة بعتت خدت البت الشغالة الفلبينية بتاعتها ودفعت .. إنت عارف الإجراءات في مصر بتاخد وقت على بال ما يحوِّلوا الفلوس .

- حياتنا ولا الفلوس يا ناجي بيه !!

Ahmed Madv

- لو سألنا نفسنا السؤال ده من الأول ، ما كنَّاش عملنا اللي عملناه !!

اقتربت كاميليا منهم ، وقالت :

- إيه ؟ فيه إيه .. ماله زاهر ؟!

- لا .. مفيش .. دي حالة عصبية .. خايف ينام يصحى يِلقى نفسه في الهند .

دخل أوشادا ومعه أجوجا .. التي ابتسمت لإبراهيم .. قال ناجي :

- بس .. أهي فرجت .. والله العظيم شكلها فرجت .. الراجل داخل وشه منور .. بقول لسعادتك إيه محدش اتكلم من مصر ؟!..

- لأ .

- معلش يا ريس .. إنت عارف الظروف صعبة عندنا .. والله الحكومة ما عارفة تعمل إيه ؟ بأينا 85 مليون ده إحنا عندنا مستشفى بقالهم عشرين سنة بيلموها تبرعات ولسه ما خلصوهاش .. العيال دول ، أنا لامهم من مصر .. مش لاقيين العيش الحاف .. أحكيلك على إيه ولا إيه .. على طوابير العيش ولا المواصلات .. ولا الغلب الأزلي .

وبدا أوشادا متأثرًا بعض الشيء ، فأخذ ناجي يتكلم بحماس ، قائلا :

- أنا لو أحكي لسيادتك .. الدمعة تفر من عينك .. إنت عارف العيال اللي إنت شايفهم دول .. شباب زي الورد جايبهم العراق أدور لهم على شغل .. هوه إحنا مشحططنا سعادتك غير لقمة العيش !

ثم أشار إلى كاميليا ، وقال :

- شايف سيادتك الست اللي قدامك دي .. تعرف مين دي ؟! تعالي يا كاميليا سلمي على عمك أوشادا .. دي مراتي لسه كاتبين كتابنا إمبارح .. والله ما قربتلها .. أنا لو أحكيلك .. تعالي يا نضال .. تعالي ماتنكسفيش .. شايف البنت دي سعادتك يتيمة .. مالهاش أهل .. ما صدقت لَقِت حتة تتاويها !

Ahmed Madv

ثم أشار لعبد الجليل ، وقال :

- شايف اللي بياكل هناك ده .. جوع وحرمان يا ريس .. بياكل في أخر زاده .. العيال دي فرحوا لما اتخطفوا يا ريس .. وإحنا من إيدك دي لإيدك دي .. إنت بس لو تصبر علينا شوية لحد مصر ما تدبر المبلغ .. إحنا خدامينك .

وفرت الدمعة من عيني أوشادا ، وبدا متأثرًا للغاية بما يحكيه ناجي عطا الله .. بل ظهر ذلك واضحًا للغاية على وجوه رجال أوشادا أيضًا ..

لم يعد ناجي وفرقته رهائن عند قبيلة أوشادا .. رغم عدم إرسال الفدية المطلوبة .. المضحك والـمُبكي في الأمر أن الخاطفين تعاطفوا مع المخطوفين .. حينما تكلموا عن القهر والفقر ، وشعروا أنه يجمعهم مصير واحد .. ومباراة كرة قدم واحدة .. كانت تضم الشباب وشباب القبيلة الأفارقة .. وقد علا صوتهم في حماس .. وقال عبد الجليل معترضًا :

- عليّا النعمة الكورة دي فاول .. ده خابطني في بطني يا تهامي !!

ورفضَ أحد الأفارقة احتساب الفاول ، فقال تهامي :

- خلاص بأة يا عبد الجليل .. إحنا بنلعب على أرضهم !!

- إحنا ح نلاقيها منهم ، ولا من الاتحاد الإفريقي !

كان إبراهيم واقفًا خلف شجرة مع أجوجا ابنة أوشادا ، وهمس لها :

- أجوجا .. إيه العسل ده ؟!

- إنت كمان عسل !!

- وبتعرفي عربي كمان .. ده إحنا نهارنا أبيض النهاردة .

- أنا بحب أفلام عربي .. أشوفها أنا .

- أجوجا .. هو الجواز عندكوا هنا في القبيلة نظامه إيه يعني ؟!

* * *

Ahmed Madv

في مجلس الزعيم أوشادا ، كان ناجي جالسًا معه يحتسيان الشاي ، وقد صارا صديقين ..

قال أوشادا :

- سيد ناجي .. أنا أعرف مصر كويس قوي .. أنا درست في جامعة القاهرة .. وأعرف نجيب محفوظ وطه حسين وتوفيق الحكيم .. وأم كلثوم ...

- ما أنا بقول من ساعة ما شفتك يا عم .. والله قلبي اتفتح لك علطول .. طيب إيه لازمة الجو اللي إنت عامله ده ؟!

- أنا يا سيد ناجي مضطر أعمل كده .. المعونات اللي بتبعتهالنا الأمم المتحدة ومنظمات الإغاثة بتستولى عليها الفرق المتطاحنة .. والشعب هو الضحية .. لما تشوف إنسان بيموت من الجوع قدامك .. لما تشوف أطفال بتموت على صدور أمهاتها عشان مش لاقيين اللبن .. أكيد ح تقدَّر وحتفهم أنا ليه بأعمل كده !!

وتأثر ناجي لكلام أوشادا ، الذي قال ، وهو يبتسم لأول مرة :

- إحنا ح نفرج عنكم بكرة .. وح نوصلكم لغاية المطار !! ومن غير فدية .. وكمان عشان إحنا كُنا السبب في أنك ما تمتش جوازك إنت والست كاميليا .. والله .. لأعمل لك فرح عمرك ما تنساه أبدًا !!

- ربنا ما يحرمنا منك يا أوشادا .. إحنا كبرنا بأة ع الحاجات دي !!

- الراجل عندنا عمره ما يكبر .. لو عنده مائة سنة ، إذا أتجوز لازم نحتفل بيه .

كانت نيران مشتعلة ، وطبول تدق والأفارقة يرقصون رقصة إفريقية .. وناجي وكاميليا يرتديان الريش ، وحفل زفاف على الطريقة الإفريقية .. نظرت كاميليا نحوه بحب وقالت :

- ناجي .. إنت أجمل راجل في الدنيا كلها !

- طبعًا .. ما إنتي شايفة حواليكي المناظر عاملة إزاي ؟!

Ahmed Madv

واقترب منهما أحد أعوان أوشادا ، وقدم لهما سائلا غريبًا في طبقين ، ونظر ناجي له ، وقال :

- إيه ده يا أوشادا !.

- هذا مشروب الفرح .

- ربنا ما يحرمنا منك ..

ثم وضع الطبق على فمه ، وشربه عن آخره ، فشعر بحرارة شديدة تسري في جسده ، وقال :

- يااااه .. ده أنا ح أولع .. ما ياللا بينا بأة !

وضحكت كاميليا ، بينما اقترب إبراهيم من ناجي ، وقال :

- بما إنك كبيرنا وعمنا .. أنا مقدرش أعمل حاجة من غير موافقة سعادتك .. أنا نويت أكمل نص ديني .. لقيت اللي بدور عليها طول عمري .

ونادي إبراهيم على أجوجا ، وقال :

- أجوجا .. تعالي ! أجوجا أوشادا .. أحلى بنت شفتها في حياتي .

- الله يخرب بيتك .. إحنا ناقصين مشاكل ياد إنت !!

- يا باشا أنا اتكلمت معاه .. والراجل وافق وخلاص ..

- آه .. وجاي عاوز فلوس عشان تدفع المهر !

- لا يا باشا .. هنا العروسة اللي بتدفع المهر .. وإدوني عليها سن فيل .

كان حسام ونضال يرقصان معًا .. وإبراهيم وأجوجا .. أما عبد الجليل ، فكان يأكل بشراهة .. بينما كان الشيخ حسن يدعو للجميع ، وزاهر ينام .. ثم يفيق مذعورًا ، وهو يشعر أنه في كابوس لا يفيق منه أبدًا ..

* * *

Ahmed Mady

دخل ناجي وكاميليا .. إلى الكوخ المُعد لهما ليقضيا ليلة الزفاف ..

قال ناجي :

- البتاع اللي شربته ده لازم نبأة ناخد منه شوية معانا في مصر !!

واقترب منها ، فأبعدته برفق ، وقالت كاميليا :

- تفتكر جوازنا ده حلال يا ناجي !!

- إلا حلال .. دي تالت مرة نتجوز .. مرة في العراق بعقد رسمي ومعجبكيش.. كتبنا كتابنا في إستنبول شرعي .. وبعدين أهوه جواز إفريقي كمان .. يعني رسمي وشرعي وإفريقي .. وبعدين الجواز أساسه الإشهار ، وإحنا القبيلة كلها زفتنا.. ولو عاوزه نكتب كتابنا على جلد بقرة ولا نمر حتى .. معنديش مانع .. تبأي رايحة مصر بقسيمة جلد كده .. حاجة تفرح ..

- الجواز فعلًا مش حتة ورقة يا ناجي !!

- طيب .. قدَّري بأة إن أنا شارب سلطانية الزفاف قزحة واحدة ! وخليكي لطيفة ..

- أهم حاجة في الجواز يا ناجي المصارحة .. قبل أي حاجة ، لازم نقعد مع بعض قعدة مصارحة .

- بأة الجماعة عاملين معانا ده كله ، وملبسينا ريش ، ومولعين نار بره عشان نقعد أنا وإنتي قعدة مصارحة !!

- إنت عامل عملة كبيرة ، وأوعى تفتكر إن كل ده ومش حاسة .. إنت عملت إيه يا ناجي ؟!

- أنا اللي سرقت بنك باريـف ، والشنط دي كلها مليانة دولارات !!

- إنت ؟! إنت حرامي !! آخرتها أتجوز حرامي .. ده أنا سبت جوزي عشان طلع حرامي .. أقع في شيخ مَنْصر !!

Ahmed Madv

- أنا حرامي آه .. بس مش زي جوزك .. جوزك سرق الفلوس وهرَّبها بره مصر .. أنا بأة سرقت الفلوس ، وح أوديها مصر .. إحنا أحق بيها .. إنتي مش عاملة فيها سياسية .. ما إنتي عارفة ظروفنا ، وعارفة هما عملوا فينا إيه ؟!

- ما كانش فيه قدامك غير السرقة عشان تعمل عمل وطني .. مصر مش محتاجة حرامية .. ما هي مليانة .. هي ناقصة ؟!

- كنت عاوز أنتصر في أي حاجة .. بقالنا كتير ما انتصرناش .. وبعدين أنا كمان ما سرقتش عشان نفسي بس .. عشان الولاد اللي معايا دول .. شباب ضايع مُحبط مش لاقي فرصة يعمل أي حاجة عليها القيمة !!

- ما خلاص بفضل ناجي بيه عطا الله .. بأوا مليونيرات .. كل واحد فيهم دلوقت ح يرجع مصر ، معاه كذا مليون دولار ، وحيبأوا رجال أعمال ، ويعملوا أنيل من اللي عمله جوزي !!

- إنتي زعلانة قوي كده ليه ؟ اللي سرقناهم دول سرقوا أرضنا .. إنتي ما عيشتيش زيي 6 سنين في إسرائيل ، وشفتي البشاعة اللي أنا شفتها منهم !

- لو كل واحد اتسرق .. مد إيده هوه كمان وسرق ، ح نبأة كلنا حرامية .. ما فكرتش تلم العيال دول وتعملوا مصنع .. تبنوا حاجة .. تعمروا أرض !!

- نبني إيه ونعمر إيه ؟ .. هوه فيه خرم إبرة نعدي منه .. دي مقفولة بالضبة والمفتاح .. عاوزه تبلغي عني زي ما بلغتي عن جوزك !!

- اطلع بره يا ناجي .. أنا دلوقت حاسة إنك راجل غريب عني .. إحنا مفيش أي علاقة تربطنا ببعض !!

- وعقد الجواز اللي كتبناه مع بعض ؟!

- كل العقود اللي معاك مزورة .. عشان إنت نفسك إنسان مزور !!

Ahmed Madv

نظر ناجي نحوها نظرة مليئة بالغضب ، ثم صفع الباب خارجًا من الكوخ في ضيق .. كان إبراهيم واقفًا وأجوجا متعلقة بذراعه .. ابتسم ناجي نحوهما ، وقال :

- إنتوا إتجوزتوا خلاص كده ؟!

- خلاص يا باشا الحمد لله .. كده كملت نص ديني !!

- إتجوزتوا إزاي ؟!

- لبسوني الخرزة دي ولبسوها الخرزة دي .. ده النظام هنا اللي يلبس خرزة وزعيم القبيلة يوافق .. يبأة خلاص ؟

قال عبد الجليل :

- بالسهولة دي !!

قال ناجي :

- بلد فيها مجاعة .. ومش لاقيين ياكلوا .. أهي اللى تتجوز يخلصوا منها .. مش أحسن ما تقعد في أرابيزهم ، وتموت من الجوع .. إنت عارف أوشادا ده عنده كام بِتْ .. ده عنده 46 بت !!

- طيب يا باشا .. معرفتش تشوف لي خرزة أنا كمان !!

* * *

في صباح اليوم التالي ، كانت أجوجا واقفة بجوار إبراهيم .. تودِّع أباها .. وقبَّلها أبوها بحب .. وقف الجميع يودعونهم ، ويشيرون لهم بكل حب إلى أن انطلقت بهم السيارة إلى المطار .. الحيوانات النافقة وجثث الأطفال والشيوخ والنساء المتناثرة هنا وهناك .. مناظر لا إنسانية مؤثرة .. كان ناجي ينظر نحوها .. وهو في قمة الشرود والضيق .. كان يلتفت يمنى ويسرى .. كأنه يتلقى صفعات على وجهه .. بينما كان كل من معه بالسيارة شاردًا في حلم آخر .. أو في واد آخر .

Ahmed Mady

قال إبراهيم :

- أنا ح أعمل قرية في الساحل الشمالي على الطراز الإفريقي ، ح أسميها أجوجا بيتش .. تخش معايا يا تهامي ؟!

- أنا ماليش في السياحة .. أنا ح أعمل أكبر جيم في الشرق الأوسط .

وقال الشيخ حسن :

- ما تخشوا معايا في المول الإسلامي اللي ح اعمله .. أهو مكسبه حلال ، وربنا يبارك !

قال عبد الجليل :

- كل دي مشروعات فاشلة .. المهم هو اللي شغال محلات الفول والطعمية .. فلافل عبد الجليل يا عيني .. وأخللي أمي تقعد ع الكيس تلم الغلة ..

قال زاهر :

- التكنولوجيا هي مشروع المستقبل .. أنا ح أعمل معهد خاص لتعليم الكمبيوتر على أعلى مستوى !!

قال إبراهيم :

- إيه يابو الكباتن .. تخش شريك معايا !!

وقال حسام ، وهو يضع يده على كتف نضال :

- لا يا عم .. أنا خلاص ، لقيت الشريك اللي بأدور عليه طول عمري .

كل هذا .. وناجي لم يكن يسمعهم تقريبًا ، وإنما كان كله ، بروحه وقلبه وعقله مع مشاهد الطريق ، وجرى طفل إفريقي أسمر جميل نحو السيارة ، واقترب من ناجي مادًّا يده .. كان يبدو جائعًا .. فأخرج ناجي رزمة مالية من الدولارات ، وألقى بها إليه .. أمسك الولد بالرزمة المالية .. أخذ يقلبها في يده .. ثم ألقى بها جانبًا ، واستمر في جريه وراء السيارة .

* * *

Ahmed Madv

وقفت السيارة أمام المطار .. وأتى أحد رجال المطار بالحقائب ، ومعه مساعده ، وقال إبراهيم :

- يا عيني .. الشنط وصلت يا باشا !!

قال عبد الجليل هامسًا :

- تفتكر يكونوا فتحوها يا باشا ؟

وقال الشيخ حسن :

- والله الناس هنا الله يبارك لهم .. الحاجة زي ما سيبناها .. دي أمانة .

أخذ ناجي كروت الحقائب من الرجل ، وسلم عليه شاكرًا إياه .

- الشنط لما الطيارات بتتخطف .. بتتحط في مخزن الأمانات ، وبيتقفل عليها بالشمع الأحمر ، ولا يمكن تتفتح أبدًا .

وجرى الشباب فرحين ، يقبلون الحقائب ، وإذا بناجي يأمرهم بحزم :

- استنوا !!

قال إبراهيم :

- إيه ؟ خير يا ناجي باشا .. فيه حاجة ؟!

- الفلوس دي مش ح تروح مصر .. ح نسيبها للي محتاجينها هنا ؟!

نظرت كاميليا نحوه مندهشة والجميع أيضًا ، وقالوا :

- إنت بتقول إيه يا باشا ؟!

قال إبراهيم :

- إيه ؟! ح نسيبها لمين يا باشا ؟!

- الفلوس دي أحق بيها اللي بيموتوا من الجوع هنا !

Ahmed Madv

قال عبد الجليل :

- ما إحنا ميتين من الجوع في مصر يا باشا !!

- بلدنا فيها خير برضه يا عبد الجليل .. ومحدش فيها بينام من غير عشا .

قال إبراهيم :

- أنا ماليش دعوة بالكلام ده كله .. إنت مش من حقك تاخد قرار زي ده .. إحنا كلنا شُركا .. عاوز تتبرع بنصيبك إنت حُر .. على كيفك !!

قال الشيخ حسن :

- هذه غنيمتنا يا باشا .. والغنيمة حلال .

قال زاهر :

- إزاي نفرط في الفلوس بعد اللي شفناه يا ناجي باشا .. ده إحنا موتنا !!.

قال حسام :

- إحنا عندنا أحلام يا باشا ، وجات الفرصة إن إحنا نحققها .. إزاي تحرمنا منها !!

قال ناجي بمنتهى الحزم :

- الفلوس دي لو طلعتوا بيها الطيارة .. أنا ح أبلغ عنكوا !!

نظرت كاميليا نحو ناجي بحب ، وقالت :

- ناجي .. أنا بحبك !

لم يعرها ناجي اهتمامًا ، وبدا مُصرًّا على موقفه .. فصرخ إبراهيم ، وقال :

- إنت فاكرنا إيه ؟ عرايس بتحركها بإيدك .. اسرقوا نسرق .. رجعوا الفلوس نرجعها .. أنا لا يمكن ح أسيب فلوسي مهما حصل ؟!

- خلاص .. خد فلوسك إنت يا إبراهيم .. اللي عاوز ياخد فلوسه ياخدها !!

- آه .. آخد فلوسي .

Ahmed Madv

نظرت نضال نحو ناجي ، وقالت :

- ناجي بيه معاه حق .. الفلوس دي لازم تروح للي أحق بيها ، واللي إحنا شوفناهم أحق .. اتفضل يا ناجي بيه .. ده نصيبي .

ووضعت حقيبتها بجوار حقيبته ، ثم نظرت إلى حسام ، الذي قال بتردد :

- إنتي بتقولي إيه يا نضال ومشروعاتنا وأحلامنا مع بعض ؟!

- يا أنا .. يا الفلوس يا حسام .. احسبها كويس قبل ما تاخد قرارك !!

نظر حسام إلى الأرض في ضيق ، ثم حمل حقيبته ، ووضعها بجوار ناجي .. فقال زاهر :

- وأنا معاك يا باشا .. الواحد ما يآمنش على حياته ، ومعاه كل الفلوس دي !

وتقدم الشيخ حسن إلى ناجي ، وأعطاه الحقيبة ، وقال :

- ربنا يجعلهم في ميزان حسناتنا .. أهي صدقة كبيرة تمنع بلاوي كتيرة .

نظر عبد الجليل إلى ناجي متوسلًا ، وقال :

- طيب .. أحجج أمي يا باشا .. أصلي نادِرْها .

- ح تحججها يا عبد الجليل .. أنا شايل قرشين كده على جنب من مكافأة نهاية الخدمة .. اعتبرهم في جيبك !!

قالت كاميليا :

- وأنا ح أكملك عليهم ..

ووضع عبد الجليل الحقيبة بجوار ناجي ، ونظروا جميعًا نحو إبراهيم ، الذي بدا حائرًا .. لا يعرف ماذا يفعل ، وأخيرًا نظر نحو أجوجا ، وقال :

- ويعني أنا اللي ح اطلع ندل في الآخر .. خدهم يا باشا .. الفلوس دي أنا عارف إنها منظورة من الأول !

Ahmed Madv

ووضع إبراهيم حقيبته هو الآخر ، بجوار الحقائب الأخرى .. وفتح ذراعيه معانقًا ناجي .. ثم نظر إلى أجوجا ممسكًا بسن الفيل ، وقال :

- أهوه .. دفعنا اللي ورانا واللي قدامنا عشان خاطر أهلك .. هي جوازة سودة .. تقوليلي بأة عاوزه حاجة محتاجة حاجة .. بالجزمة !!

- كيمو .. دلوقت بأة إحنا عاوزين شوية الفلوس دول يروحوا للناس دول .. مش بأة ياخدوهم دول وينهبوهم دول .. ويخنصروا منهم دول .

- أنا عارفة ح أوديهم فين يا ناجي ؟!

وتعانقوا بحب جارف ، وجروا نحو الطائرة التي ستقلهم إلى القاهرة .

* * *

في نزلة السمان .. أسفل أهرامات الجيزة .. وأبو الهول يراقب ، صامتًا ، ناجي وفرقته أمام عربة فول مدمس ، يأكلون مع آخرين باستمتاع ، ويضحكون .. حاول ناجي أن يدفع الحساب ، فقال عبد الجليل بشهامة :

- عنك إنت يا باشا .. معقولة !! ده إنت خيرك علينا .. كام الحساب يا بني 17 طبق فول حار وتسعة طعمية بسلطاتهم بالبصل والطحينة ؟!

فقال ناجي :

- ياد إوعى تدفع وأنا موجود .. إنت اتجننت !!

قال حسام :

- عنك إنت يا باشا .. عندي أنا يا أسطى ..

قال إبراهيم :

- عليّا الطلاق من أجوجا ما حد دافع إلا أنا .. إوعى بأة !!

Ahmed Madv

فتح إبراهيم الجاكت ، فإذا بحزام دولارات مربوطًا على بطنه .. فأمسك ناجي به ، وقال :

- إيه ده ياد يا إبراهيم .. جيبت الدولارات دي منين ؟!

- سلتنالنا سلتة صغيرة كده .. نمشي بيها حالنا يا باشا !!

في نفس اللحظة ، كان عبد الجليل يحاول أن يغلق السويتر الذي يلبسه .. مخفيًا شيئًا .. فأمسك به ناجي ، وفتح السويتر ؛ ليجده هو الآخر رابطًا حزامًا من الدولارات على صدره ، فقال ناجي معاتبًا :

- وإنت كمان يا عبد الجليل !!

- طباخ السم بيدوقه يا باشا .. باكوين تلاتة كده يعملوا مصلحة !!

نظر ناجي إلى بقيتهم ، فوجدهم جميعًا يحاولون غلق الجاكيتات ..

ابتسم ناجي .. ثم انفجر ضاحكًا ، وقال :

- آه يا حرامية يا ولاد الإيه .. شفت العيال يا كاميليا .. بيقلبوني !!

وأخذ يضرب كفًّا بكف .. ثم فتح الجاكت ، فإذا هو أيضًا قد أحاط خصره بحزام من الدولارات .. منفجرًا في الضحك .

وخلف عربة الفول ، كان هناك تليفزيون صغير ، وكان المذيع في التليفزيون يعلن أنه قد أفرج عن المصريين المختطفين في الصومال ، وأنهم عادوا سالمين إلى البلاد بفضل الدبلوماسية المصرية الحكيمة ..

(تمـــت)

Ahmed Madv